ظرفاء وصعاليك

محمد رضوان



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: ظرفاء وصعاليك

اسم المؤلف: محمد رضوان

رقم الإيداع ٢٠١٦/١٤٢٥٥

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة: ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة

ظرفاء وصعاليك ذلك الزمان!

بقلم : محمد رضوان

شهد النصف الأول من القرن العشرين نهضة أدبية وفنية وصحفية وعلمية في مصر وشهدت المدن الكبرى : القاهرة والإسكندرية والمنصورة وبور سعيد قيام منتديات أدبية وفنية وإصدار مجلات وصحف عديدة أثمرت تراثًا أدبيًا وفنيًا رائعًا لكن كان للعاصمة القاهرة قصب السبق في هذا المجال ، حيث ازدهرت منتديات الظرف والفكاهة وأسمارها في المقاهي والصالونات والمنتديات بالإضافة إلى صحف الفكاهة ومجلاتها التي كانت تتنافس في تقديم أطرف ألوان السمر والفكاهة والظرف وأثمرت هذه الصحوة الأدبية والفنية مجموعة من فرسان الفكاهة والظرف اكتفى بعضهم بالظرف والفكاهة واختار البعض الآخر سبيل الصعلكة والبوهيمية التي لا تبالى بشيء إلا بحرية الفنان الشخصية وهيامه في أودية الشعر والفن والخيال والجمال !

وكان من فرسان هذا الفن الساخر الطريف ، عبد الله النديم ، ومحجوب ثابت ، وعبد العزيز البشري ، وحافظ إبراهيم ، وحسين شفيق المصري ، وإمام العبد ، ومحمد البابلي ، وحسين شفيق المصري ، وكامل الشناوي وغيرهم .

وكانت القاهرة في مطلع القرن العشرين محدودة الأطراف تكاد تخلو من الصخب والضجيج، مما أتاح فرصة عقد الندوات والمسامرات ، وكان الكبراء والعظماء وأبناء البيوتات العريقة يعقدون صالونات أدبية يشهدها العلماء والأدباء والشعراء ، يجتمعون كل ليلة أو كل أسبوع ، فيتجادلون ويسمرون ويطلقون الفكاهات ، أو يدبرون « المقالب » الطريفة لبعضهم البعض ، فتمضي الحياة هادئة هانئة ضاحكة !

ثم اتسعت دائرة المسامرات ، فخرجت عن دائرة البيوت إلى حياة أرحب وكان أن قامت الندوات الحرة في المقاهي والمشارب العامة ، والتي كان يشهدها نخبة مختارة من الشعراء والأدباء والفنانين أرباب الفكاهة والظرف ، الذين كانوا يقضون أجمل أوقاتهم في المسامرات والمنادمات، وتناقل الحكايات الطريفة، والمقالب الضاحكة .

وكنت تلك الندوات والمسامرات تعكس لونًا من ألوان التطور في الحياة الأدبية والفكرية عند أدباء ذلك الجيل من أجيال الظرفاء في مصر إلى جانب ما كان لها من التأثير في تآلف أولئك الأدباء وتمازج أرواحهم وطباعهم ، وإيثارهم ذلك الاتجاه الحر في الحياة التي يحيونها في المجتمع وبين الناس .

* * *

ويصور لنا الأديب محمد فهمي عبد اللطيف معالم تلك الحقبة ، وألوان تلك الندوات والمسامرات التي شهد طرفًا منها فيقول :[١]

(لعل أول ندوة حرة تهيأت في مصر لرجال الفكر وأهل الرأي ، هي «أجزخانة كاستنيولا » «على عهد محمد علي باشا ، وكان مكانها في الحي المعروف الآن بدرب الجنينة التي وصفها الرحالة الفرنسي «دي نرفال» في رحلته بأنها كانت مجمع العظماء والمشاهير والقراء والأمراء من الأتراك ومن الأفرنج الذين انتحلوا الإسلام .

وصارت مصر موطن لكثير من الكتاب الأحرار الذين وفدوا عليها من بلاد الشام طلبًا لحياة أرحب وأطيب ، وكان أن قامت في مصر نهضة صحفية وأدبية زاهرة ، وصارت القاهرة أشبه بخلية النحل أزيزًا ونشاطًا وحركة ، فكنت ترى في كل ناحية من نواحيها ندوة أدبية قائمة ، وفي كل حي من أحيائها، مجلسًا حافلاً بالشيوخ والشبان الذين يتسابقون في ميدان الأدب والشعر والعلم والصحافة .

---

(١) محمد فهمي عبد اللطيف / فلاسفة وصعاليك / ص ١٦ .

فكانت هناك قهوة «اسبلندر يار» في شارع إبراهيم باشا ، وكانت ندوة عامرة حافلة يؤمها رجال الصحافة والأدب وحملة الأقلام ، ويتخذونها مجلسهم وناديهم ، فكنت ترى فيها محمد مسعود، وحافظ عوض ، وداود بركات والشيخ يوسف الخازن ، وصادق عنبر ، ونجيب شاهين، وإسكندر شاهين ، ومحمد السباعي ، وولي الدين يكن ، وإبراهيم سليم النجار ، وسليم سركيس، وتوفيق حبيب ، ويوسف يكن ، ويوسف البستاني ، ورفيق العظم ، وشبلي شميل ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وخليل سعادة ، والسيد رشيد رضا ، وخليل مطران ، وداود عمون ، ولما وفد على مصر الشيخ طاهر الجزائري ، اتخذ مجلسه في هذه القهوة ، وكان يحضر إليه فيها من حين إلى آخر، أحمد تيمور باشا ، وأحمد زكي باشا ، للتحدث عن نوادر المخطوطات والآثار ، إلى جانب ما يجري في تلك الندوة من أحاديث السياسة والأدب والشعر ، وإلى ما يقوم من مساجلات في شتى الأغراض والموضوعات .

وكانت هناك قهوات «متاتيا» الثلاث أو قل جامعة متاتيا وكلياتها ، وكانت هذه القهوات الثلاث ، تقوم في عمارة واحدة تجاه حديقة الأزبكية ، وكان طرفها يسمى بالقهوة العمومية ، ووسطها يسمى بقهوة «جراسمو» والقسم الثالث يسمى «بقهوة اسطنبول» فكان يجلس في ناحية إبراهيم بك المويلحي ، وحافظ إبراهيم ، وإمام العبد ، وأحمد فؤاد «الصاعقة» ، ومحمود واصف ، وفي ناحية نائية الشيخ عبد القادر المغربي ، والشيخ عبد الحميد الزهراوي ، وحسين وصفي رضا ، والشيخ محمد الشربتلي ، وفي ناحية ثالثة ، يجلس الشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الخضري ، والشيخ أحمد الإسكندري ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، وحسن توفيق العدل ، وحفني ناصف ، وأحمد إبراهيم ، وحسن منصور ، ومحمد دياب ، ومحمد عبد المطلب ، وغيرهم من أبناء دار العلوم البارزين ، كان يرأس هذه الحلقة الدكتور عثمان غالب باشا مدير قصر العيني ، وفي ناحية رابعة ، كنت تجد لفيفًا من كتاب الترك الأحرار ، والمتضعلين بالشؤون السياسية في الدولة العثمانية ، يتناقشون في السياسة والشؤون الجارية ،

ويكتبون رسائلهم ، وكانت هذه المجالس متواضعة ، لا تنقص في الليل ولا في النهار ، ولا تنفك عن أحاديث الأدب والعلم ، والشعر ، والنثر .

ويضيف الأديب محمد فهمي عبد اللطيف واصفًا مجالس وندوات ذلك الزمان قائلاً[1] .

(حدثني الأستاذ إبراهيم المازني ، قال «لقد كانت قهوة » «ماتاتيا» كما أدركتها ، مثابة الأدباء ومنتداهم وكان المرء لا يعدم واحدًا منهم في ساعة من ساعات النهار ، أو الليل فهذا يدخن النرجيلة في صمت ، ولعله يستعين بها على النظم والتفكير وذلك يلعب الشطرنج ، يزجي به الفراغ ويقتل الوقت ، وثالث في حفل من الأدباء أو الشعراء ، أو الأصدقاء ، يتطارحون الشعر، أو يتناشدونه، أو يتبادلون النكات ، أو يفعلون غير ذلك مما يجري في المجالس العامة بين الإخوان والنظراء » ، والحق إنه ما من أديب من أبناء الجيل السابق إلا وقد اختلف إلى هذه المدرسة الجامعة وتلقى فيها وكان لها أثر في أدبه وتفكيره ، إذ أن أكثر روادها كانوا يجمعون بين الثقافة العربية ، والثقافات الأجنبية الأخرى .

وجاءت فترة من الزمن ، كان فيها ميدان باب الخلق ، أو باب الخرق ، كما يسمى في الخطط القديمة ، هو ميدان الصحافة والنشاط الأدبي في مصر ، وفي هذا الميدان تقوم «دار الكتب» وكان يعمل فيها حافظ إبراهيم والشاعر أحمد نسيم ، وغيرهما من رجال الأدب والشعر . وعلى خطوات منها كانت تقوم دار المؤيد ، في شارع محمد علي ، وكانت «المؤيد» أكبر صحيفة عربية في الشرق، وكان صاحبها الشيخ علي يوسف ، قطبًا لدائرة كبيرة من الكتاب والشعراء ورجال القلم والسياسة ، ومنهم الشيوخ الذين حنكتهم التجارب والشباب الذين يرومون المستقبل اللامع، وهناك كثير من الصحف الأدبية والسياسية ، كانت تخرج وتذاع من هذا الميدان ، ومن ثم كانت قهوات ذلك الحي عامرة

---

(١) المرجع السابق .

حافلة بالأدباء ورجال القلم على اختلاف مشاربهم ، فهم دائمًا في حديث الأدب والسياسة والشعر والنقد ، وما كتبه فلان الكاتب ، أو نظمه فلان الشاعر ، وطورًا يجري حديثهم جادًا رزينا ، وتارة يدور ساخرًا لاذعًا ، وبين هذا وذاك تسمع ما تسمع من عذب الفكاهة، وحلو الأماليح .

وكان حي الحلمية بشارع محمد علي ، في أول عهده ، موطن الكبراء والسراة والطبقة المستنيرة من الأتراك والمصريين ، فكان يقطن فيه حسين رشدي باشا ، وتوفيق نسيم باشا ، وحسن صبري باشا، وأحمد تيمور باشا ، والشاعر أحمد شوقي بك ، وكثيرين من أمثالهم ، وكانت هناك قهوة صغيرة أنيقة تسمى «قهوة الآداب » تقع تجاه «جامع قيسون» فكان لرجال ذلك الحي ندوة في تلك القهوة ، أنيقة مثلها يجري فيها حديث السياسة والأدب العربي والفرنسي ، وقد ظلت هذه الندوة قائمة إلى حين قيام ثورة ١٩١٩ ، ولكن روادها كانوا قد تغيروا شكلاً وموضوعًا ، إذ صار يرتادها، الشيخ مصطفى القاياتي ، والشيخ محمد عبد المطلب ، والشيخ أحمد الزين ، والشيخ حسن القاياتي ، ومحمد الهراوي ، وحسين شفيق المصري ، ومحمد الهياوي ، ومن حين إلى آخر يفد عليها ، حافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم ثم تحولت القهوة إلى مطعم للعدس والفول ، وانتقلت الندوة بكامل هيئتها إلى «قهوة الحلمية» على بعد خطوات ، وقد شهدت هذه الندوة في عهدها الأخير عدد من الأدباء والشعراء منهم : الدكتور زكي مبارك، والدكتور حسين الهراوي ، ومحمد الأسمر ، وكامل كيلاني، ومحمد مرتضى الخطاط وكثيرين من الشبان الذين كانوا ينشدون الأدب ، وقد صارت لهم مكانتهم في ميدان القلم والصحافة ، وقد كانت هذه الندوة أحفل ما تكون بالتندر والفكاهة ، والنقد للآثار الأدبية ، وتناول الأدباء في حياتهم العامة والخاصة ، وإلى هذه الندوة يشير الشاعر أحمد الزين في رثائه للشيخ محمد عبد المطلب. إذ يقول :

هيهات منا لدى «قيسون» مجلسنا عهد قضيناه من يشهد لياليه

مضى الصفاء وحل الدهر ما عقدا كأنما شهد الدنيا بمن شهدا

ومن ندوات ذلك الزمان وظلت قائمة زمنا طويلاً إلى أيام قريبة ندوة «بار اللواء» وما أحسب أن أحدًا من رجال السياسة أو القلم في مصر ، بل في الشرق العربي ، يجهل ندوة «بار اللواء» التي كانت «ملتقى رجال السياسة على اختلاف أحزابهم ، وألوانهم ، ورجال الأدب والشعر والفن على تباين ثقافاتهم واتجاهاتهم ، فمن روادها من بلغ الرئاسة ، ونال الوزارة ، ومن روادها من عاش على الصعلكة ، وظل حليف الفلاكة ، ولكنهم بين جدران تلك الندوة كانوا يعيشون على السماحة والأخوة ، والأنس والبشاشة ، يستفزهم طرب الفن في كل ما يجري من الأحاديث وما يتناولون من الموضوعات وليس هناك ما يعنيهم غير هذا الطرب .

وبالقرب من تلك الندوة تقوم ندوة مماثلة في «بار الأنجلو» يقصد إليها لفيف ممن يؤثرون الهدوء ، والبعد عن الصخب الذي تميزت به «بار اللواء» وكانت هذه الندوة تتألف في باديء الأمر من داود بركات ، والشيخ عبد العزيز البشري ، والشيخ التفتازاني ، وحافظ إبراهيم ، ثم صارت مقصدًا لمن ظهروا بعدهم من رجال الصحافة والأدب ، وقد بقيت هذه الندوة إلى عهد أخير تكافح في معركة البقاء ، للاحتفاظ بعهد ذهبت آثاره ، وانصرمت أيامه ولكن كل شيء له حين.

***

وكان أحمد شوقي يؤثر الجلوس في محل « صولت الحلواني » وكان يجتمع به في هذا المجلس الدكتور محجوب ثابت ، والشاعر خليل مطران ، وحفني محمود، والسيد إسعاف النشاشيبي عندما كان ينزل بالقاهرة ، وفريق من شيعة شوقي والمتعصبين له وتلاميذه ، فكانت تتألف منهم ندوة لها طابعها وروحها ، وكثيرًا ما كان يجري فيها ألوان من المعاتبات الأدبية الطريفة والمداعبات الشعرية الظريفة ، وفي هذه الندوة نظم شوقي كل ما قاله من الشعر الفكاهي من مداعبة

الـدكتور محجـوب وحـصانه مكـسويني التـي نـشرت في ديوانـه تحـت اسـم «محجوبيات» .

***

ولا يصح أبدًا أن نغفل الإشارة إلى الندوة الشعبية التي كانت تقوم في قهـوة الفيشاوي بالحسين ، وقهوة الفيشاوي صورة من صـور القـاهرة القديمـة، وهـي بموقعهـا في حـي الأزهـر وإلى جـوار المشهد الحسيني تمـد النفـوس بفـيض مـن الروحانية والقداسـة والعـزاء والاسـتقرار ، ومـن ثـم يرتادهـا كثيرون مـن أهـل الوجاهة والسياسة ، وأساتذة الجامعة وشيوخ الأزهر ممـن يطيـب لهـم اسـترواح تلك الحياة ترويحًا عن النفس وطلب الهدوء والراحـة، كـما تجـد فيهـا كثيـرين مـن مفاليك الأدب ، وصعاليك الصحافة ، وصرعى الآمـال في المشروعات الحـرة ، والذين عاكستهم الأقـدار في نيـل الـشهادات والفـوز بوظـائف الحكومـة . ومـن شطت بهم الدار من أبناء الأقطـار الـشقيقة في طلـب الـرزق ، أو في طلـب المجـد وأبناء الطريق المولهين بحـب آل البيـت ، وكـم لجلـساء الفيـشاوي ــ وخاصـة في شهر رمضان ــ من سهرات ممتعة؛ وجلسات حلوة تمتد حتى الـصباح ، وهـم في هـذه الجلـسات ينطلقـون عـلى طبيعـتهم ، فيتـشاجرون ، ويتغـامزون بالنكتـة ، ويغرقون في المرح إلى أبعد حد ويرسلون الضحكات عالية كلها سخرية بالحيـاة، واستهانة بقسوة الدهر واستخفاف بالأيام وبالناس .

***

وأما بعد ، فهذه صورة خاطفـة ، مجمعـة لنـدوات الـسامرين ، وأهـل الفكـر والأدب في ذلك الزمان ، وهي صورة اختفـت أ وكـادت أن تختفـي مـن حياتنـا ، ولن يعـوض آثارهـا ، وأفـضالها عـلى الحيـاة الأدبيـة قيـام تلـك النـدوات الهزيلـة المختلفة في دور بعض الجمعيات ، بل لن يعوض آثارها وأفضالها قيام الجمعيات وإنشاء الهيئات .

ذلك لأن حياة الأدباء والشعراء في تلك الندوات العامة ، كانت تقوم على الحرية ، والحرية روح الأدب ودعامته ، وقوام التفكير والرأي ، ولأن الأفكار في تلك الندوات كانت تتلاقح بالمطارحة والمساجلة ، والكلام يتفق بعضه ويعضًا ، ويعين بعضه بعضًا ، ثم لأن الفكرة كانت تعرض في معرض النقد والتمحيص والتأمل ، وإذا ما خلا الأدب من النقد والتمحيص والتأمل، كثر فيه الزلل ، وشاع الخلل ، وغطى زيفه جيده .

ويروى لنا الأديب محمد فهمي عبد اللطيف أن الشاعر خليل مطران روى له[1] :

«لقد كنا جيلاً يقرأ ويكتب ، وأبرز ميزة ذلك الجيل أنه كان يتناول عرض آثاره الأدبية ويستمع لكل نقد وتوجيه ، فكان الواحد منا إذا ما نظم قصيدة ، أو كتب رسالة عرضها على إخوانه في مجالسهم ، ولا يبيح لنفسه أن يذيعها إلا بعد أن يراجعها ، حتى بعد إذاعتها كان يتعهدها، ويسأل إخوانه فيها ، لأنه يقدر أنه يتركها لأجيال من بعده .

«ولقد رأيت حافظ إبراهيم ، وهو شاعر مصر الذي بلغ من المكانة الأدبية غايتها ، يجلس على المقاهي بين لفيف من إخوانه والمحبين له ، وفيهم الشبان والناشئون في الأدب ، فيعرض عليهم شعره، ويستمع لما يشيرون به من ترك لفظة ، أو تغيير قافية ، أو حذف بيت ، وهو بذلك راض مغتبط ، ثم هو لا ينفك يكرر ذلك حتى كانت قصائده تحفظ وتروى في تلك المجالس قبل أن تذاع على الناس .

وأكثر من هذا فإن تلك الندوات بطابعها كانت تثير في نفوس الأدباء والشعراء روح المنافسة، فكان كل منهم يجتهد في الاستزادة والوقوع على جديد يظهر به على إخوانه رواد هذه الندوات، وكان كلما خلق أحد منهم أثرًا رائعًا في الأدب صار حديث تلك الندوات ، وحاول الأنداد من إخوانه الجري في شوطه، ومنافسته في الميدان حتى يكون لهم من حظ الثناء مثل ما نال صاحبهم

---

(١) المرجع السابق .

أو أكثر ، فمثلاً لما نظم حافظ إبراهيم قصيدته «العمرية» وصارت حديث الأدباء والشعراء في الندوات والصحف ، أثار هذا غيرة الشاعر محمد عبد المطلب فنظم ملحمته «العلوية» ثم تقدم الشاعر عبد الحليم المصري بقصيدته «البكرية» وكانت المفاضلة بين هذه القصائد موضوع حديث طويل في ندوات القاهرة الأدبية ، وتقدير هذا الفن من الملاحم الجديدة في الشعر العربي .

وكثير من الآثار الأدبية ، وأغلب ما نظم الشعراء ، وكتب الكتاب ، من أبناء ذلك الجيل ، إنما نظموه وكتبوه على مناضد تلك المقاهي والندوات ، وكثير من الأحداث الأدبية والسياسية والاجتماعية التي هزت البلاد في السنوات السابقة ، إذا تقصيت مصدرها تجدها قد خرجت من ركن هادىء ومن فوق منضدة متواضعة في ندوة من تلك الندوات العامة، وقضية الشعر الجاهلي التي أثار بها الدكتور طه حسين ثائرة العالم الأدبي في الأقطار العربية ، إنما رسمت خطتها في جلسة هادئة على مقهى .

حدثني الأستاذ أحمد حسن الزيات قال ـ كان الدكتور طه في أول أمره يدرس التاريخ في الجامعة، ثم عهدت إليه بدرس الأدب الجاهلي ، وما كان الناس يعرفون عن الأدب الجاهلي إلا أنه المعلقات السبع ، أو المعلقات العشر ، وكنا جمعًا وفينا الدكتور طه حسين نسمر كل ليلة على المقهى، فلما اجتمعنا كان الشعر الجاهلي موضوع حديثنا ، ومناقشاتنا ، وكان أن أثارها الدكتور طه حسين حربًا شعواء بمحاضرته في الجامعة ، وبكتابه «الشعر الجاهلي» الذي أثار في الجو الأدبي السياسي عواصف وزوابع ، وبقية القصة مشهورة [1] .

وأختم هذا الحديث بالإشارة إلى مجلس من تلك المجالس الأدبية مما كان يجري في تلك المقاهي والندوات ، وهو مجلس شاهدته ورأيته ، فقد كنت أختلف إلى مقهى الحلمية ، وكان يجلس عليه الشاعر محمد الهراوي ، والشاعر أحمد الزين ، وحسين شفيق المصري ، والشاعر محمد الأسمر ، والدكتور حسين

(١) المرجع السابق : صدر كتاب «في الشعر الجاهلي» سنة ١٩٢٦ .

الهراوي، والدكتور زكي مبارك[1].

وقد أثمرت منتديات القاهرة ومجالسها الأدبية ومجلاتها وصحفها الأدبية والفنية والفكاهية التي واكبت هذه النهضة عدد من نجوم السمر والظرف والفكاهة والذين تنوعوا ما بين ظرفاء يملؤون المجالس والمنتديات فكاهة وظرفًا أمثال محجوب ثابت وكامل الشناوي ومحمد مصطفى حمام وصعاليك لم يخضعوا لمواضعات المجتمع، فكان ليلهم نهارًا ونهارهم ليلاً لم يعبؤوا بعمل ولم يتقيدوا بالزمن أو الزواج بل كان بعضهم يهيم على وجهه يعيش مع شطحاته وخيالاته وأحلامه واتخذوا من سلاح التمرد والهجاء سلاحا ضد المجتمع ومن ظنوا أنهم يناصبونهم العداء وكان من أبرز هذه النماذج الشاعر عبد الحميد الديب ومحمد إمام العبد.

* * *

وإذا كنت قد تناولت في هذا الكتاب سيرة بعض الظرفاء والصعاليك من مصر، فأنني توسعت واخترت نموذجين من البلاد العربية هما: الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي والشاعر الأردني مصطفى وهبي التل عرار «شاعر النوّر» ليقدم الكتاب نخبة مختارة من ظرفاء وصعاليك هذا الزمان الذين ملأوا الحياة بهجة ورسموا البسمات على الوجوه، فكانوا بحق شعراء للحب والظرف والفكاهة والبهجة والبشاشة.

القاهرة ١٥ سبتمبر ٢٠١٢

محمد رضوان

(١) المرجع السابق.

القسم الأول

عصر الظرفاء والصعاليك

شهد النصف الأول من القرن العشرين في مصر نهضة أدبية وعلمية وفنية، وكان للمنتديات الأدبية والمقاهي والصالونات الأدبية والمجلات والصحف دور كبير في إبراز عدد من أعلام الفكاهة والظرف قدموا تراثًا ثريًا في أدب المنادمة والأسمار.

وكانت القاهرة تموج بالظرفاء من الأدباء والشعراء أمثال حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى ومحمد البابلي ومحجوب ثابت وعبد الحميد الديب وإمام العبد ومحمد مصطفى حمام وغيرهم.

وعلى هامش هذه الحياة الجادة الهازلة ظهرت مجلات أسبوعية صفراء، اتخذت أسلوب السخرية في تناول الأثرياء لابتزاز أموالهم ومنها مجلات: الشجاعة والخلاعة والسيف والمسامير والصاعقة وإياك وغيرها.

كما صدرت عدة مجلات فكاهية ساخرة مثل الفكاهة والاثنين والدنيا واشمعنى واضحك ومسامرات الجيب وغيرها.

هكذا ظهر في النصف الأول من القرن العشرين في مصر عدد من الظرفاء والصعاليك الذين أثروا حياتنا الأدبية بشعرهم الفكاهي وأسمائهم الساخرة، ونوادرهم الضاحكة.

ويرى الشاعر محمد عبد الغني حسن أن دور الفكاهة في إثراء حياتنا دور عميق ومؤثر حيث يرى أهمية الفكاهة في المجتمع التي تسرى عن هموم أهله، وتخرجهم من مشاغل الحياة وأثقالها ومن نكد الدنيا إلى عالم آخر تشيع فيه الضحكة. وتفتر الابتسامة وإذا كانت الفكاهة تتخذ لها طابعًا معينًا في القول أو الفعل أو الإشارة..

وفي النغمة أو الصورة والرسم فإنها قد تكون في الشعر كما تكون في النثر .

ليس من الضروري أن تكون الفكاهة الشعرية نابعة من شخص فكاهي مرح الأعطاف ، خفيف الملامح الجسدية ، موصول الحظوظ من الدنيا ومن أفراحها ، فقد يكون الشاعر صاحب الفكاهة الشعرية شخصًا جاد المظهر ، وقور الملامح ، بادي الصمت ، رصين السمات . وقد يكون ظاهر الحزن ، واضح البؤس ، مكدودًا محدودًا غير مجدود ، لم تسعفه الأيام ، ولم يسالمه الزمان .

فلقد كان الشاعر «محمد حافظ إبراهيم » يمثل البؤس في الحياة ـ وخاصة في فترة معروفة من عمره ـ ومع ذلك كانت الفكاهة وروح الدعابة تطل من شعره وخاصة إذا طلبها .. وكذلك كان الشاعر البائس «عبد الحميد الديب » ، والشاعر الدكتور «إبراهيم ناجي» ، وقبلهما كان الشاعر الساخط «محمد إمام العبد» فلم يمنعهم ما أحاط حياتهم من ملابسات الحزن من أن يصبوا الفكاهة في أشعارهم ، ولعل الطبيعة قد وهبتهم هذه الروح الفكهة تخفيفًا لآلامهم وأحزانهم من ناحية ، وترويحًا عن أنفس البائسين المحزونين من ناحية أخرى . والشاعر الإسلامي الكاتب «مصطفى صادق الرافعي» كان يبدو الجد والوقار على ملامحه ، ولكن النزعة الفكاهية لم تفته في شعره أو نثره . وكذلك كان الشاعر القاضي «إسماعيل باشا صبري » فقد كان فيه وقار القضاة ورصانة مظهرهم . ومع هذا شاعت فكاهاته الشعرية في عصره ، ودارت على ألسنة الرواة في زمانه، واشتمل قسم غير صغير من ديوانه الذي نشره الشاعر أحمد الزين على باب للفكاهات الشعرية [1] .

وقد تثير بعض الغرائب في مواضعات المجتمع خيال شعراء الفكاهة ، تدعوهم إلى التعريض بهذه الصور الاجتماعية الغريبة المناقضة لسلامة المنطق والسلوك .

كما أن صورة المنافق المتعدد الوجوه قد لفتت نظر الشاعر «مصطفى صادق

(١) الهلال / محمد عبد الغنى حسن / الفكاهة في الشعر المعاصر / ١٩٧٤ .

الرافعي» فقال يصفه :

وجوهك شتى : واحد ذو بلاهة ... وآخر من هذي البلاهة بارد
ووجه أرى فيه النفاق ملونًا ... وآخر أن يبصر ذوي الفضل حاسد
ووجه من الكيد المخبا بارق ... ووجه من اللؤم المشهر راعد
فيا عجبًا تمشي بستة أوجه ... من الدهر بين الناس ، واسمك واحد

و «الرافعي» تنبه دائمًا إلى هذه الصور الاجتماعية الشاذة ، فحين رأى المرأة العجوز تستر وجهها بالألوان والأصباغ ، وتروح إلى العطار تبغى صلاحها ، لتستر عمرها ، ولتموه على الناس بهذا، وصفها بهذا الشعر الفكاهي :

إلا إنها أم الحماقة من غدت ... بها أدهنت تلقي على عمرها سترا
فيحسبها من رآها طفلة الصبا ... ويا ربها كانت كجدته عمرا ..!

وتنبه الشاعر «صالح جودت» إلى اختلاف المذاهب والطوائف والنحل ، والمنتمين والشيع والأحزاب في الشرق العربي فلم يترك هذه الصورة الاجتماعية المشوشة تفلت من ريشته الدقيقة، فقال في فكاهة ساخرة :

اختلفنا مذاهبًا فافترقنا ... فطوانا المستعمر الضليل
وادعانا طوائفًا : ذاك عبد ... بربري ، وذاك حر أصيل
ثم هذا درز وذلك فرعون ... وهذا كرد ، وذاك دخيل
ثم هذا بعث ، وذلك حزب ... قرمزي الميول حين يميل ..!
ثم هذا «مؤمرك» نازح القلب ... وهذا حبيبه «جونبول»
ثم هذا «مفينق» أرضه الأم ... فرنسا ، وربه «ديجول»
فتنة ما لها قرار وإفك ... وضلال مصيره مجهول

* * *

وقد تكون مفارقات الأوضاع السياسية في الشرق العربي سببًا في إثارة

الأشعار الفكاهية عند الشعراء أصحاب الفكاهة . ونرى شعراء الفكاهة هنا يعالجون هذه المناقضات السياسية بروح فكهة، ولا يعالجونها معالجة الكتاب السياسيين الجادين . فلقد زعم كاتب فرنسي قبل الحرب العالمية أن جلاء الإنجليز عن مصر سيكون في «أكتوبر القادم» . ولم تنطل الكذبة على واحد في مصر ... ولكن «محمد حافظ إبراهيم» تناولها بفكاهته الشعرية الساخرة ، قائلاً :

كم حددوا يوم الجلاء الذي ... أصبح في الإبهام كالمحشر

وسن قوم الطيش من جعلهم ... كذبة أبريل ، لأكتوبر

وقد كان الشاعر « حافظ إبراهيم » راصدًا لهذه الأوضاع السياسية الشاذة يسلط عليها قلمه اللاذع . ففي ظلام الامتيازات الأجنبية قال يخاطب المخدوعين من قومه :

فقل للفاخرين : أما ... لهذا الفخر من سبب ؟

أروني بينكم رجلاً ... ركينا واضح الحسب !

أروني نصف مخترع ... أروني ربع محتسب

والشاعر الفلسطيني «إبراهيم طوقان» يرى أن بعض الزعماء يتجرون باسم الإخلاص لقضية فلسطين ، فيطلب منهم في فكاهة ساخرة أن يتنحوا ويستريحوا من العمل السياسي حتى لا تضيع بقية البلاد على أيديهم قائلاً :

أنتم المخلصون للوطنية ... أنتم الحاملون عبء القضية

أنتم العاملين من غير قول ... بارك الله في الزنود القوية

ما جحدنا أفضالكم غير أنا ... لم تزل في نفوسنا أمنية :

في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كيلا تطير البقية

والشاعر «صالح جودت» يصور في فكاهة مريرة في قصيدته نشيد الثورة حالة الأحزاب والوزارات المتتالية في مصر قبل الثورة قائلاً :

ويستلهمون مقام «السفير» خطوط السياسة في الدولة
يولون يومًا «زعيم الرعاع» ويومًا زعيم الأقلية
ونخلص من «صاحب الدولة» لنسقط في «صاحب الرفعة»

وما ألذع فكاهة الشاعر «صالح جودت» ، وهو يصور حالة مصر في العهد التركى قائلاً:

ومضى يسوم الذل أبناء الحمى ويخيفهم سرواله و «القلبق»
يجبي الضرائب من عرايا جوع جفت مزارعهم فليست تورق
ويسوقهم بالسوط وهو ربيبه ويطوف بالخازوق وهو مخوزق

***

والفكاهة عند شعرائنا المعاصرين والمحدثين قد تثيرها حادثة معينة ، مما يثير الضحك ، أو يثير البكا .. على حد سواء .. فقد تكون الحادثة مضحكة ولكن الشعراء يعلقون عليها بما يزيدها إضحاكًا وتفكها . وقد تكون الحادثة مؤسفة فيدخل شعراء الفكاهة فيها بما يخفف من مأساتها وينبه إلى خطرها .

وقد تأتي الحادثة أو المناسبة المثيرة للفكاهة الشعرية عرضًا كما في الحادث السابق فهو من صنع الظروف التي لا حكم لها ، ولا ضابط . ولكن قد تخلق الحادثة أو المناسبة خلقًا لإشاعة الفكاهة ، ونشر الدعابة الشعرية حولها . فقد أراد بعض الشعراء المحبين للدعابة والضحك أن يروحوا عن أنفسهم بتنصيب «حسين محمد» المعروف بالبرنس أميرًا للشعر ، وكان في البرنس ميل للدعابة وخفة الظل . وتصديق لما يقال . وأقيم الحفل في ليلة من ليالي رمضان . وكانت قصائد الشعراء في ذلك الحفل الضاحك مملوءة بروح الفكاهة . فالشاعر «محمد الأسمر» يقول مخاطبًا البرنس :

سيدي ! رجع لنا شعرك واهتف ما تشاء
حيث لا تسمعك الأرض ولا تصغى السماء !

سـيدي ، مـولاي يـا مـولى — جميـع الـشعراء
ثبـت الله لـك «العـرش» — وإن كـان هـواء !

والشاعر «أحمد الكاشف» يقول :

مـن لي بـسدتك العليـا أقبلهـا — ودون سـدتك الأسـتار والحجـب
هذا نـصيبي مـن الفـوضى ظفـرت بـه — من بعد ما خـانني في غيرهـا الأرب
لم يغننـي الجـد في قـول وفي عمـل — وقد لعبتُ ، عسى أن ينفع اللعب!

والشاعر «محمد الهراوي» ، يقول :

إلى العـرش فاصـعد وامـض بـالأمر — ومـر ، وانـه ، وامـنح مـا بـدا لـك
وصرّف أمـور الـشعر في آلامـه التـي — تميـت رجـال الـشعر فيهـا ولا تعـيَ
فأنـت أمـير الـشعر غـير منـازع — وكـل أمير غير شخـصك مـدعى!

والشاعر الفكه «حسين شفيق المصرى» يقول :

يـا حمـاة القـريض حـول الـبرنس — أصـبح الـشعر دولـة ذات كرسـى
وهـل الحكـم والإمـارة إلا — لـبرنس يـضحى بـرأي ، ويمـسى
يقـرض الـشعر مـثلما يقـرض الفـار — حبـالاً قـد فتلـت مـن دمقـس
كـان مـن قبلـه القـريض بجلبـاب — فأضـحى «ببنطلـون» ، «وجـرس»
أيهـا الـشاعر الكبـير رضـيناك — أمـيرًا ، فكنـه تفـديك نفـسي !

وتنقل بقية الشعراء في ذلـك الحفـل بـين مفاكهـات ومـداعبات ومعابثـات ، ومنهم حسن القاياتي، وكامل كـيلاني ، والخطـاط الـشاعر سـيد إبـراهيم ، وعبـد الجواد رمضان ، وعزيز بشاي .

ولعـل خلـق المناسبة الـصالحة للفكاهـة الـشعرية هـو قـصد مـن الـشعراء للترويح عن النفوس المكروبـة في سـاعة كربـة ، أو زمـان ضـيق . فقـد لـوحظ في أثناء الحرب العالمية الثانية أن موجة الغلاء الفـاحش ، واختفـاء كثـير مـن الـسلع

الضرورية ، قد أضافت إلى كرب الناس بالغارات والقتال ، فقد شكا الشاعر «محمد الأسمر» يومًا لصديقه «محمد عبد الغني حسن» اختفاء «كاوتش» الأحذية من الأسواق وما هي إلا أن بعث الشاعر عبد الغني للشاعر الأسمر بالكاوتش المراد ، ومعه أبيات فكاهية فيها تعريض بالحرب ، وغلاء السلع ورخص الإنسان ، وفيها يقول :

إنني مرسل إليك «الكاوتشا» ... ويدي من نداك ترعش رعشا
ليتني أستطيع إهداء نفس ... لم تجد في صفاء نفسك خدشا
فالحرب البسوس عادت ضروسًا ... تبطش اليوم بالمهالك بطشا
عجبًا ! أصبح «الكاوتش» عزيزًا ... بينما المرء لا يساوي قرشا !

فرد عليه الشاعر الأسمر بأبيات فكاهية يقول فيها :

هش قلبي لما بعثت وبشا ... بقوافي القريض بله «الكوتشا»
ما طلبناه للحذاء ، وحاشى ... بل طلبناه في الأضاحي كبشا !
فهو خير من بعض لحم أراه ... يتعشى بمن به يتعشى !
رب لحم إذا «الكوتش» رآه ... قال : ماذا أرى ؟ وخاف وكشا !

واستمر الأسمر في سخريته وفكاهته ونقده للحرب والغلاء حتى آخر الشوط .

* * *

ومن هذه المناسبات التي خلقها الشعراء المرحون بمناسبة ضيق النفوس وغلاء الأسعار في الحرب العالمية الثانية مناسبة «خروف العيد» . ففي يوم من أيام عيد الأضحى أرسل الشاعر محمد الأسمر إلى الشاعر الضابط عبد الحميد فهمي مرسي يستهديه أو يستعيره ـ خروفًا ، وكان الرسول ـ أو الرسالة ـ قصيدة فكاهية يقول الأسمر من بعض أبياتها :

إن كان «ذو القرنين» عندك حاضرا ... فابعث به لنرى ضياء جبينه!
ولكي نشاهد حسنه وجماله ... ونرى اقتدار الله في تكوينه !
ولكي يجاوب - لو يمأمئ مثله ... في بيت جاري - مأمأت قرينه
وليعلم الجيران أجمع أنني ... إن جاء عيد لم أضق بشؤونه

وجاءت الخراف[1] من الشاعر الكريم عبد الحميد فهمي مرسى على سبيل الهدية إلى الشعراء الأسمر، وعلى الجندي، ومحمد عبد الغني حسن، ويظهر أن رحلتها من المنيا إلى القاهرة قد أنهكتها وانضوت أجسامها، فاتخذ الشعراء المهدي إليهم من هذا الموقف موضعًا للشعر الفكاهي الذي اشتغلت جريدة الأهرام بنشره على أيام، وكان مما قاله الأسمر :

أربع أقبلت، فقلت خراف ... ما تراه العيون أم أطياف ؟
كان منها لنا خروف عجيب ... هو من فرط ضعفه شفاف
لاح كالوهم .. بل هو الوهم يمشي ... لا خروف جاءت به الأرياف

وكان مما قاله محمد عبد الغني حسن :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحًا ... فلذاك قد بالغت في تسمينه
الله زينه بكل جميلة ... وجميل صنعك زاد في تزيينه

أما الشاعر علي الجندي فقد استقبل الخروف المهدي إليه بقوله :

أخراف هاتيك أم أنقاف ... نبئونا عسى يزول الخلاف
مسها الضر والهزال فراحت ... تتهادى كأنها أطياف
قد رآها الجزار فانتابه الغشـ ... ـى وخفت لحمله الإسعاف
هل سمعتم أو هل رأيتم خرافًا ... لا لحوم بها، ولا أصواف ؟!

(١) ومنها خروف رابع إلى الشاعر عبد الحميد فهمي نفسه، وهي في الواقع هدية من قريب للشاعر عبد الحميد.

ولم تنته مناسبة «خروف العيد» إلى هذا الحد، بل كان لها ذيول وذيول .. فمن ذيولها مجتمع لخراف الشعراء في ميدان باب الخلق . وقد قام فيه حوار طريف بين خراف الهراوي ، وأحمد رامي ، والسيد حسن القاياتي ، والدكتور محجوب ثابت . وكان كل خروف ينطق بأسلوب صاحبه من الشعراء وعلى طريقة صياغته .. فخروف الشاعر الهراوي يقول على طريقته في شعر الأطفال :

يــــا إخــــــواني   في الخرفــــــــــان
أهــــــلاً بكــــــم   واهًـــــا لكـــــم
فــــيم رحلــــتم   ثــــم حللــــتم ؟
بـــــاب الخـــــرق   بــــين الخلــــق
أنــــــــا لا أدري   سر الأمــــــــــر
أكــــذا نقــــف ؟   أيــــن العلــــف ؟
أيــــن المــــاء   مــــاء ، مــــاء

وقد تكون الفكاهة الشعرية بدون أدنى ملابسة ، بل قد تكون جوابًا من الشاعر عن سؤال حول فعل معين ، فإن الشاعر القروي المهجري - رشيد سليم الخوري - قد قام بنفسه يومًا أن يحلق شاربيه بعد أن كان أعفاهما زمانًا طويلاً ، فلما سئل من بعض أصحاب الفضول عن السبب في حلق شاربيه ، أجاب في مقطوعة فكاهية :

قـــالوا : حلقـــت الـــشاربين   ويـــا ضـــياع الـــشاربين !
فـــأجبتهم : بـــل بـــئس ذان   ولا رأت عينـــاي ذيـــن
الـــشاغلين المـــزعجين   الطـــالعين ، النـــازلين
ويـــلي إذا مـــا أرهنـــا   ذنبـــيهما كـــالعقربين
أن ينـــزلا لجـــما فمـــي   أو يـــصعدا الـــتطما بعينـــي !

وإذا همـــا بـــسط الخـــوان   تراهمـــا ســـبقا اليـــدين
فـــإذا أردت الأكـــل يقتـــسمان   بيـــــنهما ، وبينـــــي
وإذا أردت الـــشرب المتـــصان   كالأســـــــــفنجتين ..!
فكـــأنني بهـــما وقـــد   وقفـــا ببـــاب المنخـــرين !
عبـــدان مـــن أشـــقى العبيـــد   تقاضـــيا ملكًـــا بـــدين ..!

ويدخل في هذا الباب شعر الفكاهة بالعيوب الخلقية ، والمظاهر الجسمية ، ولو لم يكن ذلك جوابًا عن سؤال ، وإنما ابتداء بالمقال .. فالشاعر «محمد حافظ إبراهيم» تقع عينه على رجل عظيم البطن ضخم البدلة ، فيصفه في صورة شعرية فكاهية قائلاً :

عطلـت فـن الكهربـاء فلـم نجـد   شـيئًا يعـوق مـسيرها إلاكـا
تـسرى عـلى وجـه البسيطة لحظـة   فتجوبهـا ، وتحـار في أحـشاكا!

والشاعر الخفيف الروح «حفنى ناصف» يصف مداعبًا تلميذه المحامي عبد السلام فهمي وكان شديد السمرة فيقول :

ســلام عــلى عبــد الــسلام ولعنــة   مــن الله تــترى كــل يــوم وليلــة
أرى وجهك الكسبي[1] ينضح سيرجا   ومبسمك الألمعي مجاري الطحينة!

والشاعر الخفيف الظل «محمود غنيم» يصور صاحبًا له ضخم الأنف قائلاً :

لي صـــاحب ظلـــه خفيـــف   لأنفـــه دانـــت الأنـــوف
أنـــف لـــه قمـــة وســـفح   فيـــه المغـــارات والكهـــوف
إن قامــت الحــروب غــاب فيــه   مــن خــوف غاراتهــا الألــوف
ســـألته : أهـــو صـــنع ربي ؟   فقـــال : لا ، بـــل بنـــاه خوفـــو

والشاعر «العوضى الوكيل» يعابث شخصًا قبيح الصورة بقوله :

(١) نسبة إلى الكسب ـ بضم الكاف ـ وهو ما يخرج من تفل من عصر السمسم .

يا صاحب العثنون .. ما لك والعلا أني رأيت بك الملاهي أجدرا

وقد يأتي الشعر الفكاهي على سبيل «الأصالة» في النظم أو على سبيل المعارضة المناقضة لشعر قديم مشهور وقد برع في هذا الشاعر «محمد الهياوي» والشاعر «حسين شفيق المصري» . وهل تفوتنا هنا معارضة حسين شفيق المصري لقصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأمد

وقد جعل شاعرنا الفكاهي موضوع معارضته مغالاة الآباء في جهاز العروس حبًا في الظهور، فقال :

راحوا لبيع نحاس البيت تكملة لأجرة التخت غنى ليلة الأحد

أبوك يا بنت مسكين يموت غدًا من غيظه ، أو يبيع البيت بعد غد

هذا الجهاز رهنا كي نجيء به . أطياننا ، وصبحنا أفقر البلد

لكنها أمها قالت : اتفضحنا ؟ لابد من دعوة الأعيان والعُمَد !

ومن هذه المعارضات الفكاهية معارضة لقصيدة علي الجارم التي مطلعها :

مالي فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة إلاكِ

وفيها يقول الشاعر المعارض :

أنت القطار على شريط صبابتي وأنا «السبنسة» في المسير وراكِ

وواضح أن هذه المعارضات التي كانت تنشرها المجلات الفكاهية - وعلى رأسها مجلة الكشكول - كانت تصاغ بلغة بين الفصحى والعامية ، مما يجعلها قريبة إلى أذواق جمهرة من القراء، كما كانت تعتمد على ألفاظ دارجة مضحكة ...

وقد تكون المعارضة الشعرية الفكاهية باللغة الفصحى وحدها ، كما فعل الشاعر «إبراهيم طوقان» في معارضته لقصيدة شوقي في «المعلم» التي مطلعها ..

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولاَ

فيقول طوقان حيث ابتلي بمحنة التعليم :

شوقي يقول وما دري بمصيبتي ... «قم للمعلم وفه التبجيلا»

اقعد ! فديتك ، هل يكون مبجلا ... من كان للنشء الصغير خليلا؟

ويكاد يفلقني الأمير بقوله : ... «كاد المعلم أن يكون رسولاً »

لو جرب التعليم شوقي ساعة ... لقضى الحياة شقاوة وخمولاً

حسب المعلم غمة ، وكآبة ... مرأى الدفاتر بكرة وأصيلا !

مائة على مائة إذا هي صلحت ... وجد العمى نحو العيون سبيلا..

وبمناسبة الشكوى من وظيفة المعلم وقلة جدواها وقلة فرص الترقي فيها لا تجد شاعرًا من أصحاب الفكاهة بلغ به السخط عليها والسخرية منه ما بلغ الشاعر «محمود غنيم» . وما أمر شكواه الفكهة وهو يقول حين رقي مفتشًا دون أن يزيد راتبه أو ترفع درجته :

وما سرني التفتيش حين وليته ... ولا أنا - إن ولي - عليه بآسف

لقد خلته يغني عيالي من الطوى ... فكان كمضروب من النقد زائف!

وزارة مهضومين ليس بقابض ... فتى يرتقى فيها ، وليس بصارف

إذا قيل منسيون فتشت عنهمو ... فلم ألقهم إلا «رجال المعارف»

وديوان محمود غنيم «صرخة في واد » و «في ظلال الثورة» مملوءان بنماذج من هذا الشعر الدعابي الحار في وظيفة المعلم وهضم حقوقه .

* * *

وفي صور الهجاء في الشعر العربي المعاصر ألوان من الفكاهة التي تجعل فن الأهاجي مقبولاً سائغًا في عصرنا هذا بعد أن ظن أنه اندثر أو كاد ، مع علمنا بأن الهجاء طبيعة في نفوس البشر فكيف ينقرض أو يندثر فن شعري هو من طبائع النفس البشرية . والحق أن الأهاجي المفحشة المقذعة كادت تندثر في زماننا هذا ،

لوجود القوانين التي تمنع منها ، وتقف في طريق انتشارها لأنها نوع من الجريمة يدخل تحت طائلة القانون ولم يبق من هذه الأهاجي المكشوفة إلا ما يدار بين شعراء هذا اللون في مجالسهم وندواتهم الخاصة ، وقد اشتهر بهذه الفكاهات الشعرية المكشوفة جماعة من أقدر شعرائنا المعاصرين ، منهم الشاعر محمود غنيم، والشعراء عامر بحيري ، وحسن كامل الصيرفي ، والعوضي الوكيل ، وأحمد مخيمر ، وعبد الحميد الديب . ولن نستطيع أن نسجل هنا نماذج من هذا اللون الذي يذكرنا بابن الرومي، وابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمي ، والواساني وغيرهم . ولا ندري هل يسجل هذا الشعر الفكاهي المكشوف كما يسجل كل شعر، وكما سجل شعر الماضين من أصحاب المجون ، أم سيظل معتمدًا على الرواية الشفوية حتى تذهب به الريح ؟ ولكنه على كل حال صورة طريفة للشعر الفكاهي الماجن المعاصر لا ينبغي أن يطمسها مرور الزمان .

وزعيم هذه المدرسة كان الشاعر الفنان محمود غنيم الذي كانت له دعابات مع الشاعر «إبراهيم ناجي» في حكاية «الردنجوت» ، وحكاية «العدس الأباظي» والعدس الأباظي هو لون من الطعام اللذيذ اشتهر بيت الأديب الشاعر الإنسان إبراهيم دسوقي أباظة بطهوه .. وكثيرًا ما التقى الشعراء على مائدة دسوقي «باشا» حول هذا الطبق الشهي ! ما أكثر ما كان يقوم الدعاب بين الشاعر غنيم وناجي حول هذا الصنف الذي يتخذه غنيم معبرًا للتعريض بالدكتور إبراهيم ناجي والمعابثة معه . وما أطرف الشاعر محمود غنيم وهو يقول في هذا المعرض :

قالوا لنا عدس فأفزعني اسمه ... لم لا ؟ ومنه قد تكوَّن هيكلي ؟
حتى ظفرت لدى الوزير بأكله ... فلعقت من بعد الملاعق أنملي
عدس الأباظيين صنف آخر ... غير الذي عودته في منزلي
ساءلت «ناجي» وهو يحشو فكه ... عن صنعه ، فأجابني : لا علم لي
هو من كبار العالمين بأكله ... وبغير ذلك من كبار الجهل
لا تدع «ناجي» إن أصبت بعلة ... وبطبه ودوائه لا تحفل !

زاد «الدسوقي» المفدي وحده   طب يداوي كل داء معضل

والفكاهة هنا قاسية من حيث تعريضها بعلم الدكتور ناجي في مهنته . وليست هذه أول مرة يدخل غنيم على ناجي من هذا المدخل ، ويصيبه من هذا المقتل ، ففي «فكاهية» أخرى يقول غنيم عن ناجي :

لنا طبيب يداوي الناس إن مرضوا   بالفصل ما بين أرواح وأبدان

ومن تجرع كأس الموت من يده   فلن يمر على جنات رضوان

رد «الردنجوت» موبوءًا لصاحبه   فلم يطهره محلول السليماني

والآن ننتقل إلى حكاية «الردنجوت» فقد كان الشعراء جميعًا قد دعوا إلى حفلة رسمية خارج القاهرة ـ قبل عهد الثورة ـ على أن يلبسوا الردنجوت طبقًا لقواعد البروتوكول ... فاعتذر غنيم من ذلك معرضًا بناجي زاعمًا أنه استعاره .

وكان هذا التعريض بناجي سببًا في إثارته بقصيدة فكاهية رائعة يعابث فيها الشاعر غنيم قائلاً:

بصرت به والصحن بالصحن يلتقى   فلم أر أبهي من غنيم وأظرفا

تراءى له لحم ، فلم يدر عنده   تديك من بعد الطوى أم تخرفا ! [1]

وأومأ لي باللحظ يسألني به   أتعرفه ؟ أومأت باللحظ مسعفا

وقدمته للديك ... وهو كأنما   يطير إليه واثبًا متلهفا

غنيم ! أخونا الديك ! قدمت ذا لذا   فهذا لذا من بعد لأي تعرفا

تعير ناجي بالردنجوت جاءه   معارًا ، فغامر واستعر أنت معطفا

وأقسم لو أن الردنجوت نلته   وجاد به من جاد كرها ، وسلفا

لقلبته ظهرًا لبطن ، محيرًا   به تحسبن الوجه من عبط قفا !!

والحق أن هذه الصورة الفكهة التي قدم بها ناجي الشاعر غنيم ، ووصفه

(١) الوزير هو إبراهيم دسوقي أباظة ، تديك ، وتخرف : إشارتان إلى الديك والخروف .

جهل غنيم بشكل الديك أو الخروف ، وتعريفه بين غنيم والديك على مائدة دسوقي أباظة ، ووصفه لجهل غنيم بشكل الردنجوت فلا فرق عنده بين وجهه وظهره هي من أمتع ما سمعنا من الشعر الفكاهي في زماننا .

وفي الحق أن شعر ناجي الفكاهي لا يجوز إغفاله ونحن نؤرخ للفكاهة الشعرية في العصر الحديث، وعلى الرغم من نغمات الحزن في شعر ناجي كان له في باب الشعر الفكاهي مقام ملحوظ، ويكفي قصائده في «هجو طفيلي» وفي «هجو أعمى بغيض زوج حسناء» وفي مداعبته للدكتور «تملي» طبيب الأسنان ، وفي دعابته مع الأديب المفكر وديع فلسطين حين أنعمت عليه حكومة أسبانيا بوسام رفيع ، للدلالة على تغلغل الروح الفكاهية في شعره .

وفي شعر الفكاهة المعاصرة قد يحدث أن تنسب قصيدة فكاهية إلى غير قائلها ، وتدعي إلى غير صاحبها . وهذا يحدث ـ على غير قلة ـ في كل فنون الشعر من المديح إلى الرثاء إلى الوصف فالغزل وغيرها ، فالقصيدة اليتيمة ـ أو الدعدية ـ المشهورة التي مطلعها :

هل بالطلول لسائل رد ... أم هل لها بتكلم عهد ؟

قد نسبت إلى شعراء كثيرين من القرن الثالث الهجري ، بلغ عددهم أربعين شاعرًا . وقد غلب عليها اثنان : أبو الشيص ، وعلى بن جبلة المعروف باسم «العكوك» . وقصيدة :

صاح في العاشقين يا لكنانة ... رشا في الجفون منه كنانه

ادعاها سبعون شاعرًا ، وقد غلب عليها الشاعر السوري المصري الشهاب العزازي المتوفى سنة ٧١٠هـ . وهي القصيدة التي منها البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خديه ... ولمس الحرير يدمي بنانه !

ولن يفوتنا هنا الإشارة إلى مشاركة الشاعر «أحمد شوقي» في الشعر الفكاهي المعاصر. وعلى ما كان فيه من إطالة التفكير وإدامة النظر ، ومن قلة

الكلام ونزوته ، كان له في الفكاهة الشعرية مكان معلوم . ومن شعره الفكاهي قصيدة يداعب بها الدكتور محجوب ثابت حينما استبدل بحصانه الهزيل «مكسويني» سيارة أوفرلاند ، وفيها يقول :

لكم في الخط سيارة ... حديث الجار والجاره
أدنيا الخيل يا ماكسي ... كدنيا الناس غداره
لقد بدلك الدهر ... من الإقبال إدباره
فصبرًا يا فتى الخيل ... فنفس الحر صباره

ومن فكاهاته الشعرية أيضًا قصيدته الأخرى في الحصان مكسويني ... وأبياته الفكهة التي يتحدث فيها عن براغيث الدكتور محجوب ثابت .

والحق أن محجوب ثابت كان هدفًا للمداعبات والفكاهات الشعرية وغير الشعرية . وهل ننسى للشاعر «حافظ إبراهيم» صورة شعرية فكاهية رسم بها محجوب ثابت ، وفيها يقول :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع في أفق البساتين[1]
من كل قاف كأن الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون

وقد يكون عيب خلقي عند شاعر سببًا في أن يجعل هو من نفسه موضعًا للدعابة والسخرية من نفسه ، وكأنه بذلك يسد الباب على من عداه من الشعراء ليعابثوه ، ومن هذا الصنف من شعراء عصرنا الشاعر « محمد إمام العبد» الذي تلونت بشرته بالسواد الحالك ، فاتخذ هو من سواد لونه محورًا للفكاهة في شعره .. فيجعل سواد لونه ثوب حداده على سوء حظه في الحياة ويقول:

(١) كان الدكتور محجوب ينطق دائمًا بالقاف الغليظة . والبساتين هي بساتين بركات ، وكان سعد زغلول يستجم فيها ومعه من بطانته حافظ .

لبست لأجله ثوب الحداد ودرت مع الزمان بغير زاد

فما دار أقمت بها دياري ولا بلد أقمت به بلادي

ويقول :

نسبوني إلى العبيد مجازًا بعد فضلي ، واستشهدوا بسوادي

ضاع قدري فقمت أندب حظي فسوادي علىّ ثوب حداد ....

ويقول حين سأله سائل : لماذا لا تتزوج يا إمام :

يا خليلاً ، وأنت خير خليل لا تلم راهبًا بغير دليل

أنا ليل ، وكل حسناء شمس فاجتماعي بها من المستحيل

ويقودنا حديث انصراف الشاعر محمد العبد عن الزواج إلى الحديث عن إقبال الشاعر الفكاهي المرح «محمد مصطفى حمام» على الزواج بلا حساب ... فقد تزوج أربع زوجات أنجبن له أكثر من خمسة عشر ولدًا ما بين ذكران وإناث . فلما صار جدًا لأحفاد ، نظم أبياتًا فكاهية يقول فيها :

بكرت للأعباء أحملها ، وقد أعيت عزائم أقوياء شداد

وجعلت أزرع في صباي ولم أزل ما بين زرع صالح وحصاد

ويقول أصحابي كبرت ولم تزل مرحًا يناديك الصبا وتنادي

يا حاسبي سني ! رويد حسابكم أنا لو عرفتم أصغر الأجداد !

ولا ننسى ونحن نمضي بالبحث إلى غايته أن نذكر الشعر الفكاهي عند «حفني ناصف» ، وخاصة قصيدته إلى سليم سركيس ، وقصيدته المشهورة بمناسبة نقله إلى قنا ، وأن نذكر الأشعار الفكاهية التي كان يرسلها «العقاد» في ساعات صفوه ، وخاصة مراثيه لديوجين كلب الشاعر محمد طاهر الجبلاوي ، ودعواته المرحة إلى زيارته ، منها :

في العيد منتظروكا فاحضر لنا يا ويكا

سوهاج أضيق من أن ... تغنيك أو تحتويكا
فالعيش فيها ضنين ... بكل ما يرضيكا

كما لا ننسى الشعر الفكاهي عند الشاعر «عبد السلام شهاب» ومنه قصيدته المرحة في الشاعر محمد مصطفى الماحي بمناسبة ظهور الطبعة الأخيرة من ديوانه وإشارته إلى شهرة بيت الماحي في تقديم « البط الزغاطي الدمياطي» اللذيذ ! وهي إشارة ساقت الشاعر محمود غنيم إلى المساجلة الفكهة بقوله للماحي :

لقد سمعنا عن بطكم ما سمعنا ... فأكلنا بالأذن حتى شبعنا
غير أن الأفواه تنطق همسًا ... ما عرفنا لذلك البط معنى
يا أبا مصطفى عليك سلام ... أفيرضيك أن شبعت ، وجُعنا ؟
وسع الناس كلهم بطك الناضح ... دهنا ، لكنه لم يسعنا ..!

وبعد ! فهذه أطراف من الفكاهة في الشعر العربي المعاصر ، نسوقها مثالاً لا حصرًا ، ونسأل الله أن يديم على الشعراء ، نعمة الود والصفاء ، ليسعد القارئ والسامع من خفة أرواحهم بما يشاء..

أما الشاعر صالح جودت فيتناول بعض ألوان الفكاهة في الشعر المعاصر فيقول [1]:

« يقول قوم أنه لم يعد لأدب الفكاهة موضع في مجال الأدب في هذا العصر ، بعد أن جدت الحياة ، وأخذ الأديب ـ من شاعر أو غير شاعر ـ بالالتزام ، ووضحت الأهداف أمامه ، وهي أهداف عليا لا تترك له فسحة من الوقت للمزاح ولا للتفكه . بحيث يحق للناقد في هذا العصر أن يخرج أدب الفكاهة من إطار الأدب الصحيح ..

أجل ... جدّت الحياة ، فلم يعد فيها مكان للهازلين .

---

(١) الهلال ، أغسطس ١٩٩٦ .

ولكن الحياة تصبح مستحيلة حينما تتجرد من إنسانيتها .

وتتجرد الحياة من إنسانيتها ، حينما تزول البسمات التي تبعثها نكتة حلوة ، أو صورة كاريكاتورية ساخرة ، أو مونولوج فكِهْ ، أو مسرحية ضاحكة ، أو بيت من الزجل أو الشعر يشيع المرح في النفوس .

فإذا كان هناك من يقول باستبعاد أدب الفكاهة من مجال الأدب الصحيح ، وجب عليه إذن أن يطالب بالقضاء على فن الكاريكاتير والمونولوجات الفكِهة والمسرحيات الضاحكة ، وتحريم البسمات على الشفاه ، وتجريد النفس الإنسانية المجبولة على التماس مراح الحياة ، بعد الانتهاء من ساعات جدها اليومي ، الخلو إلى طلب السكينة والتعويض والترفيه . ولو أننا راجعنا أعمال اعلام الشعر في كل زمان ومكان ، حتى أصحاب المدارس الأدبية العليا ، مثل ت . س . أليوت في الأدب الإنجليزي ، وأحمد شوقي في الأدب العربي ، ما وجدنا شاعرًا واحدًا ضخمًا خلت صفحاته من أبيات لاهية أو عابثة أو هازلة .

وإذا كان أبو تمام قد قسم الشعر إلى عشرة أبواب ، وقسمه غيره إلى ثمانية عشر بابًا ، هي : الغزل، والوصف ، والفخر ، والمدح ، والهجاء ، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والزهد ، والخمريات ، والمسرات ، والبشارة ، والتهاني ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والسؤال ، والجواب ، فإن الشعراء المحدثين قد يختلفون كثيرًا في هذا التقسيم .

قد يستغربون ـ أول ما يستغربون ـ عدم إدراج «الفكاهة» كباب مستقل بين هذه الأبواب . ولا احسب أن الذين وضعوا هذا التقسيم قد نسوا الفكاهة ، ولعلهم لم يشاءوا أن يجعلوا لها بابًا خاصًا ، حتى يفسحوا لها أكثر من مجال في أبواب أخرى ، كالهجاء أولاً ، ثم الخمريات والسؤال والجواب .

وأقول .. الهجاء أولاً .. لأن الهجاء لا يكون هجاء فنيًا إذا كان ثقيل الظل ، خلوا من الصور الفكاهية التي تنتزع الضحكات من أعماقنا أو ترسم الابتسامات على شفاهنا على الأقل فقصيدة المتنبي «القبيحة» ، التي هجا بها ضبة

بن يزيد العتبي ، والتي يقال أنها كانت سبب مصرع شاعر العربية الأكبر ، حينما سمع أهل ضبة القصيدة فخرجوا وراء المتنبي فقتلوه .. هذه القصيدة لم تخل من تصورات فكهة بالغة من السخرية أقصى مداها .. إلى حد لا يجيز لنا نشرها بكل ألفاظها ، وأقصى ما نستطيعه في هذا المجال أن ننشر بعض أبيات منها ، مع تنقيط الكلمات الفاضحة ، تاركين مكان النقط لذكاء القاريء المتعجل ، محيلين القاريء غير المتعجل إلى أصل القصيدة في ديوان المتنبي :

مـــا أنـــصف القـــوم ضـــبه	وأمـــــه الطرطبـــــــه
رمـــــوا بـــــراس أبيـــــه	و ... الأم غلبـــــــــــه
فـــما بمـــن مـــات فخـــر	ولا بمـــــن ... رغبـــــه
كـــــل الـــــسهام..	لمـــريم وهـــي جعبـــه
مـــا ضرهـــا مـــن أتاهـــا	وإنـــــــــما ضر ...
يـــا أكـــرم النـــاس نفـــسًا	وألـــين النـــاس ركبـــه
وأرخـــص النـــاس أمـــا	تبيـــع ألفًـــا بحبـــه

وفي الشعر المعاصر أيضًا ، تستمر الظاهرة نفسها ، ولا ينفصل الهجاء عن الفكاهة ، ويبقى بينهما هذا الخيط الرفيع ، كما يبدو لنا في هذين البيتين للدكتور إبراهيم ناجي في هجاء إنسان دميم ، كان يعيش على هامش دنيا الأدب . قال ناجي في هذا المسكين :

يـــا نـــسل «دارويـــن» وخلقتـــه
وخلاصـــة النظريـــة القـــذره
يـــا عبقريـــا في دمامتـــه
ولـــدتك أمـــك وهـــي معتـــذره

ويسقط الشعراء المحدثون من تلك الأبواب الثمانية عشر أكثر من باب أصبح غير ذي موضوع في هذا العصر ، كالفخر والمدح والتهاني وغيرها من

الأغراض الدنيا التي لا ترقى إلى مستوى الشعر الخالص ، كما يسقطون أبوابًا أصبحت الجرأة عليها عملاً ممجوجًا في هذا العصر ، كالتشبيب بالمذكر ، والخمريات المسرفة .

ثم يرفعون من شأن هذه الأبواب بحيث تتحول إلى دعاوي قومية لا فردية كأبواب الوعيد والتحذير والتحريض ، التي لم يعد مثارها اليوم خصومة شخصية أو عيلية أو قبلية ، وإنما مثارها مطالب قومية أو إنسانية شاملة .

ونعود إلى حديث الشعر الفكاهي في هذا العصر ، فنجد أن النماذج المنشورة منه في الكتب والصحف والدواوين نادرة إلى حد قد يوحي لغير الدارسين والمخالطين للأجواء الأدبية بأن هذا اللون في الشعر صائر إلى زوال ، ولا سيما إذا قورنت حصيلتنا المعاصرة منه بحصيلة الماضي، في الكيف والكم .

والتعليل الأول لذلك ، أن شعراء الماضي كانوا يعيشون في فراغ ، وكانوا يتكسبون بالأدب ، وكانوا يعيشون على منح الخلفاء والسراة ، أما الشعراء المعاصرون ، فمشغولون بطلب العيش، ولا يتكسبون بالأدب ، ولا يتلقون المنح ، ففراغهم المحدود لا يتيح لهم إلا تكريسه للأعمال الجادة.

ومهما يكن في هذا القول من صحة ، فإن الشعر المعاصر لا يزال غنيًا بأدب الفكاهة ، ولكن قلة النماذج المعروضة منه ـ إذا قورنت بنماذج الماضي ـ ترجع ، أول ما ترجع ، إلى أن حفظة التاريخ الأدبي في العصور الماضية كانوا يثبتون للشاعر كل ما نظم من قول مشروع أو غير مشروع ، من هجاء فاحش ، أو خمريات ماجنة ، أو تشبيب بالمذكر ، أو غير ذلك من الأغراض مهما تهاوت صورها ومعانيها وألفاظها .

ولا يزال من حق الشاعر القديم ـ كلما أعدنا نشر إنتاجه ـ أن نثبت له هذا بكل أمانة .

أما الشاعر المعاصر ، فقد يطرق غرضًا من هذه الأغراض ، ولكنه يأبى أن يثبته ، ويأبى غيره أن يثبته له في ديوان منشور على الناس .

مثال ذلك ، أكثر شعر شاعر البؤس عبد الحميد الديب . فقد كانت له قصائد كثيرة قبيحة ، لا تخلو من روح الفكاهة ، كقصيدته التي يقول فيها :

وهام بي الأسى والبؤس حتى ... كأني عبلة والبؤس عنتر

ومن الأمثلة الطريفة في هذا المجال ، أبيات الشاعر محمود غنيم ، قالها في أديب معروف من كبار الموظفين - ولنسمه «فلان» - شاء القدر أن تكون رئيسته امرأة . قال غنيم :

فلان نعم الرجل ... محترم مبجل

له رئيسة إذا ... ما أمرت يمتثل

يرى بها قدوته ... في كل أمر تفعل

حتى إذا ما حملت ... تراه أيضًا يحمل

هذه الأبيات تجرنا إلى ذكر الدوافع الجديدة في الشعر الفكاهي المعاصر .

فالدافع في هذه القصيدة ، هو مساواة المرأة بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية ، وهو دافع جديد لم يعرفه القدامى ، ولو عرفوه لتركوا لنا فيه ذخيرة ضخمة من شعر الفكاهة .

واختلاف نظرة الناس إلى الجمال في هذا العصر ، يفتح الباب إلى دافع جديد من دوافع الشعر الفكه .

فقديمًا ، كان جمال المرأة يتمثل فيما يتراكم عليها من الشحم واللحم .

يقول الشاعر القديم في قصيدته التي يتغزل بها في حبيبة لها «مأكمة» عريضة لا يتسع لها الباب:

تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا

ذراعي عيطل أدماء بكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا

وثديا مثل حق العاج رخصًا ... حصانًا من أكف اللامسينا

ومأكمة يضيق الباب عنها ... وكشحًا قد جننت به جنونا

هذه المرأة لو وجدت في عصرنا هذا لأصبحت سخرية الشعراء وغير الشعراء بعد أن ذهبت أيام رفيعة هانم وجاء عصر الرشاقة الناحلة الرقيقة .

وقد كتب القدر على الشاعر محمود عماد أن يحب امرأة من ذوات المآكم الضخمة ، فنظم فيها هذه الأبيات اللطيفة :

أمنطاد كيانك يا حبيبي ... أم أنك قد طويت على كثيب ؟

مثلت بحيز في الأرض يكفي ... ليمرح فيه أكثر من حبيب

أحبك قطعة من بعد أخرى ... وإلا احتجت فيك إلى قلوب

يهون الحب تقسيطًا بجسم ... نأى فيه الشمال عن الجنوب

يدور عليك عند الصبح قلبي ... فيفرغ منك في وقت الغروب

ومجهدة لعيني إن أطافت ... ولم ترتح بجسمك يا حبيبي

أتمشي أم تدحرج ... لست أدري ... فحقك أن تسير على قضيب

إذا بلد حللت به خصيب ... فما هو بعد بالبلد الخصيب

وكانت السياسة القائمة على الأحزاب والحزبية إلى ما قبل الثورة ، مدعاة للسخرية والهزل ، انعكست على مرآة الشعر في ذلك العصر ، فاغتنى بها شعر الفكاهة .

ومن أبرع النماذج التي طالعت الناس في هذا الضرب ، قصائد «الشاعر إياه» في مجلة «الكشكول» ، وكان ناظمها هو المرحوم الشاعر محمد الهياوي ، وقد شنها حملة ضارية على الوفد وزعيمه سعد زغلول ، ومصطفى النحاس من بعده ، ولم يخل أكثرها من إسفاف ، لا يعتذر له في ذلك إلا أن السياسة كلها هبطت إلى حضيض الإسفاف في ذلك العهد .

ومن نماذجها ، قوله لسعد زغلول بعد خطبة ألقاها يصف فيها الإنجليز بأنهم «خصوم شرفاء معقولون» ! :

بربـــــر برابــــــر بربــــــره   أمـــا كلامـــك مـــسخره
حيرتنـــا يـــا أقـــرع   دوختنـــا يـــا ابـــن المـــره

وعلى صفحات «الكشكول» أيضًا .. ظهرت من الشعر الفكه ألوان صارخة عن الفكاهة والسخرية ، للشاعر حسين شفيق المصري ، منها «المشعلقات» و«المشهورات من» «الشعر الحلمنتيشي» .

ولم يعرف العرب المسرح ، فلم يعرفوا بالتالي الشعر المسرحي كما عرفه المصريون القدامى ، ومن بعدهم اليونان والرومان والأوربيون جملة ، إلى أن ظهرت مسرحيات شوقى الرائعة ، التي لم تخل بعض مواقفها من نماذج بارعة من الشعر الفكه ، ولا سيما مسرحية «الست هدى» .. وكذا بعض مشاهد مسرحية «مجنون ليلى» كمشهد المعركة الوهمية بين بشر ومنازل ، وكلها جعجعة بلا طحن ، يرسمها شوقي في صورة هازلة حافلة بالطرافة .

وبعد ، فإن المقام لا يتسع للاستفاضة في إبراز سمات الشعر الفكاهي المعاصر وتحديد بواعثه وخصائصه . ومن الأوفى بالقصد أن نتحدث عن أبرز رواد هذا المجال من الشعراء المعاصرين .

أحمد شوقي :

وقد ألمحنا إلى جانب الفكاهة في شعره المسرحي .

كما أن له نتاجًا كثيرًا في لون من الشعر الأسطوري الذي أجراه على ألسنة الحيوان والطير، في الجزء الرابع من «الشوقيات» لا يخلو من فكاهة .

أما شعره الغنائي ، فقد كان جانب الفكاهة فيه قليل ، ونخص بالذكر منه دعاباته للمرحوم الدكتور محجوب ثابت ، فله فيه سخريات بديعة في وصف «مكسويني» حصان الدكتور محجوب، وفي وصف سيارته «الأوفرلاند» الخربة ، وفي وصف البراغيث التي طالما صور أمير الشعراء ذقن الدكتور محجوب ملعبًا لها ... كقوله :

براغيث محجوب لن أنسها ... ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربي ... وتنغذ في اللحم والأعظم
وكنت إذا الصيف راح أصبحت ... فجاء الخريف فلم أحجم
ترحب بالضيف فوق الطريق ... فباب العيادة فالسلم
قد انتشرت جوقة جوقة ... كما رشت الأرض بالسمسم
وترقص رقص المواسي الحداد ... على الجلد والقلق الأسمم
يواكير تطلع قبل الشتاء ... وترفع ألوية الموسم
إذا ما «ابن سينا» رمى بلغما ... رأيت البراغيث في البلغم
وتبصرها حول «بيبا» الرئيس[1] ... وفي شاربيه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه ... مع السوس في طلب المطعم

حسين شفيق المصري:

وكان له شعر جاد جميل ، ولكنه قليل . ولعل اشتغاله بالصحف الهزلية ، ولا سيما الكشكول، قد أرغمه على هجر الشعر الجاد والإكثار من الشعر الهازل طلبًا للقمة العيش .

وكانوا يسمونه «أبو نواس الجديد» لأنه كان نواسيًا في حياته وخمرياته .

ومن أطرف الألوان التي ابتكرها في شعر الفكاهة ... «المشعلقات» وهي معارضات للمعلقات المأثورة ، يأتي بمطلع الواحدة منها ، ثم يسلك نفس البحر والقافية ، ساخرًا ، مستخدمًا مزاجًا من اللغة الفصحى واللهجة المصرية ، وله ـ فيما خاض من ألوان الشعر الفكه ـ مقطعات كثيرة مرحة ، كقوله على لسان ليلى الأخيلية :

(١) ابن سينا ، والرئيس : كناية عن الدكتور محجوب ، وكان مولعًا بتدخين البيبة ، أي الغليون .

يـادي الأضاشـة والخيانـة　　　والندامـة والـصدامة
إني صـبحت كوميديـة　　　مـن بعـد تمثيـل الدرامـه
إني زعلـت فـويلكم　　　مـن شبـشبي يـوم القيامـة

وقوله على لسان العباس بن الأحنف :

ألم ترعينـي كيـف صـار بياضـها　　　حمـارًا كـأن العـين صـارت طماطـما
وأني متـى مـا قيـل إنـك مـش هنـا　　　لطمـت إلى أن صـاروشي وارمـا
لو إنك فوق السطح والسطح في السما　　　وقلـت لي إطلـع لي ، أنـط الـسلالما

وقد درج أكثر شعراء الفكاهة الذين عاصروه على نهجه ، واتخذوا منه أستاذًا لهم ، وملأوا وجوه الصحف الهزلية الكثيرة التي كانت شائعة في العهد الماضي ، كالسيف ، والناس ، والمسامير، والبعكوكة ، وغيرها ، بألوان متعددة من أدب حسين شفيق المصري.

بيرم التونسي :

وبيرم مدرسة ضخمة في تاريخ الأدب الشعبي ، وقد كان يفخر دائمًا بأنه زجال ، على غير شأن ناظمي الأدب الشعبي اليوم ، الذين يصرون على تسمية أنفسهم شعراء ... رغم أن نتاج بيرم لم يخل من شعر جاد ، وإن كان قليلاً .

وقد مارس بيرم الشعر الفكه ، وتميز في هذا المجال عن غيره ممن مارسوه ، بأن شعره الفكه كان هادفًا دائمًا .

وأبرع مثل لذلك ، قصيدته في «المجلس البلدي» التي حمل فيها على بلدية الاسكندرية حملة شعواء لكثرة ما تفرض من الضرائب على الناس وتحاربهم في أرزاقهم ، وقد كان أكثر أعضائها يومئذ من الأجانب .

يقول بيرم في هذه القصيدة الفذة :

لا تنكـروا مـا رأيـتم مـن ضـنى جـسدي

ولا فـــؤادي الـــذي أمـــسكته بيـــدي
بمحنتـــي لم يـــصب في النـــاس مـــن أحـــد
قـــد أوقـــع القلـــب في الأشـــجان والكمـــد
هـــوى حبيـــب يـــسمى المجلـــس البلـــدى

إلى أن يقول في ختام القصيدة :

لـــو ســـمتنى الـــصخر والفـــولاذ أمـــضغه
والـــريح أمـــسكه والمـــاء أدمغـــه
عـــلى نكايتهـــا قـــد زاد مبلغـــه
إن الـــدعاء عـــلى الجبـــار أبلغـــه
يـــا رب ســـلط عليـــه المجلـــس البلـــدي

حفني ناصف :

كان رجلاً واسع الآفاق متعدد المسارب ، وكان إلى جانب ذلك من أئمة ظرفاء عصره . وهو صاحب الأبيات المعقدة التي نسبها إلى الشيخ حمزة فتح الله وهو منها بريء .

وحكاية ذلك أن حفني ناصف والشيخ حمزة فتح الله وآخرين كانوا في رحلة نيلية على بواخر شركة كوك ، وكان الشيخ لا يفتأ يشكو من سوء الخدمة في الباخرة ، فنظم حفني هذه الأبيات على أنها من نظم الشيخ - الذي اشتهر بإقحام الألفاظ القاموسية المعقدة في حديثه اليومي - وبعث بها إلى اللورد كرومر:

يـا أيهـا الفيـصل المزجـي زواجـره صـوب الـسفين وصـوب الـسوس
أشكوك كوكك كي ينفك عن جنف قـد كـان كـلا وكـل مـل كلكلـه
أبـاتني والجـرشي حـشوها ضـجر إن مس شـقي خـشب الفلـك قلقلـه

وله في مداعبة أصدقائه كثير من هذا اللون ، منه هذان البيتان في مداعبة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :

وقالوا احتسى هذا الشويش مدامة	ألم تره للبش يبدى وللأنس
وما ذاق طعم الخمر يومًا ، وإنما	به نشوة من كثرة الأكل للعدس

عباس العقاد :

وكان العقاد يبدو للناس عملاقًا جهمًا . ولكن واقعه لم يكن كذلك . ففي الحق أنه كان من أظرف الظرفاء إذ ظفر بقوم يأنس إليهم ، ويرتاح إلى مجلسهم .

وكان - إذ هو مقرر للجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب - يشيع في كل جلسة جوًا من المرح والإيناس بما يسوق من نكات القدامى والمحدثين وطرائفهم ، وكان يفرح بالنكتة الجديدة فرحة طفل كبير .

ولعل كتابه «جحا الضاحك المضحك» ، وهو من خير كتبه ، يكشف عن روح العقاد المرحة إلى أبعد حد .

وله في مداعبة أصدقائه كثير من القصائد والأزجال أيضًا ، يستأثر بنصيب الأسد منها صاحبه طاهر الجبلاوي .

مرة .. كتب له طاهر من الفيوم يزعم أنه فقد حافظة نقوده ، فبعث العقاد إليه بالرد يحمل شيكًا ومعه هذه الأبيات :

تتجنى على اللصوص من الظلم	.. فيا ليتهم تجنوا عليكا
إن يكن ضاع منك ما ضاع فاعلم	إن كفيك غالتا كفيكا
بين كأس شهية وشراب	عبقري تجلو به عينيكا
فتقبل شيكاتنا ثم حاذر	إن تزوغ الشيكات من كفيكا
ثم هرول يا خيتعور من الفيوم	... جريا ، ولو على قدميكا

وكان طاهر الجبلاوي يقتني كلبًا يؤنسه في وحدته ، فدهمته سيارة ، فقضى ، فبعث إليه العقاد بهذه الأبيات يعزيه :

حزنًا على كلب طاهر ... فإنه طاهر الكلاب

تشابها في خليقة ... واتفقا شيمة الصحاب

وربما على طاهر ... وكلبه حاضر الجواب

فليس يوفيه حقه ... من اكتئاب أو انتحاب

إلا إذا بات نابحًا ... نبح المساعير في الخراب

عوعو عووعو .. بلا وني ... ولا انقطاع ولا اقتضاب

لا تسألوا رحمة له ... قد رحم الله واستجاب

لعله مات قانطًا ... من أزمة الأكل والشراب

منتحرًا في شبابه ... وهكذا يصنع الشباب

أراحه الله من ضنى ... أنقذه القبر من عذاب

فليحمد الله ربه ... من جاع فليرض بالتراب

وللعقاد قصيدة مشهورة عنوانها «حديقة حيوانات آدمية » يقول في مقدمتها:

«هذه الحديقة لا تجمع إلا الفنان أو المحب للفنون ، سمى كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ في اختياره اتفاق الشبه في الملامح والعادات » .

وقد شبه العقاد في هذه القصيدة كل صاحب من أصحابه بأحد الحيوانات ، فهذا دب وذاك قرد وثالث جدى ورابع ضبع ... إلخ .

وهي تذكرنا بالشاعر الإنجليزي الكبير الراحل ت . س . اليوت ، إذ كان يرى أن في كل إنسان نوعًا من الشبه النفسي أو الجسدي ببعض الحيوانات ، فتخير لكل من أصدقائه المقربين نوع الحيوان الشبيه به ، وجعل يناديه باسمه ،

فكان يسمى «فرانك مورلي» الحوت .. لضخامته ومهابته، وكان يسمى «جون هايروورد» العنكبوت ، لأن الرجل أصيب منذ عدة سنوات في حادث أقعده ، فلزم بيته على كرسي ذي عجلتين ، وجعل يستدعى أصدقاءه ليجلسوا حوله ويؤنسوه أطول وقت ممكن ، كما يفعل العنكبوت حين ينسج خيوطه ليتصيد أكبر مجموعة من الهوام المهومة حوله .

يقول العقاد في مطلع تلك القصيدة :

أورفيوس الفن سوى بينها ... فتلاقى الدب فيها بالقرود

وتغنى فرس البحر بها ... يا له من فرس طلق النشيد

إلى أن يقول :

حيوانات ، ولكن بينها ... كل ذي لب سماوي رشيد

أحمد رامي :

في دمشق شخصية ظريفة سمحة ، يعرفها أكثر الأدباء والشعراء .. تلك هي شخصية «أبي سهيل» ... المدير الليلي الفندق سميراميس الذي ينزل فيه أكثر أصحاب الأقلام .

ومن عادة أبي سهيل ، إنه إذا هبط عليه - إذ هو نائم بالليل - أحد يطلب غرفة ، قال له دون أن يفتح عينيه ، أن الفندق كله محجوز لشركة كوك .

وتكررت هذه الحكاية مع كامل الشناوي فكتب له هذين البيتين :

أو كلما جئنا لنطلب غرفة أرجفت : كوك

أأبا سهيل ، أنت في الأبناء ملعون أبوك

ولم يغضب أبو سهيل ، لأنه يحب الشعر ويقدر الفكاهة ويعلم أن «القافية تعذر» .

وحينما نزلنا - رامي وأنا - في هذا الفندق منذ بضع سنوات ، تعودنا أن نسهر

خارج الفندق ، ثم نعود في آخر الليل فلا نجد عشاء ، فنسأل أبا سهيل أن يعوضنا عن العشاء ببعض الفاكهة ، فكان يعد ويخلف ، ولا يعد إلا ليخلف ، فنظمنا فيه معًا هذه الأبيات :

أمن حق الوفاء أبا سهيل

نقضى الليل في أعقاب ليل

ونحن على الطوى من غير قوت

ولو بسطرمة أو لحم خيل ؟

ومن ألطف ما نظم رامي من الشعر الفكه ، قصيدته في صديقه الشاعر اللبناني الكبير أمين نخلة ، حين دعاه إلى أكلة ضفادع قال رامي :

دعاني إلى أكلة ممتعه

وقال سيطعمني ضفدعه

وكيف تكون الضفادع قوتًا

وبيتها الليل في منقعه ؟

لها مشية مثل زحف القعيد

إذا دب يسعى على أربعه

وجلد كجلد الحذاء القديم

تهرأ وصاحبه رقعه

ثم راح يصف صاحبه وهو يأكلها ، فيقول ساخرًا :

وراح بعنف يقضقض منها

عظامًا لها بيننا قرقعه

فخيل لي أن أمد ذراعي

وطــــاب لكفـــــى أن تــــصفعه

فــــلا كـــان ذاك الغـــذاء الكريـــه

ولا كـــان يومـــك يـــا ضـــفدعه

محمود غنيم:

ومحمود غنيم هو أكبر الشعراء في هذا العصر ، وينصب هجاؤه دائمًا على رءوس أصدقائه الشعراء ...

ومن لطيف تورياته في مداعبة صديقه الشاعر محمود الخفيف :

أيهـــا الـــشاعر جعنـــا

هـــات لحـــمًا ورغيفـــا

واســـقنا شـــايًا ثقـــيلاً

لعـــن الله الخفيفـــا

جاءت حفنة من الشعراء الذين تركوا رصيدًا ضخمًا من الشعر الضاحك ولكنه ضحك كالبكاء .. لأنهم لم ينشروه على موائد الخلفاء وحلقات السمر .. وإنما نفثوه في وجه الخلفاء وكوكبة الحاكمين .. فكانوا بذلك الضاحكين الباكين حقًا .. يتمرغون في الأسى ... ويضحكون الناس على أساهم ..

ولقد لجؤوا إلى الضحك ليجهروا من خلاله بالرأي ضد ما يلمسون من مظاهر التخلف والتسلط وينفسون به عن وجيعتهم ليخففوا من حدة الحياة القاسية .

هؤلاء الباكون الضاحكون هم : عبد الحميد الديب وحسين شفيق المصري وبيرم التونسي[(١)] .

فالديب ذاق مرارة البؤس واستمرأ هذه المرارة وجعلها مدارًا لأشعاره كلها فجاءت حزينة قائمة بقدر ما بعثت البسمة على الشفاة حتى ليصفه الزيات خير

(١) فتحي سعيد ، عن الشعر والشعراء ، قصور الثقافة ، ١٩٨٧ .

وصف حين يقول عن شعره :

« رجعة إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائين المستهترين المكدين الذي لم تهيئهم طبائعهم للعمل الكاسب فأخلدوا إلى التبطل وحملوا عجزهم وعوزهم على لؤم الناس وظلم القدر » .

وأيًا كان إخلاء الديب للتبطل .. وحرصه على روح البؤس لم يفته وهو الشاعر الأصيل أن يرصد عيوب مجتمعه ويصرخ في وجه ظالميه من أجل إخوته الجائعين :

فالرغيف الذي لا يجده .. ولا يجده غيره معه ينقص وزنه عام ١٩٤١ بقرار وزاري فيصرخ الديب :

صغر الرغيف كأنما هو قطعةٌ ... من قلب تاجره وجلد البائعِ

قد كان شيخًا للطعام فماله ... قد صار شبه وليد شهر سابعِ

جوعوا .. تصحوا واذكروها حكمة ... فالمجد لم يكتب لغير الجائعِ !

والديب الذي لم تبتسم له الدنيا أبدًا .. ترق له يومًا فيلحق بإحدى الوظائف ولا يلبث أن يفصل منها ولم تمض أيام عليه فيقول ساخرًا :

بالأمس كنت مشردًا أهليًا ... واليوم صرت مشردًا رسميًا

ولا يخجل الديب من السخرية بنفسه حين سقط في براثن «الكوكايين» مبررًا ذلك بقوله يخاطب حبيبته وشريكته :

أفاطم أن الناس قد مزقوا عرضي ... وصرت لعينا في السماء وفي الأرض

يقولون شمامٌ وما شم معطسي ... سوى الروضة الفيحاء والنرجس الغضِ

أليس بياض الكوكايين .. مبشرًا ... بأسود عيش في غياهبه أقضي ؟

وكان الديب من هذه الفئة المنكوبة الحظ في الدنيا أو من هؤلاء الذين ركبوا موجة سوء الحظ تلك دون محاولة النجاة .. فتصور أن في البؤس موهبة وأن

العزف الدائم على وتر الضياع والشكوى وسوء الحظ هو عزف منفرد يتميز به عن سائر الشعراء حتى لينال عن جدارة لقب «شاعر البؤس» كما كان حافظ إبراهيم شاعر النيل، وإمام العبد شاعر النحس وكأنه تاج يلبسه لا لعنة تطارده.

ومن ثم أخلص الديب لبؤسه وهام بفقره وشجع ذلك البؤس على أن يحكم قبضته عليه ففشل في دراسته بدار العلوم وفشل في جميع وظائفه ولم يستقر بسكن واحد أو محل إقامة واستنام للكسل والبطالة والترحال الدائم ...

وكأن ذلك البؤس ثوب من العوسج يدمي جسد صاحبه ولا يجد مفرًا من تحمل وخز الشوك بدلاً من أن يخلع الثوب لينجو بجسده وإنما أثره على ما يبلوه منه مبررًا لنفسه وللناس ذلك مستمرًا في الندب والشكوى:

لا تنكروا الشكوى على مُتبرمٍ ... قلق الحياة كمن يُشاك بثوبهِ
أنا لا أرى لي في شبابي لذة ... لهفي على مرح الشباب وعجْبهِ
من كان توأمه الشقاء وصنوه ... فشبابه حرب عليه كشيبهِ

ولقد أخلص الديب لبؤسه كما يخلص عاشق لحبيبه ووفر على ناقديه ومعاصريه أن يطيلوا القول والجدل فيه فأعلن عن هويته في كل موقف وعرج على بؤسه في شعره واعترف أصدق اعتراف وهو يستقبل العيد:

يا معشر الديب وافي كل مغتربٍ ... إلا غريبكم في مصر ما بانا
ذبحتم الشاة قربانا لعيدكمُ ... والدهر قدمني للبؤس قربانا

ولعل خير شفيع لعبد الحميد الديب وبؤسه وما كيل له من تهم قوله الذي يؤكد به إيمانه بالرغم ما نزل به من جوع وتشرد قانعًا بأن إيمانه هو رزقه الكبير:

أأكفر من بؤسي بأحكام خالقي ... كفى بي رزقًا أنني الدهر مسلمُ

ورحل الديب وحيدًا فقيرًا يائسًا في غرفة مظلمة كالسجن وصفها بأنها لحده الذي يأوى إليه رحل ضحية من ضحايا هؤلاء الذين ضيقوا عليه آفاق الرزق الحلال وطاب لهم أن يكون من نداماهم ومضحكيهم دون مد يد المساعدة الحقيقية له.. اكتفوا بأن يرموا له

الفتات والشراب مقابل أن يطلق لسانه بما يدخل البهجة على قلوبهم أو يهجي به أعاديهم وصدق قوله حين قال فيهم وفي نفسه :

حظـى ومـصرعه في لـين أخلاقـي	وفيض عطفى على قومي وإشفاقي
بـين النجـوم أنـاس قـد رفعتهمـو	إلى الـسماء فـسدوا بـاب أرزاقـي
يــا أمــة جهلتنــي وهــي عالمــة	إن الكواكـب مـن نـورى وإشراقي
ولــيس لي مــن حبيــب في ديــاركم	إلا الحبيبــين إملاقــي وأوراقــي
لم أدر مــاذا طعمــتم في موائــدكم	لحم الذبيحة أم لحمي وأخلاقي ؟!

القسم الثاني

صعاليك وظرفاء

ذريني للغنى أسعى، فإني
رأيتُ الناس شرُّهم الفقير
وأدْناهم، وأهونهم عليهم
وإنْ أمْسى له حسبٌ وخِيرُ
يباعدهُ الغريب، وتزدريه
حليلته، ويقهره الصغيرُ
ويلقي ذو الغنى، وله جلال
يكادُ فؤاد لاقيه يطيرُ
قليل ذنبهُ، والذنبُ جمٌّ
ولكن للغنى ربٌّ غفور

عروة بن الورد

أمير صعاليك العرب

* * *

محمد مصطفى حمام

الصعلوك الساخر !



كان محمد مصطفى حمام شاعرًا وأديبًا ، وراوية ، وخطيبًا ، وفاكهة أدب المجالس والأسمار الذي لا يشق له غبار ، ذاكرته تعي مئات الأبيات من الشعر العربي قديمه وحديثه ... هذا الشاعر الأديب الراوية أحد ظرفاء أدب المجالس الأدبية الذي ولد في مدينة فارسكور التابعة يومئذ لمحافظة الدقهلية وهي حاليًا تابعة لمحافظة دمياط - في ١٨ أغسطس ١٩٠٤ حيث تعلم في مدرستها الابتدائية، ثم انتقل إلى القاهرة حيث تعلم في المدرسة الخديوية الثانوية ، ومدرسة المعلمين العليا وبعد تخرجه فيها قضى ستة وعشرين عامًا في وظائف الدولة في وزارات مختلفة ، مشتغلاً في الوقت نفسه بالصحافة والأدب ، ثم استقال من الوظائف الحكومية في ١٥ أكتوبر ١٩٥٢ ليتفرغ للأدب والصحافة .

وقد عمل حمام في العديد من الصحف والمجلات المصرية ونشر فيها أشعاره وبعض مسامراته الأدبية ..

عمل في السعودية لفترة طويلة وعندما ساءت العلاقات بين مصر والسعودية في مطلع ستينيات القرن العشرين سافر إلى الكويت وتفاعل مع منتدياتها الأدبية ومجالسها الشعرية ، ومنابرها الإعلامية حتى توفي بها في ٢٣ مارس ١٩٦٤ بعيدًا عن وطنه الذي أحبه ، وعن أهله ، وأحبابه !

ويرى بعض مؤرخيه أن الحياة استقبلته بالأحضان في بداية حياته الأدبية ، ثم أخذت تتعقبه بالضربات القاسية إلى أن لقى وجه ربه وحيدًا بعيدًا عن وطنه.

وقد استطاع أن ينتزع مكانه كشاعر مشهور وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره .. ففي عام ١٩٠٦ زار السلطان حسين مدرسة فارسكور الابتدائية ، وألقى بين يديه التلميذ « محمد مصطفى حمام » قصيدة ترحيب ، وسأل السلطان عمن نظم القصيدة لهذا التلميذ الصغير قيل له : أن التلميذ شاعر ، ولا تفوته مناسبة في المدرسة إلا ويسجلها بالشعر .. سر السلطان بذلك ، وأمر بتعليم التلميذ «محمد مصطفى حمام» على نفقة الدولة إلى أن يتم الدراسة العالية ..

ومنذ ذلك الحين طارت شهرة التلميذ الشاعر .. وانصرف عن دروسه في الشعر .. فلم يتمم الدراسة الثانوية ، والتحق بوظائف الحكومة .. وكان إلى جانب ذلك يشتغل في العديد من المجلات السياسية والأدبية والفكاهية . ثم تحول هو نفسه إلى صحيفة تصدر كل يوم .. بل كل ساعة ، تطوف بالناس في المقاهي ، والأندية ، والبيوت .. تروي أخبار السياسة والأدب بأسلوب مريح .. ولم يكن كل ما يرويه صحيحًا دائمًا ، فقد كانت جاذبيته في أنه يختلق الأنباء السياسية ، والأنباء الأدبية أيضًا .. ولم يكن ما يختلقه في الأدب مجرد خبر .. بل كان نصوصًا لقصائد ينظمها وينسبها إلى أحد الشعراء .. وكان بارعًا في محاكاة الشعراء القدامى والمحدثين وتقليد طريقتهم في نظم القصائد :

نظم قصيدة على لسان الشاعر الكبير «أحمد شوقي» هجا بها جماعة «أبو للو» واضطر شوقي إلى أن ينفي حدوث هذه القصيدة منه ، ونظم قصيدة حيا بها جماعة «أبو للو» وهي التي يقول فيها:

أبو للو ..
مرحبًا بك يا أبو للو
فإنك من عكاظ الشعر
ظل ..

وبعد أن ودع الشاعر الكبير أحمد شوقي حياته بأعوام قليلة كتب «حمام» قصيدة على لسان (شوقي) يتغزل فيها بالأديبة «مي زيادة» وقد نشرت هذه القصيدة على أنها من نظم شوقي .. يقول حمام في هذه القصيدة :

أسائل خاطري عما سباني — أحسن الخلق أم حسن البيان ؟

رأيت تنافس الحسنين فيها — كأنهما لمية عاشقان

لعل شبابها راث لشيبي — وما أو هي زماني من كياني

وبعض العشق إكبار وعطف — ووصل بالمشاعر والمعاني

فقدس من تحب ولا تدنس — ليبقى روض حبك في أمان

وتظهر ملكة «حمام» النقدية وتذوقه الفريد للأساليب الشعرية في القصائد التي كتبها يقلد بها المشهورين من عصره ، وغيرهم من الشعراء القدامى .. نظم قصيدة أسماها «الطبيعة» ونسبها إلى الشاعر «محمود حسن إسماعيل» منها:

رقص البدر على لحن الصخور — ونحورا في ثغور من بحور

قد حبسنا الجو فيه فانطلق — نامت الأمواج فيه حضن الفلك

وارتمى الشيطان في جوف الملك — وانتشى الطاووس من ماء الحلك

واستراح الظل في حجر الشفق

وكتب سلسلة من المقالات زعم فيها أن جميع شعراء عصره «لصوص» يسطون على معاني الشعر القديم . وألفاظه ..

وأثبت هذا بالبرهان القاطع .. القاطع على طريقته الخاصة .

من ذلك أن للعقاد قصيدة مشهورة في ذم أحد زعماء ما قبل الثورة يقول فيها معتذرًا عن مدحه لذلك الزعيم فيما مضى :

وماذا أقول لهذى اليمين–وأني منها قد صغت الصنم ؟

ويورد حمام هذا البيت، ثم يقول أنه مسروق من «التلعفري» :

ماذا أقول لكفي والذي صنعت إني صنعت بكفي ذلك الصنما

والتلعفري لم يقل هذا البيت طبعًا، وإنما هو من صنع «حمام»

وهكذا صنع ببقية شعراء عصره .. والعجيب أنهم صدقوا الأبيات التي صنعها وأخذوا يدافعون عن أنفسهم، ويقسمون أنهم لم يقرأوا هذه الأبيات، وأن الحكاية لا تعدو أن تكون توارد خواطر

ولم يسلم أحد من الشعراء من تقليده حتى شعراء الفكاهة ..

كتب الشاعر «عبد السلام شهاب» قصيدة فكاهية يخاطب فيها «الانجليز»:

طال المطال فهيا واحزموا الشنطا فالضيف يقعد يوما واحدًا فقطا

فكتب «حمام» قصيدة أخرى يحاكيه فيها من نفس الوزن والقافية منها:

سبعون عامًا وانتم تطفحون هنا بمعدة بنت كلب تبلع الزلطا

وتشفطون حقوق الناس قاطبة ألا يرد الحرامي بعض ما شفطا ؟

والشعر الحديث «أيضًا » لم يسلم من تقليده ومحاكاته .. كتب قصيدة من الشعر الحديث أسماها «من روائع الشعر الموضة » قال فيها :

يا دواجن .. يا طيور

يا مواشي .. يا حمير

يا رجال، يا نساء، يا كمال يا سناء ..

اتركوا الأرياف سكرى .. أو : حزينه

وتعالوا للمدينة .. للمدينة

حيث تدليل وعزة.. حيث كونياك ومزة

وفطائر .. وشطائر .. وسجائر

والبنات الأشقرات .. والنساء الأبيضات ..

قالت : المعزة : كلا .. قالت الوزة : هلا ؟

قلت : لا .. لا ... لئلا

وسمعت الجحش ينهق .. عجبا

وغراب البين يزعق ... طربا

وصواريخ الغرام

نكشت عش الحمام

وشبطنا في الترام .. يا حبيبي ..

وكان حمام يجيد "نحت" ألفاظ لا أصل لها في اللغة العربية في شعره الحلمنتيشي حتى يحسبها القارئ شعرًا عربيًا أصيلا ومنها قصيدته «السهل الممتنع».

الناس صنفان: عطمول وقحطول

والعيش لونان: هلفول وشفلول

والدهر مهما تخادعنا حوادثه

معلولط زنبعي الوجه حرمول

والعمر يمطو كما تمطو قرامعنا

ما أنفع العمر لو حازه بعلول

فإن تك شاكيًا أو شاكرًا فقد

ربط الرهام وحبل العيش موصول

كأننا والشباب الغض فارقنا

أعجاز نخل ووعد الله مفعول

وكان يتخذ من أحد المقاهي الشهيرة في حي الحسين مركزًا لعمله «الشعري» و (الصحفي) .. وكان يكتب مقالا في مجلة . ويهاجم المقال في مجلة أخرى . ويوقع المقالين بإمضاءين مستعارين .. وكان دائمًا في حاجة إلى نقود لأنه

صاحب «أسر» كثيرة وأبناء عديدين .. فإذا كتب طلب الأجر فور وضعه القلم .. وكان يضع تسعيرة متواضعة لأجره ... يكتب «المقال» أو الموضوع بمبلغ قدره جنيه واحد .. و«القصيدة» أجرها خمسون قرشًا و«الزجل» بخمسة وعشرين قرشًا أما «الموال» فبعشرة قروش فقط .

الظريف المزواج :

وقد حلل الأديب الشاعر طاهر أبو فاشا (١٩٠٨ ـ ١٩٨٩) ملامح شخصية محمد مصطفى حمام وأسرار سخريته فقال :[١]

كان حمام يتجاوزُ عَنَتَ الحاجة بسماحة النفس . وبساطة النظرة إلى مشكلات الحياة اليومية . وتبسيطها . والتَّهْوِين من شأنها .

كان فيه ـ على إقلاله ـ أريحيةٌ . وشمائل . كلُّ شمالٍ منها يسترعى التأمل .

فقد كان مأمونَ الغيب . لا أذكر أني سمعته يومًا يتناولُ أحدًا بسوء . حتى أهل السوء .

وكان على عِلاّته إنسانًا رضيًّا . سَمُوحًا . لطيف المعشر ، قليل الشكوى ـ على ما به ـ ولا أذكر أني رأيته يومًا ساخطًا . أو ناقمًا ، أو حاقدًا ، أو ممرورًا حتى في أحلك أوقات الضنك والحِراف .

كان كما قال ـ وصدق مع نفسه ـ في لاميته الطويلة الجميلة :

عَلّمَتْنِي الحياةُ أن أتَلَقّى ... كلّ ألوانِها رضًا وقَبُولا

والذي أَلْهِمَ الرضا لا تراه ... أبد الدهر حاسدًا أو عذولاَ

أما حاجته هو فما كان أيْسَرَها ، وما كان أُهْوَنَها عليه . وأقدره عليها فهو لا يُدَخّن إلاّ لمامًا . ثم هو لا يُخْمَر . ولا يُخْدَر . وكان له من ظرفه وطرافة حديثه ورواياته ، ومطايباته ـ كان له من ذلك موردٌ وظلٌّ يَفِيءُ إليه مِنْ هاجرةِ الأيام. إذا قحط الزمان .

---

(١) طاهر أبو فاشا ، الذين أدركتهم حرفة الأدب .

ومحمد مصطفى حمام من أبناء دمياط فقد وُلد في فارسكور عام ١٩٠٦ . وتوفى والده وهو في الرابعة . فكفله جده لوالده ، وقام بتنشئته فأدخله كُتَّاب القرية حتى إذا شَدا طرفًا من كتاب الله حفظًا وتجويدًا ألحقه بمدرسة فارسكور الابتدائية . وبهذا سلك في تعلّمه طريقًا غير التي سلكها عبد الحميد الديب . ومحمود أبو الوفا . فقد اتجها إلى التعليم الأزهري واتجه هو إلى التعليم الابتدائي بالمدارس الأميرية .. وثلاثتهم لم يكملوا تَعَلُّمَهُمْ .

وفي مدرسة فارسكور وقع له حادث كان له أثره في حياته ، ففي عام ١٩١٦ م زار السلطان حسين كامل مديرية الدقهلية وشملت الزيارة فارسكور كما شمل البرنامج زيارة مدرستها الابتدائية .. وإذا تلميذٌ صغيرٌ في الصف الثالث يستقبل السلطان بأبيات من الشعر يحييه فيها ، ويرحب بمقدمه ، ويسر السلطان سرورًا لا مزيد عليه ، ويهدي إليه ساعة ذهبية ويتكفل بنفقات تعلمه في مراحل التعليم التالية .

ومهما يك من شيء فقد انفتح الطريق أمام حما م لينتظم في سلك التعليم الثانوي : فالتحق بالقسم الداخلي في المدرسة الخديوية بالعاصمة في بحبوحةٍ من كفالة السلطان حسين كامل . ثم السلطان أحمد فؤاد . وقد كانت كفالتهما إياه لا تكلفهما شيئًا . فهي لم تكن تعنى أكثر من إعفائه من المصاريف المدرسيّة . أي أنها كانت كفالة على حساب الدولة . ومع ذلك لم تستمر هذه الكفالة طويلاً ، فقد اندلعت ثورة ١٩ وأضرب تلاميذ المدارس ، وخرج حمام من الخديوية محمولاً على أكتاف زملائه . وهو يقود الهتاف ، وَيَفْتَنُّ في ابتكار صيغه المختلفة حتى وصلت المظاهرةُ إلى الأزهر. وهناك وجد كثيرًا من المتحمسين يتعاقبون على منبر الخطابة . فاعتلاه حمام . وعرفته المحافل الوطنية في هذه الآونة فتى في مقتبل العمر ولكنه يجيد الخطابة ويشدُّ إليه الجماهير بحماسته وتدفقه وحسن إلقائه .

ولما هدأت فورة المظاهرات انقطع عن المدرسة وانقطعت عنه كفالة السلطان وبدأ اعتماده على نفسه في إعاشته واستكمال تعلُّمه فكان يعمل مصححًا في بعض المجلات وينشر فيها بواكير أشعاره وأزجاله في هذه السن المبكرة !

وخرج من التعليم يتأبط (البكالوريا) أو لعلها (شهادة الكفاءة) ..

وهكذا خرج حمام إلى ميدان الحياة مجردًا لا يملك إلا مواهبه الشابة تجودُها نفس خصبة، وطبع سخيّ.

وتتعاقب أيام الصعلكة في العاصمة، ويظهر حمام في المحافل الأدبية شاعرًا ظريفًا وراوية فكها يستظهرُ الطرائف، ويحفظ الأوابد .. وفي مصر - يومئذ - وزراء وكبراء .. يسمعون ويتذوقون ويطربون ففتحوا له الطريق للعمل موظفًا صغيرًا في وزارة الزراعة ثم الشؤون الاجتماعية فالمواصلات والبريد.

ولم تحل هذه الوظائف (الشرفية) بينه وبين الاتصال بالصحف والمجلات، فقد كان في الواقع - موظفًا بلا وظيفة، وكانت علاقته بهؤلاء الكبراء تشفع له وتحميه.

ويذكر صديقه الشاعر طاهر أبو فاشا أن «حمام» هو الذي نبهنا في وقت مبكر إلى روائع بيرم التونسي وعرفنا بأدبه فيما كان يطرفنا به من أطايب بيرم وهو في المنفى .. وكان - إلى هذا - على شيء من جمال الصوت فهو يحسن تلاوة بعض الآيات بصوت فيه حلاوة ورخامة. كما كان يحسن أداء بعض ألوان الغناء .. ثم كان يجيد تقليد الأصوات تقليدًا متقنًا فهو يحاكي الصوت ثم يحاكي لوازم صاحبه عند الكلام فَيُخَيَّل إليك أنك تسمع صاحب الصوت. وهذه موهبة أخرى ويخلق الله ما يشاء.

وعندما وقعت الجفوةُ بين الأستاذين : العقاد وتوفيق دياب اتصل حمام هاتفيًا بالأستاذ العقاد وباداه بصوت الأستاذ توفيق دياب وبلوازمه في كلامه فذكره بالود القديم. وعاتبه. وَوَادَعَهُ، وما زال به حتى استلَّ سخيمةَ نفسِهِ، وصفَّى ما بينهما وضرب له موعدًا للقاء .. ثم اتصل هاتفيًا بالأستاذ توفيق دياب وباداه بصوت العقاد وبلوازمه في كلامه. فعاتبه وَوَادَعَهُ وما زال به حتى صَفَّى ما بنفسه وضرب له موعدًا للقاء.

ويكون اللقاء . ويأتي حديث التليفون ، فيتناكر الأستاذان . ثم يتعارفان ، وينكشف (المقلب) ويعرفان أنه حمام .

كان من ظرفاء العصر الذين انقرضوا أو كادوا ينقرضون . فهو الجليس الأنيس فاكهة السامر. وريحانة المجالس الذي تتعطر المنتديات الأدبية بطيوب مطايباته . ومنادراته .

***

وكانت في حياة حمام مشكلةٌ أسرية ضاعفت من جِرافه . وأثقلتْ عليه . فقد كان مزواجًا، تزوج ثلاثًا وأنجب عشرة . فكان حمله عيالاً وكان راتبه من وظيفته الصغيرة لا ينهض بحاجته. فكيف به وقد ألقيت على كاهله مسؤولية ثلاثة بيوت ؟

ولكن حمامًا كان يروض الفقر ترويضًا ، ويلاينه ملاينة ، ويعايشه راضيًا ما دام هناك قليل يدره عليه الشعر . وما دام على موائد الكرام متسع . وما دام عندهم ما يبل يده من جفاف . فهو يتخطى إلحاح الحاجة باعتفاء المياسير وغير المياسير أيضًا ، وكانت له نظرة ثاقبة في وزن مَنْ يعتفيهم فهو لا يطلب إلا ممن يستجيب وهو يصنِّفهم ، فكل واحد منهم بحسب طاقته وأريحيته . فيطلب من بعضهم خمسة الجنيهات . ويطلب من بعضهم ربع الجنيه ، أو ما دون ذلك تبعًا لتقديره ونظرتِهِ ، ونَظْرتُهُ دائمًا - وعلى أي حال - لا تخطيء ولا تخيب .

وكان يتخذ من الشعر مطيةً إلى ذلك . فكلما مَسَّتْهُ الحاجة نظم البيتين أو الأبيات يضمنها حاجته، ويوجهها إلى من يقصده من هؤلاء فتكون طرافة الطلب خليقة بتحقيق المطلوب .

ولو قد أمكن جمع هذه الأبيات وتلك القطع الشعرية الكثيرة التي كان يطرقُ بها أبواب مَنْ يعتفيهم لتجمَّع منها ديوانٌ طريف وعجيب وليس له نظير في الشعر العربي .

وحمام في الخصومات الحزبية جولاتٌ لا تخلو هي الأخرى من طرافة فكان يهجو الوفديين وهم في الحكم حتى يفصلوه من وظيفته، فيتصل بالأحرار الدستوريين كضحية من ضحايا خصومهم السياسيين فيصلونه. ويبرونه. حتى إذا جاءوا إلى الحكم أعادوه إلى وظيفته وردوا له ما تجمع من راتبه الذي انقطع طوال المدة التي فصل فيها.. والغريب في الأمر أنه كان يحاول مثل ذلك مع الأحرار الدستوريين أيضًا. ولكنه كان مقبولاً محببًا على أي حال.

***

وشعر حمام فيه يسر وسهولة وفيه طراوة تجد فيها سماحة نفسه وبساطتها. فهو يصدر عن طبع سمح سخي. ولهذا جاء شعره قريب المأخذ سهلاً دَانِيَ القطوف وكان يُطَوِّعُهُ ـ بمقدرةٍ ـ لكل ما يَعِنُّ له ويعرض من الأغراض.

وعندما طلب إليه بعض أصدقائه من الصحفيين ـ أن يرشح نفسه لمجلس نقابة الصحفيين عام ١٩٥٩ نزل بمنشور انتخابي منظوم. يقول:

دعاني رفاقٌ أحْسَنُوا بِيَ ظنَّهُمْ ... وصانُوا عهودَ الحب في البعد والقرب

وقالوا لئن تُقْدِمْ فإنك نازلٌ ... من المجلس المرموق في المنزل الرحب

يقولون فليسجع حمام بأفقنا ... فكم ملأ الآفاق من شدوه العذب

وأسماره تحلو لكل مسامر ... وتنسيك ما تشكو وتأخذَ باللب

فقلتُ إذا ما لم أكن غير خادم ... لديني وأوطاني فذلكمو حسبي

ولم يكن حمام يتجَّهمُ للحياة وقد تجهمتْ له، ولم يكن هجَّاءً كبعض المحارفين من الشعراء المرورين فلم يعرف عنه العنف والسلاطة.

وهنا وقعة تَردُ وُرُودًا على هذا الكلام فقد كان في فترة من الفترات يعمل في سكرتارية مكتب النحاس باشا وهو رئيس للوزراء، وليس مما يعيب رئيس الوزراء أن يُلقى بأفكاره إلى مكتبه ليتولّى صياغتها لأنه مشغول بما هو أكبر من ذلك. فكان حمام يصوغ بعض خطب الباشا، أو يشترك في صياغتها وقد أشار

إلى ذلك في قصيدة مقذعة مشهورة يقول فيها :

أسْلَمُوني إلى زعيمٍ جهولٍ أخْرِق الصوتِ أعجميِّ البيانِ

وانظر إلى هجائه لصديق له اسمه (نجاتي) وكان نجاتي هذا أديبًا وكان مطربًا - أيضًا - ولكن حمامًا كان يستقبح صوته ولا يعترف به مطربًا . فقال في هجائه :

ألا قبحًا لِصَوْتِكَ يا نجاتي لحقٌ أنتَ إحدى المزعجات

فلو أني استعنتُ على عدوٍّ بصوتِكَ لاسترحتُ من العداةِ

ولو غَنَّيْتَ في عُرْسٍ بهيجٍ لصيَّرْتَ الرَّواقِصَ لاطماتِ

ولو أذَّنْتَ للصلواتِ يومًا رَدَدتَ المسلمين عن الصلاةِ

ولو جَاوَرْتَ بيتَ الله تَشْدُو بصوتك في البقاع الطاهراتِ

لقلنا الحجُّ ليس بمستطاع فأبْطَلْتَ الفريضةَ يا نجاتي

ولعلك تلاحظ هنا أنه كان ينظر إلى قصيدة أبي الحسن الأنباري في رثاء «ابن بقية» وزير عز الدولة بن بويه حين قبض عليه عضدُ الدولة وقتله وصَلَبَهُ فقال الأنباري فيه قصيدته وهي من أشهر ما قيل في المراثي :

عُلُوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ لحقَّ أنتَ إحدى المعجزاتِ

ثم لعلك تلاحظ أن قصيدة حمام مداعبة ومعابثة أكثر منها هجاء .

وهذا هو حمام . حتى في شكوى الفقر والبؤس - وهو قليل الشكوى على أي حال - ترى هذه السماحة فهو يَعرض بؤسَهُ وحرافه في صورة ترى على وجهها ابتسامةً ساخرةً . إنه ينظر إلى عباد الله المترفين وما يوفرونه لكلابهم المدللة من أسباب النعيم ، ثم ينظر إلى حاله وما يعانيه فيقول من شعر العامية :

يا مْدَ لَعِين الكلابْ والآدمِي مَنْسِي ضِحْكِي على الكلب بكاني على نَفْسِي

وفْضِلْت افكَّرْ في سَعْد الكلبِ وفْ نَحْسِي وأقول لروحي مسير الدنيا تتعَّدل

واذْخُلْ في جنْسِ الكلاب وَالْعَنْ أبُو جِنْسِي

أرْبُطِنِي في سلسله واصْلُبْني فيها صَلْبْ | وارْمي لي لَحمة وشيء م اللَّي يِسُرِ القَلْب
تلقاني طول عمري محسوبَكْ وخدامكْ | وعمري ما ازْعَلْ مِنِ اللي يقول لي يا ابْنِ الكلب

وأنت هنا لا ترى ضغينةً ولا سخيمةً . ولا حقدًا ، ولا حسدًا وإنما هي تأملات في أوضاع الحياة ونظرات ساخرة قد تبعث على الضحك أيضًا ..

وهكذا كان حمام ...

على أنه في أواخر أيامه اتصل بالسرى السعودي المعروف الشيخ محمد سرور الصبان الذي أعجب به وقربه إليه ، وأغدق عليه ، وبواسطته استطاع أن يجد عملاً كريمًا مجزيًا في السعودية.

لكن في خريف ١٩٦٢ ساءت العلاقات بين مصر والمملكة السعودية بعد الثورة اليمنية في ٢٨ سبتمبر ١٩٦٢ ومساندة القوات المصرية لها .

وكان على حمام أن يعلن ولاءه للحركة المعادية لمصر . أو ـ في القليل ـ يأخذ بالتَّقِيَّة ولكنه آثر أن يخرج بضميره نقيًا . وترك الوظيفة وخرج من السعودية ليشد رحاله إلى الكويت .. وفي هذا يقول:

إلى الكويت أشدّ الرَّحْل مغتربًا | وما أزالَ غريبَ الدارِ مرتحلاً
نأى بيَ الرزقَ عن أهلي وعن ولدي | مُستسلمًا لقضاءِ الله ممتثلاً
خَلّفْتُ في مصر أكبادًا وها أنذا | من أجلهم أذرعُ الآفاق والسبلا
وأبتغي الرزق مِنْ جهدي وأحمدُه | إذا أتاني رَذاذًا . أو إذا هطلا
وأرقبُ الله في سري وفي علني | وليسأل الله دون الخلق من سألا
وإن أحَدِّتْ بجرحي مَنْ أحبُّ فكم | رَقّتْ قلوبٌ لجرح القلب فاندملا

وعمل حمام في وزارة الإعلام الكويتية ، وبدأ صيته ينتشر فملأ محافلها الأدبية وصحفها ومجلاتها الأدبية وإذاعتها وديوانياتها السامرة بأحاديثه وأشعاره ومنادماته وطرائفه والتف حوله عشاق أدبه وأسماره ولكنه بعد عام ونصف من

إقامته بالكويت مرض ، وشعر بالوحدة ومرارة الاغتراب عن مصر التي أحبها وترك فيها قلبه وأبناءه ، فرحل عن الحياة في أحد فنادق الكويت في ٢٣ مارس ١٩٦٤ ونقل جثمانه إلى مصر حيث دفن على أرضها .

من شعر حمام الفكاهي في عالم النفاق:

من أشهر قصائد الفكاهة اللاذعة وصفه للمنافقين في عالم النفاق في قوله :

ما دمت في عالم النفاق ... فاعدل بساق ومل بساق

ولا تشاحن ولا تخاصم ... واستقبل الكل بالعناق

وقل كلامًا بغير معنى ... فأي شيء كأي شيء

بلا اختلاف ولا اتفاق ... وأي شيء كأي شيء

ما دمت في عالم النفاق !

علمتني الحياة من وحي الخمسين:

علمتني الحياة أن حياتي ... إنما كانت امْتِحانًا طويلا

قد أرى بعده نعيمًا مقيمًا ... أو أَرى بعْدَه عذابًا وبيلاَ

علّ خَوفي من العذاب كفيل، ... لي بالصفحِ يوم أرْجُو الكفيلا

علّ خوفِي يَردُّنِي عن أمُور ... خَبُثْتُ غاية وساءت سبيلا

وعد الله من يُنِيبُ ويَخْشَى ... بَأْسَه رَحْمةً وصفْحًا جَميلا

وبحَسْبِي وعَدٌ من الله حَقٌ ... إنَّه كانَ وَعدُه مفعُولا

* * *

عَلْمتني الحياة أن أتلقى ... كل ألوانها رِضًا وقَبُولا

ورأيتُ الرِّضا يُخفِّفُ أثْقَالِي ... ويُلْقى على المَآسي سُدُولا

والذّى أَلْهَمَ الرِّضا لا تَرَاهُ ... أبد الدَّهِر حَاسِدًا أو عَذُولا

أنا راضٍ بكلِّ صنفٍ من النَّاسِ ... لَئِيمًا ألفيْتُه أو نَبيلاً ،
لستُ أخْشى من اللَّئِيم أذَاه ... لَا ولنْ أسأَلَ النَّبِيل فَتِيلا
فسَحَ الله في فُؤادِي فلا أرْضَى ... من الحُبِّ والوِدَاد بَدِيلا
في فُؤادِي لِكلِّ ضَيفٍ مُكَانٌ ... فكنِ الضَّيفَ مُؤْنِسًا أو ثَقِيلا

* * *

ضَلّ من يَحسبُ الرِّضا عن هوانٍ ... أو يَراهُ على النِّفَاقِ دَلِيلا
فالرِّضا نِعمةٌ من الله لم يسْعَدْ ... بها في العِبادِ إلا القَلِيلا ،
والرِّضا آيةُ البَرَاءةِ والإيمانِ ... بالله نَاصِرًا ووَكيلا
عَلمتني الحَيَاة أنّ لها طَعمَين ... مُرًا ، وسَائِغًا معسُولا
فتعَوّدتُ حَالَتيْها قَرِيرًا ... وأَلِفتُ التغيِيرَ والتَّبدِيلا
أَيُّها الناسُ كلنا شاربُ الكاسينْ ... إن عَلْقمًا وإن سَلْسَبِيلا

* * *

قد ترى الحياةُ غنى فتبدى ... سُخريات الوَرى قبيلا قبيلا
فأراها مواعظا ودروسا ... ويراها سواي خطبا جليلا
أمعن الناس في مخادعة النفس ... وضلوا بصائرًا وعقولا
عبدوا الجاه والنضار وعينًا ... من عيون المها وخدا أسيلا
الأديب الضعيف جاها ومالا ... ليس إلا مثرثرا مخبولا
والعُتلُّ القويُّ جاها ومالا ... هو أهدى هدى وأقوم قيلا
وإذا غادةٌ تجلت عليهم ... خشعوا أو تبتلوا تبتيلا
وتلوا سورة الهيام وغنوها ... وعافوا القرآن والإنجيلا
لا يريدون آجلا من ثواب الله ... إن الإنسان كان عجولا

فتنــــةُ عمــــت المدينـــة والقريـــة   لم تُعْــــف فتْيـــةً أو كُهُــــولا
وإذا مــا انبريـــت للـــوعظِ قـــالوا   لـــسْت ربّـــا ولا بُعثـــت رســولا
أرأيـــت الـــذي يكـــذب بالـــدين   ولا يُرهـــب الحـــساب الثقـــيلا

أسمار ودعابات في حياة حمام وشعره
معركة الفستق

روى لنا حمام خلفية هذه الدعابة الشعرية الساخرة التي جرت أحداثها عام ١٩٥٩ أثناء الوحدة المصرية السورية وكان من وحيها قصيدته «أما الذي أهواه» فقال :

«صاحبا الفضل في هذه القصيدة زميلان عزيزان ، من خيرة رجال الصحافة، السورية هما عباس الحامض وزهير مارديني ، نعم لمكر الأول ولباقة الثاني وظرف كليهما ، كل الفضل في هذه القصائد .

والقصة أني كتبت إلى الأخ عباس أرجوه أن يرسل إلى ، كمية من فستق حلب . فكتب إلى بأن الفستق في طريقه إلى يحمله زميل ويوصله إليّ في نادي الصحفيين بالقاهرة وطال انتظاري أيامًا وأسابيع ، كتبت إليه القصيدة الأولى ، فقرأها الأخ زهير مارديني ، فقدمها وقدمني إلى قراء صحيفة التبغ بدمشق ، تقديمًا دايننى فيه بدين لا أستطيع مدى العمر أن أؤديه فقد خلع على من محاسنه ما خلع فكان متفضلاً حقًا ونبيلاً حقًا . وليس له عندي إلا قولي :

يا صديقي بَرَرْتَنى بَرَّكَ اللهُ ... بفيض السرورِ والنعماءِ
أن أقصر عن الجزاء فعند اللهِ ... ما شئتَ من كريمِ الجزاء

وتضمن مقاله عني مبالغات ساقها الحب ، منها ذلك الصف الرفيع الذي وضعني فيه بين أعاظم رجال البيان ، قدامي ومحدثين ، ومنها ما تعلق بسنى فقد ردني إلى أحداث لو صح أني حضرتها لكنت قد ناهزت السبعين أو جاوزتها .

وقد دافعت عن سني بأن أرسلت إليه شهادة ميلادي وهي في عهدته إلى

اليوم ، ومن يقرأها ولا يتهمني بتزويرها يعلم أني لم أعد الخمسين إلا بثلاث أو أربع ، وأما واقعة تخييب الرجاء فهي التي أريد اليوم أن أؤكدها لصديقي ولكل من قرأ مقال الأستاذ زهير الأول في صحيفة (التبغ) ومقاله الثاني في صحيفة (الدنيا) وكلاهما من أظرف وأمتع ما خط قلم .

وهل من المعقول أن يرسل إليّ فستقا فأعاجله بطلب فستق جديد ، ثم أعاتبه وأقسو في عتابه لأنه لم يكرر المنح ؟

أني أقسم بالذي خلق الفستق وخلق حلب وخلق عباسًا أني لم تصلني من صديقي عباس حبة فستق واحدة ..

ما زال قلبي يستهامُ ويعشقُ	والعشقُ بعد الشيبِ عبء مرهقُ
لي في ربوع الشام خلّ ليس لي	إلا إليه تلهفٌ وتشوق
ما أكرمَ الشهباءَ والفيحاء لو	أحداهما تحنو عليّ وتشفق
وتسرني بحبيبي النائي فلا	أبقى وطرفي ساهدٌ ومؤرق
قَسَمًا بحرماني من الأملِ الذي	ما زلتُ أنشُده ولا يتحقق
إن الذي أهواه لو أدركتُه	سأميطَ عنه ثوبه وأمزق
وأكُبّه في النارِ تشوى جلدَه	وأزم أسناني عليه وأطبق
وأحيلَه زادًا شهيًا سائغًا	لا زاهدًا فيه ولا أنا أرفق
وإذا سئلتُ فلستُ أنكرِ فِعْلَتِي،	بحبيب نَفْسِي بل أقِرُّ وأصدق
فإذا قضيتُ عليه ساورَ مهجتي	أَسَفٌ ورانَ عليّ همٌّ مقلق
هذا الحبيبُ عشقتُ صفرةَ لونه	لا تعجبوا من صفرةٍ تتعشق
ولكم نعمتُ به فكان مذاقُه	كألذ ما أهوى وما أتذوق
لو شاء عَبّاسٌ لبلغني الذي	أهوى فلم أكُ في غرامي أخفق
ولقاد محبوبي إلىّ وزفّه	مثلَ العروسِ بهيةً تتألق

لكــن عباسًــا وســيط منـــسيء ... مــا خلتُــه يرثــى لقلــب يخفــق
دأب المحــب يــضن باســم حبيبــه ... لكننــي باســم الحبيــبِ ســأنطق
يهــوى الرجــالَ ســكينة وبثينــةً ... أمــا الــذي أهــواهُ فهــو الفــستق

استبدال:

أردت أن أستبدل خمسة جنيهات من معاشي بنقود ... الجنيه بمائة .. فرفعت هذا الطلب إلى وزير المالية يومئذ الدكتور عبد المنعم القيسوني ، وقد استجاب:

أقصاني الـدينُ عـن صـحبي وعـن آلي ... فكلهــم زاهــد في الــود أو ســال
قــال الرفــاقُ وقــد أرهقــتُهم طلبًــا ... ورحــت أشـكو إلـيهم رقـة الحـالِ
إن الـــديون تـــؤدي عملـــة ذهبًـــا ... ولا تـــؤدى بأشـــعار وأزجـــال
لو كنت حسان أو سحبانَ ما شفعت ... لــك البلاغــةُ في عــسر وإقبــال
ولــيس مــن ذنبنــا عــبءٌ تنــوء بــه ... يُعْيــي كواهــلَ جبــارين أبطــال
مــا ذنبُنــا في أديــبٍ كــاد يغــرق في ... بحــرٍ يمــوج بزوجــاتٍ وأطفــال
مـا ذنبُنـا في أخ يُـسْقى ويطعـم مـن ... جيـبٍ جـديبٍ وبطـن صـائم خـال
يكــسو ســواه جديــدًا زاهيًــا أَلِقًــا ... وقــد يــسير بثــوب شــائه بــال
إليــك عنــا فــما في بابِنــا فــرجٌ ... ومـا تـشاء فخـذ مـن خـازن المـال
اقبـل عـلى نهـرِ الاسـتبدالِ مغترفًـا ... تـشف الغليـلَ وترجِـعْ نـاعَم البـال
تحيــةً يــا وزيــرَ المــالِ عــاطرةً ... أصـوغُها لـك مـن حـب وإجـلال
زكــاك كــلُّ الــورى عنــدي فهأنــذا ... أفـــضى إليـــك بـــآلامي وآمـــالي
هــاتِ المعــاشَ جنيهــات مجمعــةً ... دفاقــة كــصبيب منــك هطــال

إلى الشعراء والأوفياء

مـن في الـورى أولى مـن الـشعراءِ بمـودة الأمـراءِ والـوزراءِ
إن البيـانَ إمـارةٌ ووزارة لكـن بـلا جُنْـدٍ ولا تبعـاء
ولقـد أرى شـعرى ونثـرى دولـة ولقـد أعـز بـدولتي الـشماء
ولكـم حـسبتُ المعجبين رعيتـي تـسعى إليّ بطاعـةٍ وولاء
وإذا الـرواةُ مشوا بشعرى أو شـدوا في كـل نـاد قلـت هـم شـعرائي
يـا أيهـا الأمجـادُ طـاب مـساؤكم وبكـم وربِّ البيـتِ طـابَ مـسائي
وحبوتمـوني بـالمودةِ والرِّضـا وحبـوتكم بتجلتـي ووفـائي
ولقيتمـو منـي حبيبًـا مخلـصًا ولقيـت فـيكم صـفوةَ الكرمـاء

حمام في صورة من شعر حمام:

أحبيتُـه فجفـاني أكرمتُـه فهجـاني
أمطرتُـه مـن مـديحي بـالوردِ والريحـان
فهيـأ الـشعرُ شـوكًا ثـم انثنـى ورمـاني
ومـا يـزالَ يراهـا فريـدةً في الزمـان
هـلا أتـى بمثـالٍ أو جـاءَ بالبرهـان ؟
وقـال : إني ذكـيٌّ أذكـى مـن الـشيطان
ذَمٌّ عـلى شـكل مـدح كقبلـة الأفعـوان
وقـال : إني أديـبٌ مـن خـيرِ أهـلِ البيـان

تَهَكُّــــمًا قـــالَ هــــذا ... أم قـــالَ عـــن إيـــمان ؟
وقــــال : إني بـــريءٌ ... مـــن خمــرةٍ ودنـــان
لكننـــــي أتـــرَاءى ... في هيئــــةِ الـــسكران
أبـــدو كـــذلك عمـــدًا ... عـــن حيلـــة ودهـــان
زعـــمٌ عجيـــبٌ أتانـــا ... مـــن شـــاعر ألعبـــان
وقـــال مـــا الأصـــفهاني ... أنـــساه بـــل الأصـــبهان
وردني لعتيـــــــــقِ ... أنـــشأ كتـــابَ الأغـــاني
يريـــد تنكـــيرَ أصـــلي ... وَمُحْتِـــدِي وكيـــاني
ألم أكــــن عربيّـــا ... أعـــزى إلى عـــدنان ؟
أأعجمـــــي غريـــبٌ ... أتيـــتُ مـــن إيـــران

***

وقـــال : إني حـــلالٌ ... للـــروحِ والوجـــدان
كـــأنها أنـــا شـــايٌ ... قـــد صـــبَّ في الفنجـــان
أو قـــصعةٌ مـــن سـليقٍ ... للآكلـــين البطـــان
أو نكتـــةٌ أضـــحكته ... في مـــسرحِ الريحـــاني
أو بعـــضُ ألعـــابِ حـــاوٍ ... أتي مـــن الـــسودان
لكنـــه عـــاد يـــدلي ... بالـــذم بعـــد ثـــوان
وقـــال : إِني حـــرامٌ ... في ســـائِرِ الأديـــان
مـــا القـــولَ فـــيمن تـــساوى ... في رأيِـــه الرأيـــان
مـــا القـــولَ فـــيمن لَدَيْـــه ... تـــآلف الـــضِّدان

***

يـــا شـــاعرًا قــــد دهــــاني	مـــن ظلمـــةٍ مــــا دهــــاني
أأنــــت وحـــــدك ليـــثٌ	يـــــصولَ في الميــــدان
أأنــــت وحــــدك كــــفءٌ	للكــــرَ أو للطعـــــان
أني أراك قــــــــصيرًا	لكـــن طويـــل اللـــسان
ولـــست عنـــدي لطيفًــــا	ولا ظريـــــف المعـــــاني
تبـــدي المـــودة لكــــن	تـــروغُ كالثعبــــان
فيـــك النعومـــةُ لكــــن	نعومـــــة الثعبـــــان
قـــالوا فـــصيحٌ فقلنــــا	فـــصاحة البغبغــــان
قـــالوا خفيــفٌ فقلنـــا	كخفـــةِ الـــصبان
نفتـــك مـــصر وقالـــت	أسرح بكــــل مكــــان
ولم تــــسعك أقــــاصي	مـــصر ولا الـــسودان
ونحـــنُ كنَّــا بــــديلاً	للأهــــل والأخــــوان
هــــلا ترحّلـــت عنـــا	ولــــو إلى اليابـــان

***

يـــا شــاعرًا قــد دهــاني	مـــن ظلمـــه مـــا دهـــاني
أني ولـــستُ ضـــعيفٌ	أمـــام أنـــس وجــــان
أشـــكو إلى الله ظلـــم	الإنـــسانِ للإنـــسان

أحاديث وأسمار

ألم تكن يومًا من الأيام مدينًا أو دائنًا ؟ إليك إذن وصفًا لمن كان في تلك الحال ..

إليك قصيدة لم أرد بها إلا رسم الصورة ... وقد نظمتها حين كنت فقيرًا

كأكثر قرائي وقبل أن أصل إلى ما أنا فيه من ثراء عريض طويل :

كلما أثريتُ أجديتُ وأعطيتُ فسموني كريمًا ونبيلا
فإذا أقللتُ لم أقدر على الجود فقالوا أصبح السمحُ بخيلا
وإذا ألجأني أبنائي إلى القرضِ كثيرًا وقليلا
همس الهامُس وبعضٌ قال لي يا أخي قد كنتَ متلافًا جهولا
وصديقٌ عاش يستظرفُني صار ظلي عنده ظلا ثقيلا
ومدينٌ لم أكن طالبتُه ردني عن بابه ردًّا جميلا
ومدينٌ فاجرٌ قد يدعى أنني كنتُ مدينًا ومطولا
وغنى قال مرت أشهرٌ كان فيها قوتُنا خبزًا وفولا
وأخٌ علل ضيقي فروي قصصًا من صنعه الإفك طويلا
زاعمًا أنَّ نقودي فنيت ميسرًا أو غانيات أو ثمولا
وأني أسيف لكن هدني بالأذى والمن صبحًا وأصيلا
وأخ أقسم أني موسرٌ لا يرى الفقرَ إلى جيبي سبيلا
أدعى الضيق لألهى طامعًا في عطائي أو حسودًا أو عزولا
هكذا أحيا لغيري فرجا وأرى غيري منوعًا وخذولا
والمرابي وهو أقسى صائدٍ طالما كنت له صيدًا ذلولا
وأَسُدُّ الدينَ بالدينِ وقد أجد الأصعبَ للصعب بديلا
كالذي صارَعَ فهدًا ونجا فاقتضاه الناسُ أن يصرَع فيلا

حمام بقلم حمام

دعوتْ فان لبيتمو داعَى الحب ... فلي منكمو أصواتُكم ولكم قلبي

إذا أنتمُو أقرضتموني ودادَكُمُ ... فأصدقُ من يوفي وأكرمُ من يربى

وأن تقرضوا فالودُّ باقٍ وثابت ... وكلكمو أهلي وكلكمو صحبي

***

دعاني رفاقُ أحسنوا بي ظنَّهم ... وصانوا عهودَ الحبِّ في البعد والقرب

وقالوا لئن تقدم فإنك نازل ... من المجلس المرموق في المنزل الرحب

يقولون سعى النثر والشعر ظافر ... إذا سعيا للحق جنبا إلى جنب

يقولون فليسجع حمامٌ بأفقنا ... فكم ملأ الآفاقَ من شدوه العذب

وكم جال في دنيا السياسة صائلاً ... بمنطقه الهادي وبالقلم العضب

وأسمارُه تحلو لكل مسامرٍ ... وتنسيك ما تشكو وتأخذ باللب

وإن صاغ في الأخلاق والدين شعره ... فأنفعُ من وعظ المنابر والكتب

فقلت لئن لم أكن غيرَ خادم ... لديني وأوطاني فذلكمو حسبي

(*) من منشور انتخابي عند ترشيح حمام لمجلس نقابة الصحفيين سنة ١٩٥٩ .

في تكريم حمام

قال حمام:

بطـــوق الحـــبّ طـــوقتم حمامًـــا فرفـــرف ألفـــة وشـــدًا ســـلاما
ألا بالـــشوق يـــسمعكم صـــداحًا وبالـــشكران يـــسمعكم بغامـــا
ويلقـــط منكمـــو حَبـــا وحُبـــا ومـــا عـــودتم الطـــير الكرامـــا
ولم يـــك مـــن كـــرامِ الطـــير لـــو لم يغـــاد الـــروض والبيـــت الحرامـــا
أفـــاء المجـــد أن عليـــه خـــيرًا فعـــز مكانـــة وســـما مقامـــا
رعـــى الله الـــودادَ وواهبيـــه ووقـــى عـــروةَ العـــربِ انفـــصاما
وألّـــفَ منهمـــو عقـــدًا بهيـــا كعقـــد اليـــوم ينـــتظم انتظامـــا
أراني اليـــوم لم أشـــهد غريبـــا ولا فارقـــت مـــصر ولا الـــشآما
هنـــا وهنـــاك أوطـــاني وأهـــلي وأرواحٌ أهـــيم بهـــا هيامًـــا
هنـــا وهنالِـــك القـــرآنُ يـــتلى فتلتـــئم القلـــوبُ بـــه التئامـــا
هنـــا وهنـــاك أيـــدٍ بانيـــات صروحًـــا للعروبـــة لا تـــسامى
ألا شـــكرًا لـــلدارِ كرمتنـــا وجمّعـــت الفطـــائم والعظامـــا
ألا شـــكرًا لـــلدار أطعمتنـــا وكـــان الحـــبُّ أزكاهـــا طعامًـــا
وجادتنـــا بفـــيضٍ مـــن بيـــانٍ ســـقينا حلـــوه جامـــا فجامـــا
يظـــل الـــدار ظـــل مـــن (جمـــال) فيبتـــسم الزمـــان لهـــا ابتـــساما
دعـــاني حافظًـــا قـــسمًا بقـــدري وقلـــدني مـــودتكم وســـاما
ومـــن أعوانـــه إخـــوانُ صـــدق قـــد اعتنقـــوا الـــتراحم والوئامـــا

سياسي متلون

من ذكريات الماضي ، أن المرحوم «فلان باشا» كان سياسيًا وضيعًا وكان له مائة وجه ، فهو مصري في صفوف الوطنيين ، وهو إنجليزي إحساسًا وميولاً ، وهو ملكي ، وهو اشتراكي ، وهو مجامل لجميع زعماء الأحزاب فكان لي فيه الزجل الآتي :

افرد قلوعك ما تتلمش ما تخزاشي
نجمك ملعلع وزهرك في البلد ماشي
يا نكتة العصر يا تفنينه حشاشي
سمك ، لبن ، تمر هندي مصري سكسوني
دستوري وفدي اتحادي شعبي نقراشي
وقفت بين الجيوش والحرب منصوبة
والدم زي البرك ، والدنيا مقلوبة
لا بمبه جات فيك ولا وقعت عليك طوبة
يا بخت من كانت البرنيطة فوق راسه
يطلع من العركة لا بطحه ولا أوبه
قاعد تطبطب على الشاتم وعَ المشتوم
وتدعي بالنصر للظالم وللمظلوم
لإمتى سرك حيفضل على البلد مكتوم ؟
هو أنت ملحق معاهدة كنت متخبي
ولاّ ضريبه على الحاكم ومع المحكوم؟

مطالب الشعراء من الحكومة

جلسة احتجاج فكاهية عن البرد وشهر طوبة المبارك كما تخيل الشاعر محمد مصطفى حمام:

اجتمع الشعراء في فرن الرمالي بحى السيدة زينب للنظر في مسألة البرد، وإليكم ما دار في الجلسة من حديث:

ـ أحمد الزين (الرئيس) :

(افتحوا) الجلسة حالاً وانتهوا ... إن برد العام في جسمي مقيم
ذاك برد زاد واشتد وقد ... هرب الأبرار منه للجحيم

ـ سيد قطب :

دعوا جلسة الشعراء (لا تفتحونها) ... فيدخل منها البرد للشعراء
فإن (أبا الدرداء) مات «بطوبة» ... كلام سمعناه من القدماء

ـ عبد الحميد الديب :

البرد لخبط شكلي ... والجسم منه تهدم
(أردت شكواه لكن ... ما لي فم يتكلم
يا رب خذني شتاء ... في بعثة لجهنم)

ـ أحمد الزين :

أيا عبد الحميد الديب قل لي ... لماذا جئت مجلسنا الجماعة ؟

ـ عبد الحميد الديب :

ظننت بأن عندكمو طبيخًا ... ولكن بان انكمو (جواعه)

أحمد الزين (متحمسًا) :

بني وطني الكرام .. خذوه بره | فقد ساق التبجح واللكاعة

- سيد قطب :

دعوا عبد الحميد فما اجتمعنا | لننظر أمره في نصف ساعة
ولكن كان مجلسنا جميعًا | لفعل البرد فينا يا جماعة

- محمود حسن إسماعيل (شاعر أغاني السماء) :

(تعالى يا ابنة الوادي) | وحطى البالطو (في اكتافي)
وهات النار في النادي | لهذا المغرم الحافي !!

فجسم الصب بردان
وهذا الفجل ريان
«وعمك عبده سقعان»

- على محمود طه (شاعر الجندول) :

أين من عيني بالطو (م اللي غالي) | يا بتوع الصوف يا ولاد الحلال
أين صيدناوي يحوش البرد جالي | أين من واديك يا فرن الرمالي
موكب الفحم ... وأكل البرتقال | وسرى التيار في جسم الرجال

بين حب يتشهى الدفء مره
وحبيب مات من (طوبة) بره
التقت عيني به في قلب شبرا
فكرهت الشهر من أول نظره

- أحمد فتحى (شاعر الكرنك) :

مطر جاء لبالطو (الشاعر) | فتلاشى في انكماش ظاهر
ومشى نحو رصيف آخر | يضع البالطو (في أيد) العاصر

من المشاغبات

هذا ، وبرنامج «المشاغبات» متصل والحمد لله ، وللأخ العناني في هذا البرنامج اليد الطولي.

إليك قوله :

حمامُ ، أنت غراب والشعر منك نعاب
وأنت عنوانُ قوم في الإِفك شبوا وشابوا
ما في قريضك إلاَ سفاهةٌ وسباب
ما في حديثك حلو بل كل قولك صاب
أو يزعموك ظريفًا ضلوا عقولاً وخابوا
وإن تؤمَّل لخيرٍ فأنت أنت السرابُ
وإن نردك لروع فأرنبٌ هراب
وفيك قلبٌ هواء وفيك عقلٌ خراب
وفيك مظهرُ رحمي قد قر فيه العذاب
وأنت إبليس يبدو كأنه أواب
وأنت حاوٍ قديمٌ وساحرٌ كذاب
وواهبٌ نهاب وناهبٌ وهاب
أنت الخرافةُ كادت يزاح عنها النقاب

وإليك ردى :

هل الحمامُ غراب ؟ هل الهديلَ نعاب ؟
أذاك قولٌ صحيحٌ أم ذاك إفك عجاب

أهكـــذا الطهـــرُ يُهجَـــى — والعلـــــم والآداب
وكيـــف يوصـــف مـــثلي — بأنـــــه كـــــذاب ؟؟
والكـــونُ يـــشهد أنـــي — أنـــا الوقـــور المهـــاب
والعبقـــريُّ المجلـــيّ — والناســـــكُ الأواب
إن أدع ربيّ يومًـــــا — فـــدعوتي تـــستجاب
مـــن نـــال حبـــيَ يـــدنو — لربـــــه ويثـــاب
فـــإن غـــضبتُ عليـــه — فنقمـــة وعـــذاب
قـــد نـــال منـــي العنـــاني — ولـــيس مـــثلي يعـــاب
والأوليـــاءُ كـــرامُ — وعفـــوهم غـــلاب
وقـــد صـــفحتُ كـــريمًا — ولي بـــصفحي ثـــواب
فـــما عليـــه مـــلامٌ — ولا عليـــه عتـــاب

وإليك قولي له يومًا :

نهـــاني عـــن ودادك مـــن نهـــاني — وقـــال إليـــك عـــن ود العنـــاني
ألم تـــر أنـــه يهجـــو فيقـــسو — ويوجـــع بـــاليراع وباللـــسان
ألـــيس لقـــاؤه خـــشنا غليظًـــا — بخـــيلا بالعنـــاق والاحتـــضان
فقلـــت لعلنـــي أهجَـــى وأقـــسَى — إذا صـــال البيـــان عـــلى البيـــان
ومـــا أنـــا والعنـــاق ؟ لقـــد نـــشدنا — وداد الأهـــل لا عـــشق الغـــواني
ولم يـــك ناصـــحي بـــرًا أمينـــا — ولكـــن كـــان مـــن أهـــل الـــدهان
نهـــاني عـــن فـــؤادك في دهـــاء — لينزعنـــي وينـــزل في مكـــاني
ولمـــا أن زهـــدتُ النـــصح منـــه — أشـــاح ومـــا ارتـــضاك ولا ارتـــضاني

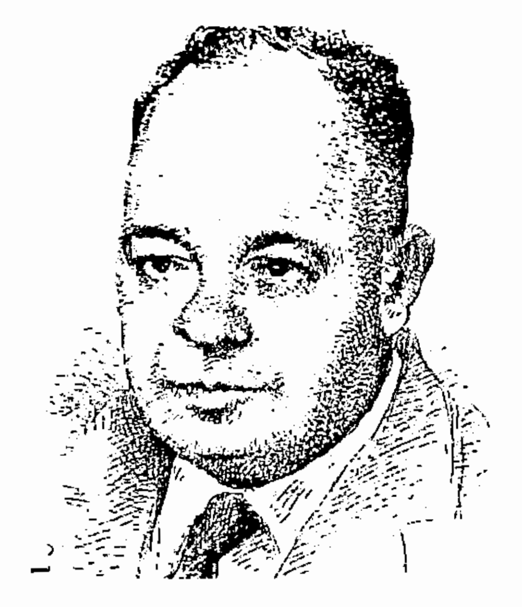
هديل حمام

وإليك قول العناني عن حمام:

ســــــتقرأون حمامًــــــا	وتـــــسمعون هديلــــــه
ومنـــه تـــأتي الأغـــاني	رنانـــــة وجميلــــه
يبـــز إســـحاق فيهـــا	ومعبـــدًا و «جميلـــه»
وقـــد تكـــون قـــصارًا	وقـــد تكـــون طويلـــه
وقـــد تجـــيء دعابًـــا	يـــشفي النفـــوس العليلـــه
وقـــد تجـــيء نفاقًـــا	جـــر المـــديح ذيولـــه

***

هـــذا الأديـــبُ أراه	فـــضيلة ورذيلـــه
ورفعـــة وهوانـــا	وروعـــة وفـــسوله
فروعـــه باســـقات	ولـــست أدرى أصـــوله



عبد الحميد الديب
فيلسوف الصعاليك



كان عبد الحميد الديب (١٨٩٨ ـ ١٩٤٣) نموذجًا للصعلوك المتمرد الذي فلسف مأساة بوسه وأسباب صعلكته وتمرده وثورته على المجتمع الذي ظلمه والناس الذين احتقروا شأنه ، فأطلق شواظ هجائه وسخريته على كل من رآه لا يمد له يد المساعدة والعون فكان صعلوكًا بلا جواد غير جواد الشعر الساخر الشديد الهجاء !

كانت قصة الديب مع البؤس والصعلكة والسجن والليل والكأس قصة حزينة دامية عاشها في رحلة طويلة مع شيطان الشعر وشيطان الحياة في دروب الشك والمجون والهجاء ، حتى شهد مصرع الشيطان في روحه ، بعد أن غمرت روحه أنوار الهدى واليقين وأن ظل معه شيطان الشعر يلهمه أشعار الهدى والتوبة .

ولد عبد الحميد الديب عام ١٨٩٨ بقرية كمشيش بمحافظة المنوفية لأسرة فقيرة ، فشب وترعرع بين البؤس والفاقه والحرمان وألحقه أبوه - وكان يعمل جزارًا في بعض مواسم القرية وأعيادها - بكتاب القرية فحفظ القرآن وجوده في فترة وجيزة .

واتجه الديب - بعد دراسته الابتدائية بمعهد الاسكندرية الديني - إلى القاهرة سنة ١٩٢٠ ليلتحق بالأزهر الشريف ، وقطن الديب بحجرة متواضعة بحي الحسين ، وفي الأزهر نهل من أمهات الكتب العربية وحفظ ألوف الأبيات من الشعر ومضت حياته بين دراسته في الأزهر وكفاحه المرير في سبيل لقمة العيش، وكان صراعًا مريرًا استنفد جهده ووقته وماء وجهه . ثم صمم على الالتحاق بمدرسة دار العلوم العليا ، فكان له ما أراد .

وفي مدرسة دار العلوم العليا مضى الديب يقرأ أمهات الكتب العربية وكان يقضي كل وقته بدار الكتب ويدون ملاحظاته ، وفي تلك الحقبة تعرف بالفنان الموسيقار سيد درويش ... ووجد سيد درويش الفنان في الديب الشاعر ضالته المنشودة ، فكان ذلك إيذانًا يبدء مرحلة جديدة وفريدة في حياة شاعر البؤس والحرمان . كان سيد درويش مسرفًا سخيًا فأغدق على الديب وجعله يعيش في نعيم ورفاهية .

ونسى الديب دار العلوم والكتب والدراسة وانتقل إلى مسكن فخم وبدأ يزاول حياة الترف والنعيم ، ولم يدرك الكارثة ألا يوم مات سيد درويش فجأة في سبتمبر عام ١٩٢٣ .

كان ذلك صدمة عنيفة قاسية للديب ... الذي لم يهنأ قليلاً بالتقلب بين هذا النعيم الدافق إذ انقطعت به أسباب الرزق وترك القصر ليقضي لياليه في الشوارع هائمًا على وجهه طول الليل ، حتى إذا ما انتهى به الطواف ذات ليلة عند القصر الذي كان يقطنه أيام سعادته ، وقفف يناجيه بمرارة وحسرة :

لو أستطيعُ البكا يا أيها الطَلَلَ

بكيتُ حتى شكت من دمعي المقَلُ
أرى الحوادث آسادًا مُقذّفةً
عليّ دون الورى تعدو وتقتتل

ثم يصور حظه مع البؤس والناس ومعاناته ومكابدته للجوع والحرمان والشقاء وكأن الدهر يلهو به ويعبث بمأساته الدامية :

وأجلس الليل في صحبى أسامرهم
وكلهم بمجالي رقتى حفل
حتى إذا سلموا للعود وانصرفوا
سريت جوعان يفرى عزمي الكلل
كأن حظى رحيق الدهر يشربها
بكرًا معتقة والدهر بي ثمل

وكانت تلك الصدمة العنيفة القاسية هي أولى الصدمات التي واجهت الديب في القاهرة وتركت في نفسه آثارًا لا تمحى وشعورًا عميقًا بالأسى والمرارة والسخط .

وأصبح الديب شريدًا ، هائمًا على وجهه ، صعلوكًا من صعاليك الشعراء بلا مأوى يذرع شوارع القاهرة ليله جميعًا حتى ينال منه التعب ، فإذا أذن المؤذن للفجر ، هرع إلى المسجد يتظاهر بالصلاة ، لكي ينال بعض الراحة وينام بعض الوقت : ويصور لنا كيف كان يعيش في تلك الأبيات المفعمة بالأسى والمرارة ، فيقول :

نهاري .. إما نومةٌ بين مَسْجدٍ
غِرارًا وإما بالطريق تَسكّعُ
وأطوى عَصِيّ الليل في القَرِّ ساعيًا

ومــــن أيـــن للأفّـــاق في الكـــون مَهْجَـــعُ
أصَـــــلّى بأذكــــار الــــمُرائى وقَلْبــــهُ
وبئـــــست صـــــلاةً يحتويهـــا تـــصنّعُ

* * *

وبدأ الديب حياة الصعلكة واللجوء إلى طلب المنح والعطايا من ذوى القدرة ... ومن الطريف أن وجد أمير الشعراء أحمد شوقي في حلواني «صولت» فكتب إليه مستنجدًا:

هــل أنــت منجــد مــن ضــاقت بــه الحـالَ
وقـــد تغـــرّب لا أهـــلٌ ولا مـــالَ ؟

وما كاد شوقي يأتي على البيت حتى وقع تحته توقيعًا طرب له الديب وضمن له أن يأكل أكلة دسمة في تلك الليلة ! .

* * *

وقطن الديب في غرفة صغيرة بلا أثاث وبلا فراش في حي الحسين .. لا يوجد بها سوى بعض الجرائد يتخذها الديب كوسادة ، وقلم وبعض الأوراق المبعثرة البالية وكان يسميها «جحر الديب» يلجأ إليها كلما هده الجوع والتعب والطواف .. ويرسم لنا صورة طريفة لتلك الغرفة في قصيدته الشهيرة التي يقول فيها :

أفي غرفتـــي يـــا ربِّ أم أنـــا في لَحـــدى ؟
ألا شـــدَّ مـــا ألقـــى مـــن الـــزمن الوغْـــدِ
وهـــل أنـــا حَـــي أم قَـــضيتُ ؟ وهـــذه
إهابـــةَ إسرافيـــل تَبْعثُنـــي وَحْـــدي؟
لقـــد كنُـــت أرجـــو غرفـــةً فأصـــبُتها

بنـــاءً قـــديم العَهْـــدِ أضـــيق مـــن جـــدثي
تـــراني بهـــا كـــلَّ الأثـــاث ، فَمِعْطفـــي
فـــراشٌ لنـــومي أو وقـــاءٌ مـــن الـــبرْدِ
وأمّـــا وســـاداتي بهـــا فجرائـــدٌ
تُجـــدَّدُ إذ تَـــبْلى عـــلى حجـــر صَـــلْدِ
تعلَّمْـــتُ فيهـــا صَـــبْرَ أيـــوب في الـــضَّنى
وذُقـــتُ هُـــزال الجـــوع أكثـــر مـــن «غانـــدي»
جـــــوارُك يـــــا رِّبي لمـــــثلي رحمـــــةٌ
فَخُـــذني إلى النـــيران لا جنَّـــةِ الخُلْـــدِ

وكان شاعر البؤس يعجز عن سداد إيجار غرفته المتواضعة على الرغم من ضآلته حتى أصبح صاحب البيت عدوًا له وكان الشاعر يلقى صنوفًا من المهانة بسبب مماطلته في تسديد الثمانين قرشًا أجر الغرفة التي كان يسكنها وقد صور ذلك في قوله :

ثمانـــــون قرشًـــــا أهلكتنـــــي كأنَّهـــــا
ثمانـــــون ذنبًـــــا في سِـــــجلِّ عـــــذابي
طويـــــتُ لهـــــا الـــــدنيا ســـــؤالاً وكذْيـــــةً
فـــــما ظَفِـــــرتْ نفـــــسي بـــــردِّ جَـــــوابِ

ويصف الديب صاحب المنزل وهو يطالبه بالأجر فيقول :

يطـــــالبني بـــــالأجر في غـــــيظ دائـــــن
تـــــصيّده المحتـــــال بـــــالثمن الـــــوكس
وقـــــال يـــــداري ظُلمـــــه : أي ضـــــامنٍ

لسكني تعرت عن سرير وعن كرسيَ

أراك بها كل الأثاث ولا أرى

سوى قلم ثاوٍ على الأرض أو طرس

فقلتُ له هذي جدودي كما ترى

فما مسكني في البيت بل أنا في رمسي

وفي عام ١٩٣٩ هدده مالك البيت بالطرد من غرفته التي يسكن فيها هو وزوجته «إحسان» والحجز على أثاثه البسيط، فلم يجد الديب مخرجًا له إلا أن يستغيث بصديق أديب ميسور حيث أرسل له هذه الأبيات مع ابن زوجته الصغير:

مولاى قد حجز الغريم ولم أجد

إلاك من بيع الأثاث مجيري

وغدًا سيفضحني ويفضح عيشتي

نذلٌ يبيع أريكتي وسريري

والناس قد جمعوا إلينا شامتًا

أو باخلًا يسخو بكُلِّ مُضيرِ

ليروا مبيتي بالعراء وزوجتي

حيري لبؤس مصيرها ومصيري

فأقل عثاري واحتسبها منة

من ذا سواك على الخطوب نصيري

فأرسل إليه الأديب مبلغًا من المال ومعه البيتين التاليين:

أثقلت من فرط السؤال بعيري

يـــا ديــــب فــــارحم واســـتبد بغـــيري
هـــاك الريـــال دفعتـــه لـــك مكرهـــا
فإليـــك عنـــي واكتفـــى بيـــسيري

فلما لم يشفع الريال (٢٠ قرشًا) لمالك البيت ليتركه في غرفته فسارع الديب بإرسال نفس الأبيات الشعرية مع بعض التعديل لصديقه الشاعر محمد الأسمر مستنجدًا بمروءته لينقذه من الطرد من مسكنه وبيع أثاثه:

يـــا صـــاحبي حَجـــز الغـــريمُ ولم أجـــد
في النـــاس مـــن بَيْـــعِ الأثـــاث مُجـــيري
وغـــدًا سيفـــضحُني ويَفْـــضُح عيـــشتي
نـــذلٌ يبيـــع حـــشيّتي وحـــصيري
والنـــاسُ قـــد جَمعـــوا إلينـــا شـــامتًا
أو بـــاخلًا يـــسخو بكُـــلِّ مُـــضيرِ
لـــيرْوا مبيتـــي بـــالعراء وزوجتـــي
حَـــيْرى لبـــؤس مـــصيرها ومـــصيري

فبعث إليه الشاعر محمد الأسمر مع رسوله بالأبيات الشعرية التالية:

قـــد بعثنـــا إليـــك شـــيئًا يـــسيرا
فتقبّلـــه شـــاكرا أو عـــذيرا
لـــو حبانـــا الزمـــان أكثـــر منـــه
لحبونـــاك منـــه شـــيئًا كثـــيرا
كـــم بنيـــتَ البيـــوت فـــانزلْ بـــها شـــئت
وطُـــفْ بـــالجميع دورًا فـــدورا

كيـف تـشكو يـا ديـب مارحـت تـشكوهُ
وأنـت الـذي يـشيد القـصورا
ليـت شـعري متـى أُقلِّـبُ عينـيَّ
فـلا أبـصر الأديـب فقـيرا
أنـت «يـا ديـب» بـا أديـب غنـيّ
بـالقوافي وإن رهنْـتَ الحـصيرا

وكانت للديب تجربة عجيبة ، إذ عمل مع رجل انتحل لنفسه لقب «طوالع الملوك» كان يدعى قدرته على قراءة الطالع أو فك الأعمال . وكانت مهمة الديب استقبال الزبائن وتهيئتهم قبل الدخول لطوالع الملوك ليقص عليهم كراماته ، وقد نظم الديب بعض نبؤات هذا الشيخ شعرًا، مثل قوله :

وَمِـيمِ يُوَاتِيـهِ الهنـا بـوزارة
وَيَأفُـلَ نجـم «الْعَـيْن» مـن فَلَـكِ العُـلاَ
وَيَغْلِـبُ «ثَـوْرٌ عقْرَبًـا» بقُرُونِـهِ
وفي «أَسَـدٍ» تعـدو الحـروب عـلى المَـلاَ

***

وأقطع الشيخُ الديبَ حجرة «بالدويدار» في حي الأزهر ، وهي حجرة في أعلى المنزل، والمنزل فيها أظن من بناء المماليك البرجية ، فهو خاشع خشوع الشيخ أمام زائريه ... ومتواضع تواضعه في لقاء المعترفين بنفحاته والعارفين ببركاته ونسكه ، وقد انتقل إليها الشاعر وهو «الرياش والأثاث، والغطاء والفراش» كما يقول ، لكن ليس للديب أن يصعد إليها كلما شاء ، بل له أن يصعد حين يأذن له أن يصعد ، فإذا افترش الشاعر ما كان يحمل تحت إبطه من صحف بالية ممزقة ، وإذا استلقى في زمهرير الشتاء في قميص ليس تحته إلا جلده ، لأن «الجاكتة» كانت فراشًا أو وقاء له من البرد ـ على حد تعبيره ـ ، حينئذ يختلي بنفسه الشاعرة

التي تجيش وتضطرب مما مر بها في يومها مع الشيخ ويحاول جهده أن يسرى عنها ، وأن يمسح عليها في رفق وحنان ، ولكنه حين يفتح عينيه على الواقع الذي يرى لا يملك إلا أن يهتف معها :

أَفِي حُجرتي يا رب ، أمْ أنَا في لَحْدِي
ألاَ شدَّ ما ألقى من الزمن الوغد

* * *

فإذا جاء العيد وهو يشكو ألمًا حادًا في أسنانه توهم ـ وهو في هذا شاعر ـ أن أهله قد وفدوا إليه في العيد من كمشيش يحملون إليه الهدايا ، ويمسحون على جراحه ، فإذا هرع إلى الباب للقائهم وجد رياح الشتاء الخليعة تعبث بباب حجرته ، ولكنه يكذب نفسه ويخدعها ارتقابًا لما توهم من لقاء الأهل والأحباب ، فيفتح الباب مرة .. ومرة .. ومرة على أمل أن يعانق أخًا .. أو يحتضن أختًا .. وفي كل مرة كان يعانق الوهم ويحتضن الوحشة وكواذب الآمال .

وكأني به وهو يمسك أضراسه بكلتا يديه ليعود إلى فراشه الخشن يجهش قائلاً :

من زائري في العيد ؟ مَنْ بالباب؟
وهمٌ فقدت به رشيدَ صَوابي
مَنْ ذا يُطالعُ سحنةً مُغبَّرةً
فكأنها لَعنْت بكلّ كتاب
يا حجرتي ما عِشتُ أحبُوك الرضا
فلقد حجبتُ عن الورى أوصابي
فعلى ثراكِ عفّرتُ جسمي نائما
كثرى البقيع لعابدٍ أوَّاب

ووقيتنـــي في مـــدمعي وشــكايتي
أذن اللئـــيم ، ونظـــرة الــمُرتاب
مــن زائــري في العيــد ؟ مــن بالبــاب ؟
وهـــمٌ فقــدتُ بـــه رشــيد صــوابي

وفي مرضه هذا أشفق عليه بعض أصدقائه وكان الشتاء قاسيًا مريرًا ، فحمل إليه غطاء باليًا هو كل ما استطاع أن يحمله إليه ، يتقى به صولة البرد في مرضه ذاك ، وقد فرح الشاعر المريض بهذا الغطاء أيما فرح ، ولكن لم تمض أيام حتى عدا على هذا اللحاف لص فقير حرم الديب من دفئه، وفجعه في أعز ما كان يملك ، وهنا نجد روعة التصوير وبساطة التعبير في شعره ، وهو يرثى هذا اللحاف العزيز الذي سرق منه.

لحـافي ، وهــل غــير الهبَــاء لحــافي ؟
بقيـــةُ نَـــسْجٍ دارسٍ ونـــداف
أطـــاف بـــه لـــص فقـــير كعيـــشتي
فيـــا بُؤســـها مـــن هجـــرة ومطـــاف
ولم أخـــش مـــن ذا الـــرزءِ إلا فـــضيحتي
بـــأني قـــد مُلكـــتُ شر لحـــاف
فليتـــك يـــا لـــصي الجـــريء وجـــدتني
غنيًـــا وســـعدي في الحيـــاة مـــوافي
ويـــا ليتنـــي مـــا كنـــتُ صـــيدك إنـــما
سرقـــت لحـــافي جاهـــدًا وشـــغافي
ويـــا ليتنـــي دون اللحـــاف ضـــحية
فـــإني صـــديقٌ في الحيـــاة مـــوافي

فكم ليلة تحت اللحاف قضيتها
أُسامر أحلامي وطيف سُلافي
وكم ذا وقاني البرد في جُنح ليلة
بها الموت من كل المواجع شاف
لقد ضاع مني ذا الغطاء ، فهل ترى
أُدثَّر شعرًا ضافيًا وقوافي؟!

ظل الديب فترة من الزمن في كنف الشيخ طوالع الملوك ، والحياة تحلو له تارة وتمر تارات، وهو في حلاوتها ومرارتها قلق النفس موصول الألم و السخط على الحياة والناس جميعًا ، فكأنه لم يستطع أن يظفر من نفسه بالمعاذير التي تبرر لمثله أن يقيم على مثل هذا الضيم ، أو يمرِّغ مواهبه الرفيعة في هذا الوحل المهين ، فأخذ يلتمس الملجأ لدى ذوى الجاه والغني ، فمضى يمدح هذا ويعرض بؤسه على ذاك ، وحين ييأس من عونهم ، ويفجعه إعراضهم يرميهم بالهجاء الذي ينسخ مديحه فيهم ، ويشفى نفسه من صلفهم واستعلائهم عليه .

كان الديب منطقيًا في بعض أحواله ، فهو حين يقارن بين هؤلاء الذين أعرضوا عنه ممن يأكلون الذهب ويلبسون الحرير وبين طوالع الملوك يلجُّ في لعن الأولين - وفيهم رؤساء وزارة سابقون - ويُغدق في تمجيد الشيخ ويحمد له قروشه وحجرته ، وإني أسوق إلى القراء طرفًا من هجائه لرئيس وزارة اشتهر بالغنى والكرم ، كان الشاعر قد مدحه ، فلما لم يظفر منه بما كان قد قدّر لنفسه توجه إليه بقوله :

قالوا : كريمٌ ، قلت : ما برهانكم
الكف معطية هي البرهان
فالله لو لم يحبنا بعطائه
ما كان إيمان ولا أديان

قـــــل للــــــذي أطريتـــــه فأدنتـــــه

منـــــي الجميـــــل ومنكمـــــو الـــــشكران

وهذا زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس قد زيّن أتباعه للديب أن يطرى «زعامته» حتى يثاب من لدنه ثوابًا قد يبدل حياته كلها، وقد ينتشله مما هو فيه من ذلة وهوان، فلما استجاب الشاعر إلى ما زينوا له، ذهب فأنشد بين يدي «الزعيم» قصيدة مدح رائعة كان المسكين قد أكْرِه على نظمها، ومطلعها:

إن الـــــذين يبايعونـــــك إنـــــما

يجـــــدون في الزلفـــــي لغـــــيرك عـــــارا

فما زاد «رفعته» على أن صفق للديب .. وكان التصفيق هو الثواب الذي وُعد به من قبل، وعندئذ هجاه المفجوع في آماله بقوله:

راجـــــع زمانـــــك أيُّهـــــذا الكـــــاس

فـــــاليوم لا نحـــــس ولا «نحـــــاس»

لم يبـــــق مـــــن مجـــــد الزعامـــــة كُلَّـــــه

إلا قمـــــيص أزرق «ولبـــــاس»!

ويقصد بذلك الزي الموحد لأعضاء الحزب: القميص الأزرق والشورت.

وحين يأس الشاعر من الحكومة والشعب بدأ يستعدى الفقراء على نظام الإقطاع، وأخذ يستنهض همم الجياع أن يبطشوا بالحكومة، وأن ينتقضوا على حكمهم الجائر، ذلك أن الحكومة كانت قد سنت تشريعًا حرمت به أكل اللحم يومين في الأسبوع، فوجد الشاعر أن الفرصة مواتية ليطلق صرخته إلى الفقراء المحرومين من الفلاحين الكادحين والعمال المستضعفين، فكانت صرخته التي أرسلها:

«كُلُـــوا» الحكومـــة، أو موتـــوا مـــن الجـــوع

صـــوت الــضعيف المَرَجِّـــي غـــير مـــسموع

مـــن حرمـــوا اللحـــم في يـــومين هـــل علمـــوا

أن لــــيس في حكمهــــم زيـــــد لتـــشريع ؟

وهكذا مضى الديب في ثورته على الحكام والأغنياء غير مبال بما قد يصيبه من بطشهم وجبروتهم ، وكأن لسان حاله يقول : «أنا الغريق فما خوفي من البلل» .

وقد روى الشاعر صالح جودت كثيرًا من الطرائف عن الديب منها أن الديب كان لا يملك إلا حلة واحدة رثة مهلهلة واتفق ذات مرة أن خلع عليه أحد أصدقائه حلة جديدة فقال له كامل الشناوي مداعبًا :

ـ مالي أراك متنكرًا اليوم يا ديب ! ...

اندفع الديب إلى الخمر ينشد فيها السلوى والنسيان بعد أن قوبل بضروب شتى من العدوان والافتئات .

وكان يعيش ساعات ـ على حد قوله ـ في مثل أطياف الجنة .. فقد كانت الحانة فردوسه المنشود. والمجد الموهوم ، ويسبح في خيالات وأوهام ساحرة مفعمة بالنشوة والسعادة والمتعة والجمال !

ويستيقظ الديب فيصطدم بواقعه الجهم وحياته الجدبة فيشكو ويسخط ويتمرد ... فيسرع إلى الساقي يهتف به في عربدة ومجون :

هـــــات المــــــدام فــــدين الله تيـــــسير

وأســــعد النــــاس مخـــدور ومخمـــــور

هــــات المــــدام ولا تعــــرض لمتربتـــــي

مهـــما غـــلا العـــيش لم تغـــل القـــوارير

ثم يحرض صديقه على المجون :

دع الـــشكوى وهـــات الكـــأس نـــسكر
ودعـــــك مـــــن الزمـــــان إذا تنكـــــر
وهـــام بي الأســـى والبـــؤس حتـــى
كـــأني عبلـــة والبـــؤس عنـــتر

* * *

دخل الديب السجن غير مرة بتهم مختلفة ، منها التشرد والصعلكة والسكر البين وعدم أداء الدين، وشم الكوكايين ، والعربدة ! وكان له في كل ذلك قصائد كثيرة منها قوله :

لقـــد شـــبعت فيّ الأعـــادي شـــماتة
وبـــتّ ومـــالي في الوجـــود حبيـــب
وأصـــبحتُ مـــسجونًا بـــدار بعيـــدة
تجـــافي بهـــا خـــل وبـــان قريـــب
أأصـــبح مـــسجونًا ومـــا كنـــتُ مـــذنبًا
ولا حزبتنـــــي في الحيـــــاة ذنـــــوب؟

* * *

تزوج الديب في صيف عام ١٩٣٩ وقد تجاوز الأربعين من عمره من أرملة شابة أعجب بها، ودعا الديب بعض أصدقائه المقربين إلى حفل عرسه وظلوا وقوفًا في الحجرة الخالية من الأثاث والمقاعد وكان الديب يرتدي حلة قديمة مهلهلة يحاول فيها أن يبدو أنيقًا مختالاً ، وكانت ليلة عجيبة زادها سخرية وعبثًا للأقدار أن جارة عجوزًا قدمت للضيوف قهوة سادة ، فشعر الديب بالمرارة والأسى فنظم قصيدة في مأتم عرسه :

أقـــام لي الأصـــحاب عرسًـــا فمـــذ رأوا

بــــه محنتــــي تـــشدو أقـــاموه مأتمًــــا

وروى العطـــاشي مــــن نمــــيري ، بيــــنما

سُـــقيتُ بــــه مهـــلاً حمــــيمًا وعلقـــمًا

ولــــستُ بمختــــار الـــشقاء أو الهنــــا

فطـــول حيـــاتي أشرب الكـــأس مــــنهما

* * *

قوبل الديب بضروب شتى من الجحود والغبن والإنكار ، في أساليب شتى من العدوان ، فصور عراكه مع شانئيه ، ووقوفهم له بالمرصاد ، وإقامتهم العقبات في سبيله ، وقد اتخذوه تسليتهم:

إذا قلـــتُ قـــديسٌ يقولـــون ســـادر

وإن قلـــتُ حــيٌّ، يحملــوني إلى رمــسي

تحــديتُ أيـــامي وقـــومي بوحـــشتي

وكـــم وردوا منــــي مناهـــل للأنــــس

لقــد جهلــوا يــومي ولــن يكرمــوا غــدي

ويـــا حـــر قلبـــي مـــن شـــقائي في أمـــس

وانقطعت بالشاعر أسباب الحياة العائلية المطمئنة ، فهو يشعر بغربة موحشة ولا سيما في الأعياد والمواسم .. وكان لا يذهب إلى غرفة زوجته «إحسان» إلا نادرًا لإفلاسه الدائم ... وكانت أقسى أيام تمر عليه هي أيام الأعياد ، فكان يرى الكل يبتهج ويمرح ويتلفت فيرى نفسه: رثاثة وإفلاسًا وأحزانًا وغربة ووحدة ودموعًا ! .

وينتظر أن يزوره أحد من أهله فلا تتحقق الأمنية ، فيشعر بالكآبة والحزن حتى أنه يرثى نفسه:

يـــا معـــشر الـــديب وافي كـــل مغـــترب

إلا غريبكم في مصر ما بانا
قدمتم الشاة قربانًا لعيدكم
والدهر قدمني للبؤس قربا

* * *

وكان كلما أقبل العيد يردد هذه الأبيات الحزينة الباكية :

عيد تطالعني والعيش منكود
لأنت يوم الأسى والحزن يا عيد
يجدد الناس من لبس ومن فرح
وعندنا للأسى والهم تجديد

ومضت حياة الديب المكدودة البائسة بين قصف وهجاء ومجون علـه ينسى محنته ومأساته .. حياة يقضيها بين شياطين الكأس والمرأة والحياة ويوحى له شيطان الشعر بأقذع الهجاء ، وعاش شاعرنا جاهلي الروح تؤرقه أشباح الشياطين ويضنيه وحيها الكنود .

وفي لحظة صفاء روحي أحس أنه أمضى جل حياته مع شيطان الخمر والشعر والحياة .. وهنا سطعت في دياجي روحه لمحة ضوء .. كان ذلك عام ١٩٣٩ وهو يقترب من الحادية والأربعين من عمره وكأنه يحس بدنو أجله ... وأشرق نور الإيمان وصفاء التقوى بفضل مصاحبته للقرآن في لحظات إشراق روحي وحينئذ شهد مصرع الشيطان .. وتجلى أمامه نور الهدى والإيمان ..

ويصور لنا مراحل قصته مع شياطين الشعر والحياة عندما كان سادرًا في غيه حتى مصرع شيطان الأفك والضلال :

كل شيء أشهد الله عليّا
فرت الدنيا جميعًا من يديا

لا تقـــل لي كيـــف تحيـــا ســـادرا

أنـــا ميـــت بـــين قـــومي لـــستُ حيـــا

سر هــــــذا البـــؤس أني شـــاعر

قـــد أفـــاد الـــدهر منـــي عبقريًـــا

ويصور الديب كيف جنى عليه شيطان الشعر ، فاتخذه معبوده ، وجعله يمضي في غيه سادرًا بين شياطين الكأس والهوى والمجون :

قـــد اتخـــذت الـــشعر توحيـــدي ولم

أتطهـــــر فجنـــــى الـــــشعر عليـــــا

بيـــــنها أسرف في وصـــــف الطـــــلى

والهـــــوى لم أدخـــــر لله شـــــيّا

ثم يصور كيف أصبح هو كإبليس سواء بسواء .. بل أنه قد فاق إبليس حيث أنه أسفر عن وجهه للناس :

أنـــا أو إبلـــيس للـــدنيا عمـــى

هـــو خـــاف وأنـــا أبـــدو جليًـــا

وكان من أجل أماني الشاعر أن يجد له مكانًا في صحيفة الأهرام ، فقد احتضنت كتابًا يعرفهم وأدباء لا يقل هو شأنًا عنهم ، وقد حفيت قدماه للوصول إلى أمنيته تلك ، وطال اختلافه إلى صاحبها ورؤساء تحريرها ومحرريها، فكان دائمًا يظفر منهم بحلو الأماني ومعسول الوعود ، فلما يئس من إدَراك مطلبه أخذ يقتحم عليهم الدار إمَّا مخمورًا ، وإما ثائرًا ، وكانوا يصرفونه بما يُهديء من ثورته أو بما يصرفه إلى الحانة مرة أخرى !

وأما غضبته على جلساء «بار اللواء» فقد ذاع أمرها ، وهي ماثلة في خلد كل أديب عاصر الديب، أو جلس إليه هناك ، وقد كان هذا «البار» بحق ندوة حافلة من ندوات الأدب الرفيع ، والفن الأصيل ، ولقد جرى الهمس يومًا على موائده

أن الكاتب الصحفي أحمد الصاوي محمد صاحب ما قل ودل يزمع طبع ديوان الديب ، ولما علم الشاعر ذلك شكر له هذه الأريحية وطفق يجمع قصائده من الصحف ، والمجلات ، ومن أصدقائه .

ولكن القدر كان يقف للديب بالمرصاد في ثوب الوزير الظريف الأديب حفني محمود ، فقد صحب الشاعر إلى دار اللواء ، وأجلسه قريبًا من مائدة يجلس عليها الشاعر الصاوي بحيث يسمع كلاً منهما حديث الآخر ولا يراه..!! ثم أوحى إلى الديب أن يهجو الشاعر كامل الشناوي ليطلب له كأسًا ، ويمنحه «ريالاً» فأنشد :

«بَارَ اللواء لُعِنْتَ بالشناوي » ثم تلفت عفوًا فوجد الصاوي قريبًا منه فأكمل البيت هكذا :

بـــار اللـــــواءِ لَعِنـــــت بالــــشناوي
وَرُزِئْـــــتَ قَـــبْلاَ بالثَّقيـــل الـــصَّاوي

فغضب الصاوي وقال له : «لماذا تهجوني يا ديب ؟ » فأجابه وحفني محمود مبتهج من ذلك أيَّما ابتهاج : «إنها القافية يا أستاذ ، وأمرى إلى الله في إطلاق ديواني الحبيس ..!! » .

ولرواد بار اللواء مكان آخر في غضبة الديب ، فمن قصيدة له :

بـــار اللـــواء جمعـــت بعـــض كتائـــب
والحقـــد فـــيهم مـــستبد متلـــف
وقفـــوا كـــما وقـــف الزمـــان بمحنتـــي
لـــدمي الـــبريء جمـــيعهم يـــستنزف
أأعـــيش بيـــنهم شـــقيًا معـــدمًا
وهـــم غنـــى نـــاعم وموظـــف

ولا أعلم أن أحدًا أصابته شظايًا الديب كما أصابت الشاعر كامل الشناوي، فإنه الهدف الأسمى في هذا الباب ، وله بأن يفخر بأن أحدًا لن يستطيع أن ينازعه هذا الشرف مهما كان حظه من صداقة الديب ، ومن ذلك قصيدته التي يهجو فيها كامل الشناوي في لحظة غضب صارخة يقول فيها :

ومـــادح موهبـــاتي مهـــدر شرفي

الغـــصن في راحتيـــه نـــصل ســـناك

إذا فتـــشت نوايـــاه أرى صـــدرًا

مـــن عـــاطش لـــلأذى في لـــؤم ضـــحاك

وهكذا عاش شاعر البؤس والحرمان في مأساة عنيفة حادة مستمرة استهلكت قواه وطاقته.

وقد روى لنا صديقه ومؤرخه د . عبد الرحمن عثمان العديد من طرائفه ومواقفه الضاحكة حيث يصف لنا عبد الحميد الديب في مواقفه الضاحكة حين يتحول هاجيًا وساخرًا فيقول [1] :

«العجيب أنك حين تشهده الديب هائجًا مائجًا ، يصول ويجول في إحدى معاركه لا تملك إلا أن تنفجر ضاحكًا لطرافة ما ترى ، وروعة ما تشهد ، فالفارس الذي تراه هو عبد الحميد الديب ، يعنف في ضعفه الذليل ، ويُقدم في وجله المعروف. والحسام الذي يقلبه الفارس في كفه المرتعشة هو قلمه «الرصاص» الذي تعمد متناسيًا ألا يرده إلى صاحبه بالأمس ، والصرعى المجندلون أمامك هو صفوة أصدقائه والحانين عليه والدامعين على محنته » !

وتلك ـ ولا شك ـ معركة فريدة لا تقع العين على مثلها كثيرًا ، لذلك ، إن فارسها «المغوار» حين يلتقط في عجاجها أنفاسه اللاهثة يكاد يخرج من إهابه رضًا بما أوجع بالهجاء وراحة بما استحدث فيه من خالد التعابير ورائع الصور .

(١) عبد الرحمن عثمان / الشاعر عبد الحميد الديب / دار المعارف ١٩٦٨ .

ومن تلك الطرائف :

وصله يومًا المرحوم إبراهيم دسوقي أباظة بعشرة جنيهات ، ثم لقيه بعد ذلك بساعات صديقه الشاعر كامل الشناوي فألقى في روعه أن دسوقي أباظة قد ربح اليوم من «البورصة» مبلغ عشرين ألفًا من الجنيهات .

واصطنع الشاعر المراح الأسى والإشفاق على الديب وأضاف «ومع ذلك فهو يعطيك أنت أيها العبقري العظيم عشرة جنيهات فقط ، فغضب الديب ونظم قصيدة كلها فحش يقول فيها :

أبلــغ أباظــة عنــي : أنهــم ورثــوا
مــالاً ولم يرثــوا دينًــا ولا خُلقًــا

والمهجو ـ رحمه الله ـ هو الذي امتدحه الشاعر ظهر اليوم نفسه بقصيدة منها:

ومــا لي لا أزور حمًــى كــريمًا
تكنَّــف «حافظًــا» ورعــي «حمامًــا»

ويقول صديقه عبد الرحمن عثمان : «ولكيلا أرمى بالتشهير بمن سيتناولهم هجاء الديب وكلهم في نفسي فاضل وعلى خلق ، أستهل هذا الجانب الطريف من جوانبه الشعرية الرائعة بما قد شرفني به من هجاء ، وبما تخيل لي من صورة «القن» الذي يتّجر فيه النخاسون في سوق العبيد، وقد كان ذلك حين طلب إلى أن أقترض له نقودًا من صديق كان يتهيبه ويخشاه ، فأغلظت له في القول، وزجرته أعنف الزجر ، فجلس قريبًا من مجلسي ، وشرد بخياله بعض الوقت ، ثم التفت إليّ لينشدني ما هجاني به ، وكنت ألمح في عينيه ـ وقتذاك ـ بريق التشفي والانتصار ، قال رحمه الله:

إيــه ، يــا عبــد الخَنــا مــا أنْــذَلَكْ
عُــدْ إلى النَّخَّــاس تَعْــرفْ مَنْزِلَــكْ
تــشتم الــديب ، وكــم مِــنْ محْنَــة

يُـــشْتَمُ القِـــدّيسُ فيهـــا والملَـــكْ

وما كان رحمه الله قديسًا ولا ملكًا كما تخيل لنفسه ، وإنما كان إنسانًا تصرخ في عروقه غرائز الإنسان ، وكان يشفى نفسه دائمًا أن يثأر لها من أعدائه في قوة واعتداد .

وقد كنت ثالث ثلاثة من المعممين الذين احتضنوا الديب قُرابة ست سنوات ، وكنت ـ في غير مَن ولا غرور ـ أبرَّ الثلاثة به ، وألصقهم بنفسه ، بل أستميح الصديقين عبد الحميد قطامش ، وعبد الحميد إبراهيم .. لأقول إنني كنت أعمقهم في فهم هذا المستكبر الذليل والمحلق المنسف، لأنه كثيرًا ما كان يصنع معنا ثلاثتنا ما يثير الغضب ، فيغضب الصديقان وأرضى ، فإذا أقبلا علّ باللوم والتقريع وجداني هادىء النفس مقبلاً على الديب في حنو وإشفاق ..!

وقد كان الشيخ عبد الحميد إبراهيم ـ المدرس الآن ـ أيسرنا حالاً ، وأرخانا عيشًا ، فإذا رجع من قريته التي كثيرًا ما كان يختلف إليها لقربها من القاهرة ، حمل إلينا طعام الريف الشهيّ ، فنجتمع والشاعر لنأكل طعام «أهل الجنة» كما يسميه الديب ، فإذا أكثرنا ـ مازحين ـ على الشاعر أن يأكل مما لم تره عينه ، ولا خطر على قلبه ، ولا سما إليه خياله الذي يعتد به ، هَمْهَمَ بهجائنا جميعًا ، وأوجع في ذلك صاحب الطعام أيما إيجاع ، قال :

بُليـــت آخِـــرَ عُمْـــرى بالمَرائينَـــا
الــــواقفين عــــلى بــــاب الثّرينـــا
مِـــنْ كُـــلِّ شـــيخٍ قـــد الْتَفّـــتْ عِمَامَتُـــهُ
عـــلَى المذلـــة يطـــوى عمـــره هونًـــا
غنـــيهم بـــاعَ مِـــنْ غَـــلاتِ بلدتـــه
خِثْيًـــا ، وَطَالعنـــا نَـــذْلاً يُباهِينَـــا

وهذا حديثي عما أملك من أمر نفسي وأمر صديقيّ العزيزين ، فهل تُراني أطيق الحديث عن معمم آخر بنفس الصراحة التي تناولت بها ما كان بيننا وبين

الشاعر، وأظنني لن أستطيع أن أفعل..، وحسبنا إذن أن نعلم أن الشيخ العسكري كان من رواد «بار اللواء» تبني حملة شعواء على صاحبنا في صحيفة كبرى، وأنهما اشتبكا معًا، في معركة مشهودة أمام البار، وأن كلاً منهما كان يكره الآخر ويتربّص به الدوائر، وأن الديب هجاه بقوله :

عِمـةٌ تَحْتهـا ضَـلاَلٌ ولـؤم
وَهْـيَ عُـشُ الخَنَـا وبيـت الـداء
نُـسجَتْ مِـنْ سَـفَاهةٍ، وَفُـسُوقٍ
وعَـلَى الخِـسَّةِ انْطَـوَتْ والرِّيـاء
أطعَمَـتْ ربَّهَـا دجاجًـا حَنيـذًا
وَسَـقَتْهُ (الْكُونْيَـاكَ) بَعْـدَ المـاء!

وهجاه وأفحش في قصيدة منها :

جَوْعـانُ يأكُـلُ مِـنْ مَـصَارع عِرْضِـهِ
فَـلاَ ولَـدَتْ أمٌّ سِـواهُ «عَـسَاكرا»

وخلطاء الديب يعرفون أنه جبان فروقة، ولكن الحظ وحده جعله بطلاً يصرع الشيخ أحمد العسكري في بار اللواء، والعدد رقم ٣٢ من جريدة «فتى النيل» الصادر في ٩ يوليو عام ١٩٣٩ يروي القصة بأسلوبه :

«نشرنا منذ أسبوعين في «فتى النيل» قصيدة ممتعة اشترك في تأليفها الشاعران الكبيران كامل الشناوي وعلي محمود طه المهندس، وقد أنشداها في حادث «الخناقة» التي وقعت في بار اللواء بين الشاعرين : العسكري والديب، وننشر في هذا العدد رد الشاعر عبد الحميد الديب على حضرتيهما».

ثم نشر القصيدة التي نقتصر منها على هذه الأبيات :

خلـيلي لم أظلـم وإن بـتُّ ظـافرا
وقـد تـضعف الأضـغان مـن كـان قـادرا

أَلَم تريـــا ذا الـــشيخ في طـــول نخلـــةٍ ؟
عـــريض القفـــا فَيْنَـــان كـــالفرع نـــاضرا
ألا لا تلومـــاني عـــلى صـــفع وجهـــه
فـــذلك وجـــه يقبـــل الـــصفع صـــاغرا
فقِـــدْمًا رأَينـــاه وللعـــين أُختهـــا
فأَمـــسى مكـــان العـــين بالـــضرب شـــاغرا

ثم يمضي في القصيدة حتى يقول :

«عـــلى الله» عـــاش الـــشيخ طـــول حياتـــه
فـــلا ولـــدت أمٌّ ســـواه عـــساكرا

الشاعر المحروم:

وإذا كان الحرمان المادي قد دفع الديب إلى الثورة والتمرد ، فإن حرمانه العاطفي قد حطم نفسه، وأشقى روحه ، وملأ قلبه بالأحزان والآلام ، كان بطبيعته كشاعر يعشق الجمال المحروم منه، ويهفو إلى وصال المرأة لكنه كان يتراجع لبؤسه وفقره ومهانته لكن الديب لم يكن دميمًا إلى هذه الدرجة ، لكنه ذلك الإِحباط الذي جعله يشعر بالمهانة والذلة ، فيصرخ باكيًا :

تـــزور عنـــي الخـــرد الغانيـــات
لـــوجهي الحـــاكي ســـواد الغـــراب

وقد صحب الديب صديقه الموسيقار سيد درويش لفترة قصيرة ذاق خلالها الديب النعيم واستطاع أن يغشى الملاهي والمنتديات الفنية ، لكنه كان فقيرًا لا يستطيع أن يجاري تلك الأجواء الصاخبة ، فتبسمت له ذات ليلة إحدى الغانيات ، فحاول أن يتقرب إليها لكنها اكتشفت إفلاسه فرفضت أن تمنحه قبلة كان يتمناها ومنحتها لمن معه المال فثار باكيًا محطمًا ورأي الدنيا منادح أهوال، وأن الشقاء قد كتب عليه :

دنيـــاي أنـــت لغــيري مــصبح ألــقُ
وأنــت طيلــة عمــري الليــل والغــسقُ
حرمتنــي وســقيت النــاس مــن غــدقُ
كــأنني هالــك والنــاس قــد خلقــوا
أن التــي حرمتنــي قبلــة خــضعت
لأنــف وغــد وأفنــي حزنهــا النــزقُ
إذا ســلكت اللظــي في العــيش مرتجيًــا
بعــض الكفــاف كــوتني دونهــا الحُــرقُ

ويسعى الديب بكل قواه ليتكسب عيشه ، ويجد وظيفة تعطيه ذلك الاحترام والتقدير وتنفي عنه صفته كشاعر للبؤس ، وينجح بأن يجد وظيفة مدرس لغة عربية بمدرسة أهلية للبنات .. فمضى في وظيفته بكل جد ودأب ليثبت وجوده وكفاءته أمام مدير المدرسة وبالفعل اكتسب محبة زملائه وثقة مدير المدرسة ، ومما زاد من سعادته أنه وجد مدرسة بائسة زميلة له أسمها «فاطمة» بادلته مشاعره وعواطفه المتأججة فلم تسعه الدنيا وشعر أن الدنيا قد ابتسمت له بعد طول إدباروعبوس .

حكاية فاطمة:

أحبها الشاعر الصعلوك بكل ما في قلبه من حرمان وظمأ إلى الحب الذي يسعد روحه ، ويبهج حياته ، وينزع أشواك الأسى والحرمان التي تكتنف حياته، ويجعله يحس بآدميته وبمشاعره كإنسان محب عاشق للجمال ..

ولم يستطع الشاعر العاشق أن يخفي مشاعره فأطلقها في أبيات عشق كلها محبة وأمل في أن تكون «فاطمة» هي الملهمة والزوجة الحانية التي تنسيه مأساة حياته . وبؤسه الذي خشى أن يحول بينه وبين محبوبته :

أأحبيـــت .. والبـــؤس تقـــصيني مخاوفـــه
فبـــــت أضرب للأســــداس أخماسًـــا
أحبيـــت .. أنعـــم مـــن حدثتـــه «رشـــأ»
بـــه ســـمات الهـــوى روحًـــا وأنفاسًـــا
بـــه شـــحوب يكـــاد الـــصب يأكلـــه
أكـــلاً .. ويـــشربه دون الطـــلى .. كاسًـــا
وإن تكلـــم فاســـمع أيـــما ضـــحك
يريـــك أي جمـــال يـــسحر الناســـا
وأن تثنـــى عـــلى كرســـيه ورنـــا
فاســـخر مـــن البـــان : صـــداحًا ومياســـا

وبدأ يقترب منها ويفضي إليها بهموم روحه وأحزان نفسه ، وسعد بتجاوبها مع ظروفه القاسية لكن القصيدة التي ناجاها بها انتشرت بين زملائه من المدرسين والمدرسات ، وتصبح قصة حبهما موضوعًا لتحقيق طويل مرهق عند مدير الإدارة ينتهي به آخر الأمر إلى الطريق مفصولاً هو وفاطمة من المدرسة .

وراء الأسوار:

ولكن ما ذنب فاطمة ؟! لقد جنى عليها وأشعلته هذه المأساة الجديدة وأرهقته فغامت الدنيا في عينيه ، ولم يجد إلا الكوكايين مهربًا وملاذًا علـه ينسى في غيابات ضبابه الأبيض مأساة حبه الذي ضاع منه ، فانتهى به الأمر إلى السجن ، فيبعث إليها من وراء أسواره عدة أبيات يواسيها في محنتهما ويبرر لها سبب إدمانه وشقوته بزمانه وأهل زمانه :

أفـــاطم .. أن النـــاس قـــد أكلـــوا عـــرضي
وصرت لعينًـــــا في الـــــسموات والأرض

يقولـــون «شـــمام» ، ومـــا شـــم معطـــسي
ســـوى الـــوردة الفيحـــاء والنـــرجس الغـــض

ويخرج من السجن بعد أن يقضي ستة أشهر وراء أسواره ، ولكنه يجد الدنيا أمامه أكثر ضيقًا وسوادًا .. فلا أمل في وظيفة بعد أن أصبح من أرباب السوابق .. ولا أمل في زواج .. ولا أمل في مسكن يؤويه .. وزاد أحزانه أنه حاول أن يستعيد علاقته بفاطمة لكنها اختفت وسط الزحام بعد أن سبب لها الفصل من عملها والفضيحة المدوية .. فيعكف على أحزانه وعلى شرابه : طريدًا: مشردًا، هائمًا على وجهه لكنه لم يستطع أن ينساها ، فيخلق لنفسه عالمًا من الجمال والنجوى مع ذلك الحب الضائع ، عله يعوض في الخيال ما فاته في الواقع الأليم المر ، فيكتب من وحيها رباعيات بعنوان «بين بؤسي وغرامي» يقول فيها :

* لـــيس في الـــدنيا ســـوى عينـــي تنـــوح
وفـــؤادي مـــن لظـــي حـــزني مـــروح
وصـــدى صـــوت عـــلى بعـــد يـــصيح
أيهـــا العاشـــق للمحبـــوب هيـــا

***

طـــرت كالهـــارب مـــن وجـــه القـــضاء
أســـأل الغـــبراء عنهـــا والـــسماء
لم يجبنـــي غـــير عينـــي بالبكـــاء
اذكرينـــي واســـكبي الـــدمع عليّـــا

ثم يستعيد مأساة تشرده وبؤسه ، فيقول :

أنـــا في الليـــل عـــلى ســـهدى شريـــد
والأســـى يعـــرف مـــن «عبـــد الحميـــد»

غـــــير أني في يــــــد الجـــــلي جليــــــد

لـــست أنـــسى همتـــي مـــا دمـــت حيًـــا

ويمني نفسه أن صفو المحبة بينهما لا تغيرها خطوب الدنيا وأهوالها وأقوال الوشاة الحاقدين:

ســــلى فـــؤادك عنـــا .. لا تلومينـــا

ولا يجافيـــك منـــا قـــول واشـــينا

عـــدا الـــشقاء عـــلى الـــدنيا فغيرهـــا

ولم يغـــير بهـــا صـــفو المحبينـــا

وخلـــف الـــروض إلا بانـــه حطبًـــا

وكـــان مخـــضو ضرًا يهفـــو رياحينـــا

ويقارن بين حظه وحظ الآخرين .. فيجد أنه وسوء الحظ توأمان .. فيقارن بين حظه وحظ د. طه حسين فتثور براكين يأسه وألمه بمناسبة صدور كتابه «الأيام» :

عـــــشرين عامـــــا أنـــــادي

ولم أجـــــــــد لي ســـــــــميعا

وأنّ طـــــــــه .. فأنـــــــــت

لـــــه الـــــبلاد جميعـــــا

يـــــارب .. حتـــــى ببـــــؤسي

أرى مكـــــاني وضـــــيعا

يبكـــــون عـــــن بـــــؤس طـــــه

ولم يـــــذق فيـــــه جوعـــــا

ولا تــــــــــشرد يومـــــــــا
ولا أصـــــــــــاغ مطيعـــــــــا
ولا عــــــــــــداه رحيـــــــــل
لم يـــــــرج منـــــــه رجوعـــــــا

***

أمـــــــا أنـــــــا ، فـــــــتراني
في كـــــــل يـــــــوم صريعـــــــا
مـــــــا مـــــــر يـــــــوم بعمـــــــري
إلا وكـــــــــــان مريعـــــــــا
مهـــــــــــاجر في شـــــــــقاء
أطويـــــــه عريـــــــا وجوعـــــــا
أرجـــــــو الحيـــــــاة كفافـــــــا
واليـــــــسر لـــــــن أســـــــتطيعا

عندما تزوج الديب !

ولا يجد الديب في سنواته الأخيرة أملاً في حياة كريمة فلا وظيفة ... ولا زوجة .. ولا ولد.. ولا بيت .. وذات يوم من صيف عام ١٩٣٨ يفاجيء الديب رفاقه بأنه سيتزوج جارته «إحسان» في الغرفة التي عاش فيها لفترة وهي أرملة لديها ولدين ... وكان يوم زفافه مأساة باكية .. حيث حضر بضعة أصدقاء الزفاف وقوفًا في غرفته لأنها كانت خالية من الأثاث وارتدي الديب قميصًا مهلهلاً .. واكتملت المأساة حين قدمت جارة عجوز للضيوف «قهوة سادة» احتفالاً بزفاف الشاعر البائس!

أقـــام لي الأصـــحاب عرسًـــا فمـــذ رأوا
بـــه محنتـــي تـــشدو .. أقـــاموه مأتمًـــا

ولم تمض شهور حتى أجبره البؤس وضيق ذات اليد على طلاقها وقلبه يبكي ، وحاول أن يسترضيها :

يـــا ربـــه الـــدار لا ترثـــي لأرزاقـــي
قـــد قـــدر الله إســـعادي وإملاقـــي
معيـــشتي بـــين مـــصر أصـــبحت مـــثلاً
لعبقـــري غنـــي الـــنفس .. أفـــاق
أنـــا الـــذبيح مـــدى عمـــرى ومـــن عجـــب
أني حرمـــت بخطبـــي كـــل إشـــفاق

ويصاب الديب باليأس القاتل ، فيجد أن كل شيء سيان ، فيمعن في طريق الشراب والضياع وهو يعلم أنه متجه إلي الانتحار يأسًا :

دع الـــشكوى وهـــات الكـــأس نـــسكر
ودعـــك مـــن الزمـــان إذا تنكـــر
وهـــام بي الأســـى والبـــؤس حتـــى
كـــأني عبلـــة والبـــؤس عنـــتر
كـــأني حـــائط كتبـــوا عليـــه
هنـــا يـــا أيهـــا المزنـــوق «طرطـــر»!

ويبلغ يأسه مداه ، فيطلق صرخة مدوية يطلب فيها الموت :

ويـــارب مـــا يـــومي وأيـــن منيتـــي
أمـــالي حتـــى في المنيـــة موعـــد ؟!

ومضت حياة الديب في أيامه الأخيرة يعاني من آثار إسرافه في الشراب ومن آثار الجوع والحرمان والبؤس ، وتدهورت صحته ولم يجد إلا صاحبته الشقية يناجيها ويبثها همومه بعد أن فقد الاستقرار والعمل فلجأ إلى قلمه وقرطاسه :

أعـــيش فـــيكم بـــلا أهـــل ولا وطـــن

كعـــــيش منتجــــع المعــــروف آفـــاق

ولـــــيس لي مـــــن حبيـــــب في ربـــوعكم

إلا الحبيبــــــين : أقلامــــــي وأوراقــــــي

وصار الديب يذوب تدريجًا حتى أصبح حطام إنسان وانتهى كشاعر ثم كإنسان حتى كان رحيله في ٣٠ أبريل عام ١٩٤٣ وهو لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره وبكاه أصدقاؤه وكتب كامل الشناوي يرثيه :

«لقد جاع الديب وأكلت الماشية ، وتعرى الديب واكتست الأضرحة ، وهو الإنسان وهو الفنان» . .

بين الديب وابن دانيال:

يذكرنا الديب بأحد أبرز الشعراء الحرافيش في العصر المملوكي في القاهرة هو شمس الدين محمد بن دانيال الحكيم الكحال (ت ٧٠٨ هـ) الذي كان يعمل كحالًا بسوق القاهرة ، وكان دكانه داخل باب الفتوح ، وكان خفيف الروح طيب العشرة ، ظريفًا [(١)] حين يذكر حرفته ، وهي التكحيل يلجأ إلى التورية :

يـا سـائلي عـن حرفتـي في الـورى ... وضــيعتي فــيهم وإفــلاسي

مــا حــال مــن درهــم إنفاقــه ... يأخــذه مــن أعــين النــاس

وقد صور ابن دانيال حياة طائفة الحرافيش أو الحرفيون العاطلون الذين لا يملكون من متاع الدنيا شيئًا ، ويعيشون الحياة يومًا بيوم ليس لهم عمل محدد ولا دائم يمتهنون أي مهنة تلوح لهم «بالشطارة» و «الفهلوة» ، وغالبًا ما يكسبهم التسكع في الشوارع هيئة خاصة في الشكل والمظهر والملبس والمأوى ، فيصورهم ويبالغ أحيانًا في تجسيم أحوال التشرد والفقر والمعاناة في معيشتهم .

وقد امتهن الديب بعض تلك الأعمال في حياته فعمل ذات مرة سمسارًا

(١) راجع د . محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ .

للخراف وعمل ذات مرة سمسارًا للخراف وعمل ذات مرة مساعدًا لأحد الدجالين ، وقد اشتهر بقصائده القصيرة التي كان يعدها للبيع وكان يسميها «الشلنيات» أي القصيدة بشلن «أي بخمسة قروش» !

وإذا كان الديب قد أجاد وصف حجرته البائسة أو «جحر الديب» كما كان يطلق عليها رجال الصحافة متندرين ، فابن دانيال أحد حرافيش زمانه ، قد سبقه في تصوير غرفته في مجموعة من اللوحات التي تعكس فقره المدقع ومعاناته ، فيقول :

أصبحتُ أفقَر من يُروح ويَغتدى ... ما في يَدى من فاقَتي إلاّ يَدي

في منزل لم يحْوِ غيْري قاعدًا ... فمتى رقدْتُ رقدتُ غير مُمدَّدِ

لَمْ يبقَ فيه سوى رسوم حصيرةٍ ... ومخدَّةٍ كانت لأمِّ المهتدي

هذا ولي ثوبٌ تراهُ مُرّقعًا ... من كُلِّ لونٍ مثل ريش الهَدْهدِ

لولا الشقاوة ، وُلدتُ وليتني ... إذ كانَ حظَى هكذا لم أولد

ولكيفَ أرضى بالحياة وهّمتي ... تسمو وَحظَى في الحضيض الأوهد

وأرى السّعادةَ قد أحّلتْ مَعْشرًا ... ربتَ العُلا لا بالنّهي والسؤددِ

أنه هنا يتمنى لو لم يولد مثله مثل محمود أبو الوفا أنه أحد الحرافيش الذين تغلبوا على فقرهم ومعاناتهم بالسخرية والفكاهة مثلما تغلب الديب على عقدة الفقر بتمرده الصارخ وسخريته اللاذعة من مأساته ومأساة أمثاله من الحرافيش والصعاليك والفقراء المغلوبين على أمرهم في عصره!

من نوادر الديب:

وقد رويت العديد من الحكايات والنوادر الغريبة عن شاعر البؤس والصعلكة عبد الحميد الديب بعضها حقيقي وبعضها فيه من المبالغة الكثير ، لكن بعض الأدباء الذين اقتربوا منه أو الذين عرفوا معاصريه وسمعوا منهم حكاياته وطرائفه أدلوا بشهادتهم عن ليالي صعلكته وبؤسه ومنهم الأديب عبد

المنعم شميس الذي رأى أن عبد الحميد الديب شاعر ضاع في شوارع القاهرة.. وضاع شعره في زحام الحياة .. وقيل أن الشيخ أحمد حسن الباقوري أمر بجمع ديوانه وطبعه على نفقة وزارة الأوقاف عندما كان وزيرًا لها ولكن هذا الديوان لم يطبع .. ولعله طبع - ثم أصبح قراطيسًا في دكاكين باعة التسالي من اللب والفول السوداني [1].

ولا تتعجب فإن وزارة الأوقاف كانت ذات يوم مأوى الأدباء والشعر وقد أكل من خيراتها محمد المويلحي صاحب كتاب (عيسى بن هشام) واشتغل فيها عباس محمود العقاد وكامل كيلاني رائد أدب الأطفال - ونجيب محفوظ عملاق القصة والرواية .

والأغرب من ذلك أن الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله طبع ديوان الشاعر محمود أبو الوفا على نفقة وزارة الأوقاف عندما كان وزيرًا ، ومن يريد الحصول على نسخة من هذا الديوان كان عليه أن يكتب طلبًا على ورقة تمغة للحصول على هذه النسخة بلا مقابل وكأنها صدقة من صدقات الخيرين أصحاب أوقاف المسلمين .

وكانت لمحمود أبي الوفا حكاية قديمة مع وزير الأوقاف نجيب الغرابلي باشا سنة ١٩٢٧ . فقد توسط شاعر النيل حافظ إبراهيم عند الغرابلي ليعين محمود أبو الوفا موظفًا في وزارة الأوقاف - وينقذه من لعنة الشعر وتراخي الوزير في تعيين الشاعر ، الذي خرج من مبني وزارة الأوقاف يتوكأ على عكازه وعصاه واتجه إلى مقهى (بار اللواء) ليستريح ويشرب فنجان قهوه .. وهناك التقى بالصحفي اللاذع (أحمد فؤاد الصاعقه) صاحب مجلة الصاعقة وحكى له الحكاية.. فوجد أحمد فؤاد صيدًا ثمينًا ، وأغرى الشاعر أبا الوفا بهجاء الغرابلي باشا وزير الأوقاف.. وكل بيت من الشعر بجنيه كامل ، وفي لمح البصر نظم أبو الوفا عشرة أبيات وقبض عشرة جنيهات ثم أسرع الصحفي اللاذع إلى مكتب

---

(١) عبد المنعم شميس / شخصيات مصرية ، شاعر ضاع في الشوارع .

الوزير وبعث إليه بقصيدة هجائية والتي قالها الشاعر محمود أبو الوفا، واستأذن في نشرها بمجلته (الصاعقة) .

وقبل أن يكمل أبو الوفا ارتشاف الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة ، كان الصحفى أحمد فؤاد يقف أمامه صائحًا في فرح:

-أنا بعت قصيدتك للغرابلي باشا بمائة جنيه .. يا عبيط ، وقام الشاعر أبو الوفا يتوكأ على عكازه وعصاه . عائدًا إلى باب الخلق ليصعد سلالم الحارة .. ثم يختفي خلف جامع العمري داخل زقاق ضيق .. ويصعد سلالم مكسورة توصله إلى مسكنه في أعلى بيت صغير ضامر بهمومه حتى بعد أن غني له محمد عبد الوهاب قصيدته الرائعة : عندما يأتي المساء .

ومن أعاجيب القدر أن هذا الشاعر أقيم له مسجد فاخر في قريته (الديرس) بالقرب من المنصورة بعد رحيله ، وأطلق عليه مسجد محمود أبو الوفا .. وهو الذي عاش حياته بائسًا محرومًا إلا من نعمة الشعر ...

أليس من العجائب أن وزارة الأوقاف التي طبعت ديوان هذا الشاعر .. وأن وزارة الأوقاف هي التي ترعى المسجد الذي يضم ضريحه ؟ لقد زار أحد الصحفيين هذا الضريح منذ سنوات ، ووجد فوقه كسوة خضراء . فوقها عمامة خضراء لسيدي محمود أبو الوفا ..

كان عبد الحميد الديب طالبًا في مدرسة دار العلوم ، وكان يسكن في غرفة من بيت تستأجره امرأة جزار من وزارة الأوقاف في حارة (عمر شاه) بالسيدة زينب ..

وفي يوم الامتحان النهائي استعد عبد الحميد وارتدى ثيابه وتأهب للخروج من الحارة إلى ميدان السيدة ثم شارع المبتديان ثم دار العلوم . وقد طال انتظاره لهذا اليوم الفاصل في تاريخ حياته.

وبحث عن حذائه في الغرفة فلم يعثر عليه .. فاستنجد بالمرأة الجزارة التي نصحته بوضع القبقاب في قدمية بدلاً من الحذاء حتى لا يضيع الوقت .. وسمع كلامها .. وخرج .

وكان في بيت الجزار كلب أليف تبع عبد الحميد الديب أثناء الطريق وظل ملازمًا له حتى دخل من باب دار العلوم فاجتاز فناء المدرسة والكلب يتبعه ، وكان الجرس يدق مؤذنا ببدء الامتحان .

دخل الطلبة قاعات الامتحان مسرعين ، ومعهم عبد الحميد الديب ومعه الكلب الذي ربض تحت قدميه عند المنضدة في هدوء .

ووزعت أوراق الامتحان وأوراق الأسئلة وبدأ كل شيء هادئًا فلم يلاحظ أحد قبقاب الديب ولا كلب الديب .. وفجأة نبح الكلب .

لعل عبد الحميد الديب داس على ذيله بقبقابه . الخشبي .. ولعل الكلب استوحش المكان الصامت الذي خيمت عليه رهبة الامتحان .

ولكن الذي حدث هو أن الكلب بعد نباحه هاج وثار وبدأ يجري بين الصفوف وحدث هرج ومرج وفتح المراقب باب الغرفة ليخرج الكلب .. ويخرج معه صاحبه عبد الحميد الديب الذي أخذه إلى ناظر المدرسة ليخرجه من باب دار العلوم بلا رجعة !..

طالب يضع في قدميه قبقابًا ويأتي إلى الامتحان ومعه كلب ؟ ومنذ تلك اللحظة ضاع عبد الحميد الديب الشاعر الأديب وضاع في شوارع القاهرة ..

كان ينام على دكة خشبية في قهوة أو في ركن من أركان المسجد الحسيني .. وأصبحت دنياه البائسة لا تكاد تبعد عن ميدان الحسين إلا في اختراقه شارع الأزهر . وميدان العتبة الخضراء وبدايات شارع محمد على .. وقد تمتد رحلته إلى مقهى (بار اللواء) أمام مبني جريدة الأهرام القديم في شارع مظلوم حيث يجلس الباشوات الكبار والصحفيون والكتاب والشعراء من المرموقين ..

ولكن المكتبة التجارية في أول شارع محمد على كانت منضدة في بعض الأيام حين يأتي إليها عباس محمود العقاد ويمضي يومًا حيث كانت تنشر كتبه وكان من عادة العقاد أن يتناول طعامه ويقص شعره في هذه المكتبة ..

وفي يوم صدر للعقاد كتاب جديد وأتاه عبد الحميد الديب مستأنسًا فأجلسه معه وأطعمه ثم كتب إهداءات على نسخ الكتاب لأصدقائه وطلب منه توصيلها إليهم .. وأعطاه أجر المواصلات وأتعاب الرحلة في أنحاء القاهرة .. وحمل عبد الحميد الديب الكتب وذهب .

وبعد لحظات جاء أحد تجار الكتب على سور الأزبكية ومعه حزمة الكتب كما هي وقال للعقاد:

- لقد باعني أحد الأفندية هذه الكتب ووجدت عليها إهداءات إلى كبار آدباء وعظماء البلد.. فلم تطاوعني نفسي على تمزيق الإهداء وبيعها على السور .. ودفع العقاد ثمن كتبه لبائع الكتب التي باعها له عبد الحميد الديب ..

وروايات عبد الحميد الديب لا تنتهي وهي تشبه مسلسلات التلفزيون ..

كان عنده طربوش قلبه الطرابيشي على كل وجه فلم يعد صالحًا للاستعمال .. فقال عبد الحميد الديب : هذه المرة .. أرجوك أن تعدله لا أن تقلبه .. وهي سخرية مريرة من الشاعر البائس.. قابلها الطرابيشي بإهداء طربوش جديد لعبد الحميد الديب ..

وعندما كان عبد الحميد عبد الحق .. وزيرًا للشؤون الاجتماعية .. في مطلع سنة ١٩٤٢ عينه موظفًا في هذه الوزارة في الدرجة السادسة وهي الدرجة التي كان يعين فيها الجامعيون وأصحاب المؤهلات العالية .. وتسلم العمل فعلاً ولكنه خرج في نفس اليوم من ديوان الوزارة ولم يعد مرة أخرى .. فقد اعتاد حياة التشرد الراقي .. وكان مثل الشاعر الإنجليزي (دافيز) الذي كتب تاريخ حياته في كتاب عظيم سماه (تاريخ حياة متشرد مثالي) .. وأرسله مع مجموعة قصائد إلى جورج برنارد شو . فأعجب به وكتب له مقدمة وبعث به إلى دار نشر في لندن فنشرته لأنه يحمل اسم (شو) ثم أصبح (دافيز) من مشاهير الشعراء وأصبح كتابه من أروج الكتب ولو أن ديوان عبد الحميد الديب نشر اليوم لأصبح من أروج دواوين الشعر ولكن أين هو هذا الديوان ؟ هل يوجد من

يدلنا عليه ؟ لقد مات صاحبه وراويته الشاعر البائس الآخر محمد مصطفى حمام..

كان عبد الحميد الديب ومصطفى حمام من مدمني الجلوس إلى مائدة إبراهيم الدسوقي أباظه باشا في مقهى (بار اللواء) وكانت هذه المائدة تضم عدة مناضد يتولى خدمتها يني أباظه الجرسون اليوناني المنتسب للأسرة الأباظية على حساب الباشا والدسوقي أباظه هو والد الأديب الروائي ثروت أباظه وكان يجمع حوله الأدباء والشعراء . الذين يأتون إليه من كل مكان حبًا في شخصه أو حبًا في كرمه ..

ولما كثر الكلام حول بؤس عبد الحميد الديب ونومه على دكك المقاهي البلدية وفوق حصر المساجد تبرع الدسوقي أباظه باشا بحل المشكلة وإيجاد مسكن ينام فيه الشاعر الذي كان يقول عن نفسه أنه مضروب بالحذاء ..

وكانت الدنيا رخاء والحياة سهلة هينة .. وتطوع مصطفى حمام بإيجاد مسكن لصاحبه عبد الحميد الديب على نفقة الباشا .

كان الأمر سهلاً . فقد وجد (حمام) غرفة خالية في منزل امرأة بحارة من حواري شارع محمد على عند دار الكتب منضرة في بيت قديم متهالك إيجارها ثلاثون قرشًا في الشهر ثم أسرع إلى سوق العتبة الخضراء فاشترى سريرًا حديديًا صغيرًا ومرتبة ولحاف ومنضدة وكرسيين ولم ينس شراء حصيرة وقلة ولمبة جاز نمرة عشرة ..

وحمل الأثاث على عربة كارو حتى وصل إلى الحارة وأدخل الأثاث إلى المنضرة التي كانت المرأة قد نظفتها .. وتم المراد وأصبحت الغرفة مفروشة وأشعل المصباح . وتسلم عبد الحميد الديب المفتاح .

وبعد أيام ظهر عبد الحميد الديب في (بار اللواء) وما زالت علامات البؤس مرسومة على معالم وجهه المصاب بداء القرف الدائم .. جبهته مقطبة وعيناه باهتتان شاخصتان تنظران إلى العدم وخداه غائران منطبقان . حتى أنفه نافر من وجهه وكأنه يريد أن يلقى بنفسه على الأرض .. وشفتاه تمتصان مرارة لا يزيلها رحيق العسل الذي تفرزه خلايا النحل في العالم ..

وقال الدسوقي أباظه باشا .. لعل الغرفة أعجبتك يا عبد الحميد ؟ فرد عبد الحميد الديب بعد أن أخرج مفتاحًا حديديًا طوله نصف ذراع من جيبه .. أي غرفة يا معالي الباشا ؟ هذا هو المفتاح وأنا بعد أن خرجت منها لم أستطع العودة مرة ثانية لأنني لا أعرف العنوان .. والعنوان يعرفه مصطفى حمام ..

عاد البائس للنوم على دكك القهاوي البلدية وحصر المساجد ..



محمد إمام العبد

إمام البؤساء الظرفاء !



شهدت مصر في مطالع القرن العشرين مجموعة من الأدباء والفنانين الذين اقترن الظرف عندهم بخفة الظل حتى أصبحت ظاهرة خاصة عند بعض الشعراء من الظرفاء البؤساء وكان أبرزهم شاعر البؤس عبد الحميد الديب ، والشاعر البائس الظريف محمد إمام العبد .

وقد ارتبط اسم إمام العبد بالبؤس والظرف معًا حتى أطلق عليه لقب «إمام البؤساء الظرفاء» ولكن من هو محمد إمام العبد ؟

اسمه (محمد إمام) وألحقت به كلمة (العبد) كأنها علم بِالْغَلَبَةِ لتُشير إلى لونه وإلى علاقته بالرِّقّ والعبودية . فقد كان أبواه من الرقيق السودان الذين يجلبهم النخَّاسُون ويبيعونهم في القاهرة. وقد بيع أبواه لأحد المياسير ، ولاشك أنهما قد أدركا عنفوان حركة تحرير العبيد ، ولكنهما آثرا العيش في بيت مولاهما وفي كنفه .. وفي هذا البيت رُزقا بابنهما الوحيد (إمام) الذي لم يُوَرِّثاه إلاَّ لونهما الأسود وفقرهما . وربما كانت رواسب هذه النشأة هي التي فَلْفَلَتْ أهاجيه المُقْذِعة .

كان مولده في النصف الثاني من القرن الماضي، وواجه الحياة مُكْدِيًا مَفْلُوكًا حتى لقى ربه في أوائل العقد الثاني من هذا القرن[1]. وقد وصلتْ إلينا أخبارُ إمام العبد ومُنَادراتُه سماعًا مِمَّنْ عاصروه، أو سمعوا ممن عاصروه. فقد كانت أَعَابِيثُه ومنادراته أفاكيه يَتَنَدَّرُ بها الظرفاء والمتظرفون في كل سامر، وكان الذين يتناقلون أخباره أكثر بكثير من القلة القليلة الذين كتبوا عنه، والذين عاصروا إمامًا عرفوا فيه شاعرًا رقيقًا، وزجالاً ممتازًا، وخطيبًا مفوّها يهزُّ أعوادَ المنابر. وكانت أزجاله من النوع الذي يقول فيه السيد حسن القاياتي :

لم يَعِبْهُ أنْ لَمْ يكن عربيًّا ليس سَجْعُ الحمامِ بالعربيِّ

ولا ندري كيف ولا أين راض إمام العبد ملكاته الأدبية فهو لم ينلْ من التعليم غير قطوف أولية، ولكنه حفظ جانبًا من القرآن. واتجه بفطرته إلى الشعر والزجل .. وأغلب الظن أنه لم يَلتمس الأدب في مراجعه بقدر ما أخذه بالسماع والنقل فتأثر بأدباء عصره، وكانت صلاته الشخصية بكثير من أئمة اللغة والأدب مدرسة غير مباشرة. فَنَهَلَ منها وعَلَّ.

وكان الشيخ محمد النجار صاحب جريدة الأرغول ـ إلى علمه وفضله ـ شاعرًا وزجالاً يشار إليه بالبنان في تلك الأيام. وكانت ندوتُه في (قهوة جراسمو) بميدان العتبة مدرسةً تخرج فيها إمام العبد، كما تعرف فيها إلى كثير من أعلام البيان، ولم يلبثْ أَنْ لمعَ نجمُه في سماء الأدب، بقدر خُفُوت حظه من الحياة.

***

وعاش إمام العبد عَزَبًا لم يتزوَّجْ، وحاول خليل نظير أن يخرجه من حياة العزوبة فكان رده على ذلك :

يا خليلاً وأنت خيرُ خليلِ لا تَلُمْ راهبًا بغيرِ دليلِ

---

(١) طاهر أبو فاشا : الذين أدركتهم حرفة الأدب.

أنــا ليــلٌ وكــلّ حــسناءَ شــمسٌ فــاجتماعي بهــا مــن المــستحيلِ

وأنت ترى أنه يعلل لعدم زواجه بلونه الأسود الذي يشبه الليل .. فهل كان ذلك يحول دون زواجه .. ؟

ألاَ يتزوَّجُ السودان كما يتزوَّجُ البِيضان ؟

بَلى . ولكنه كان يُحسُّ بسواد لونه إحساسًا عميقًا ، ويُضيفُه إلى أسباب حِرافه ، ويتحدث عنه كثيرًا في غزله وتشبيبه كما يقول :

هِمْــتُ بالوصــل فقالــتْ عجبًــا أيهــا الــشاعرُ مــا هــذا الهَيــامْ

لم يَنَــلْ منــا الرِّضــا حُــرٌّ ومــا رامَ منــا ســيِّدٌ هــذا المَــرامْ

أنــت عبــدٌ والهــوى أخــبرني أنَّ وَصْــلَ العبــدِ في الحــب حــرامْ

قلــتُ يــا هــذى أنــا عبــدُ الهــوى والهــوى يحكــمُ مــا بــين الأنــامْ

وإذا مــا كنــتُ عبــدًا أســودًا فــاعلمي أني فتــىً حُــرُّ الكــلامْ

أو كما يقول :

ومـا كـان لـوني قبـل حُبِّـكِ أسـودًا ولكنْ لهيبُ الشوقِ أحرق جثماني

وهو كلام يدخل فيما يُسميه إخوانُنا البلاغيُّون (حُسْنَ التَّعليل) ومنه قوله أيضًا :

نــسبوني إلى العبيــد مجــازًا بعد فضلي واستشهدوا بسوادي

ضاع قدري فقمتُ أندبُ حظي فــسوادي عَــلَيَّ ثــوبُ الحــداد

ولسنا نرى أن السواد كان عرضًا لازمًا للعبيد ، فكثيرًا ما كان الرقيق من البيض . أو الشُّقْر. أو الصُّفْر ، ولكن إمام العبد كان يبدو شديد الحساسية من هذه المسألة ، وهو يقرنها دائمًا ببؤسه وشقائه :

ســئمتُ مــن الحيــاة بــلا حيــاةٍ وضِــقْتُ مــن الرشــادِ بــلا رشــادِ

وكيــف يَهــيمُ بالــدنيا أديــبٌ تــسربلَ بالــسوادِ عــلى الــسوادِ

إذا أكـلَ الطعـامَ فَمِـنْ تـرابٍ وإن شربَ الـشرابَ فَمِـنْ مِـدادِ
كـأنَّ الـدهرَ يُغْـضِبُه صـلاحي فـأفقرني ليرضـيَهُ فـسادي

هكذا كان إمام العبد لا يملُّ من شكاة فقره وسوء حاله حتى في مقام الغزل ، وتراه يَفْتَنُّ ببراعة في اصطياد تشبيهاته لمحاسن المحبوب من مقابح فقره كما ترى في قوله من شعر العامية :

الـشّعْر أَسْـوَدْ مِـنْ بختـيِ والبُـق أضـيقْ مِـنْ رزقـيِ
والخَـضْرِ في شَرْعِ المَفْتـيِ أَرَقّ مِـنْ أشـعارْ شَـوْقِيِ
وِفْ مُهجتـي سُـورْةِ الواقْعَـة
وِفْ وَجْهِهـا سُـورْةِ الرَّحْمـانْ

***

أإمـامُ يـاربَّ المَحـا مِـدِ ، والعـزائمِ والمكـارمْ
إن كـانَ أعجبـكَ الـدَّها نُ . فَجُـدْ بإرسـالِ الـدراهمْ

فأرسل إليه ورقةً مالية من فئة الخمسين قرشًا . ومعها هذان البيتان :

إنْ كـانَ أعجـبَ أوْ لا فالـدَّفْعُ لابُـدَّ عَنْـهُ
إليـكَ نـصفُ جنيـهٍ فَخُـذْ بِحَقّـكَ مِنْـهُ

ومطايبات إمام العبد مع حافظ إبراهيم أشهر من أن تذكر .

كان إمام يقصد حافظًا كل يوم فيعطيه (نصف ريال) ونصف ريال في تلك الأيام كانت له قيمته. ومع ذلك كان لا يذكر حافظ في ملأ إلا قال إمام : «وإيه يعني حافظ .. إنني أنا الذي خلقتهُ وصنعتُ منه شاعرًا » .

وبلغت حافظًا فحفظها له في نفسه حتى إذا ذهب إليه وطلب منه (المعلوم) تضاحك حافظ وقال له : «والله أنا اليوم يا مولاي كما خلقتني» .

وكان إمام جالسًا يكتب فسقطت نقطةٌ من المداد على ملابسه فقال له حافظ

: «نشف عرقك يا إمام» .

ورآه حافظ يركب عربة «حنطور» فانطلق وراءه صائحًا : «كرباج جُوَّه يا أسطى» .

كانت القاهرة في نهاية القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين للميلاد مدينة تجمع بين المتناقضات ، فكانت فيها الأحياء الشعبية التي حافظت على طابعها التقليدي ، والأحياء الأوربية التي تضارع أجمل الأحياء الأوروبية .

وقد انتشرت فيها المقاهي والبارات والصالونات الأدبية وكان الكبراء وأبناء البيوتات يرون في تقريب الأدباء والعلماء والشعراء مظهرًا من مظاهر التحلي باكتمال الوجاهة الاجتماعية فضلاً عن كونهم هم أنفسهم من محبي الأدب والفن والثقافة .

وقد قامت الندوات الحرة في المقاهي والمشارب العامة ، فاشتهرت بعض المقاهي كمقهى «إسبلندد بار» ، ومقهى «متاتيا» ، الذي كان في حقيقته كما يقول الصحفي المصري محمد فهمي عبد اللطيف قهوات ثلاث تقوم في عمارة واحدة أمام حديقة الأزبكية الشهيرة ، يطلق على طرفها «القهوة العمومية» ، وعلى وسطها «قهوة جراسمو» ، وعلى القسم الثالث والأخير «قهوة إسطمبول» .

وفي ناحية منها كان يجلس إبراهيم المويلحي ، وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، وأحمد فؤاد ، صاحب صحيفة «الصاعقة» الذي غلب اسمها على اسمه فكان يعرف بفؤاد الصاعقة ، والشيخ محمد النجار . وكان «إمام العبد» بين هؤلاء جميعًا واسطة العقد ، ودرة المجلس بما كان يرويه من نكاته وأزجاله وقفشاته فيضحك الجالسين .

روى العقَّاد لنا في إحدى ندواته أنه أدرك ذلك المقهى ، والتقى فيه بإمام العبد وذكر أنه في ذات مرة جاءهم إمام مهرولاً ليسمعهم آخر ما نظم وكانت قصيدة يقول في مطلعها :

رب عمر يكون يومًا ورب يوم يكون عمرًا

وأخذ يطريها أمامهم قائلاً : ماذا نظم المتنبي الذي اشتهر بالحكمة خيرًا من هذا ؟ ، عند ذاك أراد العقّاد وصحبه من شباب صحافة ذلك العصر أن يسخروا منه ، ومن قصيدته ما دام قد حاول أن يقرنها بحكم فحل العربية المتنبي . فعمدوا إلى نظم «ألفية هزلية» كاريكاتورية على ذلك الأسلوب جعلوا لها عنوانًا هو «رُبّ» قالوا فيها :

ورب ظهر يكون صبحًا ورب صبح يكون ظهرًا

ورب خمر تكون ماء ورب ماء يكون خمرًا

ورب شبر يكون مترًا ورب متر يكون شبرًا

إلى آخر باب «رب» الذي لا ينتهي على ذلك المنوال .. فجن جنون إمام العبد عندما أسمعوها له. فخاصم مجلسهم فترة طويلة ، كما فارقته النكتة زمنًا حتى أعادوه لمجلسهم بأن قام أحدهم وصالحه بريال يشرب به ما يشاء . وقد كانت تلك الهدية السنية مناسبة لابتكار نكتة جديدة في ذلك المجلس قالها لهم إمام العبد نفسه .

قال العقَّاد : «رن صاحب الهدية رياله فوق رخام المنضدة على سبيل التشويق والتهويل . فقال أحدهم : براني .. وقال آخر : ما رأيك يا إمام ؟ فقال : نسيت رنتها منذ أعوام . فضحك الجميع وعاد الشمل يجتمع معه وعاد هو يجلس معهم ويسامرهم » .

أما الناحية الأخرى من ذلك المقهى الكبير فقد كان مجلسًا للشيخ عبد القادر المغربي ، وللشيخ محمد الشربتلي وحسين وصفي رضا وغيرهم . وفي القسم الثالث كان يجلس الشيخ محمد المهدي، والشيخ محمد الخضري ، والشيخ عبد العزيز جاويش وحفني ناصف ومحمد عبد المطلب وغيرهم من شيوخ دار العلوم والأزهر .

كانت تلك المقاهي والمجالس مثابة للأدباء ومنتدى لهم . فكان المرء لا يعدم واحدًا منهم في ساعة من ساعات النهار أو الليل يدخن النارجيلة في صمت ، أو آخر يلعب الشطرنج ويزجي به الفراغ ويقتل الوقت ، وثالث في حفل من الأدباء والشعراء أو الأصدقاء يتطارحون الشعر أو ينشدونه أو يتبادلون النكات.

لقد استطاع أحد الشعراء المصريين أن يصور بشعره ما كانت عليه تلك المقاهي بمصر في تلك الأيام وهو الشاعر أحمد الزين عندما رثا الشاعر الشيخ محمد عبد المطلب فقال :

هيهات منا لدى «قيسون» مجلسنا — مضى الصفاء وحل الدهر ما عقدا

عهد قضيناه من يشهد لياليه — كأنما شهد الدنيا بمن شهدا

كانت حياة الأدباء والشعراء في تلك الفترة من الزمان وارتباطها ذلك الارتباط بالمقاهي من الأمور الملفتة للنظر .. فهي حياة تقوم على الحرية .. والحرية ـ كما هو معروف ـ روح الأدب وقوام الرأي . وبفضل انتشار تلك المقاهي والمنتديات الأدبية عرفت الحياة الفكرية لونًا من الصحافة لم يكن معروفًا من قبل وهو الصحافة الهزلية .

وهو لون غير تلك الصحافة اليومية الجادة ، لأن الصحافة الهزلية تقوم على ألوان من الهزل والقفش والتورية اللفظية ، وإن كان بعضها ـ فيما بعد ـ قد استبدل اللغو بمصالح الأمة وبسلوك الأفراد والجماعات نذكر منها على سبيل المثال مجلة «الأرغول» التي كان يصدرها شيخ الزجالين محمد النجار ، و «حمارة منيتي» ، التي أصدرها محمد توفيق سنة ١٨٩٨م ، ويقال إنها كانت توزع أربعين ألفًا في تلك الأيام ، كذلك مجلة «خيال الظل» التي أصدرها حافظ عوض سنة ١٩٠٧م. ومجلة «السيف» التي أصدرها حسين علي وأحمد عباس ، وكانت شبيهة بصحيفة «البعكوكة» الشهيرة التي كانت تصدر بمصر حتى الخمسينات .

كبرياء الفقير :

وسط ذلك الجو كان مولد «محمد إمام العبد» وبين ربوعه نشأ وترعرع . فقد كانت ولادته من أبوين يقال إنهما جلبا من إفريقيا للرق . ثم بيعا إلى إحدى الأسر التركية الكبيرة التي كانت تعيش بالقاهرة . فدرج وهو يرى أبويه يخدمان رب تلك الأسرة التركية في ذلك القصر المنيف . ولا يستبعد أن يكون ذلك الوضع الأليم الذي اختاره القدر لصاحبنا هو سبب تلك المحنة الكبرى، التي ظلت تطارده طوال حياته فصبغتها بسلسلة متواصلة الحلقات اتصفت بالشقاء وبالألم . وقد ذكر البعض أن ذلك القصر الذي درج فيه «إمام العبد» ، كان يقع بحي جاردن سيتي الشهير بالقاهرة ، وهو الحي الذي كان يضم فيما مضى قصور الحكام والوجهاء والأثرياء . ويقال إنه كان يعرف بقصر إبراهيم ثم عرف بعد ذلك «بدار الإمارة» .

وقد رجعت إلى بعض كبار الأدباء من معاصري «إمام العبد» لأقف من أحدهم على تاريخ ميلاده فلم أوفق ، وإنما كل ما ذكره لي أولئك المعاصرون أن وفاته كانت في عام ١٩١١م ، عن عمر يناهز الخمسين أو زاد عليه قليلاً . وكذلك ذكر خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» ذلك أيضًا . فإذا صح ذلك التاريخ فيكون ميلاده ما بين عام ١٨٦٠م ، وعام ١٨٦١م .

ولما بلغ إمام سن الصبا بعث به أبوه إلى الكتَّاب ، فحفظ جزءً من القرآن الكريم ، ثم ألحقه بإحدى المدارس الابتدائية بحي الناصرية بالسيدة زينب ، فكان ذلك هو كل حصيلته من مراحل التعليم.

فلما شب عن الطوق تفتحت نفسه للأدب ووجد في ذلك اللون من فنون الحياة ما لاءم طبيعته ، فلم يلبث أن استوى بين الناس كاتبًا صاحب قلم وبيان ، وشاعرًا يزاحم الفحول على «منصات» الإلقاء ، وزجالاً يباري شيوخه على المقاهي وفي المنتديات . ولكن كل تلك الملكات لم تشفع له لأن يستوي في المكانة اللائقة به ، فعاش بينهم كريشة تتقاذفها رياح الحياة القاسية .

وعلى الرغم من تلك النظرة القاسية لإمام من مجتمعه إلا أنه كان يرى نفسه سيدًا بمواهبه ومعرفته . وقد دفعت به تلك النظرة القاسية إلي شيء من الكبرياء والاعتداد بنفسه ، شأنه في ذلك شأن كل فنان يغار على فنه ومواهبه . لذلك نراه يصور بشعره تلك المحنة في عبارات تهز النفس وتشيع فيها جوًا من التعاطف معه في محنته ، يقول :

تكاد عيوني تقرأ الغيب في الدجى ... وتسمع أذني فيه ما تضمر النملَ

وما أنا من قوم تهون نفوسهم ... عليهم إذا خانهم الصحب والأهلَ

فلي من مضائي رفقة وعشيرة ... فلا سيد ينأى ولا صاحب يسلو

فيا حظ لا تسعد ويا خل لا تزر ... ويا دهر لا تعدل ويا عيش لا تحلَ

فما هاجني سخط ولا كفني رضا ... ولا ساءني ظلم ولا سرني عدلَ

كما استطاع إمام العبد أن يصور ثورة نفسه على المجتمع الذي بادله تلك النظرة القاسية الظالمة بسبب سواد لون بشرته فجحدوا فضله وموهبته ، وفي ذلك يقول :

نسبوني إلى العبيد مجازًا ... بعد فضلي واستشهدوا بسوادي

ضاع قدري فقمت أندب حظي ... فسوادي عليّ ثوب حداد

لقد ظلت تلك الثورة النفسية ـ ونعني بها عقدة اللون ـ تصاحبه طوال حياته حتى حينما أراد أن يرثي شاعر مصر الكبير محمود سامي البارودي لم ينس أن يشير إليها فنراه يقول :

لبست حدادي فيك من قبل نشأتي ... فلو أنصفتني أمتي جملت اسما

وكنت كما شاءت معانيك درة ... فما احترقت بالحزن حتى غدت فحما

إلا أننا نراه بعد ذلك قد حاول أن يتخذ مما مُني به من حلوكة دامسة نوعًا من الترقق في شكل مناجاة مشجية عند حديثه عن الحب وعن إحدى معشوقاته.

أحب مرّة فتاة بيضاء فأخذ يناجيها طالبًا منها أن تسدل الليل على بدر الدجى الساطع . ولكن الفتاة رفضت ذلك الحب في استعلاء وإباء ، بل وتعجبت من جرأة ذلك العبد الأسود الذي يطمع في غرامها ، في الوقت الذي عزت فيه على الأحرار البيض فلم يفتأ صاحبنا أن يخاطبها شعرًا فيقول :

عذبي القلب كما شئت ولا ... تكثري اللوم فمثلي لا يُلام
واسدلي الليل على بدر الدجى ... فحديث الشوق يحلو في الظلام
همت بالوصل فقالت عجبًا ... أيها الشاعر ما هذا الهيام
أنت عبد والهوى أخبرني ... إن وصل العبد في الحب حرام
قلت يا هذي أنا عبد الهوى ... والهوى يحكم ما بين الأنام
وإذا ما كنت عبدًا أسودًا ... فاعلمي أني فتى حر الكلام

وتتألق شاعرية إمام العبد في تلك الصورة الشعرية التي صور فيها هيامه بفتاة سوداء مثله هام بحبها يومًا فقال :

وسوداء كالليل البهيم عشقتها ... لأجمع بين الحظ واللون في عيني
إذا ضمنا ليل تبسم ثغرها ... فلولا سناه بت في جنح ليلين

ويبدو أن بحور الخليل بن أحمد بأجمعها لم تشف تلك المعاناة التي كان يعانيها ، لذلك نرى إمامًا قد راح ينظم كثيرًا من الأزجال المرحة التي تدور في جملتها حول ذلك السواد وتلك الدمامة، وحسبنا مقطوعته الزجلية التي جعل لها عنوان «الزنجية السوداء» والتي يقول فيها:

الناس لها مذهب في البيض ... ومذهبي حب السودان
مرجان متيم بيخيته ... وبخيته مجنونة بمرجان
مين اللي قال الحب عتاب ... يا أهل المحبة دلوني
مين اللي قال الهجر عذاب ... يا ناس وحق الله افتوني

الليـــل ومحبــوبتي أصــحاب   إزاي عــــواذلي يـــشوفوني
والـــشمس تكـــره محبـــوبتي   كـــره البلابـــل للغربـــان

* * *

الحـــسن مـــا هـــوش بـــالألوان   الحـــسن بالـــذوق والخفـــه
والحـــسن مـــا هـــوش بـــالميزان   يطلـــع وينـــزل بالكفـــه
الحـــسن ظـــاهر للأعيـــان   وخفـــة الأرواح صـــدفه

ثـم يـستطرد فيـصف شـعرها الأسـود الفـاحم، وثغرهـا الجميـل الـضيق وخصرها الرقيق الممشوق وقوامها الفارع الطول فيقول:

الـــشعر أســـود مـــن بختـــي   والثغـــر أضـــيق مـــن رزقـــي
والخـــصر في رأي المفتـــي   أرق مـــن أشـــعار شـــوقي
أمـــا القـــوام طـــول وقتـــي   مـــن بعـــد مـــا ضـــيع حقـــي

لقد ملأ إمام العبد الحياة الأدبية بأشعاره وأزجاله وملحه ونـوادره. ولا يفوتنا أن نذكر له في هذا المجال تلك القصيدة العصماء التي حث فيها أبناء مصر ليأخذوا بوسائل الحضارة وأن يدعوا الهزل والتواكل، والتي كان عنوانها «على قمة الأهرام» يقول:

سـلام عـلى ذاك الـذي بـات صـامتًا   ولـــولا التـــواني بيننـــا لـــتكلما

....

رفعـــتم لنـــا ذاك البنـــاء بقـــدرة   إذا ضربــت صــدر الزمــان تحطــما
فملنـا مـع الأهـواء في كـل مـذهب   وبتنـا مـع الأيـام وهمًـا مجـسما
وقفنـا عـلى الآثـار نبكـي عـلى الألى   إذا ذكـــروا ثغـــر الزمـــان تبـــسما

إلى أن يقول:

كفـى حزنًـا أن يـصبح الـشرق مظلـمًا   ويطلع ذاك الغـرب في الأفـق أنجـما

إذا لم تسابق أمة الغرب فاكتبوا على جدث الفاني قضى متألّما
ولا تكرموني بعد موتي فإنني أرى من يعيد المجد للشرق أكرما
إذا أنا لم أسعد بلادي بهمتي فلا حركت كفي اليراع المقوما

وهناك من شعر إمام الرائع تلك القصيدة التي وصف بها شابًا من أصدقائه التقى به يومًا وهو جالس في الأزبكية بعد أن ذهب السل بصحة ذلك الصديق، واستنزف لحمه وبرى عظمه، فدمعت عينا إمام لما وصلت إليه حال ذلك الشاب فتحرك فؤاده فنطق بتلك القصيدة التي تمتليء بالصدق الشعوري. يقول فيها :

عشق الموت مكرهًا في شبابه رب موت تحار في أسبابه
قبل أن يدفنوه في الرمس ميتًا دفنته الأيام في جلبابه
فإذا رمت أن تراه بعين لا ترى غير أنه في ثيابه
كيف تقوى كفاه في موقف الـ ـعرض إذا كلفوه حمل كتابه
أيها الموت لا عدمتك خلّا طالما أنقذ الفتى من عذابه

نوادره:

رغم محنة بؤسه اشتهر إمام بملحه ونوادره وقفشاته، تلك النوادر والقفشات التي كادت لاشتهاره بها أن تطغى على مزاياه الشعرية والزجلية فأصبح الناس لا يعرفون من سيرته إلا ذلك الجانب لدرجة أن صديقه عبد العزيز البشري قد لقبه يومًا في أحد مقالاته عنه «بإمام القفاش» .

وقد بلغ حب إمام العبد للضحك أنه أنشأ مجلسًا للضحك أطلق عليه «نادي البؤساء» ، كان من أعضائه حافظ والبشري وفؤاد الصاعقة وغيرهم، ممن اشتهروا بالفكاهة وحدة اللسان. وقد كان ذلك النادي أسفل شجرة كبيرة في شارع خيرت بحي السيدة زينب كانت تقبع أمام أحد مقاهيه الكبرى. وكان إمام وصحبه يتخذون من ذلك المكان ناديًا يجتمعون فيه للتندر . وكان دور إمام

كدور «وكالة رويتر» في إذاعة أخبار ذلك المنتدى بين جلساء المقاهي الأخرى التي كانت منتشرة في أحياء القاهرة الأخرى .

ومما تناقله جلساء تلك المقاهي من نوادر إمامه وقفشاته أنه كان يسكن في حجرة بدار حسين الحلبي الزجال الشهير بجهة «الصليبية» بالسيدة زينب ، ومضت عدة أشهر ولم يدفع «إمام» لصاحب الحجرة الأجرة . فأرسل إليه حسين الحلبي من يطالبه بالتسديد . فاشترط «إمام» لهذا أن يقوم الحلبي بطلاء الحجرة أولاً . فعاد رسول الحلبي يحمل له ذلك الشرط . فقام بها طلب «إمام» فطلى الحجرة أحسن طلاء ثم أرسل إليه بيتين من الشعر مع رسوله يقول له فيهما:

أإمام يا رب المحامد والعزائم والمكارم
إن كان أعجبك الدهان فجد بإرسال الدراهم

فذهب الرسول بذلك لإمام وطالبه بالأجرة المتأخرة حسب الاتفاق . فما كان من «إمام» إلا أن أعطى الرسول خمسين قرشًا وأرسل معه ببيتين من الزجل للحلبي ردًا على بيتيه ، يقول إمام فيهما:

إن كان أعجب أو لا فالدفع لا بد منه
إليك نصف جنيه فخذ بحقك منه

ومن نوادره التي اشتهرت بين أصدقائه أنه طلب منه أحد الأدباء التافهين يومًا أن يستمع إلى قصيدة من قصائده فقال له إمام هامسًا : طب استنى لما نروح خرابة أحسن حد يشوفنا !

ومن نوادره وتندره على صديقه البشري ونجله أن قال يومًا عنه : «إن البشري مش ممكن يركب تاكسي إلا إذا كان بوره ناحية حلوان » ، ولما سأله الحاضرون عن سبب ذلك . أجاب : «أصله بيخاف أحسن العداد يعمل فلوس في التدويرة » .

وحدث مرة أن وقف مع صديق له يشاهدان إحدى خناقات أولاد البلد . وكان المتخاصمان يتشاتمان ثم يكفان فجأة عن الشتائم ويقتربان من بعض ثم يبتعدان . ومضت نصف ساعة كاملة ولم تمتد يد أحدهما على الآخر . فسحب إمام زميله وقال له : يا عم ياللا بينا.. دي إشارة بس .. والخناقة الأسبوع القادم.

ويروى عنه أنه قابل يومًا صديقًا له يدعى محمودًا . وكان ذلك الصديق يغالي في مزاحه مع إمام عندما يلتقي به حتى يصل إلى حد الإهانة أحيانًا ، فقال له : ما قولك يا إمام في قصيدة المتنبي التي مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد

أما هي من أحسن القصائد وأصدقها قولاً ؟ وقد أراد أن يشير إلى قول المتنبي من تلك القصيدة:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

وفطن لذلك إمام العبد فأجابه في سرعة عرفت فيه : ـ بلا شك ، أنها قصيدة حسنة وبالأخص قوله فيها :

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن ... يسيئني فيه كلب وهو محمود

ومن نوادره مع شاعر النيل حافظ إبراهيم أن إمامًا سعي بالوقيعة بينه وبين عبد الحليم المصري حتى تقاطعا زمنًا على نية العداء .. ثم جمعهما مجلس فأعرض حافظ عن عبد الحليم، وأعرض عبد الحليم عن حافظ . فسألهما وسيط خير في ذلك ، فأخذ كلاهما يتهم الآخر بالتشهير به والقدح فيه، ويروي الأحاديث التي نقلها إليه الوشاة .

فسأل حافظ : من الذي أنبأك بهذا ؟

فقال عبد الحليم بعد تردد : إمام العبد .

فدق حافظ يدًا بيد وهو يقول : إن إمام العبد نفسه هو الذي حدثني عنك بما ذكرته الآن .

واتفقا على مفاجأة إمام في موعد معيّن على قهوة «جراسمو» التي كان يقضي إمام فيها سحابة نهاره يلعب النرد والدومينة ويدخن النارجيلة .

فطلع حافظ من اليمين ثم جلس ، وطلع عبد الحليم من الشمال ثم جلس. وسأله حافظ: هل قلت كيت وكيت عن عبد الحليم يا إمام ؟ وأعاد عبد الحليم مثل هذا السؤال . فماذا صنع إمام والشاهدان حاضران ؟ . لم يتردد أو يتلعثم ، كما لم ينكر شيئًا مما روياه ، ولكنه التفت إلى حافظ وقال له: اسمع يا حافظ إن نقلت إليك بعد اليوم شيئًا عن عبد الحليم فلا تصدقني .. ! ، ثم التفت إلى عبد الحليم وقال : وأنت يا سي عبد الحليم إن نقلت إليك بعد اليوم شيئًا عن حافظ فالعن أبي . ثم ألقى بالزهر ومضى يقول : جهار ... يك .. يا سيدي انتهينا .

وكان حافظ نفسه دائم القفش والتندر بإمام العبد في مجالسه الخاصة ، ومن مزاحه عنه قوله بأسلوبه الذي كان يخلط فيه الجناس والمجاز «إنه ـ أي إمام العبد ـ أديب ولد في حوش) . وظاهر الكلمة أنه وجد في الطريق أو ما يشبه الطريق .. وحقيقة المعنى أنه ولد في «حوش» الكرة .. وقد كان الملعب في تلك الأيام يسمى «بالحوش» ، ولم يظلمه شاعر النيل بتلك النكتة لأنه لم يكن «يعتق» حافظًا من تنكيته ولا من مطالبه المتوالية. وكثيرًا ما كان حافظ إبراهيم يقول لمن يسأله شيئًا من عطاياه : «إذا عتقني العبد أعطيك».

وروي أن إمام العبد كان يغشى مجالس الأدباء ويزعم لهم أنه أشعر من حافظ ، وأنه هو الذي «خلقه» في عالم الشعراء . وبلغ ذلك حافظًا فحفظها له في نفسه حتى جاءه يومًا وهو جالس مع بعض أصدقائه . فجلس إمام بجواره ثم مال عليه هامسًا يطلب منه مددًا ماليًا .. وكان الحافظ لا يبخل عليه من قبل ، ولكن هذه المرة وقف حافظ في مشهد تمثيلي وأخرج له «بطانة» جيب سترته وقال له على مسمع من الجالسين :

ـ يا مولاي كما خلقتني ! .

صديقي أمير البؤساء:

كان الممثل الكبير سليمان نجيب (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) كاتبًا له أسلوبه الساخر المميز، وقد أصدر كتابًا طريفًا سماه «مذكرات عربجي» بقلم الأسطى حنفي والحقيقة أنه هو صاحب هذا الكتاب المجهول وكان سليمان نجيب من أسرة عريقة عمل قنصلاً لمصر في تركيا كما عمل وكيلا لدار الأوبرا المصرية التي ازدهرت في عصره ازدهارًا كبيرًا .

وقد ارتبط بصداقة مع إمام العبد وبعد سنوات من رحيل إمام عن الحياة استعاد ذكرياته معه في هذا المقال الظريف

ـ يا صديقي : ما أقسى الذكريات .

أنها كتسلل كالأطياف إلى مشاعرنا ، تبحث بين أطلال الماضي عن الأصدقاء الذين عاشوها معنا فلا تجدهم .

وتتلفت الأطياف وآلهة تسأل عنهم ، ويقول لها الواقع المستيقظ في عقولنا :

ـ ذهبوا . مضوا إلى المكان الذي لا يعود زواره أبدًا .. وتركونا هنا وحدنا .

لقد تغيرنا

ولقد تذكرتك أمس يا صديقي .. وكنت أسير في طريق طالما عبرته معك ومررت بمعالم طالما عشت فيها معك .. وكنت هذه المرة وحدي .. كنت في شارع خيرت وأظنك ما زلت تذكر أيامه يوم كنا نمل الجلوس على قهوة الجميل فننتقل إلى قهوة موشيدي .. ولكن لا نغادر شارع خيرت فإذا عادرناه ـ فإلى «سبلنديد بار» في ميدان الأوبرا ، ولن تعرفه إذا حاولت أن تبحث عنه الآن ـ يا صديقي ـ لقد غيروا اسمه وأضفوا عليه وصفًا يطابق العالم الذي نعيش فيه الآن .. أسموه محل «قاذفة اللهب» !! .

تذكر تلك الأيام يا صديقي . يا أمير البؤساء .

ما زلت تذكر هذا اللقب الذي اشتهرت به ، كانت أيامه بديعة ، كان البؤس

يومها له معنى ، أما اليوم فقد ابتذل هذا المعنى وضاع لأن البؤس أصبح شيئًا عامًا وليس شيئًا خاصًا موقوفًا على الموهومين كما كان على أيامك يا صديقي !

أتذكر يوم ثرت على بؤسك ويوم أمسك قلمك وكتبت لولا بقية دين أمسكت قلمي

لقلت إن إله الخلق لم يرني !

وكانت الأزمة العامة قد جعلت كثيرين غيرك في صفوف البائسين ولكنك ظللت أمير البائسين ، ولم تكن أميرًا على البؤساء فقط ولكن على البؤس نفسه .

لقد سخرت من البؤس ورفضت أن تكون من عبيده وارتفعت بسخريتك الحادة المنبعثة من روح عميقة إلى مرتبة الأسياد . الأسياد على البؤس !

أتذكر يوم قابلتك وأنت تهبط من الترام مسرعًا أثناء أزمة سنة ١٩١٩ وصحت فيك وأنت تهرول ناحية ميدان الأوبرا :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

وقلت لي وأنت ما زلت تهرول :

ـ سمعت أن مع أحد أصدقائي جنيها ذهبيًا فأسرعت لكي أراه !!

***

لم يستعبدك البؤس أبدًا برغم شدته عليك في بعض الأحيان ، وكنت تضع كل ما معك في جيب جاكتتك وكان يرن دائمًا ـ لم يكن على أيامك نقود ورقية ـ وتصلصل أنغام الذهب والفضة في جيبك حيث توجهت جرسًا ينبه الأصدقاء ، إلى أن ما في جيبك حق حلال لكل محتاج منهم !

وأذكر أيام كنت تسهر في الأزبكية وتصرف كل ما معك ثم لا يبقى في جيبك إلا قروش قليلة لسائق العربة الحنطور التي تحملك في الفجر من الأزبكية إلى السيدة زينب .

وكنا نخرج والصقيع يهري الأجسام ساعة الفجر ، ولم يكن لـديك معطف يقيك قرصته ، وكنت تـصعد العربـة وتطلـب مـن الـسائق أن يمـد لـك الكـرسي الصغير ، الكرسي الخلفي لمقعده العالي.. وأسألك لماذا تجلس علـى هـذا الكـرسي فتقول :

ـ لكي أحتمي بالسائق وبمقعده من البرد !

وأذكر مرة خلت جيوبنا فيها حتى من أجرة سائق العربـة .. وخرجنـا نـسير في ظلمة الليل البهيم البارد نفكر : ما العمل ؟

ومر بنا سائق عربة .. وكان السائق منسجمًا يغني .

وصحت به : يا أسطى هل تأخذنا معك سميعة ؟!

وسخريتك الحادة من الذين يجمعون المال . ويتفننون في جمعه ..

أتذكر يوم جئت إلينا تروي قصة محام معروف كان جيلنا يعتبره مثالاً للذين يضيعون أعمارهم في جمع المال .

لقد قلت لنا يومها :

ـ لقد كان يجلس أمام باب بيته ..ورأيته قبـل أن أمـر .. وقلـت سيمد يـده في جيبي ويأخذ كل النقود ـ وهو في غير حاجة إليها ـ ورأيت أن أتخلص من كـل مـا في جيبي ولكن أيـن ألقـى بـه ، إني إذا ألقيتـه في الـشارع فـسوف يـسمع الـصوت ويأخذ النقود ..

وكان هناك حل واحد .. ابتلعت كل ما كـان في جيبـي مـن ذهـب وفـضة .. وتشجعت ومشيت أمامه..

وفجأة سمعته ينادي على قائلاً :

ـ يا إمام .. إيه ده اللي بيشخشخ في بطنك !

ولقد أغرقنا في الضحك بعد أن فرغت من قصتك يا صديقي ومرت أعوام

ورأيت فيها وسمعت وقرأت .. وما زلت حتى الآن أذكر هذه الصورة وأقول .. وما زلت حتى الآن أذكر هذه الصورة وأقول .. أبدًا لم يصل أحد إلى قدرتك في رسم مثل هذه الصورة لهؤلاء الذين قضوا حياتهم يجمعون المال .. ويجرون وراء بريق الذهب .. ككلاب الصيد التي تتعقب دم الفريسة !

ولن أنسى أبدًا وقفتك مرارًا في تياترو عبد العزيز ، وقد تحول أمير البؤساء ، إلى جندي من جنود الحرية .

لقد أثرت الدنيا على قانون المطبوعات الجديد ، وطالبت بحرية الرأي كاملة لا تحدها حدود ولا قيود ..

وفرغت من خطابك فقادوك إلى قسم عابدين.

ولم يستطع مأمور القسم أن يستخلص منك حقًا ولا باطلاً فقد بدأت تسلقه بنكاتك ، وتحول أمامك إلى متهم وكان يظنك المتهم وأصبح كل همه أن يتخلص منك فأطلق سراحك وآثر أن يبتعد عنك .

ولكنك لم تبتعد ..

وظللت تثير له الدنيا في كل مناسبة .. وتشعل نار الحماسة دفاعًا عن حرية الرأي وحرية النشر !

***

ثم الناحية الأخرى من حياتك .. الناحية العاطفية ..

ما كان أكثرهن في حياتك ولكن واحدة فقط هي التي بقيت إلى النهاية ..

ورفضت أن تتزوج وعشت وحيدًا في الحياة .. وسألك يومًا خليل مطران بك .. شاعر القطرين العظيم ـ لماذا لم تتزوج ، وأمسكت ورقة وكتبت له :

يا خليلا وأنت خير خليل   لا تلم راهبًا بغير دليل

أنا ليل .. وكل حسناء شمس   فاجتماعي بها من المستحيل !

وكانت تلك التي ثبتت على حبك حتى النهاية ـ هي تلك الزنجية المجهولة التي خلدتها في زجلك الرقيق : الزنجية الحسناء ..

إمام العبد شاعرًا شعبيًا :

كتب الشاعر الشعبي المؤرخ حسين مظلوم فصلاً عن إمام العبد في كتابه تاريخ أدب الشعب يصف مكانته بين شعراء الزجل ، فقال[1] :

«أما هذا فقد كان من حقه علينا أن نقف عنده وقفة طويلة ، نجلو فيها أدبه ونستروح بفكاهاته وطرائفه ، ولكن نطاق الكتاب لا يتسع لكل ما نريد أن نقول ، ولهذا نكتفي بهذه الكلمة الموجزة عنه .

كان أبواه من السودان جلبًا إلى مصر وبيعا فيها لبعض البيوتات الكبيرة ، وجمعتهما الأقدار برباط الزوجية ، فانجبا محمدا وحده ، ولم يكن له أخوة يشاركونه حبهما وعطفهما ، فنشأ على ما ينشأ وحيد أبويه مدللاً مزهوًا بحب والديه له ، وإيثارهما إياه بما تيسر لهما من متاع وترف ، وكانت تأتيهما بعض الأمداد من أصحاب رقهما فيخصان وحيدهما بالقدر الأكبر منها ويكتفيان باليسير الذي يمسك الرمق ولا يعدو الضروريات .

أدخلاه المدرسة الابتدائية ، بعد أن حفظ شيئًا من القرآن الكريم وتعلم الخط ومبادئ الحساب في «الكتاب» وكان في طفولته شيطان الأطفال فهو أذكاهم في الدرس وألبقهم في الحوار، وهو رئيسهم في اللعب «والشيطنة» فلما شب وراهق وجد ميلاً في نفسه لقول الشعر فاشتغل به حتى أجاده، ولكنه لم يجد سوقه نافقة كما كان يرجو ، فانصرف إلى الزجل ، فطول من قصيده ونوع في أوزانه ، وأبدع في نسجه وتقطيعه ، حتى أهلته منزلته منه لمصاحبة الشيخ «محمد النجار» .

وكان من زملائه الشاعران الشيخ أحمد عاشور وعزت صقر وغيرهما من أبطال هذه الحلبة وكان من دونهم مرهوب الجانب لشدة بأسه وقوة مراسه من

(١) حسين مظلوم ، مصطفى الصباحي ، تاريخ أدب الشعب ، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٣٦ .

جهة وقوة بيانه وولوعه بالأقذاع في الهجاء حتى ليبلغ الغاية في الخبث والأذى من جهة أخرى . وهو على هذه الحال له التقدمة على زملائه المشهورين بدماثة الخلق والوداعة وخفة الروح وطلاوة النكتة وحضور البديهة .

وقد عاش محمد إمام العبد حياته أعزب لم يتزوج ولم تخل أزجاله وأشعاره من الإشارة إلى سبب امتناعه عن الزواج ، فقد كان يعزو ذلك إلى شدة سواده وحلوكة لونه ، وإلى أن النساء لا يقبلن على من كان هذا شأنه ، ومن ذلك قوله في أحد الاجتماعات بالمدرسة التحضيرية وقد كان أحد خطباء الحفلة حيث قال:

يا خليلاً وأنت خير خليل ... لا تلم راهبًا بغير دليل

أنا ليل وكل حسناء شمس ... فاجتماعي بها من المستحيل

وقد يظن أن في الأمر شيئًا غير هذه العلة ، ونرى أن إمامًا كان عاقلاً يفكر في العواقب، وكان يرى أن حياته على الأسلوب الذي كانت تجري عليه ، لا تكفل نظام العائلة ، ولعله نظر في ذلك إلى بؤسه وحاجته فآثر ألا يشرك معه زوجة في هذه الحياة القلقة التي لا تستقر على حال ، ولعل هناك سببًا آخر أخفاه ولم يبح به .

أما حياته الأدبية فهي حياة حافلة بالإنتاج الأدبي زاخرة بالمجهود الرائع ، بين نثر وشعر وزجل ، فكان خطيبًا مفوهًا وقوالا لسنًا يوجز فتود أن يطيل ، ويطيل فتود ألا يسكت ، بينما يرسل النكات الطلية والمفارقات العجيبة في خطاباته بين فترة وأخرى ، ولا تزال الجمعيات القومية والمحافل الدينية والاجتماعية لذلك العهد تذكر مواقفه فيها وتعلم أنه كان من أهم أركانها التي تستند إليها في حياتها .

فكاهاته:

أما فكاهاته ونوادره فأحر بنا ألا نؤمل القراء باستيعابها لكثرتها ولهذا نكتفي بالنزر اليسير، ومن ذلك أنه كان للمرحوم حسين الحلبي منزل بجهة الصليبة ، فأسكن إمامًا في جزء منه، وبقى إمام لا يدفع أجرة البيت حوالي ستة شهور

واستحيي الحلبي أن يطالبه بالأجر . فبعث إليه زميلا لهما يطالبه برفق ، فاشترط إمام أن يكون الدفع بعد أن يقوم الحلبي بطلاء المنزل بالدهان الأبيض الناصع، وأبلغ الرسول مقالته إلى الحلبي ، فقام هذا بما طلب إمام فطلى المنزل وهيأه أحسن تهيئة، ثم بعث إليه الرسول برقعة يقول له فيها :

أإمـــام يـــا رب المحـــا مـــد والعـــزائم والمكـــارم
إن كـــان أعجبـــك الـــدها ن فجـــد بإرســـال الـــدراهم

ووافى الرسول إمامًا بالرقعة وطالبه بالأجرة على ما اتفقوا عليه ، فبعث معه بورقة ومعها خمسون قرشًا وكتب في أسفل الرقعة يقول :

إن كـــان أعجـــب أولاً فالـــدفع لابـــد عنـــه
إليـــك نـــصف جنيـــه فخـــذ بحقـــك منـــه

وجلس إمام مرة في أصيل يوم على أحد المشارب يكتب زجلاً ، فكان كلما استجمع فكرته أزعجه غلام من ماسحي الأحذية يطلب إليه تنظيف حذائه ، وتكررت هذه المضايقة عدة مرات حتى ضجر إمام ، فلم يكن منه إلا أن خلع حذاءه ولفه في جريدة ووضعه أمامه على المنضده ، ثم رفع رجليه على مقعد آخر معرضتين للأنظار ، ومضى يكتب فلم يزعجه بعدها أحد.

ويلغه مرة أن أحد الأعيان الموسرين وقع فيه في بعض المجالس وقال عنه أنه «نصاب» و «عصبجي» فغضب لذلك غضبًا شديدًا ، وذهب إلى منزله ، ولكنه لم يجد بالمنزل سوى خادمه فدارت بينهما المحاورة الآتية !

ـ فين سيدك ؟

ـ خرج ، ليه عاوز حاجه ؟ إن كنت عاوز شيء قولي عليه لما يحضر أقوله له .

ـ أيوه كنت عاوز أديله قلمين فخذهم انت وابقى قل له .

ثم ضرب الخادم «قلمين» على وجهه ومضى ..

وشرب مرة ولم يكن معه نقود وأراد أن يذهب إلى منزله، فاستقل عربة إلى المنزل، ثم صعد فأطل من النافذة وقال للسائق :

ـ يا عربجي سيدي نزل ..

وفي مرة أخرى بينما كان ذاهبًا في طريقه آخر الليل إلى منزل سمع حوذيًا يتغنى وهو في مقعده من العربة وكانت تسير في اتجاه منزله فقال :

ـ مش عايز سميع يا اوسطى ؟

وقابل المرحوم حافظ إبراهيم مرة وكان لابسًا ربطة رقبة سوداء فقال له حافظ بك : زرر صدرك يا إمام .

وجلس يكتب مرة فسقطت نقطة حبر على القرطاس فقال له أحد جلسائه : نشف عرقك، وله غير ذلك فكاهات ونوادر كثيرة لا نستطيع إثباتها هنا لكثرتها ولضيق المقام عنها .

وقد توفى إمام في أوائل العقد الثاني من القرن الحالي غير متجاوز الخمسين عامًا، ورثاه كثير من الأدباء نثرًا وشعرًا وزجلاً وأحدثت وفاته رنة من الأسف والحزن بين جميع أصدقائه وعارفيه.

وقد كانت أزجاله غاية في الجودة والإتقان، يخوض بها جميع البحور ويقتنص شوارد المعاني وأوابد الخيال، ومن أزجاله ما قاله عتابًا للمرحوم الشيخ أمين الحداد بعد وحشة بدت بينهما:

يا بهجة العصر ياللي	فتحت باب العتاب
يكفي عذابي وذلي	من بعد عصر الشباب
هجرت عبد الأماني	وبت عبد الوديع
إن كنت فقت ابن هاني	غيرك يفوق البديع
أنت البصير في الأغاني	إزاي تفوق السميع

يـــا بلبـــل العـــصر قـــول لي
ازاي هجـرت الغـراب يـا بهجـة العـصر

طالـــت عـــلى الليـــالي وفـــضلت بعـــدك كئيـــب
عمـــي وجـــدي وخـــالي راحـــو يجيبـــو الطبيـــب
إنـــت الحبيـــب في خيـــالي وليـــه تـــسيء الحبيـــب
إن كـــــــان ودادك ودادي
عرفـت يـوم الحـساب يـا بهجـة العـصر

دمعـــي فـــضحني وقلبـــي والـــصبر بعـــدك حـــرام
والـــذنب في الـــود ذنبـــي والـــود غـــير الغـــرام
ســـلمت قلبـــي لـــربي وأنـــت عليـــك الـــسلام
مـــالي ومـــال النـــدامى
ياللي خلقت الشراب يا بهجة العصر

* * *

من نوادر إمام العبد:

كان إمام العبد واحدًا من ظرفاء مصر وقد تعود أن يقضي سهرته كل ليلة في المقهى الذي ترقص فيه الغازية كريمة التي قال فيها :

وهيفـــاء تغـــدو بـــالرفص فرحًـــا عـــلى نغـــم العـــود ثـــم الكمنجـــة
بقـــد كـــريح والحـــظ ســـهم وجفـن كـسيف وصـدر كالطبنجـة

قضى أمام العبد حياته بلا زواج فقال له صديقه الشاعر :

مــن يــرد سـعدًا وأنـسا　　عليــه أن يبــادر فليتــزوج

عــن قريــب ستراه　　خــالي الهــم مفــرج

فقال له إمام :

بــل وعــن قريــب ستراه　　أحــدب الظهــر معــوج

ذهب إمام يومًا لوداع صديق له قبل سفره إلى الحج بالباخرة فقال له صديقه : أني أخشى أن ينفذ الفحم من الباخرة ونحن في عرض البحر فقال له إمام :

سريا مسافر على باخرة غدت　　فيها نفوس ذويك معك مسافره

هم تموت قلوبهم جزعًا فلا　　تخف من نقص فحم الباخره

وحدث أن أعلن أحمد شوقي عن مكافأه لمن يقول زجلاً في خادمته السمراء بخيته فقال إمام:

الحسن ما هوش بالألوان　　الحسن بالذوق والخفه

الحسن ما هوش بالميزان　　يطلع وينزل في الكفه

جنت على قلبي عيونك　　والصبر بعدك أعياني

إمام متيم ببخيته　　وبخيته مجنونه بمرجان

الشعر أسود من بختي　　والثغر أضيق من رزقي

والحب في نظر العاشق　　أرق من أشعار شوقي

والعبد هو لقب إمام الذي أطلقه عليه الناس لسواد لونه فقال :

نسبوني إلى العبيد مجازًا　　بعد فضلي واستشهدوا بسوادي

ضاع قدري فرحت أندب　　حظي وسوادي على ثوب حداد

وقال في جارته التي أحبها والتي كانت تجود عليه بالطعام :

حملت كشكول وجدي في هوى أبغي به شورباء الوصل في العيد

ملاعق العزل للأسماع قد قرعت قرع المعاول في صم الجلاميد

عندي أزيز المقالي في مطابخكم ألذ من نغمات الناي والعود

وفي ملوخيه قد زلقت أقدام رجلي فيها فاغرفي منها وزيدي

وحدث أن جاءته يومًا جارته فرآها على غير عادتها قد غطت وجهها بالخمار فقال :

قل للحبيبه ليس يحجب نورها عني ولو كانت وراء جدار

فالاختفاء وراء الخمار سفاهة شمس الضحى لا تختفي بخمار

مرت مدة طويلة على إمام العبد دون أن يدفع إيجار المندرة «الحجرة» التي كان يسكن بها فجاءه صاحب البيت وطالبه بإيجار المندرة فقال له إمام :

ودي مندرة دي مقبرة الباب عايز له سمكره

والسقف كمان ناوي يقع والحيطه رخره مجيره

دي ضيقه دي مطربقه ومزنقه وصغيره

ده أنا أبقى فيها حاتخنق ويا دوب اللي فيها أنا والمحبره

كان إمام العبد لا يتناول طعامه إلا في مطعم فول وطعميه بالحاره التي يسكن بها وذات يوم طلب إمام من البائع سندوتش طعميه ويؤجل الدفع إلى حين ميسره فأعطاه البائع السندوتش وأعفاه من ثمنه على أن يقول زجلاً في الطعمية التي يبيعها فقال إمام :

أقراص دهب تركيب مخصوص لطاف نضاف سخنين طازه

ينعنشوا قلب المغرم والواحده تسوى ألماظه

وفي أواخر أيامه أصيب إمام بحالة مرضية ألزمته الفراش وأحس معها بقرب الأجل ولما جاءته جارته تزوره قال لها :

روحي أنت نامي وارتاحي — الليله حاسهر صباحي
قدامي نوم في القبر طويل — علشان كده حافضل صاحي

***

في أوائل سنة ١٩١١ مات محمد إمام العبد الأديب المعروف بشعره الطلي، وزجله اللطيف، المشهور بلونه الأسود مثل عنترة العبسي. مات إمام. فكان لمنعاه أسف وحزن. لأنه عاش بائسًا ومات بائسًا. وكان يلقب نفسه في حياته «إمام البؤساء وزعيم حزبهم» وقد تطوع في هذا الحزب الكثيرون من الأدباء والشعراء وأقروا له بالزعامة والرئاسة. وله ولهم في هذا الموضوع قصائد جميلة تناقلتها الصحف في ذلك الحين. نظم المرحوم إمام العبد في موضوعات شتى ولكن الفكرة السائدة في شعره هي الشكوى من الزمن. فقلما تطالع له بيتًا من الشعر ولا ترى الدمع نافرًا من حروفه ولا تسمع الزفير متصاعدًا من تفاعيله. وكانت له طريقة في إنشاد الشعر والزجل تشبه الندب والرثاء. ولكنه كان مع ذلك خفيف الروح لطيف المعشر لا يمل جليسه له حديثًا. وله في الإشارة إلى لونه «الأسود» نوادر ونكات جميلة وظريفة. منها جوابه المشهور لمن سأله عن امتناعه عن الاقتران وهو ذلك البيت:

أنا ليل وكل حسناء شمس — فاجتماعي بها من المستحيل

***

ومن شعره الجيد في المعشوقة البيضاء:

عذبي القلب كما شئت ولا — تكثري اللوم فمثلي لا يلام
واسدلي الليل على بدر الدجي — فحديث الشوق يحلو في الظلام
ما رأينا قبل هذا قمرًا — نوره يسطع من تحت الغمام
ما رأينا قبل هذا أسدًا — بين عينيه حروب وسلام

***

ومن نوادره الظريفة اللذيذة : أنه شد عنقه يومًا بربطة حمراء فسأله أحد أصدقائه عن السبب فقال : «ليعرف الناس أين ينتهي جسمي وأين يبتدىء رأسي» : وكان ذات يوم صباحًا قرب إدارة البوستة فلقيه أحد أصدقائه في قهوة كان يتردد إليها فقال لصديقه : «هل لك في سماع شيء من الشعر؟ ـ فقال له : «هات» ـ قال : «أحببت أمس أن أحذو حذو زميلي وابن لوني عنترة العبسي فنظمت أبياتًا في الحماسة ... » وتلاها على صديقه فإذا هي تهديد للأعداء وتغزل بالردينيات والمشرفيات وتغني بخوض غمرات القتال فقال له صديقه : «سبقت والله فارس بني عبس فكأنك رضعت من لبن المعامع وربيت بين السيوف والرماح» فقال : «ومع ذلك ألا ترى الجبن والخوف متسجمين في كل بيت؟» فقال له صديقه : «لا أفهم ما تشير» . فقال اسمع . بينما كنت أنظم هذه الأبيات ليلة أمس إذا بحركة بدت من ناحية النافذة فارتعدت فرائصي خوفًا . وكاد قلبي يطير شعاعًا ، ولم يكن ذلك إلا قطة جارتنا قفزت من كوة الدار ...

القطة القافزة

ولما التقينا والأسنة شرّع ... ونادى المنادي لا نجاة من الحتف

عطفت على سيف المنية فانجلت ... صفوف وكان الصف ألصق بالصف

فرحت وفي وجهي وجوه عبوسة ... وعدت وأشلاء الفوارس من خلفي

فلم أر قلبًا غير قلبي بجانبي ... ولم أر سيفًا غير سيفي في كفي

وقسم سيفي القوم قسمة عادل ... فأرضى الثرى بالنصف والطير

شد عنقه يومًا بربطة سوداء فقال أن أحد إخوانه لما رآه هكذا حسب قميصه غير مزرر فطلب منه أن يزرره .

* * *

* وقال إمام يتغزل بغادة بيضاء :

أنت عبد والهوى أخبرني ... أن وصل العبد في الحب حرام

قلت : يا هذى أنا عبد الهوى ... والهوى يحكم ما بين الأنام
وإذا ما كنت عبدًا أسودًا ... فاعلمي أني فتى حر الكلام

* * *

* وقال إمام :

«جناية القلم»

لبست لأجله ثوب الحداد ... ودرت مع الزمان بغير زاد
أمد يدي إلى قلمي افتقارًا ... فيدفعني إلى تلك الأيادي
فما دار أقمت بها دياري ... ولا بلد أقمت بها بلادي
فياليت اليراع يصير سهمًا ... كما أبغي ويكتب في فؤادي
سئمت من الحياة بلا حياة ... وضقت من الرشاد بلا رشاد
وكيف يهيم بالدنيا أديب ... تزمل بالسواد على السواد
إذا أكل الطعام فمن تراب ... وإن شرب المياه فمن مداد
خلقنا للهموم بلا دليل ... وهمنا بالحياة بلا اعتقاد
كأن الدهر يغضبه صلاحي ... فأفقرني ليرضيه فسادي
ولو علم الزمان بنا قديمًا ... لما مال الزمان إلى العناد
أسف الترب لا زهدًا ولكن ... لأحفظ نسبتي بين العباد
كأن الجهل في الأيام ريح ... وأن عدوّه من قوم عاد
أذم بني الزمان بكل لفظ ... وأسلقهم بألسنة حداد

* * *

وقال في الصداقة :

بلوت صحابي بعد عشرين حجة ... فلم أر فيهم صاحبًا يحفظ اليدا

إذا غـــاب عنـــي بـــت درعًـــا منيعـــة　　وإن غبـت عنـه بـات سـيفًا مجـردا

عقدته النفسية :

برغم أن مصر فتحت له ذراعيها ، وعاش في كنفها كأحد أبنائها، وأتاحت له فرصة العيش في أمان على أرضها، وصادقه علية القوم وكبار مثقفيها ، وعطفوا عليه، إلا أن إحساسه بالدونية وبلونه الأسود خلق لديه عقدة نفسية ، فناصب المجتمع والناس العداء ، وظن أنهم يتربصون به، وأنه مضطهد ، فلم يأتلف مع الناس، فظلت عقدته مسلطة عليه ، تشعره أنه غريب في هذا الوطن، رغم أن كل مؤرخيه حاولوا إنصافه والتماس الأعذار له ، لكنه كان ضحية عقدته النفسية القاتلة!



ألوان من شعر محمد إمام العبد

شكوى الدهر

رحلـــــت وهمـــــي لم يرحـــــل
فيـــا ليـــت شـــعري - متـــى يـــنجلي
ســـئمت الحيـــاة بـــدار الهـــوان
وبـــت مـــع اليـــأس في منـــزل
مـــضى مـــا مـــضى مـــن زمـــان الهمـــوم
فـــماذا يجـــيء مـــع المقبـــل ؟
كـــأني في الأفـــق بـــدر الـــسما
أضيء النجـــــوم ... ولاحـــــظ لي
إذا حـــارب الـــدهر ذاك الأخـــير
فـــما الـــذنب إلا عـــلى الأول
نقـــول وتفعـــل أعـــداؤنا
وأيـــن الكمـــيّ مـــن الأعـــزل
وتمـــشي مـــع الـــوهم في ســـاحة
تكـــاد تلاعـــب بالجحفـــل!

(*) منبر الشرق، ٢٧ مارس ١٩٤٢ .

في الصداقة

بلـــوت صـــحابي بعـــد عـــشرين حجـــة
فلـــم أر فـــيهم صـــاحبًا يحفـــظ اليـــدا
إذا غـــاب عنـــي بـــدت درعًـــا منيعـــة
وإن غبـــت عنـــه بـــات ســـيفًا مجـــردا
ولله سر في العبـــــــاد إذا بـــــــدا
لعينـــي رأت أن الـــضلالة في الهـــدى

(*) منبر الشرق، ٣/ أبريل ١٩٤٢ .

في الزواج

أيهـــا العاقـــل المهـــذب مهـــلا
هـــل رأيـــت الـــزواج في الـــدهر ســـهلا
كـــل عـــام يـــزاحم الطفـــل طفـــل
ليتنـــي عـــشت طـــول عمـــري طفـــلا
ذاك يحبـــو وذاك يمـــشي وهـــذى
فـــوق صـــدري وتلـــك تنـــشد بعـــلا
ضـــاق صـــدري مـــن الـــزواج فمـــن لي
بحيـــاة الخـــصى قـــولا وفعـــلا
إن هـــذا الـــشقاء مـــن نـــسل حـــواء
وشر الـــشقاء مـــا كـــان نـــسلا
فيـــا عزيـــز الـــبلاء عـــذرًا
إذا رأيـــت الغـــرام عـــذرا

***

فـــما ذكـــرت النجـــوم إلا ... ذكـــرت بعـــد النجـــوم بـــدرا
ومـــا عـــشقت الظـــلام إلا ... لأن بعـــد الظـــلام فجـــرا
فلـــذة العمـــر في ليـــال ... تمـــر مثـــل النـــسيم مـــرا
فـــرب عمـــر يكـــون يومًـــا ... ورب يـــوم يكـــون عمـــرا

خواطر

نسب الناس للحمامة حزنا
وإذا هي في الحزن ليست هنالك
خضبت كفها وطوقت الجيد
وغنت وما الحزين كذلك

وداع

يا ضياء الوجود مهلا خليلا
هل حسبت الهلال عنك بديلا
أن أرى الهلال يولي جميلا

الجنون فنون

تباكت وقالت ما لقلبك خافق
فقلت لها : إن الجنون فنون
وما صدقت تلك الدموع وإنما
لها في سجاري المقلتين شؤون

في الغزل

لــــيس المحــــب بــــصادق في حبــــه
حتــــى يــــراه العائــــدون ســــليبا
فــــإذا تــــنفس حرقــــت زفراتــــه
وجــــه الــــدجى فكــــأن فيــــه لهيبــــا
وإذا مــــشى بــــين الغــــصون حــــسبته
لنحولــــه دون الغــــصون قــــضيبا
خفيــــت ملامحــــه فــــصار إذا التقــــى
بحبيبــــه لم يخــــشى فيــــه رقيبــــا

الحب الخفي

ورب جميــــل زارني متنكــــرًا
مخافــــة لاح يعــــزل العبــــد في الحــــب
وقبلنــــي عــــشرًا وقــــال مخادعــــا
ســــوادك في عينــــي وحبــــك في قلبــــي

من خواطر إمام العبد

تكـــاد عيـــوني تقـــرأ الغيـــب في الـــدجى
وتـــسمع أذني فيـــه مـــا تـــضمر النمـــل
ومـــا أنـــا مـــن قـــوم تهـــون نفوســـهم
علـــيهم إذا خـــانتهم الأهـــل والـــصحب
فـــلي مـــن مـــضائي رفقـــة وعـــشيرة
فـــلا ســـيد ينـــأى ولا صـــاحب يـــسلو
فيـــا حـــظ لا تـــسعد ويـــا خـــل لا تـــزر
ويـــا دهـــر لا تعـــدل ويـــا عـــيش لا تحـــل
فـــما هـــاجني ســـخط ولا كفنـــي رضـــا
ولا ســـاءني ظلـــم ولا سرني عـــدل
ومـــا أبقـــت الـــدنيا لنـــا مـــن جـــسومنا
عـــلى بأســـنا مـــا تـــستقيم بـــه الظـــل
ولـــولا اخـــتلاف النـــاس مـــا قـــال قائـــل
عجبـــت لفـــرع مـــا يـــشاكل أصـــل
فهـــل أرشـــدت تلـــك الـــنهال إلى الحجـــا
وهـــل أرضـــعت بالـــشهد في كـــدها والنحـــل
يحـــار الفتـــى في عيـــشه وحياتـــه
فأولهـــا جهـــل وآخرهـــا جهـــل

كامل الشناوي

الضاحك ... الباكي !



كان كامل الشناوي شاعرًا رقيقًا عذبًا ، اتسم شعره بالرقة العاطفية والعذوبة ، وهذه الخصائص والسمات كان لها جذور بعيدة ضاربة في النشأة والبيئة والثقافة ، فهو ابن بيئته ، حيث ولد في الدقهلية موطن السحر والجمال والحب والعبقرية .

ولد كامل الشناوي في قرية نوسا البحر ، وهي قريبة من مدينة المنصورة بدلتا مصر في ٧ ديسمبر ١٩٠٨ ، وكان أبوه الشيخ سعيد الشناوي نائب المحكمة الشرعية العليا بمصر ، وكان من مؤيدي الزعيم الوطني مصطفى كامل، ولذا سمى ابنه مصطفى كامل الشناوي تيمنًا باسم الزعيم الوطني العظيم !!

وكانت أمه قد نذرت وليدها للأزهر الشريف ، ونسيت الأسرة ذلك ، وعندما شب مصطفى كامل عن الطوق أدخلوه المدرسة الابتدائية ، ولكنه مرض ، فتذكروا النذر فأخرجوه من المدرسة الابتدائية وأدخلوه الأزهر .

وفي الأزهر بدأ يتجه إلى قراءة الشعر القديم بنهم وشغف كبيرين ، ولكنه لم يواصل دراسته الأزهرية ، وبدأ يقرأ ما تهفو إليه نفسه من كتب الأدب العربي

قديمه وحديثه ، بل بدأ يتعلم اللغة الفرنسية استعدادًا للسفر إلى فرنسا لمواصلة دراسته بها ، ولكن الظروف أبت عليه ذلك ، فبدأ يعلم نفسه ، ووجد في مكتبة أبيه الكبيرة زادًا ثقافيًا .

وفي مطلع شبابه كان يقطن بمنزل أسرته بحي السيدة زينب بالقاهرة كان يجتمع في حجرته مع مجموعة من شباب الأدباء والمثقفين يتحدثون في أمور الثقافة والأدب والحياة .

ثم بدأ كامل يتصل بالصحافة ، فبدأ عمله الصحفي مصححًا بصحيفة «كوكب الشرق» ثم انتقل منها إلى صحيفة «الوادي» والتي كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين ، وعلى صفحاتها بدأ يصول ويجول وينشر أشعاره العاطفية ، وبدأ اسمه يلمع كصحفي قدير وشاعر رقيق ، وكاتب متمكن ، ولكن روحه كانت تهفو إلى حب كبير يملأ عليه حياته ويلهم أدبه ..

الحب الأول:

كان ذلك في عام ١٩٣٠ ، وكان كامل الشناوي في حوالي العشرين من عمره وكان يستعد للسفر إلى فرنسا ليتعلم في جامعات باريس بعد أن ترك الأزهر بعد عام دراسي واحد .

وبدأ يتعلم كامل الشناوي بمنزل أحد المدرسين للغة الفرنسية وهناك رآها.. كانت فتاة بارعة الجمال رقيقة الملامح تختلط فيها الملامح المصرية والأوروبية ، ليس فيها ما يثير الصخب سوى ذكائها الحاد وجمالها الأكثر حدة .

كانت شقراء في عينيها السوداوين كل الحنان وعلى شفتيها بسمة فيها أمل وبين خصلات شعرها المتهدل تكمن أسرار كأسرار الليل الغامض !!

ووجد فيها كامل الشناوي ضالته المنشودة .

وكان حبًا روحيًا رائعًا .. علمته أن يحب الموسيقى الغربية وشرحت له أشعار لامارتين بلكنة أجنبية كانت أحب إلى قلب كامل من أرق السيمفونيات .

وأحبها كامل الشناوي بعنف وهام بها .. وألهبت شاعريته .. ونظم فيها أجمل قصائد الحب والغزل .. ولكن لظروف ما افترقا .. وكانت صدمة عنيفة .. وظل يستوحي من مرارة الهجر والفراق معاني لونت شعره بطابع سوداوي حزين قاتم فيه الفرقة واليأس والأسى ..!!

الحيرة والتساؤل:

نشأ كامل منذ صغره محرومًا شقيًا حزينًا .. أقصد الحرمان المعنوي .

فقد كان ضخم الجسم قليل الحظ من الجمال والوسامة كان يقابل الحياة بصدر رحب وصفاء نفسي فأذاقته الحياة فنونًا من غدرها وتلونها .. وخاض عدة تجارب عطفية كان نصيبه منها الحرمان والشقاء . ومن العوامل التي جعلته يوغل في الحديث عن الحرمان والألم قراءاته الشعرية الكثيرة لفيلسوف التشاؤم والحزن والحرمان .. «أبو العلا المعري» . فقد كان أول شاعر أثر في شخصيته . وأخذ عنه نزعة التشاؤم كان كامل يسميها نزعة التساؤل .

وقد حاول الدفاع عن اتهامه بالتشاؤم والحيرة فقال : «لا تتهمني بالتشاؤم لأن بعض ألفاظي حزينة، وبعض تعبيراتي مقطبة الجبين فما دام الموت يتعقب حياتنا وما دمنا لا نعرف من نحن فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة ، ويسمون ذلك تفاؤلاً . لست متشائمًا ، ولست مجنونًا، ولكني أحاول أن أكون صادقًا مع ما أشعر به ، وما أفكر فيه .

وكان دائمًا يتساءل : لماذا خلقنا ؟ وإلى أين المصير ؟ ولماذا نموت ...؟ وقد ردد كل هذه المعاني الخالدة في قصائده .. يقول في إحدى قصائده :

أنا في الظل اصطلى ... لفحة النار والهجير
وضميري يشدني ... لهوي ما له مصير
وإلى أين ؟ لا تسل ... فأنا أجهل المصير

ثم تبلغ ذروة حيرته وتساؤله وشكه فيتساءل «من أنا» ؟

يا رب فيم خلقتنا نهب الضباب ... فلا ظلام ولا سنا
وندب فوق الأرض لا ندري بها ... وندب فوق الأرض لا تدري بنا

أنا من أنا ؟ أنا من أكون ؟ وسيلة ؟ أم غاية؟
أنا لست أعرف من أنا ؟!

وكان يتشاءم من يوم مولده ، وقد نظمها في الخمسينات في فترة كان يمر فيها بأزمة نفسية حادة، فقد كان في ذلك اليوم وحيدًا بلا صديق وقد بدأ يشعر أن الشيب يغزو قلبه ، وقد أصيب بصدمة عاطفية فأحس بأنه ضائع في الطريق الطويل الذي لا يعرف له بداية أو نهاية وهو طريق الحياة .

شاعر الشك والحطام:

وكان كامل الشناوي كثير الشك والقلق بسبب أحزانه الروحية وإحساسه الحاد بالغربة الروحية والوحشة الطويلة ..

وقد تجلت فلسفة الشك عنده في تجاربه مع المرأة . حتى أنه رفض الزواج وكان يردد دائمًا قول أبي العلاء :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وقد سئل عن ذلك مرة فقال : أنا مشكلة وليس من المعقول أن أتزوج وأتسبب في خلق إنسان مني فكأنني بدلاً من أحل مشكلة نفسي .. ألد للدنيا مشكلة جديدة ..!

وبعد أن فاته سن الزواج كان يردد بأسى وحزن قول الشاعر القديم :

فلو سمح الزمان بها لضنت ولو سمحت لضن بها الزمان

لقد كانت له تجارب عميقة في دنيا الحب والعشق .. وخبر غدر المرأة وتلونها .. ولم تستطع أعصابه تحمل صدمات الخيانة والغدر من المرأة .. فملأ الدنيا شكوى وأنينًا وصراخًا ، يدين المرأة. ويكشف غدرها وخيانتها .. فهو حين يكتشف خيانة محبوبته يحذر الرجل الآخر في حياتها من غدرها ويحرضه على الثورة عليها والابتعاد عنها لأنه ليس الوحيد في سجلها فهو ما زال يلقاها رغم غدرها :

حبيبها لست وحدك حبيبها أنا قبلك

وربما جئت بعدك ... وربما كنت مثلك
فلم أزل ألقاها ... وتستبيح خداعي
بلهفة في اللقاء ... برجفة في الوداع
حبيبها وروت لي ... ما كان منك ومنهم
فهم كثير ولكن ... لا شيء نعرف عنهم

ولكنه رغم فزعه من الغدر والخديعة ما زال قلبه يهفو للجمال ويتغلب قلبه على عقله فيثور ثورة الضعيف المستسلم الذي لا يستطيع فكاكًا من أسر الهوى وشباك الصبابة حتى أنه يخلق الأعذار لتفسير هذا الضعف وهذه الاستكانة :

سألت قلبي فأصغى ... وقال : لا لن تراها
وقال قلبي : أراها ... ولن أحب سواها
ما أنت يا قلب ؟ قل لي : ... أأنت لعنة حبي ؟
أأنت نقمة ربي ... إلى متى أنت قلبي ؟

ويبلغ به تحميل قلبه كل الأسباب لضعفه واستكانته واستسلامه حتى أنه يذكر أن قلبه إنما هو قلب هذه المخادعة:

أنت قلبي فلا تخف ... وأجب هل تحبها ؟
وإلى الآن لم يزل ... نابضًا فيك حبها
لست قلبي أنا إذن ... إنما أنت قلبها

ويمضي فيقيم محكمة لقلبه يسأله لم ضعفه واستسلامه ثم يدينه ويتهمه بأنه خنجر في ضلوعه يعذبه ويضنيه . !

كيف يا قلب ترتضى ... طعنة الغدر في خشوع
وتدارى جحودها ... في رداء من الدموع
لست قلبي .. وإنما ... خنجر أنت في الضلوع

ثم يهيب بقلبه أن يتمرد عليها لأنه أصبح من الهوان والألم من محبوبته ما يجعله يلفظها بعيدًا، بعد أن طعنته وألقت به من القمة إلى السفح ..!

أو تدري بما جرى .. ؟	أو تدري ؟ دمي جري
جذبتني من الذري	ورمت بي إلى الثرى
أخذت يقظتي ولم	تعطني هدأة الكرى

ثم يعود مرة أخرى إلى تبرير ضعفه وهوانه واستسلامه لحبها .

وقد مر شاعرنا بعدة تجارب عاطفية وقد خرج منها بحيرة نفسه وعذاب قلبه وخيبة آماله .. ومن الغريب أن وجوه الشبه كانت فيها جميعًا متقاربة .. في البداية وفي لحظات التحاب وفي نهاية الحب أيضًا .

ولكن كانت له تجربة يمكن تسميتها بالحب الكبير في حياته .. وبالرغم من اختلاف الأوتار في هذا الحب إلا أنه ظل يطارده حتى آخر نسمة في حياته رغم اكتشافه أنها قد خدعته وغدرت به ومزقت قلبه أشلاء . كانت هذه الممثلة حبه الكبير ، أما الأخريات فكن مجرد ملهمات يوحين إليه بأجمل الشعر وأرق النغم .

وكانت صدمة عمره اكتشاف غدرها وخداعها وسجل هذه التجربة القاسية في قصيدته «لا تكذبي» التي تدينها وتكشف زيفها:

لا تكذبي .. إني رأيتكما معا	ودعى البكاء ، فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى	من عين كاذبة فأنكر وادعى

ويحاول أن يبدو أمامها أنه سلاها وأنه برغم ذلك قوى ومصمم على الفراق، فيبتهج لأنها كانت قيدًا وكانت له ذنبًا ، وعندما اكتشف غدرها تحطم قيدها وغفر الله له هذا الذنب بعد فراقها .

فرأيت أنك كنت لي قيدًا	حرصت العمر ألا أكسره
ورأيت أنك كنت لي ذنبًا	سألت الله ألا يغفره فغفرته ..!

ثم يطمئن نفسه بأنه قد صنعها من هواه ومن جنونه ، أما الآن فقد شفى من هذا الهوى وهذا الجنون :

كوني كما تبغين لكن لن تكوني !
فأنا صنعتك من هواي ، ومن ولقد برئت من الهوى ومن الجنون

وقد كان كامل الشناوي مشركًا في الحب .. خاض أكثر من تجربة وأحب أكثر من ملهمة وصدم أكثر من مرة .

وقد أتاح الشك في الحب لشاعرنا فرصة التغلغل في دراسة أهواء المرأة وأحلامها وفهم نفسيتها وطباعها المتقبلة وصدم بأكثر من تجربة اكتشف فيها غدر المرأة وخداعها فتحول شعره إلى قيثارة ترجع أناته الحزينة وأحلامه المصدومة .. يبكي فيها مصارع حبه وغدر من أحبهن وأخلص لهن الود والوفاء.

وكانت قمة تجاربه «حبه الكبير» الذي ظل يبادلها عاطفة الحب سنوات طويلة ثم صدم عندما رأى دليل غدرها وخداعها ! .

وقد ظل يحبها رغم غدرها وتلونها وظلت هي الحب الكبير في حياته . وقد علل صالح جودت هذه الظاهرة في حياة الكثير من الأدباء العشاق تعليلاً صادقًا .. فقال :

«هناك سمة نجدها في حياة كثير من الشعراء يكون في حياتهم حب كبير ، ولا يمنعهم هذا من استلهام الجمال حيث وجد ، ولكنهم يجدون في كل جمال صورة غير محسوسة من المنبع الأصيل الذي حرك أحساسيهم .

شك ضباب حطام:

ومن نتاج هذه التجارب العنيفة أصبح كامل الشناوي شظايا وحطامًا ..

آه منها .. أنا لم أدرك مداها

آه منـــــــــــــــي   هــــي لم تـــدرك مــــدايا
حطمتنـــــي مـــثلما حطمتهــــا   فهـــي مني وأنــا منهــا شــظايا

ولا يرى أمامه بعد صدمته فيمن يحب إلا ظلال الشك وأطياف الضباب وحطام قلبه ويصبح كريشة تمزقها وتعصف بها الرياح والأشواك.

كهـــارب لــيس يـــدري   مـــن أيـــن أو أيـــن يمــضي
شــــك ضـــباب حطـــام   بعــــضي يمـــزق بعـــضي

وتبلغ به ذروة يأسه وأحزانه فيرى أن حياته أصبحت بلا معنى وبلا لون وبلا طعم ولا أحاسيس وبلا مشاعر :

أيـــن يـــأسي .. ؟ لقـــد مـــضى   ومـــضت مثلــه المنـــى
فحيـــاتي كـــما تـــرى   لا ظــــلام ولا ســــنا
كـــل مـــا كـــان لم يكـــن   وأنـــا لم أعـــد أنـــا

ورغم ما عاناه في تجاربه إلا أن قلبه ظل يخفق للحب ويغرد للجمال:

أيهـــا اللائمـــون قلبـــي   عـــلى الحــــب
رويـــــــــــــــداً   فـــما عــسى تبتغونـــا ؟
أســـلواً عـــن الجـــمال   وقلبي عاش للحسن عاشقاً مفتوناً

ولكنه رغم ذلك يحاول أن يضع كرامته فوق الحب ويرغم قلبه على النأي عمن يحب بعيداً عن أغلال العبودية وقيود الهوى .

علام يا قلب تشكو ..
نقض الحبيب عهوده ..
دع الهوان وحطم أغلاله وقيوده
ثم يستنزل عليها سخطه وغضبه فيقول :

كـــوني الجحـــيم ســـعيراً   فلـــن أكـــون وقـــوده !!

طعنة الغدر:

ومن مفارقات القدر الساخرة التي أدمت قلب شاعرنا الرقيق تلك القصة الطريفة التي تمتزج فيها الطرافة بالسخرية المرة المبكية .. عندما اكتشف شاعرنا خيانة ملهمته المطربة الشهيرة التي طالما سهر وتعذب في حبه وحرمانه من أجلها واستلهم منها أجمل قصائد الحب والغزل وكان يسميها «مينيون» وهي كلمة فرنسية تعني الشيء الصغير الضئيل الحجم، وكانت تلك الملهمة رقيقة الملامح ضئيلة الحجم. رفع سماعة الهاتف ليسمعها قصيدته الجديدة «لا تكذبي» التي كتبها بدموع قلبه بعد اكتشاف خيانتها له .. وبدأ يقرأ قصيدته عبر أسلاك الهاتف ولم يستطع أن يتماسك للنهاية فاختنق صوته بالبكاء وارتفع نشيج قلبه وهو ويقول لها:

إني رأيتكما	إني سمعتكما
عيناك في عينيه	في شفتيه في كفيه
ويداك ضارعتان	من لهف عليه!.

وبعد أن انتهى من قراءة القصيدة انفجرت شحنة انفعالات في موجة من الدموع الصاخبة. وسألها ما رأيك في القصيدة: أجابت بكل بساطة وبدلال الحسناوات: رائعة .. ما رأيك في أن أغنيها ؟!!

***

ثم مضت رحلة شاعر الشك والحرمان مع المرض والليل والقلم والمرأة وقصته مع المرض والمرأة تتفاوت بين مد وجزر فهو لا يخشى إلا سكرات الموت أو سكرات الحياة.

«أستطيع أن أعاني الشقاء والعذاب والمرض ليس في الدنيا ما أخرج منه إلا اللحظة التي أعاني فيها سكرات الموت .. أو سكرات الحياة».

ثم يدعو ملهمته إلى اللقاء «ليس في حياتنا ماض ومستقبل .. حياتنا فترة

واحدة هي الماضي.. الأمس مضى واليوم يمضي والغد سيمضي » !

وقد تغنى بشعر كامل الشناوي كبار المطربين العرب : محمد عبد الوهاب ، أم كلثوم ، عبد الحليم حافظ ، فريد الأطرش ، نجاة الصغيرة .. حيث أن موسيقا شعره وصدقه جعلت لشعره عذوبة خاصة . وعمقًا مؤثرًا في وجدان المستمع العربي .

وأخيرًا خبت الشعلة وانتهت قصة كامل الشناوي مع المرض والليل والقلم والمرأة في ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٥ بعد أن قدم ذوب قلبه وأعصابه وروحه في كتاباته من وحي تجاربه المخففة في عالم الحب والحرمان .

حيث انتهت رحلة شاعر الشك والحرمان كامل الشناوي مع الحياة ، ليبقى شعره صفحة مضيئة مشرفة خالدة في سجل الشعر العربي المعاصر !!

* * *

في ليالي القاهرة :

كانت لكامل الشناوي صولات وجولات وسهرات تمتد إلى الفجر في ليالي القاهرة ، رصدها لنا الأديب عبد المنعم شميس عندما استعاد بعض ليالي كامل الشناوي الباسمة[١] .

كانت ليالي القاهرة تسهر مع كامل الشناوي .. حلاوة الكلمة ورنين الشعر .. والضحك الساخر من كل شيء في الحياة كانت تسبق خطواته إلى كل مكان يحلو له .. شاعر لم يعش وحده لحظة واحدة من حياته إلا بعد صياح الديك ، حين يأوي وحيدًا إلى فراشه بعد جولات الليل والنهار ... كان يحب أكل السمك ، ولكنه لا يحب أن يأكل وحده .. بل يبعث إلى صديقه السماك من يحضر له كومة هائلة من أصناف الأسماك والأخباز .. والمشهيات ، ويزيح كل الأوراق من فوق مكتبه .. الذي يجعله مائدة حافلة ، تكفي لعشاء كل محرري الأهرام

(١) عبد المنعم شميس ، شخصيات مصرية .

عندما كانت الجريدة في مبناها القديم بشارع مظلوم .. ثم يدعو المحررين واحدًا واحدًا لأكلة السمك .. ثم تنتهي المأدبة بعد لحظات ويعودون إلى الكتابة والتحرير ... وكنت تراه في الكازينو على شاطيء النيل ـ مكان فندق شيراتون ـ وقد اشترى نصف عربة الترمس الواقفة على الرصيف ، انتظارًا لأصدقائه الذين يتسلى معهم طول الليل بحبات الترمس اللذيذ ... وأحيانًا يجلس في قاعات فندق سميراميس القديم في الشتاء أو في شرفته في الصيف ، ومن حوله أشتات من الناس لا يشبعون من حديثه ، وترهف الآذان من أقصى المكان لتسترق السمع إلى كلماته الرنانه التي تشيعها الضحكات .. فتتوازن الكلمة مع الضحكة، في مواقف السرور والفرح .. أو في مواقف الأسى والفجيعة لم يكن كامل الشناوي نديمًا لأحد .. ولكن كان الندامى يلتقون حول ملك الكلمة .. فيطعمهم أحيانًا، ويسقيهم أحيانًا. وكان منهم أدباء وفنانون وشعراء .. وكان يطرد من مملكته ثقلاء الظل والطفيليين ، والحمقى ، ومن ينكدون على الناس في لحظة النشوة الغامرة ، أو يتبلد إحساسهم في لحظة الأسى فيضحكون في بلاهة حمقاء ... وكان من هؤلاء واحد لا يكاد كامل الشناوي يراه حتى يضع يده في جيبه ويخرج ريالاً من الريالات الفضية .. ثم يضحك ضحكة مجلجلة ويقول له .. خذ .. هذا الريال يكفيك للسهر في قهاوي الفجالة ثم يعود كامل إلى أصحابه ، ليقول هذا رئيس تحرير من رؤساء تحرير الحبس .. وكان قد ظهر في الصحافة المصرية حينذاك هذا الصنف المجهول من رؤساء تحرير الصحف مجهولي الهوية ، الذين كانت توضع أسماؤهم على الصحف .. وحين تقدم الجريدة إلى النيابة في تهمة صحفية يتعرضون للسجن يومًا أو بضعة أيام ثم تفرج عنهم النيابة بكفالة خمسين جنيهًا من جنيهات زمان ، فتدفع لهم ويستردونها قانعين من الغنيمة بالإياب.. أي بالجنيهات الخمسين التي دفعت لهم ثمنًا للحبس .. كان ساهر الليل معروف المكان في القاهرة لا يعجز أصحابه عن الوصول إليه أينما وجد ، فأخبار تنقلاته معروفة عند الجرسونات، وكأنهم وكالة أنباء ترصد تنقلات قائد جيش في معركة ليلية دائمة مستمرة لا تنقطع أبدًا ..

وكانت القاهرة في الليل مثل حلم من أحلام شهر زاد ، لا تنام قبل أن تسمع حكاية كامل الشناوي .. جعل الفن في خدمة السياسة وهذا هو سر الأسرار .. الليل والسهر .. والشعر وليالي القمر والفاتنات من الراقصات والفنانات .. ثم أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.. وغير المباح .. وقد يحلو له في بعض الليالي أن يصعد مع صاحبه إلى المعادي ، قبل مطلع الفجر ثم يقف وسط الخميلة ليشم عطر الفل والياسمين ، ويعود في سيارته إلى جاردن سيتي مع مشرق الشمس .. لينام .. وذات ليلة ، في أسوان .. عند افتتاح السد العالي في مهرجان عالمي مشهود ، سهر كامل الشناوي ، ثم أوى إلى غرفة فيها سرير سفري صغير .. لم يكد ينام عليه حتى هوى به السرير فاقسم أن ينام في فندق .. وارتدى ثيابه .. وخرج مع شعاع الفجر ، وحقيبته في يده.. وبعد أن صحا من نومه .. كتب قصيدته التي غنتها أم كلثوم : على باب مصر تدق الأكف.. ألم أقل لك أنه جعل الفن خادمًا للسياسة .. وقد لازم الكاتب الصحفي يوسف الشريف شاعرنا كامل الشناوي في سنواته الخمس الأخيرة فكشف لنا بعض أسرار غرامياته ونوادره وطرائفه التي لازمته في لياليه ، وروى لنا بعض ما عرفه عنه .

وقد عرف كامل الشناوي الليل في طفولته فكرهه . لأنه كان يعني العزلة في البيت . والقراءة الإجبارية . والامتناع عن ملاعبة أطفال الجيران في الليالي المقمرة أو ليالي رمضان . ولكنه في صباه وشبابه في حي السيدة كان الأمر مختلفًا . عشق الليل والسهر والناس[1] .

في الليلة الختامية لمولد السيدة زينب . كان يصحبنا في جولة على الأقدام في جنينة «ماميش» وشارع الخليج وشارع السد الجواني والسد البراني حيث عاش أجمل سنوات فتوته وشبابه. وكنا نزحم معه أمواج البشر ونحن نتفرج على حلقات الذكر وسرادقات التواشيح والمديح والغناء الشعبي وسيرك الحلو ..

---

(١) المرجع السابق.

وأذكر في ليلة من هذه الليالي عام ١٩٦٢ وكنا في قمة النشوة ونحن جلوس حوله في أحد المقاهي المطلة على ميدان السيدة يروي ذكرياته عن حياته في ذلك الحي.. هنا كان يقف عم إسماعيل بائع الكبدة بالشطة كل مساء . وأشار إلى مكان يقع عند مدخل حي طولون .. وروى كيف تعرف على محمد عبد الوهاب أمام عربة عم إسماعيل .. وكان قد جاء للقاء الشاعر محمد الأسمر مع أحمد رامي .. وعزم عليهما عم إسماعيل بأطباق الكبدة .. وقبل رامي الدعوة وأكل .. بينما تأفف عبد الوهاب معتذرًا بأنه لا يتناول طعام السوق .. وخصوصًا «الحاجات الحراقة» عملاً بنصيحة أحمد شوقي أمير الشعراء .. ويومها قال عم إسماعيل غاضبًا «الرجل ده ميهوبش ناحية العربية تاني! » . فقد اعتقد أن محمد عبد الوهاب يتعالى على المكان والطعام !

وسمعنا ـ بهذه المناسبة ـ رأيًا جديدًا لكامل الشناوي في محمد عبد الوهاب بمناسبة هذه الواقعة الطريفة .

قال : «هذا هو الفرق بين عبد الوهاب وأم كلثوم . عبد الوهاب يصدق عليه المثل القائل «اللي يخاف من العفريت يطلع له » . يخاف البرد . والعدوى . ولذلك أصبح يخاف من مواجهة الجماهير .. ومخالطة الناس .. ولكن أم كلثوم ولدت في القرية .. وعاشت وسط الناس . وأكلت من طعام الموالد والأسواق .. ولذلك عاشت مطربة أطول من عبد الوهاب لأنها لم تكن تهاب الناس!! » .

وعندما سألناه رأيه فيهما قال : «كلاهما قمة لم يصعد إليها أحد غيرهما . وليت القمتين قد التقيتا في شرخ الشباب . إذن لأبدعا للناس فنا أعظم وأخلد . ولكن المشكلة أنهما ظلا فترة طويلة يتنافسان على عرش الغناء . وكل منهما يحاول أن يجذب إليه جمهور الآخر . فغنت أم كلثوم للجنس الخشن وغنى عبد الوهاب للجنس الناعم ! » .

وفجأة . قطع حديثه ووقف قائمًا ، وسبقنا إلى السيارة . وركبنا معه . وعندما وصلنا إلى آخر شارع المبتديان قال معتذرًا لنا .

ـ آسف .. لم أستطع بذنوبي أن أسمع الفجر من مئذنة السيدة زينب !!

وقلنا له : ولكنك يا كامل بك تحب الآذان ... وقد سمعنا في بيتك تسجيلات نادرة لآذان الشيخ على محمود ومحمد رفعت ومحمد سلامة .

فعاد يقول : «تذكرت والدي فجأة . كان نائب رئيس المحكمة الشرعية عندما سكنا حي السيدة وكانت أوامره المشددة لي دون بقية أخوتي بعدم السهر في أيام مولد السيدة. ولم يكن ذنبي أن عصيت أوامره . كنت أعشق السهر في تلك الليالي الفريدة وسط حلقات الغناء والصوفية والمجاذيب والسهرانين في رحاب أم هاشم . وكنت أتسلل مع الفجر إلى منزلنا ويشعر والدي بوقع أقدامي على السلم . وكان نومه خفيفًا ـ يرحمه الله ـ ويخرج من غرفته ليجدني أمامه . وعلى الفور كنت أتحول من الصعود إلى الهبوط . وكان يسألني :

- على فين يا كامل؟

وكانت إجابتي حاضرة:

- نازل أصلي حاضر في السيدة فيقبلني وهو يقول : ربنا يفتح عليك يا بني!

ويصفه بعض النقاد بأنه كان محدثًا من طراز نادر ، وراوية لأشعار القدامى والمحدثين ونوادرهم لا يشق له غبار حتى لتكاد تقول إنه آخر مدرسة الظرفاء الذين حدثتنا كتب العرب أنهم ملأوا بلاط العباسيين بهجة ولباقة وحكمة من حكم الشعراء . ولكنه فوق هذا وذاك ظفر من قدره بما لم يظفر به محدث أو راوية . فقد كان أغنية عذبة شجية في فم جيلنا . أوقيثارة معلقة بديعة الصنع قليلة الأوتار . ما أن تمسها نسمة من النسيم حتى تجيش بالأنغام . فتتجاوب من حولها الأصداء . ولأنه قليل الأوتار كان قليل الغناء ضنين الأناشيد . ولكن هذا القليل الضنين . كان وحده كافيًا لأن يكتب له صفحة في تاريخ الأدب العربي . أما نحن الذين عاصرناه فقد سمعنا منه شيئًا غير ما روت أوتاره القليلة الضنينة . سمعنا هذا الصندوق الرنان لا يكف عن الهمهمة والجيشان بأنغام لم تكتمل .

وبأصداء متلاحقة ما لها من نهاية . وكأنه صدر عاشق أسطوري لكل زفرة من زفراته رجع في الوديان عميق !» .

وكان كامل الشناوي متمكنًا ومقتدرًا في إلقاء الشعر . كان يعكس بصوته موسيقى وألوان الشعر . ومعانيه وأحاسيسه . كان يتألم ويتهدج في مواضع الشجن . وكان ينساب بشرًا وتفاؤلاً وهو يعبر عن الفرحة والأمل والحب .

وكانت له القدرة على السخرية بصوته حتى من الشعر الحداثي .. فإذا به يصل الأسماع من شفتيه ركيكًا تافهًا مكسور الأبيات بلا نغم ولا طرب .. فإذا أراد أن يضفي الروعة والجزالة على الشعر الركيك .. طاوعه أداؤه وصوته أيضًا .. ولذلك كان يخشاه الشعراء .. وخاصة خصومه من الشعراء المحدثين .. وكان أداؤه لأشعارهم أخطر بكثير وأشد وقعًا من نقده لهم .. وكانت لكامل الشناوي الكثير من «المناوشات» وذكريات ضاحكة لا تنسى في أوساط الأدباء والشعراء!

يروي الكاتب الصحفي إسماعيل النقيب هذه الحكاية :

كل شيء كان ينام إلا عيون وعقل كامل الشناوي . ففي ليلة من ليالي الخريف كنا في الاسكندرية لحضور مهرجان الشعر . ورجعت مرهقًا إلى الفندق الذي يقيم فيه كل الأدباء والشعراء الذين اشتركوا في المهرجان ومن بينهم شاعر الليل كامل الشناوي وما أن دخلت غرفتي حتى دخل ورائي وطلب ورقة ليملي على كلمات . وقال : سأقول لك قصيدة على نمط القصيدة الجاهلية التي ألقاها الشاعر «فلان» وهو شاعر معروف ولا يزال حيًا .. كان قد ألقى قصيد في تلك الليلة وردت فيها كلمات غير مفهومة للسامعين مثل كلمة «الهزبر» ومعناها الأسد ، وكلمة «أبو المنذر» ومعناها الديك ــ وسأنتهز جلوسي مع الأدباء والشعراء ليلاً .. ثم أعلن أن إسماعيل النقيب استطاع أن يحصل على نصر صحفي . فهو قد ضبط الشاعر «فلان» وهو يكتب قصيدة غزلية في حب الشاعرة «فلانة» وكانت مشاركة في المهرجان وبالطبع سوف يصدق

الحاضرون.. لأن لهذا الشاعر مواقف سابقة في ذلك. فقد كتب ديوانًا كاملاً في حب شاعرة سورية خلال حضوره مهرجان الشعر في دمشق [1].

واتفق كامل الشناوي معي على أن أجلس بجواره في صالة العشاء وهو يروي هذه الأخبار الجديدة عن علاقة الشاعر بالشاعرة. ثم يمد يده فجأة ليخرج القصيدة من جيبي .. و .. اتفقنا!!

وأملى كامل الشناوي عليّ قصيدة جاهلية طويلة كان مطلعها :

فإن كنت أنت الظبي في حالق الذري
فأنى هزبر القاع والبيد والهضب
وتالك أن الحب عفة عاشق
وتحنان مشبوب الغرام بلا ذنب
فلا هم غفرا .. ثم صفحا وجنة
يفيء إليها قرقر غير منتب
ولو مر ظبي بالعقيق مدلل
نفرت إليها طائر القلب واللب
ألا وأحملوني بارك الله فيكم
إلى جنبها أو فاحملوها إلى جنبي
قفا نبك من ذكري حبيب بجلق
وكانت لنا فيها فنون من القلب

(١) كان المقصود بذلك الشاعر على الجندي (١٨٩٨-١٩٧٣) عميد كلية دار العلوم الأسبق الذي زار دمشق عام ١٩٥٩ وهام حبًا بالشاعرة الحسناء طلعت الرفاعي المولودة في حمص بسوريا ١٩٢١ وقد خصص جزءًا كبيرًا من كتابه خمسة أيام في دمشق الفيحاء» ليتكلم عنها واستلهم منها عدة قصائد عاطفية.

بـــــلاد إذا مـــامس جلـــدي ترابهـــا

فبـــورك مـــن جلـــد وبـــورك مـــن تـــرب

وفي حلـــب الـــشهباء لاحـــت مليحـــة

مكـــــورة الأرداف تلعـــــب في قلبـــــي

ألا واذكـــــروني بـــــارك الله فـــــيكم

عـلى الأرض ذات الـزرع والـضرع والعـشب

وكـــأس الهـــوى مـــن كـــل شـــهد مليئـــة

وقــد أقفــرت كــأسي فقلــت لهــا : صــبي

وفي صالة العشاء حكى الحكاية بطريقته الفريدة .. وأصبح الكل في لهفة إلى سماع القصيدة . خصوصًا وقد قال بيتًا واحدًا منها . وأن هذا البيت هو فقط الذي استطاع أن يلتقطه من القصيدة. وفجأة تمتد يده إلى جيبي . وقرأ القصيدة وسط صيحات الصائحين . والكل يطلب إعادة قراءتها. وصدق الناس الكلمات التي اتفقنا عليها في ليلة من ليالي كامل الشناوي . نام فيها كل شيء إلا عيونه وعقله ».

ما وراء الحكاية:

وحتى نفسر ألغاز هذه الحكاية نروي القصة الحقيقية للشاعر المقصود بالطرفة وهو الشاعر المصري الراحل على الجندي عميد كلية دار العلوم الأسابق.

والحكاية بدأت برحلة لعدد من شعراء مصر إلى دمشق في مايو ١٩٥٩ أثناء الوحدة السورية المصرية ، كان من بينهم أحمد رامي، ومحمود عماد ، وعبد الرحمن صدقي، والشاعرة جليلة رضا ، ومن سوريا عدنان مردم بك وسليم الزركلي والشاعرة طلعت الرفاعي والشاعر فخري البارودي، وأثناء زيارتهم إلى هضبة الجولان انهمر المطر، ولما كانت صحة علي الجندي تتأثر بالمطر، فقد أيقن

بالهلاك، فأسرعت الشاعرة طلعت الرفاعي بوضع معطفها الأحمر على كتفي الشاعر علي الجندي، فازداد قلب الشاعر المفتون بها عشقًا بها ولم يستطع طوال الرحلة أن يخفي إعجابه بها وسؤاله الدائم عنها حتى سماها «ورقاء جلق»، وأوحت له عاطفته الجياشة نحو طلعت الرفاعي عدة قصائد عاطفية سماها «البرديات» أفصح فيها عن مكنونات قلبه نحو «طلعة القمر» التي خطفت قلبه! من بينها قصيدته «إلى صاحبة المعطف الأحمر» التي يقول فيها:

قد حماني من المطرْ ... ووقاني من الخطر
مِعطف أحمر نصر ... لِمَهاةٍ من الحضر
وجهُها نزهة البصر ... كوكب نورُه ازدهر
طرفُها السِّحرُ والحوَر ... خدها حمرةُ الخفّر
ثغرُها مَنبتُ الدرر ... طبُعها نسْمة السحَر
لفظها الجوهرُ انتثر ... شِعرها نفحةُ الزهر
شدوُها هَمْسة الوتر

ومن بين بردياته من وحي «طلعة قمره» قصيدته «إلى ورقاء جلق» التي يقول فيها:

سقى «بردى» من ريق القطر حبيب
وحياة روح من جنى الخلد طيب
لقد زادني عجبًا بشعري أنه
بشعرك - يا ورقاء جلق - مُعجب
وشعري وإن رقت وراقت فنونه
فشعرك أشجى منه لحنًا وأعذب
بقية عمري لو أطيق وهبتها
لمن صانها يا ليت عمري يوهب
سأشدو على مر الليالي بذكرها
ويبدع شعري في الثناء ويُغرب

وقد خصص الشاعر علي الجندي كتابًا كاملًا هو «خمسة أيام في دمشق الفيحاء» في التغني بحسنها وشعرها والتعبير عن ولهه بها لدرجة العشق والهوى

***

ومن روايات كامل الشناوي عن الظرفاء:

تراكمت الديون على محمد البابلي في عدة بنوك. وكانت معظم البنوك حينئذ في سوارس «ميدان مصطفى كامل الآن» وضاق البابلي بكثرة مطالبتها له. وشكا أمره لصديقه حافظ إبراهيم. وتمنى لو أنها وحدت ديونها في بنك واحد . فقال له حافظ :

- الأمر سهل يا أخي . قف في ميدان سوارس ونادى بأعلى صوت : وحدوه !

وكان حافظ إبراهيم مع بعض أصدقائه في مقهى . فدخل عليهم شاب ثقيل كان أبوه قد قام من مجلسه. وبعد قليل انصرف الشاب . فسأل أحد الجالسين حافظ :

- ابن مين الثقيل ده؟

فأجابه حافظ :

- ابن إللى آم (اللئام) !

***

كان الشيخ مصطفى المراغي أديبًا يحب الشعر والشعراء . وقد تعلق به الشاعر حافظ إبراهيم تعلقًا شديدًا . ولم يكن يفارقه في جلساته بمنزله في حلوان، حيث يدور بينهما الحوار حول الشعر والدين والتاريخ .

وكان الشيخ المراغي قد اشترى خمسة ديوك رومي . ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت. فأرسل حافظ إبراهيم إلى الشيخ المراغي كتاب تعزية قال فيه:

رحـــم الله خمـــسة مـــن ديـــوك
للمراغـــي قـــد عوجلـــت بالفنـــاء
فلـــو أن للأســـتاذ خـــير فيهـــا
بـــين مـــوت لهـــا وبـــين فنـــاء
لافتـــداها بخمـــسة مـــن شـــيوخ
مـــن أســـاطين هيئـــة العلـــماء

وعن محمد البابلي .. روي كامل الشناوي أنه كان مسافرًا مع صديق له . وبينما هما ينزلان درجات سلم المحطة لركوب القطار . لمح فتاة حسناء فتوقف . فقال له صديقه : ما تنزل يا محمد؟!

فقال البابلي : كيف انزل و «روحي طالعة» ؟!

***

اتهم محمود غنيم صديقه الشاعر محمد الأسمر بأنه بخيل وداعبه بقصيدة منها :

صـــم .. إذا مـــا الـــضيف جـــاءك
وامـــنح الـــضيف عـــشاءك
واجعـــل الـــصوف غطـــاء الـــضيف
والـــسقف غطـــاءك
لا تـــصن زادك في الـــشعرى
وفي المـــريخ مـــاءك
يـــا صـــديقي قـــد فحـــصناك
فكـــان البخـــل داءك

ورد عليه محمد الأسمر بقصيدة :

يـــا صـــديقي أنـــت في شـــعرك
لم تلـــــبس رداءك
يـــا كـــريم العـــصر مـــا أجـــمل
في الجـــــو ادعـــــاءك
شـــد مـــا أبقيـــت شـــيطان
قوافيـــــك وراءك
قـــد عرفنـــاك صـــغيرًا
وتبينـــا ســـــخاءك

ودعا دسوقي أباظة عددًا من أصدقائه الشعراء إلى حفلة رسمية . فذهب محمود غنيم بملابسه العادية . فسأله الداعي عن «الردنجوت» فقال :

«الردنجـــوت» يـــا جنـــاب الـــوزير
لـــيس يقـــوي عليـــه جيـــب الفقـــير
رمـــت أن أســـتعيره مثـــل «نـــاجي»
ثـــم أحجمـــت خوفًـــا مـــن المعـــير

ورد عليه الشاعر ناجي بقوله :

وأقـــسم لـــو أن «الردنجـــوت» نلتـــه
وجـــاء بـــه مـــن جـــاء قهـــرا وســـلفا
لقلبتـــه ظهـــرًا لـــبطن تحـــيرًا
بـــه تحـــسبن الوجـــه مـــن عـــبط قفـــا

وكان الشاعر محمد الهراوي يجلس مع زكى مبارك وحسين شفيق المصري .. وجاءهم محمد الأسمر يشكو من ساعة أهداها إليه صديقه محمد الهراوي فكانت فرصة للتنكيت والضحكات. وفأنشد زكي مبارك شعرا مرتجلاً قال فيه:

واهًـــــا لـــــبعض الهـــــدايا
بعـــــض الهـــــدايا رزايـــــا
ســـــاعات بـــــاريس عنـــــدي
لهـــــا جميـــــع المزايـــــا
تـــــدق دقـــــا لطيفًـــــا
كمثـــــل همـــــس منايـــــا
وســـــاعة الهـــــراوي
أولى بـــــبعض التكايـــــا
تـــــدق دقـــــا عنيفًـــــا
كـــــما تـــــدور الرحايـــــا

على مائدة كامل الشناوي:

كانت سهرات كامل الشناوي باذخة في ليالي القاهرة في الفنادق وفي صالات الصحف والمجلات التي عمل فيها مثل الأهرام والجمهورية والأخبار

وصف كاتب صحفي إحدى هذه المآدب فقال :

وصاح المجتمعون على طعام كامل الشناوي وشرابه ، إعجابًا بالقصيدة «العصماء» .. فقد ظنها بعضهم شعرًا حقيقيًا .. ولم يفطن إلا اثنان أو ثلاثة إلى أنها شعر هزلي ، فقد كان معظم الساهرين معه في تلك الليلة من غير الشعراء والأدباء .

ورأى كامل الشناوي أنه لابد من تنوير هؤلاء الأصدقاء ، فحدثهم بإيجاز عن الشعر الفكاهي ودوره في الصحافة المصرية .. وروى لهم بعض قصائده الهزلية التي نظمها في مناسبات مختلفة ولم ينشرها ..

وربما كان كامل الشناوي هو آخر الشعراء المجيدين الذين نظموا الشعر الهزلي إلى جانب شعرهم الجاد ..

أحمد عبد المجيد

سفير الظرفاء!



هناك علاقة قديمة بين الشعر والغناء، فالشعر الحقيقي في حد ذاته لون من ألوان الغناء، بموسيقاه الهامسة، وكلماته المنغمة، وسحره الدافق.

وقد بدأ السفير الشاعر أحمد عبد المجيد حياته بقول الشعر الفصيح، ثم اضطر لكتابة الأغنية الدارجة ليغنيها الموسيقار محمد عبد الوهاب بعد أن وصل مستوى كلمات أغنيات تلك الفترة في العشرينيات من القرن العشرين إلى مستوى من الركاكة والابتذال لا مثيل لها.

ولكن ما هي حكاية شاعرنا مع الشعر والأغنية؟

ولد أحمد عبد المجيد فريد في ٢٥ ديسمبر عام ١٩٢٥ بحي المنيرة بالقاهرة لأسرة محافظة ميسورة الحال، حيث كان والده يشغل كبير ياوران الخديوي فضلا عن أنه كان عضوًا بمجلس الشيوخ.

التحق أحمد بالمدرسة الناصرية الابتدائية بالمنيرة، وفيها برز وتفوق على أقرانه.

وكان لنشأته في بيئة كلها ثقافة وأدب وسياسة دور كبير في تكوينه الأدبي، حيث كان والده يعقد صالونا أدبيًا يجتمع فيه أقطاب الرأي وقادة الفكر وأعلام الأدب والصحافة والسياسة.

وعندما أنجز دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية وفي تلك المرحلة برزت موهبته الأدبية وكان أمير الشعراء، أحمد شوقي من رواد الصالون، فأولى أحمد عناية خاصة رغم أن محاولاته الأولى كانت إرهاصات اتسمت بالطلاوة والرقة.

وبعد أن أنجز أحمد عبد المجيد دراسته الثانوية التحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٢٤ ..

وبجانب قصائده الشعرية كان ينظم أغان باللهجة الدارجة بأسلوب راق وقد ساءه أن يجد أن مستوى أغنيات تلك الفترة كان هابطًا ومبتذلا يغلب عليها طابع الإثارة والخفة مثل أغنية «ارخي الستارة إللي في ريحنا أحسن جيرانك تجرحنا» وأغنية «يا بتاع النعناع» للمطربة بهية المحلاوية:

يا بتاع النعناع يا منعنع	يا بتاع النعناع يا واد أنت
وديني بلدي وأديلك	بوسة من خدى وأوهب لك
مالي وأموالك وأحوش لك	حوض من النعناع يا منعنع

ومثل أغنية المغنية «توحيدة»:

ما تحسبوش يا بنات إن الجواز راحة

أول سبوع يا بنات على الفرش مرتاحة

تاني سبوع يا بنات خوخة وتفاحة

تالت سبوع يا بنات حماتي رداحة

رابع سبوع يا بنات في البيت نواحة

خامس سبوع يا بنات على القاضي سواحة

ومن أشهر أغنيات منيرة المهدية التي اشتهرت يومئذ:

قمر يا قمورة يا محني ديل العصفورة

إن كنـــت خـــايف مـــن أبويـــا

أبويـــا عـــدى المنـــصورة

وإن كنـــت خـــايف مـــن أمـــي

أمـــي عليـــك ســـاتورة

وإن كنـــت تايـــه عـــن بيتنـــا

بيتنـــا قـــصاده دحـــدوره

وإن كنت تايه عن اسمي اسمي منيرة الغندورة

فكانت كلمات أغنيات أحمد عبد المجيد التي تغني بها الموسيقار محمد عبد الوهاب ما بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٣٠ انطلاقة واسعة للأغنية العربية شكلا ومضمونًا، منها :

ـ كلنا نحب القمر ـ مريت على بيت الحبايب ، ما كانش عالبال ـ خايف أقول اللي في قلبي ـ حسدوني وباين في عنيهم – عايزك تصد وتهجرني – في اجو غيم.

ووجد النقاد في تلك الأغنيات روحا جديدة ومعان مبتكرة أصيلة وقد نالت إعجاب أمير الشعراء ، حيث نصح عبد الوهاب بأن يتغنى بكلماته .

وفي عام ١٩٢٨ أصدر أحمد عبد المجيد كتاب «مجموعة شعر» تضم أغنياته بالفصحى والعامية .

تخرج أحمد عبد المجيد في كلية الحقوق عام ١٩٢٨ بعد حصوله على شهادة الليسانس في القوانين فاتجه إلى ميدان العمل في المحاماة ، فاشتغل لفترة في هذا المجال وأثبت فيه كفاءة وقدرة عالية ، فعين وكيلا للنائب العام وفي عام ١٩٣٠ التحق بالسلك الدبلوماسي ، حيث تنقل في مختلف السفارات والمفوضيات والقنصليات في أكثر من عشر دول منها لبنان وفلسطين وتركيا وإيطاليا وفرنسا وأثناء عمله الدبلوماسي كان لا يكف عن تسجيل أحاسيسه ومشاعره وكان الشعر أداته في تصوير ما يجيش في صدره من عواطف وأحاسيس وغلب على شعره اللون الرومانسي الحالم ، الذي يحلو لعشاقه التغني الحزين الذي يدغدغ

حواس المستمع ، ويحمله إلى دنيا من شجن لطيف ولحن أليف .

ومن شعره الرومانسي قوله في قصيدته «موكب الذكرى» :

يـــا حبيبـــي أننـــي حطمـــت راحـــي

أنـــت دنيـــاي أفراحـــي وراحـــي

مـــا درى غـــيرى بـــشجوى أو نـــواحي

عـــزني الآســـى فأخفيـــت جراحـــي

وفي تلك الحقبة من حياته مر بتجارب حب في كل بلد عمل فيه ، وكان دائمًا يأسى للفراق مثلما يصف لحظة فراقه عن محبوبه :

عنـــدما حـــان النـــوى اشـــتد عنـــاقي

وسرت في الجـــو أنفـــاس اشـــتياقي

وبـــدت ســـهمة حـــزن في المـــآقي

أيهـــا الـــساقي قـــد مـــضى عهـــد التلاقـــي

وانطـــوى لـــيلى وهـــذا الـــشوق بـــاق

يـــا لروحـــي في غـــد ممـــا وتلاقـــي

أغاريد الحب والوداع:

في سنواته العشر الأخيرة (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) عاش أحمد عبد المجيد كالوتر المشدود يضنيه الجمال ، ويعذبه الحرمان ، وتضحكه البسمة ، وكأنه يعشق لأول مرة وكأنه نسى كل ما مر به من قصص حب تراوحت فيها أنغام الوصال والهجر واللقاء والحنين والغضب والرضا ، وعاش تجربة حبه الكبير مع «س» وهي ملهمة مثقفة جميلة ، والتي تجمع في حبها لديه مشاعر المحب والأب والصديق فأحالت حياته أتونا من مشاعر الرضا والغضب والغيرة والسهاد والحنين والتمرد !

لقد جاءه هذا الحب في خريف العمر بعد أن جاوز السبعين ، وكان يعاني في تلك الحقبة من الوحدة ، فلا ولد يؤنسه ، ولا عمل يشغله سوى القراءة والكتابة ولا صديق مخلص يخفف عنه العناء إلا فيما ندر ، فجاءت هذه العاطفة وكله أمل أن تملأ حياته بالبهجة والرضا والسعادة، لكنه عانى في هذا الحب من العذاب والحرمان ، وكان يردد دائمًا أن بعض الأدباء يظنون أن أقوى حب وأبقاه وأمتعه هو الحب المحروم ، ذلك الحب الصامت اليائس المستوحش الذي يرسل أروع الصرخات وأعذب الأنغام لكن ليتهم يعلمون مدى عذاب مثل ذلك المحب وضناه ، وتقلبه على نيران الغيرة والسهاد والحنين والحرمان ! وكنت أنظر إليه في تلك الحقبة وكأنه طائر جريح يغنى طول حياته بمفرده ، وإن كان يعزينا دائمًا أنه ليس وحده الذي يتعذب ، بل كانت ضريبة حب العظماء دائمًا هكذا ، فهم لا يحبون بالجسد قدر ما يحبون بالقلب ، فقد استطاع أحمد عبد المجيد في حبه المحروم أن يتغلب على الأنانية ، وحاول أن يقهر الغيرة ، وأن يسمو بمشاعر الوجدان والروح فقد تفوق على الغيرة في حبه النقى للسيدة «س» التي كان يعلم حق العلم أنها تحب زوجها وتخلص له ، فلم يتبرم بها ولم يسخط عليها بل قدر فيها سمو أخلاقها ونبل طباعها وكان سعيدًا برؤيتها مطمئنة سعيدة في صحبة سواه فكان أحمد عبد المجيد مثله مثل عظماء العشاق الذين عبر عنهم الكاتب إبراهيم المصري . فكانوا مضرب المثل في الحب الصحيح : الحب المنزه عن الأنانية والغيرة ، الحب القائم على إسعاد الحبيب ، الحب النابع من الروح لا من الجسد فقط، الصادر عن الرغبة العميقة ، في الولاء المطلق والتضحية .

أغاريد الرحيل:

كانت السنوات الخمس الأخيرة في حياة أحمد عبد المجيد (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠) فترة معاناة وضنى تقلب فيها على أتون من القلق والشك والسهاد ، بسبب هذا الحب المحروم اليائس الذي جاءه في خريف العمر، والذي كان ينشد فيه السلوى وتعويض ما فاته من الاستمتاع بالأبوة التي حرم منها حيث كان

يعيش هو والسيدة زوجته بشقته بشارع قصر العيني، وأذكر أنه قال لي ذات مرة والمرارة تغمر صوته :

«يبدو أن الله قد عاقبني على أنني بطرت على الأولاد ، فلم أرزق بولد يؤنس حياتي في سنوات عمري الأخيرة » !

وعندما دخل الحب حياته عام ١٩٧٦ نشد في هذه العاطفة الحب الروحي ، والأبوة لها ، لكن تقلب أطوار الحبيبة ، وإحساسه بأنها لم تفهم عاطفته الأبوية الفهم الصحيح ، وغيرته التي كانت تستبد به بسبب طبيعة عمل الملهمة في المجال الإعلامي والتي كانت تجعلها تتعامل مع العديد من الشخصيات كل ذلك أثر في نفسيته وجعل أعصابه مشدودة ، في تلك الحقبة ، وأذكر أنني تعرضت منه لإحدى تلك الإنفلاتات العصبية في فترة معاناته وإن كان قد اعتذر فيما بعد عن ذلك .

وكان كثير الشكوى والأسى على ما يعانيه من تقلب أطوار ملهمته بجمالها الشامخ الرصين فكتب يقول لي في إحدى رسائله :

«كلما عانيت من حب من أحببت ، وصادفني منها ما كنت على ثقة من أني ملاقيه ، أعود من لقائها وأنا مهيض الجناح ، كسير الخاطر ، شارد الفكر ، متجدد الأمل في لقاء قد يكون أكثر حظًا ، كالمقامر الذي يتمنى كسبًا بعد كل خسارة ، ثم أراني أبحر في تيار كلمة عميقة رقيقة مفادها : «أزكى الورود أكثرها شوكًا » !

وكتب بستجديها الوصال والحنان :

ليلاي .. ليتك ليلة تسقينني خمر الرضاب
يا من سعدت بقربها . وأضر بي لمع السراب
لا تعذليني إنني شيخ تمرس بالعذاب
يشكوك ما صنع المشيب به وما صنع الشباب

وعندما أحب الشاعر العاشق في خريف عمره تلك الملهمة الحسناء المثقفة التي عذبه حبها، أحس أن كل شيء حوله يتبدل، وأن الصلة قد انقطعت بينه وبين ماضيه، وأنه قد ولد من جديد، فأصبح كل شيء حوله رائعًا جميلاً باسما.

ومضت حياة أحمد عبد المجيد خلال العام الأخير من حياته عام ١٩٨٠ يكابد اللوعة، والحرمان، والظمأ، للحب الصادق، والحنان الدافق، والقلب الرحيم الذي يواسيه ويخفف عنه.

لقد أعجب بملهمته المثقفة بجمالها الشامخ وحديثها العذب الطلي، وبذكائها وأنوثتها الغامرة فأحس أن تأثيرها قوى في كيانه، وخيل إليه أن كل ما حوله ينطق بحديثها ويتجسم في صورتها، في يقظته ومنامه.

استولت عليه وتمكنت منه، فسهر وسهد، وغار، وغضب من صدودها وبعدها عنه، لأن ظروفها الاجتماعية حتمت عليها التحفظ لأنها زوجة وأم تعيش في مجتمع محافظ رغم ثقافتها وسعة أفقها، لكنه كان يأمل أن تملأ حياته وتعوضه سنوات الجفاف والحرمان بعد أن أحيل للتقاعد، وتفهمه كأب افتقد الأبوة ويحتاج للحنان والعطف والحب الصادق، وفي وسط عذابه، وسهاده وتخبطه حاول أن ينساها ويتحرر من حبها الغلاب ويقهر ضعفه حيالها، لكنه كان ينهزم أمام طيفها، وهمسات صوتها الذي كان يطارده في صحوه ومنامه، فينتابه ما يشبه الصداع والإحباط، فيمسك بقلمه ليكتب قصائد يبثها فيها مشاعره، فمرة يجعلها ملاكًا ساميًا وطيفًا نورانيًا يملأ حياته نورًا وبهجة، فيستعذب عذابه في حبها وضناه في صدودها وإعراضها عنه، ومرة أخرى يئن بالشكوى من تعذيبها له وتنكيلها بأعصابه، وفي كلا الحالين كان مستسلمًا لطيفها، لا يعرف الراحة ولا السلوان!

ولم يستطع هذا القلب الحساس الرهيف أن يصمد طويلاً أمام هذا الصراع الحاد الذي دمر أعصابه وأنهك قواه، وجعله كالطائر الجريح الذي يتخبط في شراك أوهام الحب وسرابه لقد عذبه هذا الحب ومزقه، فتناثرت شظاياه قصائد شجية آسية مملوءة بالوجد والهيام والعذاب، لكن طبيعة حواء بتلونها لم تدرك أن مثل هذا القلب الحساس الصادق لا يستطيع تحمل آثار، تلك المناورات والمداورات وفنون الدلال. فكانت الحيرة وكان الشك

، ثم كان هذا الانهيار الكبير ففارق الحياة وهو مكلوم القلب ، حزين الروح ، معذب النفس ، فسرعان ما انهار هذا القلب العاشق وفارق الحياة في ١٠ أكتوبر عام ١٩٨٠ وعلى شفتيه ابتسامة صافية وكانت آخر همساته قبل أن يودع الحياة إلى الملهمة التي عذبته وأضنته :

أنـــا لـــست أطمـــع في فكـــاكي
مـــــن شــــباكك أو أذاك
وعــــلام والــــدنيا تمـــد إليّ
أســــباب الهــــلاك

وبعد رحيله وجدت على مكتبه قصيدة لم يكملها كانت من وحي ملهمته التي أحبها بكل الصدق والوفاء لقد صنع من ملهمته تمثالاً رائعًا خلع عليه أحلام قلبه المشبوب، وآمال روحه الظمأى إلى الحب المثالي المنشود ، وشرع بطبيعته المرهفة ، وقوة مخيلته ، وسعة أفق تصوره يرتل في محرابها أجمل أناشيد الحب والتقديس فكان يراها في نفسه ، وفي وحيه ، وفي شعره ، وفي شتى مظاهر الطبيعة ، وطيفها ما يفتأ يطارده في صحوه ومنامه .

وكانت «س» معجبة بعمق تفكيره ، وغزارة ثقافته وحبه النادر المثالي لكنها كانت في ذات الوقت يغلب عليها الطابع العقلاني الواقعي الذي يرتبط بالعادات والتقاليد الشرقية ، وطبيعة ظروفها العائلية .

ولكن شاعرنا الرومانسي الحالم المحتاج للحب والحنان ظل يرسل أناشيد الحب والجمال، ويدبج عشرات الرسائل المفعمة بعاطفته الفياضة ، وليس أمامه سوى ملهمته ، يرتل لها تلك الأناشيد وكان همه الدائم :

في معبدي ناجيت طيفك خاشعًا ونداي في سمع الدجى ترتيل

وفجأة شعر أنه ضيع في الأوهام عمره ، وأن أناشيد الوجد والحب التي رتلها في محراب حبها ليس إلا مجرد سراب ، فأصابته الطعنة في قلبه الحساس ، فأصبح تائه الفكر ، مشبوب الحواس ، ينادي أمله المنشود دون جدوى ، فيعود ليستعيد ذكراها ويرتل في محراب حبها الضائع ، وتعلق بأوهام سراب حبها ، كما ينشد الغريق ملمس الحطام ، فهام

بالصمت، وكلف بالوحدة ، وانكمش وانطوى على نفسه واستبد به طيفها ، راوده وأذهله وسحره ، لكن أفاق من حلمه الجميل فلم يجد أمامه وحوله سوى السراب الفاجع فتهاوى وفارق الحياة وهو يرتل أنشودة الحب والوفاء !

حسين شفيق المصري

فارس الشعر الحلمنتيشي !



يعد حسين شفيق المصري من أبرز شعراء الفكاهة والظرف في مطلع هذا القرن ، ومن خير من أجادوا التعبير بالصور المستملحة والتعبيرات المستطرفة عن روح الفكاهة التي تتسم بها شخصيته وتتميز بها خلاله ، وسماته التي عرفت عنه ، وأصبحت من أبرز ملامحه الروحية والوجدانية.

وقد أجاد شاعرنا التعبير بأسلوبه الفكاهي بعدة ألوان من التعبير الفكاهي أبرزها (المشعلقات) والشعر الحلمنتيشي والمقطعات والأزجال وغيرها من فنون الفكاهة والظرف.

ولكن كيف عبر حسين شفيق المصري عن روح الفكاهة التي تميز شخصيته، وتتسم بها روحه المرحة الطروبة المحبة للحياة ؟ وهل عكس بصدق وأمانة مشاعر نفسه وهمسات روحه وخفقات قلبه في هذا الشعر الطريف ؟

ولكن من هو ؟

ولد حسين شفيق المصري بالقاهرة عام ١٨٨٢ لأبوين تركيين فوالده محمد نور كان مثالاً للتركي المتلاف المتعجرف ، حيث كان يمتلك عزبة بالقليوبية ، والكثير من الدور والضياع، وعندما مات أضاع كل شيء : الأرض ، والقصر ، والأملاك أما أمه فكانت السيدة إقبال هانم التي عمرت طويلاً حتى رأت ابنها من كبار كتاب وشعراء مصر ، وتوفيت عام ١٩٢٢ بالقاهرة وكانت هذه السيدة جارية ضمن السبايا التي أخذت في حرب المورة ، وبيعت في مصر واستقرت في قصر الأميرة أمينة هانم أم الخديو عباس ، ومن هذا الخليط اليوناني التركى ، جاء حسين شفيق المصري ، الشاعر الضاحك ، والفيلسوف الساخر ، وابن البلد الأصيل ! وقد وصفه الكاتب الساخر محمود السعدني بقوله :

«ظل حسين شفيق المصري يتدحرج طول حياته ويتقلب في مهن كثيرة ، من كاتب محام إلى مصحح في الجرائد إلى زبون دائم أحيانًا في مقاهي القاهرة وعلى أرصفتها الشهيرة ، ومن خلال هذه المهن الغريبة استطاع العبقري أن يرى الحياة كما لم يرها أحد من قبل .. فقد كانت له مهنة واحدة غير رسمية ، هي مراقبة الناس وملاحظة عاداتهم .

«ولقد عاش حسين شفيق المصري حياة أقرب ما تكون إلى حياة أبي نواس .. أعزب لم يتزوج.. سكير لا يفيق .. مبذر أنفق نقوده وأنفق صحته وأنفق أيامه فيما لا يفيد .

«لم يتفرغ لشيء ولم يهدأ أبدًا ولم يستقر .. وظل يتدحرج من أعلى إلى أسفل حتى وصل إلى القاع ولكن فنه الأصيل رغم الضياع كان يشده دائمًا إلى الحياة التي تموج من حوله.. ينقد مظاهرها المختلفة نقد فنان أصيل . وفي نهاية أيامه رفع هراوة ضخمة وهوى بها على رأس الحكومة التي كانت قائمة وقتذاك . إن الفنان حسين شفيق المصري ينقدها وينقد رجالها ونظمها وتقاليدها ، فيبتكر شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود ، ومن خلال المسكين شعلان انصبت هراوة شفيق المصري على كل ما في الحياة من تناقضات بشعة وقيم زائفة ومن

خلال الأسئلة والأجوبة تبدو براعة شفيق المصري في كشف عورات النظام الاجتماعي الذي كان يرزح تحت عبئه الشعب .. وكذلك تبرز أصالة شفيق كفنان .. وعبقريته في الغوص إلى أعماق المأساة التي كانت تعيش فيها مصر .

***

كان حسين شفيق المصري عبقريًا موهوبًا ، ذا خيال زاخر خصب ، فهو لم يكن مجرد كاتب أو شاعر بل كان مدرسة يتلقى عنها أدباء الجيل دروسًا عميقة في الأدب والشعر والفكاهة ، لما يتمتع به من خصوبة الخيال ، واتساع الأفق والقدرة على الخلق والإبداع .

لقد ظل طيلة خمسين عامًا يضحك الناس بما يخترعه من أسباب الفكاهة والتهريج والإبداع ولكنه كان إذا غضب لكرامته أو لوطنه ، انطلق قلمه يصب على خصومه شواظًا من نار .. فكانت كتاباته الشعرية والنثرية صورة دقيقة للحياة السياسية والاجتماعية في مصر على مدى خمسين عامًا.

ولقد ربح كثيرًا ، ولكنه كان ـ كأبيه ـ متلافًا إلى حد التهور ، كريمًا ، عف النفس ، لا يبقى على مال ولا يرد محتاجًا ، ولا تعرف يمينه ما تصرف يساره ، وهو في كرمه وتبذيره لا يحفل بما يأتي به الغد .. كان يعيش ليومه ، ويترك الغيب لعلام الغيب ، مستعينًا في ذلك بفلسفته الأبيقورية التي تمثل فيها أستاذه أبو نواس :

سواء على أدار يمينا ... بي الدهر أم دار دهري شمالاً
فأني أرى كل شيء يمر ... فينسى سوى ما يشين الرجالا
وأعلم أن المصير الزوال ... وماذا يؤمل باغ زوالا

هكذا عاش حسين شفيق المصري ، فيلسوفًا ساخرًا ، يقابل تجهم الأيام بابتسامته الحلوة ، حتى أن بعض عارفيه زعموا أنه لو أراد أن يعبس لما طاوعته أساريره !

وكان إلى هذا كله جم التواضع موفور الحياء مما دفعه إلى ترفعه عن التماس

أسباب النفع من معارفه، رغم صلاته الوثيقة بمعظم رجالات الدولة في عصره، ولكنه كان يتجاوز أزماته المادية دون أن يشكو أو يتبرم، فإذا اشتدت الأزمة راح ينفض همومه في أشعار شجية تسيل عذوبة وصدقًا وحرارة:

تعففت حتى قيل أن له غنى وأكثر مالي لو علمت قليل

وطولبت بالإحسان، ولست بقادر عليه، فقالوا: إنه لبخيل

فأيقنت أن البخل والفقر واحد وأن بخيل الأغنياء ذليل

وكان يطوي همومه في صدره، فإذا ناء بها أغرقها في الكأس، علّه ينسى أحزان قلبه، وهموم نفسه، حتى أنه شاب قبل الأوان، مما دفعه إلى الإعلان عن فلسفته المادية في الحياة:

عجب الناس من شحوبي وضعفي

ومشيبي ولم يشب أصحابي

ويظنونني مريضًا ومنهم

من يرى أن بي هزال اكتئاب

لست أشكوهما وما بي داء

إنني بعت بالشراب شبابي

فاطربوا واشربوا وشيبوا وموتوا

وقد تعرض للاضطهاد، لمواقفه الوطنية الصادقة، فقضى بحبسه شهرًا. فبلغ من عدم احتفاله بهذا الحكم أن ذهب بنفسه إلى سجن مصر وطالب أن يسجنوه، دون أن ينتظر حتى تدعوه النيابة، وكانت وجهة نظره في ذلك أن وقوع البلاء خير من انتظاره.

ولم يحنقه من السجن سوى جفاف الخبز ورداءته، مما دفعه إلى توجيه قصيدة لمدير السجن، قال فيها:

والخبـــز كـــالآجر إلا أنـــه ... مــن خبــزكم لا ينفــذ المســمار
خبــز لــو اتخــذ رغيفــاه رحــى ... يــوم تــسير طحنهــا الأحجــار
ولــو أن بيتًــا يبتنــي مــن خبــزكم ... فنــى الزمــان ولم يــشق جــدار!

وبسبب موهبته الفذة في الجمع بين عدة مواهب : من صحافة وشعر وزجل وفكاهة سماه أحد الأدباء «ألف صنف » ، وكان إخوانه ينعتونه «بالكشكول» ، ولكن تلميذه محمد عبد المنعم «أبو بثينة » شاء أن يطلق عليه «أبو نواس الجديد » حيث ذكر أوجه التشابه بين شاعرنا وبين الحسن بن هانيء «أبو نواس » فقال: «كلاهما لم يكن خالص العروبة ، الأول ينتسب إلى الفرس ، والآخر ينتسب إلى الترك ، ولقد كان أبو نواس ماجنًا محبًا للخمر واللذات ويشاركه في بعض هذه الخلال حسين شفيق لا فارق بينهما إلا أن القديم كان متهتكًا والجديد لم يكن كذلك ، وفي شعرهما تشابه في الجنوح إلى السخرية وميل إلى الفكاهة والدعابة ، وفي أشعارهما رقة ونظرات في فلسفة الحياة وفهم لدقائقها » .

وقد أثارت ازدواجية حسين شفيق المصري حيرة الناس ، فقد كان متمكنًا من اللغة العربية وفي نفس الوقت أحد شعراء العامية ، وكان من أسرة ثرية ، وكان فقيرًا يتضور جوعًا ، وكان من أم يونانية وأب تركي ، ولكنه كان قاهريًا صميمًا ووطنيًا مخلصًا يحب مصر ويعشق الأحياء الشعبية: حواري الدرب الأحمر وأزقة السيدة زينب وحي الحسين بمقاهيه وأسواقه ومواطنيه .

كان محررًا بجريدة «الجوائب» التي كان يصدرها خليل مطران ، وفي جريدة «مصر» ، وفي الوقت نفسه كان يكتب في مجلة «الشجاعة» و «الخلاعة» و «المسامير» و«السيف» .. وكان مؤلفًا مسرحيًا كتب روايات جيدة لمسرح نجيب الريحاني ، وكان شاعرًا ماجنًا ، متفرغًا لكتابة المشعلقات والمقطعات والشعر الحلمنتيشي وعلى الربابة وفي نفس الوقت يكتب أشعارًا وطنية لاذعة، وكان يربح آلاف الجنيهات ، ومات وليس في جيبه مليمًا !

وقد عرف الأديب الصحفي محمد فهمي عبد اللطيف شاعرنا عن قرب ، وتعرف على خلاله وسماته، فقال يصفه.

«عرفت حسين شفيق المصري وأنا في مطلع الشباب ، وكان هو قد خلع برد الشباب: رجلاً متطامن النفس . أعمش أرمش ، عريض الألواح مرتفع الأكتاف ، مدلي الكرش ، يمشي وكأنه ـ من ثقل كرشه وانحسار بصره ـ أتان مقيدة كما كان يقول عن نفسه ، وقد قال لي أنه كان في شبابه متناسق الجسم ، متناسب القوام أملد العود ، وكانت الغيد الحسان لا تبخل عليه بالنظرة والغمزة، أما العمش والرمش فذلك شيء لازمه منذ أول حياته » .

«بدأ حسين شفيق المصري حياته الأدبية يكتب المقالات والشذرات الجادة والهزلية في الصحف والمجلات في العقد الأول من القرن العشرين ، ثم تولى تحرير جريدة «السيف» وهي جريدة هزلية أسبوعية أصدرها أحمد عباس عام ١٩١٠ ، ولكنه تنحى عن تحريرها إلى حسين شفيق وكانت الجريدة تصدر بكلمة جادة رصينة في الحالة السياسية والاجتماعية أما جميع أبوابها فكانت تكتب بأسلوب فكاهي لاذع ، وكان يكتبها كلها حسين شفيق ، وكان يلاحق بفكاهاته وقفشاته أبناء الذوات والأعيان ، والإدارات الحكومية في الوزارات والمصالح وأقسام البوليس، وقد راجت تلك الجريدة رواجًا كبيرًا وبخاصة بين الشباب ، ثم أصدر مجلة «الناس» وكانت فكاهية على غرار «السيف» وقد عاش الرجل يكافح ويناطح في هذا المجال أيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) على الرغم من عنت سلطات الاحتلال الإنجليزي بالصحافة وأصحاب الأقلام بها ، ولما شبت الثورة الشعبية بقيادة الزعيم سعد زغلول عام ١٩١٩ ، انطلق حسين شفيق بفنه الضاحك الساخر يؤجج ضرامها وينفخ في جذوتها ، وقد عاش إلى آخر حياته على الوفاء والولاء للوطنيين من رجال الوفد ، ولما تحطم السيف» و «الناس» على صخرة الأحداث، اشتغل في مجلة «الكشكول» . ومع أن مجلة الكشكول كانت معارضة لسعد زغلول ولسياسة الوفد ، فقد كان يحرر فيها بابًا بعنوان «دائرة المعارف الوفدية » . وقد نال هذا الباب رواجًا كبيرًا بين

الناس . وكان الرجل حريصًا على ألا يمس الوفد بكلمة سوء في هذه المجلة المعارضة التي احترفت التشنيع على الوفد وإنما كان صاحب المجلة يحرص على بقائه لأنه كان دعامة من دعائم رواجها وذيوعها بين الناس .

وتولى حسين شفيق المصري رياسة تحرير مجلة «كل شيء والعالم» التي كانت تصدرها دار الهلال، وفي دار الهلال حلق الرجل بفنه ، ووجد المجال رحبًا لاستخدام كل مواهبه وملكاته. على أن آثاره القلمية والفكاهية كانت لا تنقطع عن النداء في أي يوم رأى أصحاب المجلات الجادة والهزلية كانوا يحرصون عليها على أنها لون له أثره في رواج هذه المجلات » ثم انتهى به المطاف رئيسًا لتحرير مجلة الفكاهة التي كانت تصدرها دار الهلال عام ١٩٢٧ التي تجلت فيها مواهبه في كتابة الشعر الفكاهي الضاحك .

***

النكتة كما فسرها علماء النفس والفلاسفة ، إنما هي محاولة لإعادة التوازن داخل النفس المضطربة القلقة ، التي هزتها أحداث زعزعتها عندما وقعت خارجها ونفذت إليها، فرأت تلك النفس أن تستعيد توازنها بالضحك أو افتعاله . وذلك حسب تحليل السفير الشاعر أحمد عبد المجيد الذي يرى أن الإنسان الضاحك ، أو الذي يصنع الضحك ، هو إنسان رقيق المشاعر مرهف الحس فالإنسان الضاحك ، على قدر استجابته للضحك ، أو قدرته على إثارته ، نراه سريع الاستجابة للبكاء إن دعا داعيه ، أو حدث ما يحمله عليه ، فهو مرهف الحس كقول شاعر لماح:

إذا أنا لم أضحك فقدت مشاعري

وإن أنا لم أحزن فقدت شعوري

وقد كان حسين شفيق المصري شاعرًا فكاهيًا من الطراز الأول ، نظم أعذب قصائد الشعر الفكاهي الضاحك وأطلق عليه «الشعر الحلمنتيشي » حيث كان يعارض مطالع القصائد القديمة بقصائد فكاهية ضاحكة فبدأ

بمعارضة «المعلقات السبع» التي نظمها بعض الشعراء الجاهليين بقصائده «المشعلقات» ، ثم نظم قصائد أخرى يعارض بها القصائد المشهورة في الشعر العربي كله، قديمه وحديثه وسماها «المشهورات» .

وقد بدأ مشعلقاته بمعارضة المعلقة المشهورة للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد التي مطلعها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

فعارضها حسين شفيق بقوله :

لزينب دكان بحارة منجد   تلوح بها أقفاص عيش مقدد
وقوفًا بها صحبي على هزارها   يقولون لا تقطع هزارك واقعد
أنا الرجل الساهي الذي تعرفونه   حويط كجن العطفة المتلبد
فلما تناغشنا الغداة وهزرت   معانا وأعطتنا «برولا» بموعد
فأقبل زوج البنت يلعن أمها   ويسعى إلينا بالمداس المهربد

أما شعره الحلمنتيشي ، فهي قصائد فكاهية على أوزان القصائد المشهورة ، فعارض قصيدة شرف الدين عمر بن الفارض التي مطلعها :

سائق الأظعان يطوي البيد طي   منعما عرج على كثبان طي

فقال حسين شفيق يعارضها :

وإذا لاقيت من أهواه قل   للذي أهواه من يهواك جي
إنني اشتقت إليه وأرى   من هواه النار تشوى القلب شي
في فؤادي لحبيبي عزبة   زرعت شوقًا وفيها الدمع ري
وبأرض الحب أشجار لها   ثمر يأكله المشتاق ني
إنني من وحشتي في ظلمة   ومحياه كلوب فيه ضي

وله في العيد عندي بدلة ... وقفت بالخمسميت قرش على

ويعارض قصيدة جرير التي مطلعها :

أقلي اللوم عازل والعتابا ... وقولي أن أصبت لقد أصابا

فقال حسين شفيق بأسلوبه الساخر اللاذع :

أفستانان في شهر وهذا ... عليّ الثوب من عامين ذابا

تريد ملابسًا في كل يوم ... وقد ملأت ملابسها الدولابا

وهذا البالطو ألبسه زمانًا ... طويلاً حتى شعر البالطو شابا

يا ستي يا عيني يا روحي قولي لي ... أما تدرين أنا «ناس غلابا»

دنا ماهيتي «يا دوب» تكفي ... ألم نعقل وقد شفنا العذابا

وليس أبي وليس أبوك باشا ... فلا تتعنطزي وتقولي «بابا»

أليس أبوك غلبانًا كحالى ... وفي الأعياد ما أكل الكبابا

«فلايميها» ودينك وارحميني ... من المصاريف تقلت والحسابا

ويذكر مؤرخه وتلميذه محمد عبد المنعم «أبو بثينة» أنه كان من أبر الناس بأهله ، وكان من أبرز خلاله الكرم البالغ إلى حد الإسراف ، وما كان يحب أن يرد سائلاً ولو علم أنه غير محتاج ، وكثيرًا ما كان يعطي كل ما معه وينقلب إلى بيته لا يملك قرشًا واحدًا .

وكما كان مسرفًا في ماله كان مسرفًا في صحته في شبابه ، ولما تجاوز الأربعين تزوج ثم طلق ولم ينجب ، وأقلع عن كثير مما كان يوقعه إليه طيش الشباب ، وكان في قلبه رأفة ورقة ، وكانت دموعه قريبة .

وعندما رحل عن دنيانا يوم الخميس ٣٠ سبتمبر عام ١٩٤٨ بداره بحي السيدة زينب لم يترك مالاً ولا عقارًا ، ولكنه ترك ثروة شعرية وأدبية نفيسة ستظل ذخيرة ومدرسة في أدب الفكاهة الرفيع ، وفن الإضحاك الراقي رحل عن دنيانا وعلى شفتيه بسمة كبيرة ، وفي قلبه أسى دفين ، وهو يهمس لمن حوله .

لم تـدع لي الأيـام دمعًـا يـراق ... فبكـائي الـذهول والإطـراق

ويطـاق الحـزن الـذي يلـد الـدمع ... ولـيس الحـزن العقـيم يطـاق

مـا بقـائي مـن بعـد خـيرة قـومي ... وثـوائي وكـل يـوم فـراق ؟

ومن أبدع مشعلقاته معارضته لقصيدة أبو العتاهية :

ألا مـــال ســـيدتي ماهلـــا ... أدلا فأحمـــل إدلالهـــا ؟

فقال حسين شفيق :

أظـــن الوليـــة زعلانـــة ... ومـا كنـت أقـصد إزعالهـا

أتـى رمـضان فقالـت هـاتولي ... زكييـة نقـل فجبنـا لهـا

ومـن قمـر الـدين جبنـا ثـلاث ... لفـائف تتعـب شـياالها

وجبـت صـفيحة سـمن وجبـت ... لـوازم مـا غيرهـا طالهـا

فقـل لي عـلي إيـه بنـت الـذين ... بتـشكي إلى أهلهـا حالهـا ؟

تقـول لهـم جـوزي هـذا فقـير ... كـإني أضـعت لهـا مالهـا

ولا والنبـي لا أخـاف أباهـا ... ولا عمهـا . لا ولا خالهـا

ولـو كـانوا ناسًـا مـن اللي في بـالي ... لمـا سـمعوا قـط أقوالهـا

دي جارتهـا قـد زعّلـت زوجهـا ... فجـاب العـصاية وأدي لهـا

وقـد عميـت بعـد مـا سـابها ... وشـافت مـن الـدنيا أهوالهـا

فـإن عملـت مثلهـا زوجتـي ... فـإخص عليهـا ــ وعقبـي لهـا

أتـدرون مـاذا أثـار الخنـاق ... فزلزلـت الأرض زلزالهـا

تريـد الـذهاب معـي للتيـاترو ... وتطلـب منـي إدخالهـا

وكيـف أروح معاهـا التيـاترو ... وإزاي أقبـل إرسـالها

يـرون عليهـا ثيابًـا قـصارا ... تـدوخ إذا شـفت أشـكالها

ودينـــي يـــا إمـــا بـــلاش التيـــاترو　　　　يـــا إمـــا تطـــول أذيالهـــا

وعارض قصيدة محمود سامي باشا البارودي في قصيدته :

ســواي بتحنــان الأغاريــد يطــرب　　　　وغــيري باللــذات يلهــو ويلعــب

فقال حسين شفيق في مشعلقته:

وأجلـس وحـدي ع القـراءة عاكفًـا　　　　ولي لمبــة فيهــا شريــط ملهلــب

أمقــق عينــي طــول لــيلي ولمبتــي　　　　مــسورقة والــسقف منهــا مهبــب

وآكــل مــشًا فيــه أحــدق جبنــة　　　　مفلفلــة منهــا دمــوعي تــشلب

ولــيس ســميري غــير قلــة ميــة　　　　مزفتــة فيهــا خــروق تــسرسب

ولــولا مجــور تحتهــا ســاح ماؤهــا　　　　علىّ فأمست بـدلتي وهـي مركـب

وعارض قصيدة ابن هانيء الأندلسي بهذا الشعر الحلمنتيشي :

أســهام لحظــك أم ســيوف أبيــك　　　　وكئــوس خمــر أم مراشــف فيــك

فقال حسين شفيق :

يــا بنــت زي البنــك الكثــير فلوســه　　　　لم تعجبــي أحــدًا فــما خطبــوك

أكــلام مــسخرة وجهــل فاضــح　　　　لا أنـــت فالحـــة ولا أهلـــوك

المــال يــذهب والجهالــة وحــدها　　　　تبقــى وبختــك بالعــصى يــديك

الخـــاطبون عـــلى ســـنية أقبلـــوا　　　　يتـــسابقون وأنـــت قـــد تركـــوك

عبد السلام شهاب

شاعر «البعكوكة» الساخر!



تميز الشاعر الساخر عبد السلام شهاب (١٩٠٦ ـ ١٩٧٧) بنقده اللاذع من خلال شعره الحلمنتيشي الساخر الذي وظفه كسلاح ضد الجهل والتواكل والسطحية والفساد، حيث تميز شعره بالبساطة وبتلك الكلمات المعبرة التي تجمع بين الفصحى والعامية في مزاج لطيف لتحقق هدفها المنشود في النقد الهادف بأسلوب ساخر مرح.

أنظر له وهو يكرر كلمة «كده» في عدة معان مختلفة ليصور بها حياتنا بأسلوبه اللاذع الساخر:

احنا كده .. دايمًا كده

نعمل كده .. ونقول كده

ونقول كده .. ونعمل كده

كنا كده .. واليوم كده

بكره كده .. وبعده كده

هنعيش كده .. ونموت كده

طب ليه كده .. يحصل كده
لا نطول كده .. ولا كده
واحنا كده .. بس كده ؟
ده احنا كده .. وستين كده !

وتستمر القصيدة الملغزة تشير إلى جميع عيوب المجتمع دون أن تفصح عن شيء محدد ، ودون أن تسمى العيوب بأسمائها..

ومن معارضاته لقصائد الشعر الكلاسيكية قوله :

أكاد أشك في نفسي لأني
لأول مرة أمشي أغني

وقوله :

ألا في سبيل العيش ما أنا فاعل
أديب وبلياتشو وحاوي وفاعل
هنا في يدي يا خلق سبع صنائع
ولكنني للهم لا ألمم شايل
تعد ذنوبي عند قومي كثيرة
ولا ذنب لي إلا الذي هو حاصل

وله أيضًا :

قالوا أحلت إلى المعاش
فقلت عاش العدل عاش
بعد اثنتين وأربعين .. من الشقا
ما بدهاش

ولد عبد السلام الحسانين شهاب في مدينة طنطا في ٢٢ يونيه ١٩٠٦ ومنذ صغره بدأ يقرأ الشعر ويترنم به ، ثم بدأت محاولاته الأولى في كتابه الشعر وإرساله إلى بعض الصحف والمجلات في القاهرة وبعد أن أتم دراسته بالمرحلة الابتدائية بطنطا قرر أن يستكمل دراسته بالقاهرة .

ذات صباح بارد هبط عبد السلام شهاب محطة القاهرة لأول مرة قادمًا من طنطا ليلحق بالأزهر .. واكتشف الشاب العمم بعد أن قضى شوطًا طويلاً في دراسة علوم اللغة والدين ، أن نداء الفن أقوى من رغبة الأهل في أن يصبح شيخًا من شيوخ الأزهر ، فتسلل منه إلى عالم الصحافة والأدب ، ونشر بعض أشعاره الفكاهية في مجلة «الكشكول» فعرفته الأوساط الصحفية .. وتلقفه أصحاب المجلات الأسبوعية .. فلم تمض سنوات حتى كان شهاب يكتب وينشر في كل المجلات التي تصدر في القاهرة في وقت واحد .. ويبلغ أقصى شهرته حين تولى رئاسة تحرير مجلة المطرقة الفكاهية في بداية ثلاثينيات القرن العشرين .. فملأها بأشعاره وكتاباته الساخرة .. وأطلق عنان قلمه الساخر يهاجم استبداد حكومة صدقي وينتقد إلغاء دستور ١٩٢٣ ، ويتمادى شهاب في الهجوم اللاذع .. فتضعه حكومة إسماعيل باشا صدقي في السجن مع عدد كبير من الصحفيين لأكثر من عامين .. يخرج بعدها ليواصل كتاباته في كل المجلات الأسبوعية المعروفة .

كان عالم الصحافة الأسبوعية في ذلك الوقت عالمًا غريبًا .. مجلات عديدة يصدرها أشخاص من غير الصحفيين .. بل ومن غير المثقفين .. يستصدر الواحد منهم رخصة لإصدار المجلة ويتولى الإنفاق عليها .. ولا يكتب حرفا واحدًا فيها .. ويتفرغ لجنى الأرباح والإعلانات والاشتراكات .. أما مواد المجلة فأمرها هين .. ، في ليلة طبع المجلة كما روى شهاب .. يطوف صاحبها بمقاهي العتبة والفجالة في عربة «حانطور» يبحث عن شهاب ووليم باسيلي ويونس القاضي ورخا .. وينتزعهم من مجالسهم انتزاعا .. ثم يمر بالحانطور على

الحاتي ومحلات البقالة فيشتري كميات من الكباب والكونياك والسجائر ، ويقود المجموعة إلى مقر المجلة ، ثم يدفع الكتاب والفنانين إلى داخل الدار ويعطيهم الأوراق والكلام .. ثم ينصرف بعد أن يغلق عليهم باب المجلة بالمفتاح لكي لا يتسللوا خارجين منها .. ، ويعود إليهم في الصباح فيجد كل مواد المجلة ومقالاتها ورسومها قد كتبت ، وشهاب ورخا وباسيلي مستسلمون لنوم عميق بعد سهرة امتدت للصباح .. فيحمل الأوراق إلى المطبعة وتخرج المجلة إلى النور وتتكرر نفس القصة بكل تفاصيلها في الأسبوع التالي .. وقد تتكرر بنفس التفاصيل بعد يومين مع صاحب مجلة أخرى !

ضاق شهاب ووليم باسيلي مرة بمراوغات صاحب مجلة من هذا النوع .. اعتاد أن يماطلهما في دفع قروشهما القليلة عن كتابة كل مواد المجلة .. في الوقت الذي يجني المكاسب والأرباح.. فاتفقا في نزوة من نزوات الفنانين على أن يثأرا منه .. وكان معروفًا بجهله وبأنه لا يقرأ مواد المجلة قبل الطبع .. وفي الأسبوع التالي استجابا بغير ممانعة لدعوته إلى السهر في دار المجلة لإعداد موادها .. ونهضا معه على الفور وركبا عربته .. وانطلق الحانطور في دورته التقليدية حتى وصل إلى المجلة .. وانصرف صاحب المجلة بعد أن أغلق الباب كالعادة .. وجاء في الصباح فوجد كل مواد المجلة مكتوبة ولاحظ سعيدًا أن صفحاتها تزيد على صفحات الأعداد الماضية ، فاستبشر خيرًا بمزيد من الأرباح .. وتهرب كالعادة من دفع باقي المستحقات ، واعدًا بمزيد من الأجر في المرة القادمة .. وأسرع يقدم مواد المجلة للمطبعة .. وصدرت المجلة .. فإذا كل ما فيها ، من الغلاف حتى الغلاف الأخير بالمقال والشعر الفكاهي ، هجوم عليه ، وتنديد بجهله وبخله وطمعه وأساليبه غير الشريفة في الابتزاز والتهديد بالنشر !

واختفى شهاب ووليم باسيلي لعدة أيام قبل أن يعثر عليهما صاحب المجلة .. والغريب أنهما تصافيا معه .. وعادا للكتابة في مجلته .. وعاد هو مرة أخرى إلى مراوغاته وإن كان قد أصبح يحرص على قراءة المواد قبل الطبع خشية أن تكون هجوما عليه !!

ومضت أيام العمر ... وشهاب يكتب عيون الشعر الفكاهي في المجلات الأسبوعية والغريب أن شهاب لم يسع يومًا واحدًا لكي يصنع لنفسه الشهرة التي تتناسب مع موهبته الفريدة ولا مع مكانته كعملاق من عمالقة الشعر الفكاهي يطاول في رأي الكثيرين هامة حسين شفيق المصري وبيرم التونسي ومحمود رمزي نظيم وغيرهم من عمالقة هذا الفن النادر .

فرغم سنوات عمره التي امتدت حتى السبعين لم يسع مثلاً لإصدار ديوان يجمع قصائده المبعثرة في المجلات الفكاهية في الثلاثينيات والأربعينات .. ولم يسع أبدًا لكي يقدم أشعاره لبرامج الإذاعة والتليفزيون ولم يفكر كذلك وهو غريب حقًا في أن يكتب كلمات الأغاني وهو قادر على ذلك بل وكان صديقًا للفنان زكريا أحمد. وفي هذا المجال يؤكد الفنان رخا أن عزوف شهاب عن تأليف الأغاني لزكريا وأم كلثوم كان بسبب حرصه الغريب على ألا يثير حساسية صديقه بيرم التونسي الذي كان لا يحب أن ينافسه في أغاني زكريا وأم كلثوم .. وهو سبب يبدو غريبًا في عالمنا الآن، لكنه ليس بغريب أبدًا على نفس ذلك الفنان العجيب عبد السلام شهاب .

بل لعله من شبه المستحيل أن نصادف فنانا يشهد المتخصصون له بإبداعه في فنه يخلو تمامًا من إعجاب الفنان بفنه أو من نرجسيته كما كان يصنع وبغير ادعاء «عبد السلام شهاب» فهو يقابل صيحات الإعجاب التي تنطلق من مستمعي قصائده بتواضع عجيب .. ثم لا يتردد في أن يقدم قصائده لمن يطلبها بغير أن يهتم حتى بنسخها أو بالاحتفاظ بصورة منها . وكتب مرة قصيدة رائعة عن جرائم التعذيب .. لا أذكر منها سوى عنوانها «ناس ليسوا من الناس» قرأها علينا يوما في حديقة نقابة الصحفيين ، فطرب لها أشد الطرب الكاتب الفنان عباس الأسواني ، فطلب أن يحتفظ بها فأعطاها له على الفور .. وحين سألته بعد أيام عن صورة لها أجاب ببساطة أنه لا يحتفظ لها بأصل ! وما زال أصل القصيدة حتى الآن ضائعًا . وكتب قصيدته المشهورة التي يسخر فيها من كل شيء في الحياة وعنوانها «كده» فحفظها البعض وتناسخها الزملاء .. أما أصلها فلم يحتفظ به شخص محدد .. وكان يكتب الشعر الفكاهي الجيد .. في أي مكان في مقهى بلدى مزدحم بالرواد .. أو في مكتبه بجريدة الأهرام في لحظات الفراغ القليلة من العمل أو في الأتوبيس .. وكان يكتب الشعر في سرعة عجيبة ..

لا يتوقف .. ولا يعاني .. ولا يشطب غالبًا كلمة[1].

وكتب مرة في مقهى بباب اللوق وفي وقت قصير قصيدة جديدة سيلقيها بعد دقائق في اجتماع رابطة الزجالين في مقر الجمعية النوبية بعابدين ، سمعتها مع السامعين في الجمعية .. فالتهبت أكف الحاضرين وكلهم شعراء .. لكلماتها الرقيقة وقد ضاعت أيضًا فيما ضاع .. ولم يبق منها سوى البيت الذي لم أنسه منذ سماعه ..

قلت كثير في زماني   بس زماني ما انصفنيش !

لعلها المرة الوحيدة التي سمعت فيها هذه النغمة الحزينة في أشعاره أو أحسست بهذه المرارة في كلماته ، فلقد كان إنسانًا من طراز فريد ، يعيش في سلام نفسي عجيب .. راض دائمًا بكل شيء وبأي شيء .. لا يقارن نفسه بأحد ولا يقارن نصيبه من الدنيا بنصيب غيره من أدعياء الفن الذين تغدق عليهم الدنيا.

وتمضي سنوات العمر .. وشهاب يعيش حياته الهادئة يتبسم دائمًا لكل شيء .. كأنه يغفر للدنيا في تسامح ما لقيه من تجاهل لمواهبه فيها .. يملأ حياة الأصدقاء بهجة بأحاديثه ، وهو عملاق من عمالقة فن الكلام ، كما كان عملاقًا من عمالقة فن الشعر الفكاهي .. ثم يتساقط الأصدقاء من حوله .. ويموت زكريا ... ويموت بيرم .. ويموت أمين فهمي ... ويموت كثير من الأحياء.. فيسعى وراءهم شهاب يودعهم وهو يحس مع كل راحل أنه قد مات منه جزء من جسده ومن روحه .

ثم تأتي ساعة الرحيل .. بعد يوم واحد من سعيه وراء الصديق الراحل المرحوم محمود عبد العزيز مدير تحرير الأهرام .. فيعود شهاب إلى بيته بعد أن أصر على أن يودع محمود عبد العزيز حتى اللحظة التي يغيب فيها تحت باطن الأرض .. فيقول لمن حوله لقد اكتشفت اليوم أن الموت ليس مخيفًا كما كنا نظن .. ويمضي سهرته ضاحكًا مثيرا حوله الضحكات والبسمات ثم يدخل ، سريره ويغمض عينيه للأبد ويسترجع الكاتب الساحر أحمد بهجت ذكرياته مع عبد السلام شهاب أو كما سماه «عمو شهاب» ، فيقول :

---

(١) مجلة الشباب ، عدد نوفمبر ١٩٧٨ ، فنان الشعب المجهول بقلم عبد الوهاب مطاوع.

كان وجهه من الوجوه المميزة ..

أما ملامح الوجه فكانت حادة وطيبة في نفس الوقت .. أما رأسه فلم يكن الناظر إليه يعرف من أين تبتديء ولا أين تنتهي .

كان رأسه ضخمًا ومستطيلاً في نفس الوقت ..

إن مؤخرة رأسه وحدها مثل رؤوس غيره من الخلق ، أما مقدمة رأسه فكانت بارزة هي الأخرى كأنها رأس وحدها .. باختصار كانت له رأسان .. وكان له عقلان .. وكان لابد لمن هو في مثل حكمته أن يكون له عقلان عقل يتصرف به في شؤون الدنيا والمعاش ، وهذا عقل عاقل أوتى الحكمة ..

وعقل آخر يتصرف به في شؤون الشعر .. وهذا عقل شاعر له أجنحة من الخيال يحلق بها في سماء المعاني أو أرضها .. هذا هو الشاعر عبد السلام شهاب ..

أما الشعر الذي تخصص فيه وأجاده فكان هو الشعر الحلمتيشي .. والشعر الحلمتيشي تعبير عامي مصري عن الشعر الساخر الهازئ الذي ينظر إلى الدنيا أساسًا بمنظار السخرية..

كان عم عبد السلام شهاب شاعرًا من شعراء السخرية الكبار .. وكان رغم خضوعه لمنطق الشعراء اللامنطقي .. يختلف عنهم كثيرًا ..

إن المعروف عادة عن الشعراء أنهم محبون للظهور .. يؤثرون الشهرة على الاستقرار ..

أما عبد السلام شهاب فكان على العكس من ذلك .

كان رجلاً لا يعبأ بالشهرة .. ويفضل عليها الاختباء والإستتار .. وكنت أحدثه دائمًا بقولي .

ـ يا أستاذ شهاب .. لقد قلت مئات القصائد الساخرة العظيمة ولكنك حتى الآن لم تنشر ديوانا لشعرك .. وهذا تقصير مخيف .. إن الأجيال القادمة لن تعرفك .. وسيضيع بموتك جزء من تاريخ الأدب العربي ..

كان يقاطعني بلطف ويشيح بيده إشارة تقول أنه لا يعبأ كثيرًا أو قليلاً

بموضوع الأجيال القادمة أو تاريخ الأدب العربي ..

هل كان عبد السلام شهاب صوفيا من داخله .. يؤثر الاستتار على الاشتهار .. أغلب الظن أنه كان كذلك ..

إذا كان الصوفي هو من صفا قلبه لله ، واستوى عنده الحجر والماس ، فكذلك كان عمو عبد السلام شهاب ..

كان هينا لينا رقيق الإحساس عذب المشاعر لا يعرف حقًا لنفسه ولا يسعى نحو المقاعد الأولى في الدنيا شأنه شأن الموهوبين حقًا ..

أول مرة شاهدته فيها كان يعمل في قسم المراجعة بالأهرام .. وكنت قد قصدت القسم لعمل .. فجلست معه وتحدثت وطالت جلستي وانعقد بيننا رباط الصداقة والحب ..

من يومها لم أفارقه حتى ودع الحياة وترك فيها فراغًا يصعب أن يسده أحد .. كنا ننصرف من الجريدة إلى بيتي ، أو إلى أي مقهى ، أو إلى بيت صديق .. المهم أن يكون عم شهاب موجودا ..

كان نجم الجلسة سواء تكلم أم صمت .

كنا نتحدث حوله ونختلف ويعلو صوتنا وهو جالس يرقب ما يجرى بابتسامة ، حتى إذا سألناه رأيه قال شيئًا يمكن أن يكون جوابًا ويمكن ألا يكون جوابًا .. لم أره خلال الثلاثين عاما التي عرفته فيها غاضبًا .. أو ثائرًا .. أو حاقدًا .. كان كالأرض الطيبة التي يمشي عليها البر والفاجر فتحتملهما معا ولا تضيق بهما .. وكان إذا تحدث نظر إلى الدنيا من خلال زاوية ساخرة أو مضحكة .. ولكم كان يدهش أصدقاءه بقدرته على تجاوز متاعب الدنيا وصعابها بهذه الأريحية والكرم ..

* * *

في الثلاثينات .. كان عبد السلام شهاب يعمل في جريدة ساخرة تسمى المطرقة وكان اسمها كما يوحي العنوان مطرقة من الحق الذي ينزل على الباطل فيطططه ..

كان الرأي العام في مصر يسعى نحو الدستور ، وكانت الحكومة تؤجل إصداره وتسوف فيه وتعد ولا تفي ..

وفي يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣٥ نشرت المطرقة زجلاً لعبد السلام شهاب يقول فيه :

فيه صبر إيه بعد ده لسه كمان قول لي
دا الصبر مرر قوي .. والله يا خلي
وكفاية كل اللي فات من لوعتي وذلي
تقول لي بكره وبكره تقول لي طب بعده
وبيجي بعده كمان ترجع تقول بعده
وايش بعدها يعني والدستور على بعده
والعمر إيه كله .. دي أيام وبتولي!

قبل ذلك بعامين .. كتب قصيدة نارية بعنوان ترقيع وزاري ..

وكانت القصيدة ـ باللهجة العامية ـ قد صدرت بمناسبة ترقيع وزارة إسماعيل صدقي المعادية للشعب ، وانشقاق ثمانية من أعضاء حزب الأغلبية .

وكعادته بدأ القصيدة ببيت من الشعر العربي القديم للمتنبي:

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد

فكتب يعارضها ساخرًا:

أما الوزارة فالترقيع بهدلها ... وكل أيامها غلب وتنكيد
رئيسها صدقي باشا في إدارتها ... طهقان تعبان لا رجل ولا إيد

لا المنزلاوي ولا العلام صاحبه ... قد ريحاه ولا ابن القيس محمود

يعني وجودهمو أو لا وجودهمو ... سيان ، والقصد للخانات تسديد

قالوا نكيد زعيم الشعب قلت لهم ... إن كان في وشكم دم له كيدوا

كان عم عبد السلام شهاب يكتب شعرًا عموديا عاميًا .. وكان هذا جزءًا من قدراته الخارقة في الكتابة .

والأصل أن الشعر العمودي لا يكون إلا عربيًا فصيحًا .. أما الزجل فيمكن أن نكتبه بالعامية.. وهنا يصعب كثيرًا على الشاعر أن يكتب الشعر العمودي ولكن عم شهاب كان يفعل هذا ببساطة ..

وكان يستخدم في شعره العامي تعبيرات لا يعرفها إلا سكان الأحياء الشعبية في قاع المجتمع..

* * *

كتب يهاجم الذين يعارضون زعيم الوفد يومئذ قصيدة بعنوان «غجر يشلقون» بدأها بقول الشاعر القديم :

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم ... وزال عنك إلى أعدائك ، الألم

لولا جهادك ما كانت معاهدة ... ولا بأمتنا استعنت الأمم

يا باعث الجيش من ظلماء تربته ... فقام من نومه في كفه العلم

وعاد ينشر في السودان رايته ... وقوله الحق عند الكل محترم

يا ملغيا لامتيازات الأجانب لا ... والله ما فيك عيب غير أنهمو

لا يغضبنك منهم أنهم غجر ... يشلقون .. فكم من قبلك انشتموا

لا تكره العين إلا كل مرتفع ... عنها .. والله - طبعا - في كدا حكم

فدًا النعل حذاء أنت لابسه ... تلك الطرابيش فوق الروس والعمم

الرأس من غير مخ زي قلته ... ولست تلقاه يوما وهو منسجم

كان الشاعر عبد السلام شهاب يفيض بالمرح الداخلي العميق كما يفيض المصباح بالضياء .

ذهب يومًا يشتري طربوشًا .. وكان رأسه غريبًا وسط الرؤوس وكان يعذبه كثيرًا أن يشتري الطربوش .. فهو مضطر للبحث عن مقاس لرأسه غير مقاسات بقية الناس ..

أخيرًا عثر على طربوش يليق برأسه ويغطيها ..

سأل بائع الطربوش : بكم .

قال البائع وهو يتأمل رأسه ـ بجنيه ونصف ..

كان ثمن الطربوش أيامها عشرين قرشًا أو خمسة وعشرين قرشًا .. ودهش لأن الطربوش غال لهذا الحد ..

سأل البائع : لماذا يرتفع سعر هذا الطربوش لهذا الحد .

قال البائع : رأسك يا سيدي ليست عادية ، ولن تجد في مصر كلها طربوشًا يصلح لك غير هذا الطربوش .. هذا الطربوش في الدكان منذ سنين ولا أحد يشتريه .. ضحك عم شهاب وقال للبائع . انظر إلى الموقف من زاوية جديدة .. أنت تعرف أن الطربوش ظل في دكانك سنوات دون أن يشتريه أحد ، المفروض أن تخفض سعره لي .. لو ظل في دكانك فلن يباع .

تأمل بائع الطرابيش الموقف على هذا الضوء الجديد وباع الطربوش لشهاب بأقل من ثمنه ..

كان عم شهاب محبًا وكان له رأيه الخاص في الحب ..

سنة ١٩٣٩ كتب قصيدة في المطرقة بعنوان «الهوا بلا» .. قال فيها :

مال واحتجب .. وادعى الغضب
بائخ قوى .. شأنه عجب

ال وشـــه .. هكـــذا انقلـــب
بعـــد مـــا أتـــى .. عـــاد فانـــسحب
هـــل لكـــل دا .. والنبـــي ســـبب
إننـــي أنـــا .. شـــاعر العـــرب
فـــوق جبهتـــي .. فقـــرى انكتـــب
في مـــصائبي .. تـــاه مـــن حـــسب
بيـــت حـــضرتي .. م الهـــوى اتخـــرب

ويمضي في قصيدته حتى يصل إلى قوله :

والهـــوى بـــلا .. يـــشبه الجـــرب
فيـــه أزمـــة .. تـــورث التعـــب
لـــو رأيتنـــي .. لـــصت للركـــب
شـــفت عاشـــقًا .. عقلـــه انجـــذب
مـــن هيامـــه .. دمـــه هـــرب
لـــون وجهـــه .. شـــابه الـــذهب
هكـــذا الهـــوى .. تركـــه وجـــب
طـــول عمـــره .. يعـــوج الـــضبب
لـــو هويتـــه .. أحلـــق الـــشنب

كان يجيد الشعر العامي والزجل والشعر العمودي ، وكان يرى أن في يده أكثر من صنعة ولكن القضية كلها تتلخص في البخت المائل .. كتب قصيدة بعنوان «البخت المائل» في المطرقة سنة ١٩٤١ .. قال فيها :

ألا في ســـبيل الله مـــا أنـــا فاعـــل
أديب ، وبلياتشو .. وحاوي .. وفاعل
هنا في يدي - يا خلق - سبع صنائع
ولكننـــي للهـــم ـــ لا ألـــم شـــايل

تعـــد ذنـــوبي عنـــد قـــومي كثـــيرة
ولا ذنـــب لي إلا الـــذي هـــو حاصـــل

واعتبره الكاتب الصحفي عبد الوهاب مطاوع آخر عمالقة دولة الشعر الفكاهي الساخر، ويستعيد ذكرياته معه، فيقول:

جمعني العمل في الأهرام مع عبد السلام شهاب لسنوات طويلة .. لكني لم «أكتشفه» إلا بعد عدة سنوات في مكتب الأديب الفنان أحمد بهجت ..

وبدت لي صورته حين رأيته لأول مرة .. هكذا [1].

رجل صامت يعطيك أول لقاء معه الانطباع بأنك أمام إنسان .. مريح .. تحس بالراحة لمجرد رؤيته، ثم تكتشف بمرور الأيام أن وراء هذا الرجل الصامت دائمًا تاريخًا طويلاً يفخر به أي إنسان لكنه يعزف دائمًا عن الحديث عن نفسه.

تكتشف مثلاً أنه أخر العمالقة الأحياء في دولة كانت مزدهرة في عشرينيات القرن العشرين حتى أربعينياته في مصر .. هي دولة الشعر الفكاهي التي كان من أعلامها حسين شفيق المصري وبيرم التونسي..

وقد كان صحفيًا بارزًا في الثلاثينات، من أعلام مدرسة الصحافة الفكاهية التي كانت مزدهرة في ذلك الوقت، ورأس تحرير مجلة «المطرقة» لعدة سنوات وانهال، بمطارق قلمه الساخر على حكومة إسماعيل صدقي التي ألغت الدستور، فتسجنه حكومة صدقي في «قره ميدان» مع غيره من الصحفيين لأكثر من عامين .. فيتحول السجن الكئيب إلى سيرك بفضل مداعباته وقصائده الفكاهية التي تصور شخصيات مأمور السجن والمسجونين معه في قضايا الرأي، كالفنان رخا رسام الكاريكاتير العبقري.

ونكتشف أن هذا الرجل الصامت هو واحد من القلائل الذين يمكن أن يطلق عليهم عبارة «فنان الكلام» الذين يختفي الإحساس بالزمان والمكان معهم إذا تكلموا، فهو مخزن ذكريات لا ينضب من الفن والصحافة .. وهو إذا تكلم فقدت الرغبة في أن تنهض لأداء

(١) مجلة الإذاعة، ٣٠ سبتمبر ١٩٧٨.

عمل أو تنصرف لأداء مهمة .. وتحس أنك تحلق معه في سماوات علا . لا تريد أبدًا أن تهبط منها !

ثم هو إلى كل ذلك .. صاحب إطلاع واسع على التراث العربي وحجة في اللغة العربية ، استمد ثقافته اللغوية العميقة من تعليمه الأزهري .. ومن سنوات عمله الطويلة في مراجعة وتحقيق كتب التراث .

كان الخل الوفي للفنان زكريا أحمد والصديق الذي لا يفارقه زكريا .. وكان زكريا عملاقًا من عمالقة فن الكلام . ومن أعلام دولة الظرفاء .. في عصره .. فكانت لقاءاتهما «محاضر» غير مكتوبة لفن ذوي واندثر هو فن الكلام ..

روى لي مرة الفنان رخا .. أنه دعى مع زكريا وشهاب لعشاء في بيت زميل صحفي ، وتجمع الأصدقاء في بيت الداعي .. ومدت المائدة فلم يقرب الأصدقاء الطعام والشراب انتظارًا لزكريا وشهاب اللذين تأخرا أكثر من ساعتين عن الموعد ، وقلق الأصدقاء .. فليس من عادة زكريا وشهاب أن يتجاهلا دعوة صديق .. فلابد إذن قد حدث طاريء أعاقهما عن الحضور ..

وفجأة لمعت في رأس رخا فكرة فقال للأصدقاء .. أراهن أننا لو فتحنا باب الشقة الآن لوجدنا زكريا وشهاب مستغرقين في الحديث .. وفي انتظار أن ينتهي حديثهما قبل أن يطرقا الباب .. وأسرع صاحب البيت يفتح الباب ففوجيء بزكريا وشهاب واقفين على بسطة السلم منذ أكثر من ساعة غارقين في حديث ضاحك ينتظران انتهاءه لكي يدخلا شقة الداعي !

وكان شهاب يقول عن زكريا أنه طراز عجيب من البشر .. أن عرفته أحببته .. وإن أحببته عاشرته .. وإن عاشرته لازمته .. وإن لازمته فقدت الرغبة في أن تفعل أي شيء أو تؤدي أي عمل سوى البحث عن زكريا ومصاحبته والاستماع إليه .

وكان زكريا يقول عن شهاب أنه إنسان ساحر قد يجلس بجوارك صامتًا فتمضي الساعات لا تكاد تحس به .. فإن انصرف أحسست أنك فقدت الرغبة في البقاء في المجلس .. وتمنيت أن تلحق به حيث ذهب .. وهو ساحر الكلام ..

لماح .. يحرص على إرضاء الناس ولو على حساب نفسه.. وينكر ذاته إرضاء لغيره ..

وفي هذا المجال أذكر أني تساءلت مرة مستغربًا كيف يكون شهاب عملاقًا من عمالقة الشعر العامي وصديق زكريا الأول .. ولم يفكر يوما في أن يكتب كلمات أغنية يلحنها زكريا وتغنيها أم كلثوم أو غيرها ..

فقال لي رخا قد لا تصدق إذا قلت لك إن شهاب تجنب طوال حياة زكريا وبل ورفض أن يكتب الأغاني .. لكي لا يفقد صداقة بيرم التونسي الذي كان يكره أن ينافسه أحد في أغاني زكريا وأم كلثوم .

واعترف أني لم أقتنع فعلا .. بهذا المبرر الغريب حين سمعته لأول مرة لكنني اقتنعت به حين توثقت علاقتي بشهاب واقتربت من أعماق نفس هذا الفنان الغريب .

فلعلي لم أعرف على مر السنين فنانا ينكر ذاته وموهبته .. ويعامل موهبته بلا مبالاة غير مفهومة كعبد السلام شهاب ..

فهو مثلا على طول العهد الذي مارس فيه كتابة الشعر الفكاهي .. والشعر التقليدي والشعر الغنائي وعلى غزارة إنتاجه منه .. لم يفكر مرة واحدة ولم يسع لإصدار ديوان أو دوواين تحفظ أشعاره من الضياع في الوقت الذي امتلأت فيه رفوف المكتبات بدواوين أدعياء الشعر العامي .. والعجزة من حفظة عبارات «الألم المتراقص» .. و«الليل المشنوق» .. إلخ .. وكلها منشورة .. على نفقة دور النشر الرسمية المملوكة للدولة .

***

ومضت سنوات وشهاب يكتب الشعر لنفسه وللأصدقاء .. ويملأ مجالس الأحباب بهجة وسعادة .. ووفاء .. وشغل في سنواته الأخيرة على ضعف صحته بزيارة المرضى من الأصدقاء الذين كانوا من قبل يملأون ليالي القاهرة

مرحا ، وبتوديع الراحلين الذين بدأوا يتساقطون من حوله كأوراق الخريف .. زكريا وبيرم وأم كلثوم وفتحية أحمد وفاطمة اليوسف ووليم باسيلي وأمين فهمي ومحمد التابعي ومحمود حسن إسماعيل وزكريا الحجاوي ومحمد مصطفى الماحي .. وعشرات الأحباب .

لا يفوته رغم عذاب المواصلات وضعف الصحة زيارة صديق أو توديع راحل .. وقد بدا في سنواته الأخيرة كعملاق وحيد من زمن آخر اندثرت كل معالمه .. فقد اختفت دولة الصحافة الفكاهية التي كان قطبا من أقطابها .. واختفت أو كادت دولة الشعر الفكاهي وكان علامة بارزة من علاماتها .

ومات زكريا صديق الروح ورفيق سنوات العطاء .. وماتت أم كلثوم وماتت معها النغمة الأصيلة .. واختفت مجالس الأدب والطرب التي كان من نجومها الزاهرة ..

.. وفسد الذوق الفني فلم يعد الناس يسمعون سوى «آلو يا منجه» .. و«سلامتها أم حسن» ..

كان أكثر الأقلام رواجًا عام ١٩٣٠ ، وما بعده .. وكان فيلسوفًا زاهدًا ، يرفض أن يعرض نفسه في سوق المصفقين لكل وجه يظهر على الشاشة .

فانتهت به الدنيا إلى مقعد خلفي يلتقط فيه الحبات الأخيرة من حياته .. تاركًا «المقاعد الرئيسية» لتلاميذه وأحفاده .

وكان وطنيًا ، تذكره كتائب الفدائيين ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر .. فهو أول صحفي تدرب عسكريًا وتطوع في أول كتيبة صحفية لمقاومة الوجود العسكري للإنجليز .

وكان أديبًا عالمًا .. وكان له الفضل في سلامة الطبعة الثانية من «روايات الهلال» من الأخطاء العربية والتاريخية .. خلال فترة عمله بدار الهلال .. كما أسهم في المجالات الأدبية بمقالاته ومحاضراته .

وكان صحفيًا ممتازًا، تذكر له «الأهرام» دقة أسلوبه وحسن صياغته للكثير مما نشر بصفحاتها من الأخبار والموضوعات .

ويذكره الأدب الشعبي والصحافة الفكاهية .. فقد أسهم مع حسين شفيق المصري في تحرير مجلة المطرقة عام ١٩٣٠.. وكان أحد الذين شادوا صرح هذا النوع من الصحافة الشعبية مع بيرم التونسي، وبديع خيري، ويونس القاضي، ومحمد عبد المنعم (أبو بثينة) وغيرهم بعد عبد الله النديم .. وأبو نظارة .. و«المسامير» و «حمارة منيتي».

***

عمل عبد السلام شهاب محررًا في الصحافة الوطنية، ثم اختص بالعمل في دار الهلال سنوات طويله، وكانوا يعتمدون عليه في تحرير مطبوعات، وقد لا يعرف أحد أنه هو الذي هذب روايات جرجي زيدان وأخرجها في صورة تلائم العصر، ثم انتقل إلى العمل في صحيفة الأهرام وتوفي وهو يعمل بها .

وكان شهاب يجيد الكتابة بكل الأساليب الجادة والفكاهية، وكان شاعرا وزجالا، وكان فنانا له دراية كبيرة بالغناء والموسيقى والتلحين، وكان الصديق الحميم للشيخ زكريا أحمد حتى كانا لا يفترقان، وله كثير من القصائد والأغاني التي غناها كبار المطربين والمطربات، ومع هذا كله كان عزوفا عن الشهرة، يؤثر البعد عن زحمه الناس .

بدأ شباب رحلته مع الصحافة الأبدية في عام ١٩١٦ وكان تلميذا في العاشرة من عمره بمراسلة كبرى الصحف اليومية بطنطا وقتئذ وهي صحيفة الكمال ولم تكن إدارة الصحيفة تعرف شيئًا عن صاحب المقالات الأدبية التي تتسم برصانة الأسلوب والدعوة إلى مكارم الأخلاق فظنوا أن كاتبها شيخ قد عركته الحياة ونشروا المقالات موقعة بالعبارة التالية «بقلم صاحب الفضيلة العالم الأديب عبد السلام شهاب » ولما زادت مراسلته لهم أرادوا التعرف عليه وانتظروا الصبي الذي يحضر حاملا المقالات وقالوا له نريد التعرف بحضرة

الأستاذ عبد السلام فقال لهم أنا هو ولم يصدقوه في البداية ولكنهم عندما اكتشوفا الحقيقة قرروا تكريمه واستقطاب موهبته المبكرة بمائة قرش كمكافأة شهرية ولعل هذا الجنيه كان بمثابة ثروة صغيرة لصبي في العاشرة بمقاييس سنة ١٩١٦ وبعد ثلاث سنوات شارك شهاب في ثورة ١٩١٩ وتفتح وعيه الوطني والسياسي وأخذ يراسل بديع خيري صاحب مجلة ألف صنف الذي رحب بإنتاجه واستمر شهاب في فرض موهبته على صحف ومجلات عصره حتى أصبح رئيسًا لتحرير المطرقة وهي واحدة من أهم مجلات تلك المرحلة وكان طبيعيا أن يعتقل الكاتب أنذاك بسبب مقالاته السياسية خاصة إذا كانت لإذاعة ومؤثرة في الرأي العام مثلما سجن العقاد ونفي بيرم التونسي .

نال شهاب المسكين حظه الوفير من الاعتقال السياسي وكان في كل مرة يخرج أكثر قوة وصلابة ليلهب ظهور جلاديه بأزجاله الوطنية ذات المذاق الساخر المرير مثل قوله :

طول عمري ما أنذلش لحد طول عمري أقوى من الزمن
ياللي انتو بعتوا نفسكم بالبخس أو بعتوا الوطن
الدنيا مهما زهزهت واتزينت دامت لمن ؟

وكان واضحًا أن الدراسة الأزهرية قد صقلت عبد السلام شهاب بحصيلة لغوية تبدت حتى في أزجاله وكتاباته بالعامية مثل قوله «بالبخس » « ودامت لمن » التي هي غريبة بعض الشيء عن الكتابة بالعامية ولعل لمعرفته الكبيرة بأصول وقواعد اللغة العربية مع معايشته لحياة البسطاء من الناس قد أهلتاه لريادة مدرسة الشعر الحلمتيشي مع حسين شفيق المصري فهذا النوع من الشعر يحتاج إلى إلمام كامل بقواعد اللغة العربية ثم تطعيمها عمدا بمفردات الحياة اليومية فيكون الناتج نسيجًا مثل هذا المثال في انتقاد المحاكم المختلطة والمطالبة بضرورة تطبيق الأحكام على الجميع :

دع عنك شغل البلف والتهويشا إنا سئمنا النتش والتبكيشا
فإذا الإدارة عارضت حكم القضا جعلت طرابيش الورى براطيشا

وحمايـة المتـوظفين مـن القـضا تـضع القـضاة وترفـع الشاويـشا

ومن أطرف الأحداث التي عاشها عبد السلام شهاب في السجن عندما التقى مصادفة بجندي المراسلة الخاص بمأمور السجن وكان من أقرب جيرانه في طنطا وعرض الجندي على شهاب أن يؤدي له أي خدمة لا تضر به أو تعرضه للأذى .. وهنا تفتق عقل شهاب عن فكرة في غاية الغرابة طلب من الجندي أن يخبره بكل ما يراه في بيت المأمور من تفاصيل يومية ثم لا يخبر أحدًا بسابق معرفتهما ـ وبعد ذلك طلب شهاب من أصدقائه في السجن أن يشيعوا عنه أنه من أهل الله الواصلين ومكشوف عنه الحجاب ووصلت الشائعة إلى مسامع المأمور فطلب إحضار السجين شهاب إلى مكتبه وفوجيء المأمور بأن شهاب يروي له كل ما يدور في بيته من أحداث وينصحه بمصالحة أشقائه وقبول العريس الشاب المتقدم لابنته لأن في ذلك خيرا كثيرا ويربت المأمور على كتفي شهاب تلمسا للبركة ثم يسمح له بدخول الصحف والأوراق والأقلام ويرسل له الشاي والقهوة والسجائر على حسابه الخاص وهكذا تمكن شهاب من تحرير مواد مجلة المطرقة في موعدها كل أسبوع من داخل أسوار السجن بل وصلت به الجرأة إلى عقد جلسات التحرير داخل غرفة الزيارة ليباشر بنفسه سير العمل في المجلة وعندما سأله زميل الزنزانة رسام الكاريكاتير رخا عما فعله ليعيش وكأنه خارج السجن أجابه قائلاً :

ألا في سبيل العيش ما أنا فاعل أديب وبلياتشو وحاوي وفاعل

هنا في يدي يا خلق سبع صنايع ولكنني للهم ـ لا ألم ـ شايل

تعد ذنوبي عند قومي كثيرة ولا ذنب لي إلا الذي هو حاصل

ويخرج شهاب من السجن ويتنقل بين عشرات المجلات حتى يستقر في دار الهلال ليراجع جميع مواد المصور وكتاب الهلال وروايات الهلال بالإضافة إلى ترجمات روايات الهلال الذي كان يطلب منه إعادة صياغتها لتصل للنشر وأيضا قام بتنقيح كتاب ألف ليلة وليلة وهو ما استتبع إعادة صياغته من جديد بالسجع حتى يحتفظ الكتاب بطابعه المعروف وأصبحت النسخة المنقحة التي كتبها

شهاب مرجعا لعشرات المؤلفين الذين قدموا ألف ليلة في الإذاعة ثم في التليفزيون دون أية إشارة إلى جهد عبد السلام شهاب وكانت أخر محطات شاعرنا الكبير في عالم الصحافة هي جريدة الأهرام التي عينته مراجعا للغة العربية وسكرتيرا للتحرير وبعد قليل تسلم خطاب الإحالة إلى المعاش بصيغته التقليدية الجامدة فكتب على ظهر الخطاب هذين البيتين :

قالوا أحلت إلى المعاش فقلت عاش العدل عاش

بعد اثنتين وأربعين من الشقاء ما بدهاش

ولكن محمد حسنين هيكل رئيس التحرير الأسبق للأهرام يقرر مد فترة خدمة شهاب بصورة استثنائية ليستمر في عطائه للأدب والصحافة وليتتلمذ على يديه جيل من الشعراء من بينهم الراحل الكبير صلاح جاهين الذي كتب يقول :

بيرم يا تونسي بديع يا خيري مدد مدد يا شيوخنا يا أقطاب

الحقنا يا حسين يا شفيق مصري والنجدة يا عبد السلام يا شهاب

وقد اعتبره الكاتب الصحفي أحمد بهجت آخر ظرفاء دولة الشعر الفكاهي لأنه :

مدرسة من مدارس الشعر ، يضعها النقاد في نفس مستوى مدرسة بيرم التونسى ، وأن كان لكل واحد منها لونه الخاص ومذاقه الغنى المتميز .

كان بيرم التونسي ناقدا حادًا ، وكان عبد السلام شهاب ساخرًا عظيمًا ، وبعكس المرارة التي تفيض بها بعض صور بيرم التونسي ، كان شهاب خفيفا حتى في سخريته ، وكان يجرح ولا يقتل ، ويمس أحيانا بسيفه دروع الخطأ ويكتفي بالفوز بالنقط .

وعلى امتداد خمسين عاما كاملة ، كان الشعر الساخر هو سلاحه الوحيد العظيم ، وقد حارب عبد السلام شهاب كل معاركه الاجتماعية والسياسية والأدبية وانتصر كثيرًا وانهزم مرات ولكنه كان مقاتلا شريفا شجاعًا في جميع المرات .. ووقف بقلمه بجوار الفقراء الشرفاء ، كما وقف بفنه في صف الابتسامة الراقية والضحكة الصافية ..

كان عبد السلام شهاب شاعرا ترى في شعره مرآة صورته ، وترى في صورته حقيقة شعره ، وكان فنه جزءًا منه كما كانت نفسه الصافية جزءًا من فنه .. وكان بخته مائلاً شأن الشرفاء الظرفاء..

كتب يقول في «المطرقة» يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٤١ :

ألا في سبيل العيش ما أنا فاعل	أديب وبلياتشو وحاوي وفاعل
هنا في يدي يا خلق سبع صنائع	ولكنني المهم لا ـ المم ـ شايل ..
تعد ذنوبي عند قومي كثيرة	ولا ذنب لي إلا الذي هو حاصل

وقد بدأ عبد السلام شهاب حياته الأدبية في الصحافة ، وعمل محررًا في أكثر من صحيفة ، ثم صار رئيسًا لتحرير جريدة المطرقة ، وكانت المطرقة تلعب دورها في النقد السياسي والاجتماعي في هذه الفترة . وكان أحد شعراء مجلة الثقافة سنة ١٩٤٩ ، وربما كان أول من أدخل على المجلة شعره الساخر الناقد لموقف الأحزاب من الغلاء وارتفاع الأسعار.

كتب يقول تحت عنوان الغلاء والأحزاب :

نعم مشاكلنا أضحت أفانينا	وحلها عجزت عنه أمانينا
ولا وربك ما كانت وسائلنا	يوما لتخذلنا لولا توانينا
ما للصناعة ما للتجارة بل	ما للزراعة فوضى لا قوانينا
يا قادة الشعب ضج الشعب من سغب	ففيم نضفي عليكم من تهانينا
كلامكم وهو حلو ليس يشبعنا	والجوع في كل معنى من معانينا
وارحمنا لعزيز ذل في بلد	كم ذا أعز الأذلين المهانينا

ولم يكن الأستاذ عبد السلام شهاب يقتصر على لون من ألوان النقد دون غيره ، حارب بقلمه الرشيق الخفيف في كل معركة ، وكانت له معاركه السياسية في جريدة المطرقة .

كتب يقول في «المطرقة» يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩٣٧ وهو يندد بدكتاتورية

حزب الأقلية الحاكم .. كتب أبياتا من الشعر على وزن البيت الذي يقول :

أتسلوها وقلبك مستظفر ... وقد منع القرار فلا قرار

كتب يقول :

عملت هنا بمصر أبا علي ... وصدقك الوظاويظ الصغار

وهديك كل هجاص جبان ... ومالك في حقيقتك اعتبار

وقالوا أنت دكتاتور مصر ... إليك إذا دعا الداعي يشار

وأهيف منك لم تر قط عيني ... وأرذل منك لم تلد العشار

ومضى عبد السلام شهاب يكتب ، ويحمل في نفس الوقت ابتسامات صافية لعشاق فنه ..

ثم انكسر الغصن الذي كان يغرد فوقه الشاعر ويرحل هذا الشاعر الحزين الساخر يوم ٢٨ يونيه ١٩٧٧ وعلى فمه ابتسامة رضا رغم أحزان قلبه الباكي !



عبد السلام شهاب

صالح الشرنوبي

الصعلوك التائه !



كانت حياة صالح الشرنوبي (١٩٢٤ ـ ١٩٥١) رغم قصرها حياة مليئة بالأسى والتمرد والشك والخوف من الحياة وإذا كان الشرنوبي قد هام في مجاهل الخيال وفقد كان يتوق لحياة ملؤها الحب والجمال والتواء وكانت صعلكته نوعًا من بحثه الدائب عن سر الحياة التي يتمناها .

حياته القصيرة:

ولد صالح الشرنوبي في ٢٦ مايو سنة ١٩٢٤م، على شاطيء البحيرة الحالمة ببلدة بلطيم. ومات سنة ١٩٥١ م، تحت عجلات القطار وهو عائد إلى قريته ولم يكتف بأن حياته كانت أسئلة «عويصة» وألغازًا محيرة. فجاءت ميتته إضافة إلى كثير من علامات الاستفهام والتعجب والتوجع في حياته؛ وكأنّ الصراخ قدره، والدموع قضاءه، والأنين مكتوب عليه.

حفظ القرآن الكريم من أوّله إلى آخره وهو في العاشرة من عمره، تحت طائلة العقاب، ونسيه بعد ذلك. حصل على الابتدائية في عام ١٩٣٩م، وتعطل في المرحلة الثانوية ثلاث سنوات، منها سنة لقيادته الإضرابات ضد الحكومة التي كانت تحكم مصر حينئذ، وسنتان

لعدم حفظه القرآن. وكان يغلق حجرته على نفسه ويمكث فيها طويلاً، وذلك عقب إنشاده الشعر، وخُيِّل إلى أهله أنه يفقد السيطرة على قواه العقلية، مما جعلهم يدخلونه مستشفى الأمراض العقلية مرتين [1].

فشل في الالتحاق بكلية دار العلوم مرتين لرسوبه في الامتحان الشفهي في القرآن الكريم. والتحق بكلية أصول الدين ثم تركها، ولمَّا التحق بكلية الشريعة تمرد على الدراسة فيها. وعاش بعد ذلك أيامًا قاسية، وليالي مرعبة، ولازمه سوء الحظ أينما حلّ وارتحل.

عمل في بلطيم، مدرسًا للمرحلة الأولى، وأخلص في عمله، وتقدم لخطبة إحدى الفتيات، ولكن أهلها اتخذوا رغبته مادَّة للمزاح، ورفضوا بطريقة آلمته.

وفي القاهرة عثر له أصدقاؤه على وظيفة مدرس في مدرسة سان جورج، ولكنه فُصل منها. وطردته صاحبة البيت الذي كان يسكن إحدى حجراته المتواضعة فوق السطح، قيل إنها كانت عشة للطيور. بعدها لجأ إلى جبل المقطم، وسكن في مغارة بجوار قرافة الغفير شهرين كاملين.

وفي يوم من الأيام، التقى الشاعر صديقًا له، وقال له: «إنني ذاهب إلى بلطيم، وفي نفسي إحساس غريب بأنني لن أعود» وتحقق ذلك، فقد ذهب ولم يعد فعلاً؛ إذ في يوم ١٧ من أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥١ م خرجت بلطيم تشيع أعزَّ أبنائها إلى مثواه الأخير.

أغراض شعره وخصائصه:

تغزّل الشرنوبي بصدق، وعاتب برفق، ووصف بروعة. مدح بلا مجاملة، ورثى بلا تكلف، وشكَّ بلا حدود. وكان يعيش في بلد محتل، يسيطر عليه الأجانب، وتذهب خيراته في بطون المستعمرين؛ فجاء شعره الوطني دليلاً واضحًا على إحساس حاد بما كان يحدث للوطن في تلك الأيام.

---

(١) مجلة الفيصل، نوفمبر ١٩٩٥، الشرنوبي الشاعر الذي لا يذكره أحد بقلم شعبان عبد المجيد محمد علي.

نظم القصيدة ، طويلة وقصيرة ، والموشح ، وكتب القصة والمسرحية والأغنية العامية ، وكان مبدعًا في هذا كلِّه .

لم يكن شعره صعبًا ، وإن كان عميقًا ، ولم يكن لفظه وحشيًا ؛ بل كان واضحًا ، وجمع ـ متمكنًا ـ بين دقّة المعنى ورقة الأسلوب .

وهو رائد من روّاد الشعر المرسل ، فقصيدته «أطياف» وهي من الشعر المرسل ، مكتوبة سنة ١٩٤٥م، قبل التاريخ الذي يختلفون فيه بعام أو عامين ، ولكن يبدو أنه لم يقصد هذا اللون من الشعر، ولم يرتح إليه ؛ فكل شعره بعدها موزون مُقَفَّى ، حتى هذه القصيدة نفسها تزدحم بالأبيات العمودية والأشطار الموزونة ، ثم إنها تفتقر إلى الترابط العضوي والموضوعي ، مما يوحي بأنها يمكن أن تكون مسوَّدة لقصيدة من الشعر العمودي .

نماذج من شعره:

سوف يحيرك الشرنوبي عندما تقرأ في ديوانه :

أنا أهفو إلى الحياة وروحي	تشرب الموت في كؤوس الحياةِ
أنا أستشهد السماء على ما	أمطرتني السماء من نكبات

إنّه كالطفل الذي يهرب من عصا أمّه إلى أحضانها ، إنه يستصرخ جَلاَّده ويستغيث بمعذبه . ثم كيف لا ينعم بالحياة وقد كتبت له ، أو كتبت عليه ؟ وكيف لا يضيق بها وهو يعلم أنه لن يبقى فيها وأنها لن تُبقي عليه ؟ يقول أيضًا:

غمرات السكون في الليل تنسيني	أفانين من ضجيج النهارِ
وحدتي معبدي وشعري تسبيحي	فبعدًا للناس من سُمَّارِ

ثم يقول في موضع آخر :

بين جنبيَّ خافق بعثر العمر	دموعًا على الورى وأنينا
ولقد أسكب الدموع لبلوا	هُم وهم في مناحتي ضاحكونا

ربّما فَوَّقُوا السهام لقتلي ... فرأوني أبارك القاتلينا
غير أني أحبّهم وأرجّي ... لهم الخير والهدى واليقينا
وأراهم كأنهم في وجودي ... خطرات تأبى عليَّ السكونا
فلهم ما أقول من ملهم الشعر ... طروبا أو ثائرًا أو حزينا

وهو الذي سأل واستفهم واستوضح :

ألِمحضِ الوجود والموت جئنا ... أم لِسِرٍّ وحكمةٍ مكنونة
ليت من في السماء يرحَمَ شكّي ... فيريني ضياءه أو يقينه
من أنا ؟ من أكون؟ ما كنت ؟ مابد ... ءُ وجودي ؟ متى تكون النهاية ؟
ما وراء الحياة ؟ ما غاية الدهـ ... ـر ؟ وما كان قبل بدء الرواية ؟!

ولعله كان يقصد نفسه عندما وصف أهل الأرض بأنهم :

حُرموا راحة اليقين وعَبُّوا ... كلّ كأسٍ من الشكوك ندي

جاء الحياةَ حائرًا ، وتركها أكثر حيْرة ، ليس في شعره نقطة ختام واحدة ، ولا إجابة حاسمة عن سؤال . وإن وُجدت فهو لم يسترح إليها ، ولم يسترح بها . ونقطة الختام الوحيدة ، والإجابة الحاسمة الفاصلة عن كل الأسئلة ، هي تلك البقعة الكبيرة من دمائه تحت عجلات القطار .

كانت كلماته لامعة ، ومعانيه دامعة .. وكأنه يبلل أشعاره بالدموع ، ويرويها بالدم ، ويحرسها بالأحزان . وكان من الممكن أن يوضح نظرته أكثر ، ويؤكد فلسفته أعمق ، لو عاش أطول ، ولكنه رحل في عمر الزهور !

شاعرية الشرنوبي:

تناول الشاعر فاروق شوشة حياة وشعر صالح الشرنوبي فذكر أنه بين السادس والعشرين من مايو عام ١٩٢٤ [1] والسابع عشر من سبتمبر عام

(١) الأهرام ، ٢١ / ٥/ ٢٠٠٠ ، فاروق شوشة : الشرنوبي : الشهاب الذي لم يكد يسطع حتى انطفأ !

١٩٥١ عاش الشاعر صالح علي الشرنوبي الذي انتهت حياته بغتة تحت عجلات قطار الدلتا في بلدته بلطيم إلى جانب بحيرة البرلس ، عن سبعة وعشرين عامًا ، تقضت كومض الشهاب الذي ما يكاد يسطع حتى ينطفيء ويتلاشى ، وقدر للشرنوبي أن يكون واحدًا من أصحاب المواهب الشعرية الكبرى الذين رحلوا في عشرينيات العمر مثل طرفة بن العبد في القدماء والهمشري وأبو القاسم الشابي في المحدثين .

ولقد كان صديقه الشاعر الكبير محمد الفيتوري ينطق بكل لوعة الشعر والشعراء وعمق الفجيعة فيه وهو يقول في وداعه :

أبدًا لم تمت ، فمثلك فوق الموت
فوق النسيان .. والذكريات
إنما الموت .. للزواحف فوَق الأرض
لا للمحلقين البُزاة
ولقد كنت في حياتك كالنسر
قوى الجناح والضربات
تقطع الكون في انتفاضة ذهن
وتجوب القرونِ في لمحات
وتهد الوجود هذا ، وتبنيه
كما شئت ، شاعري السمات
نم عميقًا ، فالموت حلم طويل
همجي الرؤى ، كحلم الحياة

سمعت باسم صالح الشرنوبي لأول مرة حين التحقت بكلية دار العلوم خلال العام الدراسي ١٩٥٢ / ١٩٥٣ ، فوجدت اسمه يتردد على ألسنة شعراء الكلية الذين يسبقونني عمرا وتجربة ووعيا شعريا ، وكان أكثرهم رواية لشعر الشرنوبي وحزنًا لرحيله المبكر الشاعر على الصياد . الذي رحل منذ سنوات قليلة ونشر خبر نعيه في سطرين اثنين تائها في زحام أعمدة النعي المتراصة بعد أن

قضى في الإسكندرية السنوات الأخيرة من حياته بعد عودته من العراق حيث عمل في التعليم واختفى عن مسرح الحياة الأدبية في مصر باستثناء بعض القصائد القليلة التي كان يرسلها لأصدقائه القدامى في القاهرة لعل منابرهم في الصحافة الأدبية أو الإذاعة تتسع لها ـ كان على الصياد يعد العدة للاحتفال بالذكرى الأولى لرحيل الشرنوبي في سبتمبر ١٩٥٢ ، لكن الأحداث الجارفة التي واكبت قيام ثورة يوليو . قبل ذلك التاريخ بشهور قليلة ـ طغت على اهتمام الناس ، وتراجع الشعر أمام الفوران السياسي ، وضاعت الذكرى الأولى للشاعر الذي ضاعت حياته كلها بعد أن ضاقت الدنيا في وجهه ، وخسر الأهل والأصدقاء وانطوى على نفسه ، والتجأ إلى مغارة في «المقطم» يتخذ منها مأوى وسكنًا ، ويتطلع من فوقها إلى القاهرة ، المدينة التي جحدت عبقريته ، وتنكرت لموهبته ، ولم تفسح له من صدرها ، ولم تحقق له حلمه في دخول دار العلوم بعد حصوله على ثانوية الأزهر لرسوبه في الامتحان الشفوي بسبب عدم حفظه للقرآن الكريم. فالتحق مرغما بكلية أصول الدين وبعدها بكلية الشريعة في الأزهر ، دون أن يجد فيهما بغيته ، فيقرر الإنسحاب من الدراسة ، ويفقد حلمه في التعليم الجامعي ، ويعود منكسرًا إلى بلطيم ليعمل مدرسًا في المدرسة الابتدائية للبنات ، ويؤدي به الانكسار إلى التصوف ، ثم إلى ترك بلطيم بعد فشله في الزواج بمن يريد ، ورفض أسرة العروس له بطريقة ألمت مشاعره وحطمت كبرياءه ، ولعل هذه الصدمة كانت وراء قصيدته «قلب بلا حب» التي يهديها إلى حواء أوهامه ، ويقول في مستهلها :

تعالي يا ابنة الأحلام ، يا مجهولة الذات
تعالى يا ضياء لم ينور أفق ليلاتي
تعالي يا رحيقًا لم يزل يروي خيالاتي
تعالي نجمع الماضي الذي راح إلى الآتي
تعالي ، يا غراما كان في دنيا الصبابات
تعالي فالدم الفوار يغلي في شراييني

تعـالي فـالهوى الثرثـار مـا زال ينـاديني
جموحًـا ثـائر النـزوة مـشبوب الأرانـين
وهاتيـك أغاريـدي أغنيهـا فتبكينـي
وأحـلام الـصبا المحـروم أطويها وتطويني
تعالي من وراء الغيـب كالتهويمـة النـشوى
كوحي رافق الأنوار ، كالإلهام ، كالنجوى
كـسر في سـماء الله ، لا نـدري لـه فحـوى
تعـالي لم يعـد في الكـأس نـسيان ولا سـلوى
تعالي لم يعـد في الكـأس إلا المـر والـشكوى

ثم يقول صالح الشرنوبي :

تعـالي طهـري بالحـب آثـامي وأوزاري
تعـالي فأنـا وحـدي غريـب القلـب والـدار
طريـد مثـل أيـامي شريـد مثـل أفكـاري
تعـالي واسـكبي سرك في أعـماق أسراري
فقـد تبعـث أنفاسـك مـا يطويـه قيثـاري

بالرغم من الحياة القصيرة لصالح الشرنوبي ، إلا أنها امتلأت بالعديد من صفحات الحزن والألم والإحباط والفاقة والمعاناة والشك والتصوف ، وجمعت بين صنوف من التشر والعمل في التعليم والعمل الصحفي مصححًا في جريدة الأهرام والفني ـ حين تعرف على عبد العليم خطاب وبكر الشرقاوي ومحمود إسماعيل وإبراهيم السيد ـ المخرج السينمائي والممثل المسرحي ـ وتمخضت هذه الصحبة عن كتابته لأغاني أحد الأفلام وهو فيلم «فتنة» كما كان صديقًا لأبرز شعراء عصره إبراهيم ناجي وعلى محمود طه وصالح جودت وأحمد رامي ، وجمعت صداقة وثيقة مع أستاذنا الدكتور أحمد هيكل ـ الذي كان معيدًا بدار العلوم قبل سفره إلى أسبانيا للحصول على الدكتوراه ، وكان من بين من ساعدوه عمدة المجالس الفنية والأدبية في زمانه كامل الشناوي ، لكن هذا كله لم

يحل بينه وبين نوبات من الهياج والصرع والغضب المدبر دخل بسببها مستشفى الأمراض العقلية عدة مرات ، أو بينه وبين هجاء القاهرة التي ضاق بها ويمن فيها حين هجرها إلى مغارة المقطم - في قصيدته «على ضفاف الجحيم» التي يقول في مستهلها : «إليك يا قاهرة ، إلى أضوائك القاسية التي طالما عذبت عيني وأنا قابع هناك في الجبل المضياف بصخوره الحانية وكلابه العاوية وصمته الكئيب ، ثم إلى هؤلاء المترفين الكسالى الذين ينكرون علي إيماني بالألم وعبادتي الدموع وإخلاصي للأحزان :

إني هنا أيتها المدينة
الحرة الفاجرة المجنونة
أحبس في جفني الرؤى السجينة
والأدمع الواهة السخينة
إني هنا أغربل السكينة
وأزرع الخواطر الحزينة
ملء ضفاف الوحدة المسكينة
وفي يدي فجر ستعبدينه
يوم تزول الوحدة الملعونة

ويقول الشرنوبي :

هذا أنا في العالم الكبير
فوق ربا المقطم المهجور
متخذا من أرضه سريري
من الحصى والطين والصخور
وتحت سقف الأفق المطير
والعاصف المزمجر المقرور
أنام نوم العاجز الموتور
على نباح الكلب والهرير

وقهقهـــات الرعـــد في الـــديجور
تسخر من عجزي ومـن قـصوري
وأنـــت يـــا زنجيـــة الـــضمير
تـــدرين قـــدري وتـــرين نـــوري
تفجـــرين ضـــحكة المغـــرور
وترتـــدين كفـــن القبـــور

بعد رحيل الشرنوبي بعام واحد صدرت مجموعته الشعرية الأولى بعنوان «نشيد الصفاء» جمعها الشعراء : صالح جودت وحسن عبد الوهاب وأحمد خميس ، وبعد ذلك بعدة سنوات أصدر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، «ديوان الشرنوبي» الذي يضم قرابة ثمانمائة بيت من شعره ، ولم يتح لشعر الشرنوبي أن ينشر كاملا إلا في النصف الثاني من الستينيات دون أية إشارة إلى سنة النشر .

ضمن مطبوعات سلسلة «تراثنا» عن دار الكاتب العربي بالقاهرة . التي أصبحت الآن الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ وقد قام بجمع الديوان وتحقيقه الناقد الراحل الدكتور عبد الحي دياب وراجعه وقدم له الناقد الكبير الدكتور أحمد كمال زكي الذي يقول في تقديمه للمجلد الكبير الذي يضم شعر الشرنوبي ونثره :

«عندما يؤرخ للشعر العربي المعاصر سيوضح صالح علي الشرنوبي في مقدمة مبدعيه . ولن يكون صغر سنه بين الرواد إلا دليلاً على صدق موهبته لقد عاش لا يربط نفسه الطموح بأثقال حياة معينة . لكنه كان مؤمنا بالشعر من حيث هو رسالة ومن حيث هو أداة تفريج عن كرب كثيرًا ما لاحقته ، وما من عمل اضطر إلى توليه ـ بحكم الظروف ـ إلا وجعله على الهامش من مسؤوليته المعيشية .

كان إنسانا فذا . وكان فنانا لا يشغل نفسه بأكثر من أن يريد أن يقول . وسيقول برغم كل شيء ، وسيسمع الناس منه اليوم أو غدا . ولما مات بكاه معارفه ، وقال بعض النقاد : إنه لو عاش لبذ أعلام الشعر المعاصر قاطبة .

ولقد تعرض شعره أكثر من مرة للضياع ، وبذلت أكثر من محاولة لنشر

عيونه ، إلا أن المحاولة الجادة في ذلك هي التي قام بها د. عبد الحي دياب الذي جمع تراث الشاعر جميعه بلا تدخل قط ودون ترك شيء بدعوى ـ مخالفته للعرف والتقاليد » .

وقد كان بوسع الدكتور أحمد كمال زكي أن يصوغ مقدمة نقدية ضافية تكشف عن رؤية تحليلية لشعر الشرنوبي .

لكنه ـ لأمر ما ـ آثر هذا التقديم المقتضب ، بعد أن صب الدكتور عبد الحي دياب كل طاقته وجهده في التحقيق والعرض الأدبي والسرد الحياتي ، دون أن يسلك الشرنوبي في مسيرة عصره الشعرية ، ويلقي بالضوء الكاشف على نصه الشعري ، الذي لابد لمن يدرسه أن يطالع ظلالاً وملامح من السمت العام للتيار الرومانسي الذي قادته جماعة «أبو لو» وكان من أعلامه : ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وأبو القاسم الشابي وغيرهم . هذا التيار الذي تميز بوجدانيته المفرطة وخياله الشعري المحلق وأناقة لغته الشعرية وتهويماته التصويرية وقدرته الخارقة على تجسيد المعنويات وتحويلها إلى محسوسات والتهيئة للقصيدة الجديدة ـ أو قصيدة الشعر الحر ـ التي التفت إليها الشرنوبي بعد أن تنبه إلى إمكانياتها الفنية فأبدع ـ في عام ١٩٤٥ ـ قصيدته «أطياف» التي تعد من نماذجها الرائدة قبل إبداعات جيل الرواد في حركة الشعر الحر بسنوات .

ولعل قصيدته «أختي» التي يهديها إلى أخته البلهاء «هيام» في صمتها المسحور ، أن تكون واحدة من فرائد الشعر العربي التي لم تتكرر ، كاشفة عن وجدانه المفعم بالإنسانية ، وحسه النابض بالمشاركة ، والالتفات إلى مأساة شقيقته التي حرمت نعم العقل والإدراك .

يقول صالح الشرنوبي :

أختي قصيدة شاعر غزل
أختي تميمة ساحر الخبل
أختي «هيام» وأنت من أملي

لأنـا الحـزينِ عليـك يَـا أختـي !
وتقـول أمـي حـين تلقـاك
يـا ليـت قلبـي مـا تمنّـاكَ
أو ليـت سـهدك كـان مثَـواكِ
لـك في بنـات الحـي أتـراب
عرسـانهن لهـن أحبـاب
فـأقول والمقـدور غـلاب
الحـظ خانـك أنـتِ يـا اختـي!
وإذا الكـرى نـادى الخليّينـا
فأجبتـه وهجـرت نادينـا
قـالوا نـأى مـن كـان يـسلينا
فـأقول بـل مـن كـان يبكينـا
ويحيـل أحنانـا كقاسـينا
ويثـير في نفـسي البراكينـا
وأظـل أبخـس منـك يـا أختـي !

في شهر مايو من كل عام ، تتجدد ذكرى صالح علي الشرنوبي ، حاملة عبق أنفاسه الشعرية، وعبقريته المبكرة ، باحثة عن آثاره الشعرية والنثرية في ذاكرة هذا الجيل ، الذي شغل بالقطيعة عن التواصل ، وبأورام الذات عن إبداع الآخرين ، وباللدد في الخصومة عن رحابة الأفق والوعي المستنير .

لكن أمثال الشرنوبي . كما قال عنه الفيتوري ، فوق الموت ، فوق النسيان ، والذكريات !

* * *

نجيب سرور

الصعلوك الذي صارع طواحين الهواء !



عاش الشاعر الأديب والمخرج المسرحي والفنان المبدع نجيب سرور (١٩٣٢ ـ ١٩٧٨) حياة مليئة بالقلق والبوهيمية والتمرد والتشرد !

وكان في سنواته الأخيرة يعيش مأساة التشرد والهيام على وجهه والصراخ بأعلى صوته ضد كل شيء فكان نموذجا للصعلوك المتمرد الثائر الذي أخذ يصارع طواحين الهواء دون جدوى [(١)].

كان (نجيب سرور) طائرًا عبقريا، لم تمهله الظروف ليواصل الانطلاق والتغريد والتحليق في سماء الفن والإبداع التي امتلأت طبقاتها بأسراب الطيور الجارحة، الناهشة لكل ما هو صادق المفترسة لكل ما هو أصيل، المحبطة لكل ما هو نبيل.

لم يستطع طائرنا (النجيب) أن يعرف معنى (السرور) في حياته (القصيرة البخيلة) بحساب الزمن . (الطويلة الثرية) بحساب الإبداع والعطاء، وانتهى به

(١) الأهرام الرياضي (٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣) محمد السيد محمد .

الأمر والتآمر إلى اتهامه بالجنون، والسير في شوارع (القاهرة) التي (قهرته) شاردًا مشردًا، لا يجد قوت يومه، ولا تشفع له موهبته الفريدة للوصول إلى حلمه الذي ظل مؤجلاً حتى رحيله.

التراجيديا الإنسانية :

في قرية ـ إخطاب، مركز أجا، محافظة الدقهلية، ولد (محمد نجيب محمد سرور هجرس) في يونيو عام ١٩٣٢، وفي ديوانه (لزوم ما يلزم) يقول (نجيب) عن مولده :

يا سيداتي يا أميراتي الحسان
إني أتيت إلى الوجود كما يجيء الأنبياء
لا .. لست أنتحل النبوة . غير أني مثلهم
في (مزود) يوما ولدت في قريتي (إخطاب)
حيث الناس من هول الحياة
موتي على قيد الحياة
لا الأرض غنت لي ولا صلت لمقدمي النجوم

كان والده شاعرًا تقليديا، وقارئًا مُدمنا للقراءة، وكان نجيب هو الطفل المدلل لديه، ولهذا أبعده عن العمل بالزراعة، وأدخله المدرسة الابتدائية ثم ألحقه بالثانوية، وفي حوار نشر بمجلة (نصف الدنيا) روي الشقيق الأكبر لنجيب تلك القصة التي تؤكد كراهية نجيب للنفاق والمجاملة قائلاً :

- أتذكر يومًا .. كنت عائدًا من الغيط .. وكان نجيب ووالدي جالسين في إحدى الحجرات يتناقشان في قصيدة كتبها والدي .. وإذا بنجيب يقول له : إنها قصيدة تقليدية ركيكة وعمودية، فما كان من والدي إلا أن ضرب نجيب (قلما) فلم يستطع الرد .. وتمتم بشفتيه لي دون أن يسمعه الوالد .. (دكتاتور).

ورث (نجيب) حب القراءة عن والده. وفتن في مراحله الأولى بقراءة أشعار أبي العلاء المعري وأمهات الروايات العالمية المترجمة، وبانتهائه من المرحلة الثانوية التحق بكلية الحقوق

تحقيقا لرغبة والده ، إلا أنه تركها وهو في ستها النهائية والتحق بمعهد التمثيل وحصل على الدبلوم في عام ١٩٥٦ ، وعند تخرجه انضم إلى (المسرح الشعبي) الذي كان تابعًا لمصلحة الفنون التي كان مديرها الكاتب الكبير (يحيى حقي) .

وفي نهاية عام ١٩٥٨ سافر إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة الإخراج المسرحي وقبل رحيله، ودعه والده في فخر واعتزاز قائلاً له :

- تذكر دائمًا .. أنك مصري .. وابن سرور .. وضع دائمًا مصر أمام عينيك .

في موسكو عاش نجيب حياة الصعلكة وارتبط بعشرات الصداقات مع المبعوثين المصريين آنذاك، وقد صادف وصوله قمة الحملة المعادية للشيوعية في مصر مما وضعه في موضع الشك من قادة التنظيمات الشيوعية العربية في موسكو، وفي دراسة بعنوان (نجيب سرور .. مأساة العقل) يقول عنه صديقه الدكتور (أبو بكر يوسف) :

- في محاولة منه لتبديد هذه الشكوك ، جنح نجيب إلى التطرف ، فلجأ إلى تشكيل مجموعة من (الديمقراطيين المصريين) لإصدار البيانات واتخاذ المواقف المعادية للنظام الحاكم ، واستغل ذات مرة فرصة انعقاد أحد المؤتمرات التضامنية مع الشعب الكوبي في جامعة موسكو ، فقفز إلى المنصة واستولى عليها وأطلق بيانًا ناريا ضد النظام في مصر ، وبينما هدرت القاعة المملوءة عربا وأجانب بالتصفيق ، ظهر الحرج والضيق على وجوه المسؤولين في الجامعة ، الذين وضعهم نجيب في ورطة شديدة ، ونجحوا أخيرا في تنحيته عن المنصة ، ولكن بعد فوات الأوان ، ففي اليوم التالي احتجت السفارة المصرية على جامعة موسكو .. وفصل نجيب من البعثة (هو وماهر عسل الذي ترجم له البيان وألقاه بالروسية) وألغى جوازا سفريهما ، وطالبت السلطات المصرية المسؤولين السوفيت بترحيل نجيب سرور وماهر عسل إلى القاهرة فورا بهذه الحركة نجح نجيب في كسب ثقة الشيوعيين العرب في موسكو فدافعوا عن بقائه فيها وتكللت مساعيهم لدى السلطات السوفيتية بالنجاح ، فظل نجيب في موسكو ولكنه نقل إلى مدينة جامعية أخرى حتى لا يحتك بالمبعوثين المصريين الهائجين ضده . وبمرور الوقت أدرك نجيب أنه ارتكب حماقة ولم يعد يدري ماذا يفعل بهذه المجموعة الصغيرة التي التصقت به ، واعترف لنا صراحة بأنه لا يفقه شيئًا في السياسة، وأنه لا يريد أن يلحق بنا الضرر ، ولذلك قرر تركنا والانصراف إلى الدراسة ونصحنا بأن نكون

مثله .. وأخذ نجيب يبتعد عنا ويغرق في الشراب والديون .

«هأنت تصبح في الضياع
في اليأس .. شاة عاجزة
ماذا لها إن سُلت السكين
غير المعجزة ؟ »

ولم يكمل نجيب دراسته للمسرح على يد المخرج الكبير (نيكولاي اخلوبوكوف) بسبب اعتراضه على أسلوب «اخلوبوكوف» في الإخراج . ويكمل الأستاذ عبد الستار الزامل (زوج شقيقة نجيب) تفاصيل الأحداث التالية في حديثه للكاتبة الصحفية (أمل سرور) فيقول :

– تزوج نجيب في هذه الفترة من امرأة روسية (ساشا كورساكوفا) ، وعندما علمت حكومة المجر بخلافاته مع روسيا ومصر ، بعثت له خطابا تدعوه فيه ليرأس قسم الإذاعة العربية هناك ، ووعدته بإغراءات مادية عالية جدًا ، فوافق ، وذهب لبودابست ، وفوجيء هناك بأن المطلوب منه هو مهاجمة مصر عبر الإذاعة المجرية ، وكانت المفاجأة المذهلة . عندما عرف أن الموساد الإسرائيلي هو الذي بعث له في المجر ، وأنه وراء كل هذه الإغراءات ، بل وأنه مطلوب للتجنيد في الموساد.. فجن جنونه ، ورفض رفضًا باتًا .. وترك العمل ، وعندما قرر العودة إلى روسيا ، بحث عن جواز سفره فلم يجده ، واكتشف أنه سرق منه على يد الموساد ، وعرف من أحد أصدقائه أنهم يخططون لاغتياله، فبعث لوالده بخطاب مع أحد الأصدقاء يقول فيه : اعرف يا والدي .. أن كلمتك الأخيرة لي قبل سفري أضعها نصب عيني .. اجعل مصر أمامك .. واعلم أنني لو مت هناك في المجر. فإنني قد مت بأيد صهيونية وأريد العودة لمصر ولا أعرف . فجن جنون الوالد وبعث بالخطاب لإحدى المجلات المصرية ونشرت الخطاب ، وعندما قرأه عبد الناصر .. أرسل لسفير مصر في المجر (محمد إبراهيم) في ذلك الوقت .. يقول له : «حياة نجيب بين يديك ، وأرجو أن تعيده إلى مصر» .

وفعلا .. تم اختطاف نجيب وترحيله من المجر على طائرة عفش (بضاعة) وانتظرناه في المطار.. لم نعرفه .. شبح مهلهل الثياب ، حافي القدمين وارتمى على أرض المطار يقبلها بعد

نزوله من الطائرة .

«نم يا صديق
من حق قلبك أن ينام
فطالما حرموه أن يغفو هو القلب الرقيق
كانوا هنالك شاهري الأنياب والأظفار
في كل منعطف على طول الطريق
نم يا صديق» .

فارس آخر زمن:

ولم ينم نجيب، بل راح يسابق الزمن، وكأنه يريد تعويض ما فاته، فترجم وأخرج لمسرح الجيب مسرحية (بستان الكرز) لتشيكوف، ثم قدم له كرم مطاوع مسرحيته الشعرية (ياسين وبهية)، وقدم له جلال الشرقاوي مسرحية (آه يا ليل يا قمر) .. وبخلاف ما سبق، كتب نجيب سرور مسرحيات (شجرة الزيتون) و (يا بهية وخبريني) و (ألو يا مصر) و(ميرامار) و (الكلمات المتقاطعة) و (الحكم قبل المداولة) و (البيرق الأبيض) و (ملك الشحاتين) و (الذباب الأزرق) و (قولوا لعين الشمس) و (النجمة أم ديل) و (أفكار جنونية في دفتر هاملت) .. ومن أعماله الشعرية (التراجيديا الإنسانية) و (لزوم ما يلزم) و(بروتوكولات حكماء ريش) و (رباعيات نجيب سرور) و (الطوفان الثاني) و(فارس آخر زمن) ومن أعماله النقدية (رحلة في ثلاثية نجيب محفوظ) و (حوار في المسرح) و(هموم في الأدب والفن) و(تحت عباءة أبي العلاء) و(هكذا قال جحا) .

وقد لخص الكاتب الصحفي (عصام الغازي) في كتابه (راقصون على الجمر) جانبا من مأساة صديقه الشاعر نجيب سرور فقال :

«خلال جلستنا الأولى روى لي مأساته وصراعه مع أجهزة الثقافة التي أوقفت عرض مسرحياته ومنعت دور المسرح من إسناد إخراج أعمالها إليه وفصله من العمل كأستاذ في معهد التمثيل والفنون المسرحية وحكى لي كيف كتب لافتة تحمل كلمة «للبيع» علقها على ظهر ابنه الكبير شهدي ثم وقف يبيعه على رصيف ميدان سليمان باشا حتى لا يموت الطفل من الجوع .

وحين تفاقمت إصابته بمرض السكر رقد في أحد عنابر الدرجة الثالثة بمعهد السكر للعلاج ومات وحيدًا في أكتوبر عام ١٩٧٨ عن عمر يناهز ٤٦ عامًا، حيث كانت زوجته وولداه في رحلة إلى روسيا لقضاء الإجازة السنوية وكنت الوحيد - مع زوجتي - اللذين ذهبا لاستقبالهم في ميناء الإسكندرية بعد أيام من موته حاملاً لهم النبأ الحزين [١].

منذ سنوات عشر رحل عن دنيانا ابن موهوب من ابناء شعبنا .. شاعر، ممثل، مخرج، مؤلف مسرحي، ناقد، مترجم، مذيع صعلوك .. والمهنة الثامنة للراحل نجيب سرور كانت جوهر المهن السبع الأولى. كما كانت الأبرز والأكثر إبهارًا.

ورغم أن نجيب سرور عاصر عددًا من صعاليك مصر العظام سواء من الجيل السابق عليه مثل الكاتب الصحفي الأديب عبد الرحمن الخميسي والصحفي الشاعر كامل الشناوي أو من جيله كمحمود السعدني وأحمد فؤاد نجم أو الأصغر سنًا كالأديب يحيى الطاهر عبد الله. إلا أن نجيب سرور كان نسيجًا وحده، ومدرسة متميزة ومنفردة داخل ظاهرة الفنانين الصعاليك المعاصرين.

فهو ابن مخلص لأسلافه الكبار في التراث العربي الإسلامي من الأدباء العيارين وأهل الكدية والمحتالين على العيش في بغداد العباسية وقرطبة الأندلسية، والقاهرة المعزية وهو سليل ابن الحجاج الشاعر الداعر الجارح الذي ترك منصبه كمحتسب لبغداد ليندمج في السوقة والمحتالين على الحياة وليترك لنا شعرًا لا أقذع ولا أجمل .. وهو خلف مخلص لسلفه ابن قزمان مبتدع الزجل ومغني قرطبة المتجول العربيد الذي أثر في الشعر الأوروبي في القرون الوسطى بأكثر مما أثر فيه شعراء الأندلس الآخرون.

وهو - نجيب سرور - حفيد مبدع لأبطال مقامات الحريري والهمذاني من أهل الكدية والذكاء والشعر. وعلى الرغم من ذلك - أو من أجل ذلك - فهو مثقف عصري بأدق معاني الكلمة وأكثرها شمولا لتعريف المثقف العصري. تابع، ودرس وكتب وعرف وتأثر بأغلب تيارات العصر الفكرية والأدبية والفنية شارك في النشاط السياسي العملي كيساري قبل ذهابه إلى موسكو ليدرس الدكتوراه في العلوم المسرحية .. وشارك في الصراع الفكري

---

(١) المرجع السابق.

الخصب والمثمر الذي دار على صفحات المجلات الثقافية البيروتية والقاهرية .. كالآداب والثقافة الوطنية والرسالة الجديدة والهدف والشهر وانغمس في الصراع الفني حول المسرح والشعر في مسارح القاهرة وعلى صفحات المجلات الفنية وفي الندوات والمؤتمرات التي امتلأت بها قاهرة الخمسينات والستينات . كان باختصار حاضرًا في عصره وجيله .. متألقًا ومثيرًا للشغب الفكري والفني ومعترضًا ومحتجًا على السائد والخاطيء والمغلوط وسيء القصد والهادف إلى التخريب والتشويه والتسطيح .

وكانت وسيلته الأولى لإنجاز هذه كله هي مهنته الثامنة : الصعلكة ، ترفدها موهبة متفجرة وثقافة واسعة ، ومعرفة عميقة بالحياة والبشر وشجاعة عارية في إبداء الرأي والتعبير عن الموقف وقدرة على الاستغناء عن القبائل السياسية والأدبية والفنية التي عاصرها وعايشها وانتمى إليها وخرج عنها ، ودافع عن شعاراتها حينًا ، ولعنها أحيانًا .. في القاهرة ودمشق وموسكو وبودابست.

المخلوعون .. والمنتمون :

إذا كانت «الصعلكة» في جوهرها الإنساني هي الخروج الفردي على المواضعات والقيم والتقاليد السائدة ، والانتماء بالسلوك والتبشير والفكر والإبداع إلى مواضعات أخرى أكثر إنسانية وعدالة .

إذا كانت رفضًا للانتماء القطيعي الآمن : وللتكيف الجالب لرضا السلطة السياسية والمؤسسات الاجتماعية .. واختيارًا للجديد المحفوف بالمخاطر والجالب للمتاعب . إذا كانت «الصعلكة» بما هي كذلك عقابا اجتماعيًا للفرد من الجماعة ، وخلعا له منها وإقصاء له عنها وحرمانها من فردوسها الاجتماعي أو كانت انخلاعًا إراديًا من الجماعة وهربًا من فردوسها الراكد المرفوض نشدانا للخلاص الفردي ، وتبشيرًا بقيم إنسانية بديلة ما زالت تتخلق في وهم المستقبل يراها الصعاليك ثاقبو النظرات الملهمون ، وينحتون من أجل التأكيد الجبل بأظافرهم .

وقد يبدو للكثيرين أن جهاد الصعاليك واجتهادهم هذا كان خائبًا كسعي العشاق المرفوضين المهجورين ، وصراعًا عبثيا ضد طواحين الهواء وأشباح الشياطين لكن التاريخ

يعلمنا أن هؤلاء المرفوضين المتبذين من الأهل والمجتمع مكانا قصيا، هم ملح الأرض وعلامات التحول والتقدم وأحد الأدلة التي لا تقبل الشك على نيل الإنسان وطموحه وحلمه بالعدل والتقدم.

لقد كان نجيب سرور في حياته القصيرة في عدد السنين التي عاشها «١٩٣٤ ــ ١٩٧٨» والغنية بعمق الوقائع والأحداث والتجارب والصراعات والإنجازات التي شهدها .. كان تجسيدًا لتلك الشخصية الإنسانية النبيلة ولذلك النموذج الاجتماعي المنفرد .. الصعلوك ولكنه كما أسلفنا كان صعلوكًا من طراز خاص، فقد رفض التشابه والتماثل حتى مع أولئك المنفردين.

لقد اختار وهو الممثل الموهوب ألا يقتصر أداؤه التمثيلي على الأدوار المكتوبة والمرسومة الحركة والإيمائية، على خشبة المسرح أمام شاشات السينما والتليفزيون وميكروفونات الإذاعة، ونقل عروضه المبتكرة التي يقوم فيها وحده بدور المؤلف والمخرج والممثل جميعًا، إلى خشبة الحياة واستوديوهات شوارع القاهرة ودمشق والإسكندرية، إلى المقاهي والمطاعم والمنتديات والموالد والتجمعات والبارات الرخيصة والمشارب الأنيقة حسنة الإضاءة وجيدة الخمر كان يعرف أنه بعروضه المرتجلة والحية والمبتكرة وغير المسبوقة، يصدم ويجرح ويدمي ويفضح لا القيم الاجتماعية والفكرية السائدة وحدها، لكنه يفعل ذلك وأكثر بقيم «الصفوة» من أصدقائه المثقفين .. وكان هذا يسعده سعادة خاصة، ويدفعه إلى التجديد والتجويد والابتكار في عروضه التي أصبحت جزءًا من طقوس تجمعات المثقفين النهارية والليلية في متدياتهم ومفاهيمهم، وحاناتهم الرخيصة سيئة التهوية والإضاءة ورديئة الخمر.

وكان يستعين في عروضه، شبه اليومية، تلك. بمختاراته الخاصة من التراث الأدبي العربي والعالمي بداية من آيات القرآن الكريم وليس نهاية بما كتبه العبقري الإسباني «سيرفانتس» على لسان بطله الخالد «دون كبخوته دي لامنشا» أما شاعره المفضل والأثير، بل إمامه ومعلمه ومرشده فهو أبو العلاء المعري الذي كتب عن شعره مجموعة من المقالات العميقة النفاذ، سواء اتفقنا مع استنتاجاته فيها أم اختلفنا.

سكسونيات نجيب سرور!

لقد ذهبت عروض نجيب سرور الحية والمبتكرة بذهابه عن دنيانا ..

لم تسجل على أشرطة السينما أو الفيديو . رغم أنه هذه أو تلك لم تبخل بملايين الأمتار من الأشرطة لتسجيل مالا طائل من ورائه ولا فائدة فيه .

ولكن هذا أمر منطقي من أصحاب السينما والفيديو حكومة وأفرادا .. وهو أقل عقاب أنزل بنجيب سرور وبإبداعه الذي كان شهادة حية وجارحة وصادمة على العصر ..

وإلى جانب العروض التمثيلية الحرة اليومية كان الشعر فصيحه وعاميه وسيلة هامة في تعبير نجيب عن عصره وجيله وعن مواقفه منهما .

وإبداعه الشعري متنوع كحياته ، حافل بالحكمة والسخرية ، بالأخيلة المجنحة ، وبالوقائع الفظة . بالصور الشفافة العميقة ، وبالتقرير المباشر والخطابية الزاعقة ، بالرقة العذرية وبالغلظة العارية ..

ولو كان مجتمعنا الثقافي وضميرنا الاجتماعي في سماحة وسعة صدر وعقل أجدادنا في القرن الرابع الهجري أو حتى في أوائل هذا القرن الذي نعيشه لدونت أشعار وأزجال نجيب سرور كاملة ولأتيحت للدارسين والنقاد ليعرفوا منها بعض جوانب تاريخنا الاجتماعي والثقافي والسياسي لكننا نعيش عصر الرقابات المتعددة القادرة بفجر وشراسة على فضي ومحو كلما يتعارض معها أو يخرج على مواضاتها .. لقد سجل «الثعالبي» على سبيل المثال في موسوعته عن أشعار القرن الرابع الهجري «يتيمة الدهر» أشعار ابن حجاج وابن سكرة من اصطلح على تسميتهم بالشعراء الداعرين الإباحيين ، معتمدا على مقاييس الشعر وحدها أما المقاييس الأخلاقية والدينية فقد تركها لله يحاسب عليها إن شاء ويعفو عنها إن شاء . وعندما أعاد العلامة المحقق الشيخ محي الدين عبد الحميد طبع «اليتيمة» في بدايات هذا القرن اتخذ نفس الموقف المستنير الذي اتخذه الثعالبي ..

لقد كتب نجيب سرور في هجاء عصره ومجتمعه وجيله رباعيات زجلية انتشرت عن طريق التسجيلات الصوتية في كثير من العواصم العربية .. ويحتفظ بنسخها الصوتية العديد من المثقفين العرب كنوع من الأدب السري الذي يصور ويعبر عن الحياة الاجتماعية

ويوصف بالبذاءة والإباحية علنا ويتداول وتستمتع به سرًا كنوع من السلوك المزدوج المألوف في حياتنا.

ولن نستطيع بالطبع أن نقدم هنا نموذجًا من تلك الرباعيات التي ترسم صورة عارية وجارحة لبعض جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية في قاهرة الستينات والسبعينات ولنسمها تجاوزًا «السكسونيات».

ولد محمد نجيب سرور في سنة ١٩٣٢ في قرية إخطاب إحدى قرى مديرية الدقهلية لأسرة ريفية أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى، ولحق بالكتّاب حيث حفظ القرآن الكريم، وأتم دراسته الأولية، ومن ثم حضر إلى القاهرة، حيث أتم تعليمه، وبعد ثورة ١٩٥٢ أوفد في بعثة إلى الاتحاد السوفييتي لدراسة المسرح، وهناك تزوج سيدة روسية، ثم انتقل إلى بودابست بالمجر، حيث كتب مسرحيته «ياسين وبهية».

ولما عاد إلى مصر قدم مسرحياته النثرية والشعرية على خشبة المسرح، مثل: ياسين وبهية، آه يا ليل يا قمر، الكلمات المتقاطعة، التي أحدثت صدى واسعًا لجرأتها وتجديدها.

وبعد نكسة ١٩٦٧ راح يكتب خواطره النقدية العنيفة في مسرحيات حادة مثل: الحكم قبل المداولة، التي ناقشت أسباب هزيمة سنة ١٩٦٧، الذباب الأزرق، وهي مسرحية لتناول القضية الفلسطينية سنة ١٩٧٧، ملك الشحاذين سنة ١٩٧١.

وخلال سنواته الأخيرة كتب مسرحيته «منين أجيب ناس»، ويعتبرها النقاد من أفضل أعماله وأقساها.

وكان نجيب سرور شاعرًا مجددًا، ومن دواوينه «التراجيديا الإنسانية»، وهي عبارة عن مجموعة من القصائد نشرها فيما بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٩، وقد صدرت بالقاهرة سنة ١٩٦٧، وهي وديوان «لزوم مالا يلزم» الذي يرد به نجيب سرور على ديوان أبي العلاء المعري الذي يحمل نفس الاسم «لزوم ما لا يلزم»، يكشف فيه عن الشخصيات الأساسية التي أثرت على تكوينه النفسي مثل «المعري ودون كيخوته» وغيرهما، وينم هذا الديوان على ثقافته العميقة، ثم أصدر ديوان «بروتوكولات حكماء ريش» الذي صدر بالقاهرة سنة ١٩٧٨، وكشف فيه بمرارة عن تعالي المثقفين وأشباه المتعلمين، واستغراق الثقافة العربية في

شكليات مباني الألفاظ بقدر ابتعادها عن الحقيقة ومعاني الأشياء الجوهرية.

وفي سنواته الأخيرة كتب رباعيات نجيب سرور تناول فيها موضوعات سياسية بأسلوب صريح يدين فيه مراوغات وأطماع الصهيونية.

وعانى نجيب سرور في سنواته العشر الأخيرة من ظروف نفسية وصحية صعبة، أدخل بسببها إحدى المصحات النفسية، وظلت صحته تنهار حتى رحل عن الحياة في الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٨.

ولنجيب سرور ديوان كامل من الشعر الجريء المحظور نشره، والذي تناول فيه النواحي السياسية والنواحي الحسية بجرأة بالغة.

كما سجلت له قصائد سياسية محظورة على شرائط كاسيت تصدم الأعراف والتقاليد.

حكماء ريش .. والصهاينة :

لنجيب سرور مجموعة شعرية عنوانها «بروتوكولات حكماء ريش» والعنوان كما هو واضح يجمع بين الإشارة إلى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، وبين حال المثقفين الحكماء الجالسين على مقهى ريش التي كانت في منصف السبعينات مقرًا وملاذًا لمثقفي مصر ومبدعيها وصعاليكها قبل أن يستبيحها فيما استباحوا أبناء العم الصهاينة القادمون من الأرض المحتلة من أمريكا راعية الصهيونية في كل أرض ..

وقد يختلف الكثيرون حول قيمة هذا الديوان الشعرية ، لكن الذي لم يعد عليه خلاف منذ أكثر من عشر سنين هي قيمة هذا الشعر التنبؤية بما حدث بعد ذلك في مصر ولمصر .

لقد كتبت هذه الأشعار في بداية السبعينات وفيها يحذر نجيب سرور قومه من الخطر الصهيوني الزاحف على أرض مصر والذي كان يراه رؤيا العين ، رغم أن قومه يرونه بعيدًا ويرمون صاحب النبوءة بالجنون والتخليط .

كان نجيب سرور يرى ما لا يراه قومه من مقدمات الصلح مع العدو

الصهيوني ويستعين بالشعر التقريري المباشر .. بالسخرية المرة الصارخة لينبه ويحذر وينذر حتى أنه قال «أصبح أخوة يوسف جسرًا عبر عليه الأسباط » لكن قومه كذبوه ، فلما وقعت الواقعة وحدث ما ظل ينبه له ويحذر منه لأكثر من عشر سنوات عرف نجيب أن الأوان قد آن ليرحل عن مصر إلى العالم الآخر، فقد كان يتمنى أن تكون رؤياه الملحة ، وكأنها الوساوس المرضية حديث خرافة، وتخليط عقل مرهق ، فهذه خطوط سريعة لصورة واحد من شعراء مصر الموهوبين الذي بدأ حياته ثائرًا متمرًا ، وانتهى صعلوكًا ضائعًا تائهًا في شوارع مصر، وفي دروب الشعر والفن والمرأة!

أما باقي خطوط صورته الفنية والفريدة والعميقة الدلالة على مسيرة الجيل فهي تحتاج لكتاب ينتظر من ينجزه ليحفظ لنا جزءًا من ذاكرة وضمير جيل من المثقفين العرب مقطع من قصيدة طويلة لم تنشر لنجيب سرور :

إنا نشرب يا أيبور لأن الكلمات الحكمة
تبدو حرثا في البحر ..
لا في الحقل ..
لا يحرث إلا حامل درع ..
والحكمة تمشي عزلاء !
والشرير بيده القوس
ليتك تصمت ..
ليتك يا أيبور صمت
بل ليتك حتى ما كنت ولدت
أني ألعن من علمني الحكمة ..
من علم أحدًا حرفًا خانه .
فالكلمات الحكمة يا أيبور اليوم خيانه
أولم تصبح يا أيبور مهانة

***

فقراء نحن بغير الكلمة يا أيبور
وطيور نحن وصيادو السمان
مختبئون بغابات العشب
في الدلتا .. بفخاخ وسهام ..
غير المصري غدا مصريًا ..
والمصري أصبح غير المصري
والناس على رمل الشاطيء
كأسماك النتنة
عم العفن الأرض
والكارثة خراب شمل الأرجاء
يا أيبور المصريون أجانب
المصريون أجانب

ورحل الصعلوك الضائع:

وعندما رحل نجيب سرور عن الحياة في ٢٣ أكتوبر ١٩٧٨ بكاه صديقه الشاعر فتحي سعيد وروي لنا بعض لمحات من حياته ومواقفه ومأساته في سنواته الأخيرة ووصفه مأساته بأنه مات كالفرسان بحثًا عن بطولة !

«وأخيرًا ات نجيب سرور
وليس ذلك بالخبر الجديد !
لقد مات نجيب سرور منذ سنوات خلت
ولكن نبا إعلان وفاته تأخر طوال هاتيك السنين ! [1]
لقد مشى نجيب سرور في جنازته على قدميه ..

(١) مجلة الإذاعة، فتحي سعيد، ٢ ديسمبر ١٩٧٨، مات كالفرسان بحثًا عن بطولة .

وشيع نفسه حيا بما فيه الكفاية ..

ولم يبق من فصول الرواية إلا أن يدلف إلى القبر ويوارى جثته بيديه ويعثر على الوجه الحقيقي والوحيد له وللآخرين .

وهو وجه الموت ..

بينما وقف جميع شعراء مصر .. ورفاقه من أهل المسرح والنقد يتفرجون عليه .. ويتندرون به.. أو يشاركونه عشاءه الأخير على أكثر تقدير ! .

«نم يا صديق ..
من حق قلبك أن ينام
فطالما حرموه أن يغفو وهو القلب الرقيق
كانوا هنالك شاهري الأنياب والأظفار
في كل منعطف على طول الطريق
نم يا صديق ..

نعم .. فقد أطلقت على نجيب سرور رصاصة غادرة في سنواته الأخيرة اخترقت ضلوعه وهتكت أعماقه استقرت في صدره .. دون أن يتقدم أحد لانتزاعها من وراء الضلوع..

ولقد طوى نجيب سرور قفص صدره على تلك الرصاصة الغائرة الغادرة وكأنه يقبض بالأنامل على لؤلؤة ظفر بها من طول الغوص والسباحة في الأعماق..

وترك دمه ينزف .. ورغبته تتضاءل .. وطاقته تهدر في صمت وعلى مهل .. حتى لفظ الرصاصة القاتلة مع الرمق الأخير ..

اغتيل نجيب سرور ذات ليلة في سنوات عمره الأخيرة وعلى قارعة الطريق .. دون أن يخف لنجدته واحد من العابرين ..

فانطلق كالذئب الجريح يعوي في وجوه الناس .. وفي طرقات المدينة دون جدوى ..وبدلاً من أن يبحث عن نجاة أو ينزع الرصاصة من جسده .. آثر

الاستشهاد حاملا فوق صدره صليب الإدانة .. ففتح ذراعيه للموت وسلم نفسه طائعًا مختارًا لقاتليه : العلة والضياع .. وأطبق أصابعه فوق الرصاصة الملتهبة حتى احترق .. راضيًا وقريرًا وكان ذلك قراره الأخير الذي اختاره بمحض إرادته وكامل وعيه واعتبره طريق البطولة والخلاص ..

وقف نجيب سرور في مهب الريح عاري الجسد يبحث عن وجهه في زحام الوجوه والأقنعة والضوء والضباب حتى اقتلعته العاصفة القادمة من غابات الشتاء .. فتهاوى مثل شجرة نخرها السوس!

« قد آن «يا كيخوت» للقلب الجريح
أن يستريح
وانقش على الصخر الاسم
يا نابشًا قبري حنانك ها هنا قلب ينام
لا فرق من عام ينام وألف عام
هذه العظام حصاد أيامي فرفقًا بالعظام ..

* * *

وحفر نجيب سرور قبره بأظافره .. كما قال .. وكانت السماء أرحم قلبًا من البشر فأطلقت عليه رصاصة الرحمة ليستريح.

كان نجيب سرور يحمل أكثر من وجه لذلك .. كانت معاناته أثقل وأكبر وكان الثمن الذي دفعه فيها أغلى وأفدح ..

كان من ذلك النوع الذي يمتلىء قلبه بالفن .. وتهيم روحه بالإبداع ويتوهج قلبه بالألم العميق وكان يحمل قلب شاعر .. وبراءة طفل .. وكم كيل له من هذين الجانبين ..

كان يبحث عن شيء لا يجده دائمًا .. كان فارسًا بمعنى الكلمة سيفه الكلمة ورمحه القصيدة وجواده الريح .. يطير به إلى كل فج .. ويسابق الزمن على غير هدى . ويقاتل به أشياء غير مرئية .. ولكنه وحده يراها .. كان مخرجا ومؤلفًا

مسرحيًا وممثلاً وزجالا وكاتبًا وشاعرًا ..

وكان وجه الشاعر فيه هو أقرب الوجوه وأحبها إلى عشاق شعره، فمنه كانت تشبع ملامحه الأخرى وتفيض وتتألق .

كان شاعرًا يعتلي خشية المسرح بدلا من القافية أحيانا .. ويتقمص القصيدة ويتفوق الممثل فيه على الشاعر أحيانًا أخرى ..

وفي كل الأحايين .. كان وجه الشاعر هو الوجه الأصيل فيه .. يلمع ويتوارى بقدر ما بدد من طاقته الشعرية وأراقها في دروب أخرى كالتأليف المسرحي والإخراج والتمثيل ونسج المقطوعات الزجلية والمواويل والرباعيات.

ولقد أدرك نجيب سرور أصول موهبته .. وأدرك أيضًا أنه يبدد طاقته الكامنة في مسالك أخرى .. حتى ليفلت منه هذا الحدس وذلك الشعور في قصيدته «المهرج» التي كتبها قبل أن يدهمه التشرد والمرض بعشرين عامًا وأكثر وهو يبحث عن هويته في البدايات :

«ودرست في الكلية القانون ..قانونًا لغابة
يتلى علينا من عصابة
وشغفت بالتمثيل .. لم أعشق من الأدوار
إلا دور «هملت»
يا سيداتي كنت فلاح الملامح لا تلائم
سحنتي دور الأمير
لكن تلائم دور «حفار القبور»
وهويت فن الرسم .. كنت أريده دوما نمر
فيجيء دوما محض قط
وهويت من يعد القصص
وكتبت آلافًا بأبطال «كأدهم»
ونظمت أشعارًا على كل البحور

منها المقفى وفق ما قال الخليل.. واللا قعفي
فانهالت الأيدي
وما كانت من الوزن «الخفيف» في الحالتين
على قفاي ..

كان المسرح عند نجيب سرور .. هو قافيته المحببة الأثيرة .. وكان يرى الكون مسرحًا مليئًا بالمساحيق والماكياج والممثلين والنصوص والأدوار وحركتي إسدال الستارة وفتحها .. فاستعان بحدقة رجل المسرح على قول الشعر وفي نفس الوقت كتب القصيدة بلغة مسرحية إن صح التعبير فأكثر فيها من الحوار والمنولوجات والكلمات المأثورة .. بل لم يتورع في أن يطعمها ببعض النكات والنوادر الشائعة أو يمزجها بسطور من العامية من تأليفه أو لغيره .. فأباح لنفسه أن يكون مخرجًا لقصيدته بدلاً من أن يكون شاعرها فقط:

« لو لم يقلها «شكسبير»
قبلي .. لقلت الأرض مسرح
والناس فوق الأرض محض ممثلين
فتح الستار على البداية
ضم الستار على النهاية
لم يبق غير الصمت من بعد الرواية
ما أشبه المسرح خلوا .. بالضريح ! » .

* * *

ومن هنا لم يكف شاعرنا عن البحث الدائب لاكتشاف شكل جديد يتمدد فيه .. دور غريب يلعبه على مسرح الحياة حتى لو كان هذا المسرح هو ضريحه الذي يبنيه لنفسه فهو يعرف تماما قضيته .. وهو مزود بخبرة سنوات الاغتراب والنفي بعيدا عن وطنه .. ويعزف لمن يغني ولكنه لا يقتنع بالشكل .. ولا يعترف بلقب الشاعر فقط فيكتب الشعر بلونيه المقفى والجديد ... والفصحى

والعامية ويعزف على سجيته ويود لو كان له جناح «فرجيل وهومير» أو يمتلك قيثار «دانتي» ويراع شكسبير .. أو فارس الفرسان «بايرون» .. أو رائد التجديد «أبي العلاء » ...

أولئك الذين أحبهم دون سائر الشعراء فنهل منهم وارتوى وتمنى في ضوء ما تنوء به أعماقه من رؤي وعوالم وما يختلط ويضج به وعاؤه الفنى لو وجد شكلا لم يطرقه أحد من قبل .. قناعًا لم يتقنع به فارس سواه .. «ألفاظًا لم يعرفها الناس» وأنه آت بها لم يستطعه الأوائل ، ولكن كيف ويداه قصيرتان :

«أجود باللهيب لحظة وانطفيء .
وأنه من البحار موجة على السطوح
تقوم في غرورها لتنكفيء .. » .

***

ولكنه بالرغم من باعه القصير كما يقول يطاول الشهب ويجاور النجوم .. ويقص ويحكي عن «بهوت وعن ياسين وعن بهية ! » .. فيود لو جعل من «بهوت» «طروادة» ومن قصتها إلياذة أو كوميديا إلهية .. أو رحلة خالدة كأناشيد هارولد .

إن الشاعر نجيب سرور هو الشخصية الأولى والبطولية .. في كل أدواره الفنية التي لعبها على مسرح الحياة .. ومن ثم فهو قادر على اندفاعه الجنوني يهدهد تجربته ويستجيب إليها ويرقد عليها حتى تفرخ في أوانها .. ولا يقنع بخروجها إلى الحياة دون حيثيات فهو إلى جانب الشاعر فيه .. رجل مسرح يستطيع أن يحول خشبة المسرح تحت قدميه إلى قافية وأن يحول القافية في يديه إلى خشبة مسرح ، ومن ثم فهو يستثمر لحظة الحضور كرجل مسرح ولحظة الشعر كرجل كلمة استثمارًا موضوعيًا مأمونا يستمده من خبرته الملحمية المسرحية وتلازم هذه الخبرة مع نشيده الشعرى ...

وتستطيع أن نلمح هذا في نماذج المسرح والشعر أو بمعنى آخر امتزاج

الخشبة والقافية إذا انتزعناه من دائرة المسرح إلى دائرة الشعر حيث يتناثر الشجن الدرامي في أرجاء قصائده :

«أحسناء ما غيرتني السنون ولا غيرتك
أحبك ما زلت لكنني .
وهبت النشيد لهذي الجموع ... »

لذلك يكاد يكون تحول نجيب سرور من قالب القصيدة الغنائية إلى قالب القصيدة الملحمية أو المسرحية بالذات تحولا مطردا وطبيعيا بل نكاد نقول: أنه تحول مقصود .. ركب موجته ليعوض ما فاته كشاعر له مكانته في كوكبة الشعراء السباقين لكن أمواج المنفى قذفته بعيدا عن الحلبة وعاد ليؤكد ملامحه السابقة ويزهو بتفوقه على أقرانه ونظرائه الشعراء بتجربتي المسرح والغربة علاوة على الشعر :

«أنا لا أجيد القول قد أنسيت في المنفى الكلام
وعرفت سر الصمت كم ماتت على شفتي
في المنفى الحروف ..
الصمت يعني الصمت .. هل يعني الجحيم سوى الجحيم ؟ »

ولأن نجيب سرور يلبس سترتي الاثنتين معا : الشاعر والمخرج فهو لا ينسى التفاصيل والجزئيات الصغيرة في أشعاره .. ويبيح لنفسه أن يتدخل في مسار قصائده باعتبارها ملكًا له .. وباعتباره مخرجا يرى من حقه أن يتدخل في ممتلكاته .. لذلك انعكست الصورة المسرحية تماما على أشعاره ..

كما انعكست صورة الشاعر تماما على مسرحه ..

حتى ليوقعه ذلك في السرد الطويل والإطناب والتكرار والنزول بالومضات الشعرية الغالية غير منزلها ..

وأسلمه ذلك أيضًا إلى مزالق الثرثرة اليومية في أشعاره التي يجمع خيوطها

دون عناء أو مكابدة أحيانًا بدلا من أن يسخرها لهدفه الشعري - وهو الشاعر المتمكن - بضربة واحدة «قاضية» .. أو يفطن - وهو الذكي - إلى عزل القصيدة عن المشهد الشعري التمثيلي ..

ولم يكن ذلك غائبًا عن موهبة نجيب ولكنه كان غارقًا حتى أذنيه في قاع طاقاته .. تتكاثر عليه ويفجرها على هواها عازفًا عن نقد الأصدقاء الخلصاء .. لاهيا عن موهبته الحقيقية بحثًا عن دور جديد لم يلعبه من قبل .. أو قول جسور لم يسبقه إليه أحد حتى ولو جانب آداب اللياقة .

اسمعيني .. فقد أخرستني في المولد ضجة الدروشة
شنقتنى.. خنقتنى .. صلبتنى
دمرتني .. شردتني.. ضيعتني

ولقد قال نجيب سرور ما أراده بجسارة وعلانية .. وحين أعياه وجرفته لذة الاكتشاف ولعبة التمثيل قام .. بتمثيل دور لم يلعبه شاعر ولا مخرج ولا ممثل قبله..

حتى البؤساء الحقيقيون .. أمثال «عبد الحميد الديب» لم يجرؤوا على أن يؤدوا نفس الدور علانية وأن لعبوه خفية ..

ذلك هو دور الهائم الطريد .. السائر في الطرقات على غير هدى .. الباسط يده للناس أشعث أغبر رث الخلقة مرقع الثياب .. حافي القدمين .. يستجدي المارة وينحني على الأرض يلتقط أعقاب السجائر .. أو يلقى بنفسه أمام عجلات السيارات .. ويرفع عقيرته وسط الميادين بألوان الشتائم والسباب .. ويكلم نفسه ويزعق ويشهق ويبكي ويمسك بعصا من الجريد يلوح بها في الهواء ويرسم بها الكلمات والإشارات ويربت بها على ظهور المارة ورواد المقاهي .. ويحك بها ظهره ويتوكأ عليها ويتصنع العرج .. ويجمع النقود .. ويغشى الحانات الرخيصة ويفترش أسفلت الطرقات .. ومنحنيات الكباري .. وينام في المحطات والحدائق .. وتمسكه الشرطة وتضربه الشرطة وتوجه له أقذع التهم .. ولا يكف أو يفيق ..!

ويمر به أصدقاؤه فيتجاهلهم أو يكيد لهم بالقول والإشارة .. وتتفاقم حالته ويندمج في دوره حتى يعرف أمره كل الناس في القاهرة وكأنه كتب قصيدة جديدة اشتهر بها أو أنه ممثل يتضاعف عليه المتفرجون كل ليلة .. ويلمع اسمه في لافتات النيون الليلية والسرية ..!

ويرحل من القاهرة إلى الاسكندرية ليمثل نفس الدور لعدة سنوات وأراه هناك كما كنت أراه هنا .. ويمعن في التجاهل .. أو يكتفي بتحية واعية سريعة ويواصل أداء الدور .. ويدخل هناك مستشفى الأمراض العصبية .. ويخرج عائدًا للقاهرة .. ليواصل أداء نفس الدور حتى يتعب وحتى يمل المتفرجون .. وينفض عنه الصحاب وتسدل الستار .. وخاضوا فيه كثيرًا : مريض ... مجنون .. يائس .. معذور ..

وقلت : بل عمل فني جديد غريب .. قام به وكأنما أعيته مواهبه الأولى فقرر اختصار المسافة .. وإدانة العصر والقيام بحملة إعلان يائسة بائسة .. يجني بها شهرة عابرة دفع فيها أكثر مما أخذ ..

وقال هو .. حين عاد وأفاق :

-بل دور جسور لا يجرؤ واحد فيكم أن يلعبه .. وصرخة عالية أطلقتها نيابة عنكم معشر الشعراء والفنانين ومن أجل ولدي «شادي» وأولادكم الذين في مثل نضارته وسنه لأنكم جبناء .. لا يجرؤ واحد منكم على فعل ما فعلت .. كنت أعقل منكم وأذكى .. كنت فدائيًا .[1]

وكان حماسه وتدفقه يقطع عليك طريق الجدل معه أو مغاضبته وليت ما فعله نجيب سرور.. في سنواته الأخيرة من ضياع وإتلاف وانتحار بطيء عاد عليه بفائدة .. أو على الشعراء الذين أناب نفسه عنهم في إعلان صرخة التمرد والقهر ينفع بل عاد عليه بجسد معتل وكبد مقروحة وقولة حق قالها في اعتراف عفوي منه بعقدته وحقيقة المأساة فيه وحوله :

«كبدي خذوه .

(١) مجلة الإذاعة ، ٢ديسمبر ١٩٧٨ .

يا ناهشي الأكباد هاكم فانهشوه
وليرحم الله الضحايا يرحم الله الضحايا ..
لا .. لا تبالغ ما لهذا الحد أنت لهم ضحية
أخطأت أنت كما هم أخطأوا
أو عل سرًا ثالثًا خلف الخطأ
إنا لتعجزنا الحياة ..
فنلومها .. لا عجزنا ..
ونروح نندب حظنا ..
ونقول هذا العصر لم يخلق لنا ..
هو عصرنا ..
لكننا لسنا به الفرسان ،
نحن قطيع عميان يفتش في الفراغ عن البطولة ..
والأرض بالأبطال ملأى حولنا ..
ملأى .. ولكن باللصوص ! » .

****

وسقط نجيب سرور .. ولم أذرف عليه ـ وهو الصديق ـ دمعة واحدة. بل انزلقت إلى داخلي حارة خرساء .. وطالما بكيته كثيرًا .. وأنا أراه في سنواته الأخيرة يحمل جثته على كتفيه .. وينعكس على وجهه ذلك الشعاع الباهت الدفين الذي ينذر بالعاصفة القادمة ..

كم ذرف القلب من الدموع .. وهم يتساقطون واحدًا إثر الآخر كأنه فروع الشجرة الباسقة في حديقة الجيل .. تلوي بها كف الرياح وتقصفها هبات الخريف الباردة .. على غير موعد !

يا له من موسم فقير الحصاد .. سريع القطاف !

هل شاخت الشجرة قبل الأوان .. أم أن هذا الجيل قصير الأعمار ؟ ونراهم

يتساقطون .. ولا نملك إلا أن تدمع العيون .. وتنخلع القلوب ويجبر الموكب بأبخس الأثمان من دموع أو كلمات .. وننسى ..

كم تعب القلم من الرثاء والبكاء .. وكأنما كتب عليه أن يبكي رفاق الحلبة والعصر واحدًا تلو الآخر ..

عنقود كامل من الشعراء والأدباء تنفرط حياته إثر أخرى ولا يبقى لنا إلا بقايا الذكريات وهشيم النار ..

كم قصفت رياح الخماسين من أعمار وأزهار وأشجار .. خلال مواكب حصادها الذي لم يكتمل ؟[1]

لقد نسينا فهل تذكرون .. حبات العناقيد خلال الموسم الأخير !

أنور المعداوي .. وحيد النقاش .. إبراهيم محمد نجا ـ على مهدي ـ محمود الماحي ـ حامد الأطمس ـ محمد الجيار ـ محمود حسن إسماعيل ـ جمال السجيتي ـ عباس أحمد .. وأخيرًا نجيب سرور ..

وصدق حين قال يخاطب قريته الأثيرة .. وهو بعيد عنها في سفرات الغربة والمنفى .. وكأنما يتنبأ مسبقًا بأنه عائد إلى أحضانها عندما تنتهي الرحلة .. وتنكره المدينة ويحين موعد العودة ..

ولا أقل من أن يحمل الفتى النازح عن أحضان أمه .. قدميه الوارمتين المتعبتين إليها .. ويستريح على صدرها .. ناثرًا في دروبها وحقولها باقة أزهار ذابلة هي حصاد السنين .. وبضع كلمات اختارها وارتضاها لتنقش على قبره .. ويلخص فيها حياته ويقدم نفسه بنفسه فيقول:

«أنا لست أحسب بين فرسان الزمان » .

إن عد فرسان الزمان

لكن قلبي كان دوما قلب فارس

---

(١) المرجع السابق .

كره المنافق والجبان
«أخطاب» قريتي الحبيبة :
هو لم يمت بطلاً ..
ولكن مات كالفرسان بحثًا عن بطولة ..
لم يلق في طول الطريق سوى اللصوص
فرسان هذا العصر هم بعض اللصوص !

ملامح نفسيته :

وقد حلل الأديب الباحث أحمد مرتضى عبده المستويات الفنية في شعر نجيب سرور : مستوى الخيال، المستوى المضموني والدلالي، والمستوى اللغوى وحين تناول المستوى النفسي حاول أن يستشف انعكاس ملامحه النفسية وأزماته الوجدانية على شعره، خاصة أنه بقدر معاناة شخصية المبدع في الحياة يكون اتصاله بالفن .. أو «العمل الفني هو ضرب من الاعتراف الذي يريد الفنان عن طريقه أن ينفس عن رغباته المكبوتة» وبصورة أخرى فالفنان هو الإنسان المحبط أو «الناقص» بصورة أعمق من العادية ـ والإنسان عموما يتحلى بنقص ما ـ بيد أن الفنان أكثر إصابة بهذا ولذا فهو أكثر حساسية أسرع انفعالاً .. ولعل تلك النقيصة هي العامل الرئيسي الذي دفع به للإجادة والتعبير ومحاولة التفوق على الجميع سدا لثغرات نفسه ولعلها الدافع أيضًا للإرادة ـ ابنة الذات ـ التي تحطم كل العوائق وصولا إلى الهدف وهو التعبير والجمال والقوة والمجد [١].

ونجيب سرور رجل فنان ـ لا خلاف في هذا ـ وأعماله تدل عليه من حيث تنوع مواهبه كما وكيفًا فهو مخرج وكاتب مسرحي وممثل ورسام وشاعر وناقد .. ونحاول هنا أن نتبين الدوافع النفسية التي هيمنت على العمل ودفعت له دفعًا ..

فنشأة الشاعر في المجتمع الريفي والتوافق العجيب بين البساطة المدقعة وبين ما يلمس من حالات مأساوية حواليه .. والتناقض الصارخ أيضًا بين هذا كله وبين قصر الباشا الكائن بجوارهم .. وكذلك سقوط القرية تحت نير الدق

(١) الكاتب / يناير ١٩٧٩، المستويات الفنية في ديوان لزوم ما يلزم، بقلم أحمد مرتضى عبده.

الذي يمثله هنا عساكر الهجانة لأقل تذمر يبدر .. ذلك ما أدى إلى التحول الأول لنفسية الشاعر وهو طفل .. وجد التناقض .. والموات يغلف الهواء والأشياء حوله .. ثم فقدانه أمه التي كان يحبها بشكل جنوني ثم شعوره التام بأن القرية هي أمه الكبرى (يا قريتي يا عالمي .. يا عالمي يا قريتي) ومن هنا أضفي الأمومة على مصر برمتها ـ وهو إحساس طبيعي ـ حين وعي الحياة وأدرك الأمور .. أن الشاعر يتحرك من واقع ما يتنفسه وما يلمسه .. وما تنفس وما لمس إلا الجور والإحباط والألم .. ونلمس من لوحاته الكاريكاتورية التي رسمها بحروفه في أجزاء من القصيدة انعكاس حالة الحزن و«القرف» اللذين يتشعبان في خطوطه الداخلية .. ثم وجوده في القاهرة ، صراحته في بعض المواقف ، مطاردة العسس له .. ثم وجوده في أرض الغربة ـ حين أرسل في بعثة لنيل درجة الإخراج من موسكو ــ أن الشاعر جعل نفسه قصيدة طويلة ـ رغم قصر عمره ــ قرأنا فيها أهوالا من التعابير وتعابير من الأهوال .. زد على ذلك أن الشاعر قد أحس بعد عودته بالغربة في بلده وهذا أشد وقعًا وأصعب تأثيرا .. لقد رفضه الصحاب والغرباء .. لفظته الطرقات إلى الطرقات والطرقات إلى الحانات والحانات إلى مستشفيات الأمراض العصبية .. إنه يمثل ذروة المأساة لإنسان هذا العصر ..

نجد في القصيدة ألفاظًا تكررت .. ولا يعني هذا إلا أن لها انعكاسًا نفسيًا خفيًا فاللفظ لسان الحال .. ومن هذه الألفاظ المكررة الكثيرة : الموت ـ الصبار ـ اللصوص ـ المنفي ـ العفن ـ الدعارة .. وهي كثيرة التكرار :

حتى الهواء كأنه السم الزعاف
لو نسمة تأتيك من أنفاس مصر
يا قريتي يا ظلة الصفصاف يا برج الحمام
في سطح بيتي ، عاد للبرج الحمام
مع المغيب ولم أعد
وفتاك يا أحلى صبية
يا مصر ، عاد إليك محمر الخدود

قطع الصحاري لاهثًا في القيظ   مد إليك من دلتاه أحنى ساعدين

فالقصيدة قصيدة حب .. حب لم يذق فيه سوى التشرد والضياع والموت البطيء .. أن نفسية الشاعر وهي تهبط هبوطًا معنويا عنيفا صعدت في نفس الوقت إلى ذروة الإحساس وقمة الشعور أنها عبارة عن شاشة بيضاء ترسم عليها انفعالات الشاعر صورًا شتى قد تختلف في أنماطها وسماتها ولكنها تتحد وتتساوق في مدلولها وهو الموت والإحباط ... حتى أن الشاعر جعل من أبويه الأولين «آدم وحواء» سارقين :

السرقة كانت « لا الكلمة »
في البدء كان الأمر أصلب
في الجنة حواء وآدم
بالتفاحة
هبط اللصان إلى العالم
فإذا العالم
وكر لصوص

ولا تنتهي مأساة الشاعر بتنديده بل أنه مداوم على الخوف أو أن الخوف مداومه ومدركه أو «كيفه» :

أنا لست أخشى الذئب ذئبًا ، إنما أخشاه في جلد الحمل
رعبى عدو لا أراه
أو لا أراه
إلا إذا فات الأوان
وكذا إحساسه بالمنفى حتى فوق تراب بلده
تنفي من المنفى وتبدأ من جديد
هذا مصيرك يا شريد
أن تطرق الأبواب من باب لباب

فتردك الأعتاب للأرض الخراب
كلبا يضيع مع الكلاب

ويختتم الشاعر قصيدته الطويلة بمقطوعة «العودة» والتي يبدو للوهلة الأولى أنه كتبها رثاء في نفسه ولا ريب أنه أحس حينذاك بدنو أجله فجعل يبكى أيامه الباقيات وأن السفينة قد لاح لها المرفأ المنشود الذي هو كالصباح الجديد لأبي القاسم الشابي : الموت والعالم الآخر :

المرفأ المنشود لاح
أفرغ شراعك يا غريب من الرياح
للمه .. كم ود الشراع لو استراح
لو استراح
ودع طيور البحر «صعب يا رفاق ،
صعب على القلب الفراق »
ودع طيور البحر ، كم راحت إلى الأفق البعيد
تشتم ريح اليابسة
لتعود لاهثة ترفرف .. يائسه
« لا شيء بعد الأفق يا ملاح غير الأفق كل الكون بحر »
وتنام مجهدة على الصارى ـ طيور البحر ـ أن هجم المساء
وتظل أنت بلا رجاء
بلا رجاء ؟

إنه يفلسف الأشياء .. يقف منها موقف الخبير بالأمور وهو يضفي الموت على كل الألفاظ ـ إيحاء وإيماء ـ من قبيل الشعور العام الذي يعانيه:

في البدء ، فقط ضبط الشرطة
والآن صار الصلب أوجب
حتمًا ستصلب من جديد

والحياة حوله ملأى باللصوص :
هم في انتظارك - كل أتباعك ، قطعان اللصوص
هم في انتظارك بالصليب
ماذا ؟ أتبكي ؟ كل شيء مضحك حتى الدموع
العصر يضحك من دموعك ، من دموعي
عصرنا عصر اللصوص
بل أنت حتى أنت لص
لو لم تكن ما كان في الأرض اللصوص
حتى أنا لص - ألم أخدع طويلاً باللصوص

الشاعر إذن فقد الثقة في كل من حوله وما حوله - شعوره بالقهر والإنسحاق - شعوره بالضبابيه والقتام .. أنه ساخط متبرم .. و «نادم» على الحياة .. ثم ما معنى تأثره العميق بفكر أبي العلاء المعري واتخاذه إمامًا له وقوله في بعض قصائده (رباعيات) (هذا جناه أبو العلاء وما جنيت على أحد) فالمتبع الدارس القاريء لفكر أبي العلاء يجده فكرًا تأمليًا ساخرًا عميقًا ومعقدًا أيضًا فأبو العلاء نفسه كان يرزح تحت وطأة العمى وعيشة الكفاف - وذلك من أسباب تداعيه الحياتي ودورته الفكرية - الصلة إذن نفسية بين المتأخر والمتقدم أو بين نجيب سرور والمعري .. أن الشعراء ليسوا إلا مفكرين دفعهم لهذا تمزقهم الداخلي الذي جعلهم عيونا على تمزقات العالم الخارجي .

إن الفكر إسقاط نفسي في المقام الأول ومحاولات من صاحبه لإدراك المثاليات المفقودة ، فالشاعر لا يحدثنا عن نفسه قدر ما يحدثنا عنا .. ! أنه يعرض ما لاقاه فإذا هو ما نلاقيه عادة بيد أن المنظور الفني هو الذي يجعله يرسم لنا ما نفعله عادة من الرتابة والقلق والخوف والضياع :

خبز' (كلوا خبزي) وراحوا يأكلون
كانوا جميعًا يمضغون ويبلعون ويقسمون :
(لا .. لن نخونك يا معلم)

والآن من منهم معك ؟
يا أيها المصلوب من منهم هنا ؟
لاذوا جميعا بالجحور
وأذاك وحدك والصليب

والقصيدة ـ الديوان ـ بشكل عام عبارة عن قصيدة حب .. نعم .. وقد يختلف الإهداء إما لأمه أو لقريته أو لمصر أو للجميع .. يتجلى هذا في تعابيره المختلفة :

قولوا «لدولسين» الجميله
«أخطاب»قريتي الحبيبة
والخبز يا كيخوت مر
لو كسرة من خبز مصر
والماء يا كيخوت مر
ماء المنافى في مثل ماء البحر لا يشفى غليلا بل يزيد من الغليل
لو قطرة من نيل مصر
ومتى فقدت برحلة الهوى الرجاء ؟
لا شيء أنت لم تيأس ، وإن أملت دهرًا لو يئست
لو لم تكن أقوى من اليأس ترى كيف وصلت ...

***

لقد تعرفت على الشاعر نجيب سرور في منتصف السبعينيات في مكاتب مجلة الكاتب التي كانت بإحدى العمارات المطلة على كورنيش النيل بشارع ماسبيرو قرب مبنى التليفزيون وبدت عليه علامات الإرهاق والذهول ، وكان وجهه ينم عن صدمات الحياة التي هزته وحطمته وهدت قواه .

وكان الرجل ودودًا معي ، وتكلمنا عن دراساته الأدبية والمسرحية التي كان ينشرها يومئذ وقصائده المتمردة وأعطاني عنوانه بأول شارع الأهرام بالجيزة ، لإجراء حوار مطول معه يتناول سيرته وحياته ، لكن سفري إلى مسقط في مطلع عام ١٩٧٦ لرئاسة تحرير مجلة السراج كأول مجلة أدبية في سلطنة عمان أضاع مني هذه الفرصة للاقتراب أكثر من هذا الشاعر الحزين المتمرد الضائع .

وفي غربتي تلقيت نبأ رحيله عن الحياة في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ وعلمت من بعض أصدقائه خاصة الشاعر فتحي سعيد بأبعاد مأساته التي حولته في النهاية إلى صعلوك هائم على وجهه يصرخ ويبكي ويضحك في ذهول .



حافظ نجيب
الصعلوك المغامر



أثيرت العديد من الحكايات والأساطير حول حياة المحتال الظريف حافظ نجيب وصلت إلى حد تقديم مسلسل تليفزيوني عام ٢٠٠٣ جسد فيه شخصيته الفنان محمد صبحي هو مسلسل «فارس بلا جواد» تناول حكايات وهمية واختلاق أحداث خيالية، اختلطت فيها السياسة بالأدب والفن والتاريخ، وامتزج الحقيقي بالوهمي، مما أثار حينها الكثير من الجدل والمناقشات والمراجعات التاريخية، فأيقظ ذلك الحديث عن شخصية حافظ نجيب الحقيقية، ومغامراته الأسطورية.

فإذا كان حافظ نجيب قد قدم لنا اعترافاته الذاتية، فأين الحقيقة من الأسطورة حول هذه الشخصية الغريبة الذي أطلقت عليه عدة ألقاب مثيرة، فهو «المحتال الأديب»، و«أرسين لوبين المصري»، وهو «اللص الشريف»، وهو «نابغة المحتالين»، وهو «الفيلسوف المحتال»، وهو «الراهب المسلم»، فمن هو حافظ نجيب الحقيقي من بين هؤلاء جميعًا؟

روى لنا حافظ نجيب أحداث طفولته ونشأته الغريبة، وبعض مغامراته في الحب والاحتيال والمجون في كتابه «اعترافات حافظ نجيب»، الذي صدر بعد وفاته عام ١٩٤٦، وحكى فيه سيرة حياته منذ مولده وحتى عام ١٩٠٩، بما فيها مغامراته في النصب والاحتيال، وغرامياته مع النساء، رغم أنه كان من أدباء عصره المرموقين، فقد كان صحفيًا ناجحًا، أصدر مجلة «الحاوي» عام ١٩٢٥، ونشر في عدة مجلات وصحف أخرى، وكان كاتبًا مسرحيًا، ألف وترجم عدة مسرحيات، بل كون فرقة مسرحية عام ١٩١٩.

كما ترجم وعرب عدة مؤلفات في الاجتماع والفلسفة وعلم النفس، كما قام بتأليف وترجمة مجموعة من الروايات والقصص القصيرة، فضلا عن أنه كان شاعرًا موهوبًا لو صقل موهبته لأصبح أحد شعراء العصر المبدعين، ولكن من هو حافظ نجيب؟ وما هي حكاية نشأته الغريبة والمثيرة في نفس الوقت؟

***

ولد حافظ نجيب بحي الحسين بمدينة القاهرة عام ١٨٨٠، ونشأ في ظروف غاية في الغرابة لأسرة عجيبة التكوين، حيث مرت بحياته أحداث ميلودرامية لا تتكرر كثيرًا نظرًا لغرابتها ومأساويتها الفاجعة!

فإذا كانت سيرة أي إنسان تبدأ بالميلاد في أسرة من أب وأم ينشأ وسطهما ويترعرع في كنفهما ويكتسب خلال تنشئته طباعه وأخلاقه وأعرافه وعاداته من الوسط الذي تربى فيه، إلا أن ظروف نشأة حافظ نجيب في طفولته تختلف عن هذا المسار الطبيعي المعروف، فقد بدأت مأساته من تلك العائلة المربكة الغريبة التكوين، فالأب من عائلة تجار مصريين، جده الحاج حسن السداوي كان له دكان في شارع العقادين يبيع فيه الحرير الخام المصبوغ كان له ولد صغير مدلل يصحبه معه إلى الدكان ليلعب في الشارع المزدحم.. وفي مرة كادت تدوسه عربة وجيه تركي كان عائدًا من صلاة الجمعة لكن الباشا التركي اختار طريقة غريبة في عقاب الأب وهي خطف ابنه الصغير.. لأنه لم يحسن الاحتفاظ بالنعمة التي أنعم الله بها عليه.

هاج الحاج حسن.. وظل يهدد بالشكوى إلى أفندينا (الخديوي إسماعيل).. وأثار

الصراخ غيظ الباشا التركي وغضبه فأمر خدمه فألقوا الحاج حسن السداوي على الأرض .. وضربوه بالجريد حتى أغمى عليه ثم طرد ونسى الجميع أمره .

وكما يروي حافظ . نشأ محمد الصغير في رعاية الباشا وأسموه في المدرسة (محمد نجيب) بدلاً من محمد حسن السداوي ، وسمحوا له بمقابلة والده في السراي بين حين وآخر ، ثم أذنوا له بعد شهور بقضاء ليلة الجمعة في بيت أهله وألحق الشاب بعد دراسة قصيرة بالمدرسة الحربية . وتمت ترقيته إلى رتبة ملازم ثان وألحق بحرس الخديوي إسماعيل، ثم عقد له الباشا على ابنته الصغرة ملك هانم، وأقام معها في جناح خاص بسراي والدها .

لكن الحياة لم تبتسم له طويلًا .. ففي ليلة عاد «محمد نجيب» من سهرته مخمورًا .. وحاول اقتحام جناح الباشا وزوجته .. وعندما حاولت الجارية منعه اغتصبها على العلن .. هذا الحادث أثار عليه الهانم الكبيرة التي لم تكن تطيقه أصلا باعتباره ابن فلاحين .. فطردته من السراي وأبعدته إلى السودان .. بل وحاولت أن تجهض ابنتها التي كانت في شهورها الأولى.. المدهش أن الجنين استعصى على شتى وسائل التعذيب .. ووضعت «ملك» .. طفلها سليمًا مكتمل الصحة والعافية .. لتبدأ حياة «حافظ نجيب» الذي ولد مضطهدًا معزولاً في مسكن الخدم بعيدًا عن أبيه وأمه التي عاقبتها الهانم الكبيرة وعاملتها كجارية .. تؤدي عمل الخادمات ، وترتدي ملابسهن .. ولا ترى ابنها الذي عرف طعم العائلة عند البستاني وزوجته وأولادهما .

مأساة أمه!

وأمعنت الهانم الكبيرة في التنكيل بهذه الأسرة البائسة حين فرقت بين الزوج محمد نجيب وزوجته ملك هانم ، فأبعدته إلى السودان، وطال نفيه بها لمدة ست سنوات، فمزقت قلب ابنتها التي راحت تبكي فراقه بحرقة حتى فقدت بصرها ، ورغم ذلك لم يرق قلب أمها!

وإمعانًا في إذلال ابنتها التي أجرمت في رأي أمها بحبها لزوجها ولهفتها عليه رغم فعلته النكراء التي أقدم عليها في ساعة غياب عن الوعي، أوكلت إليها مهمة تغذية مواقد الطهي بالأخشاب.

ومن أكثر المواقف مأساوية في حياة حافظ نجيب حكاية مصرع أمه أمام عينيه محترقة ولحظات الوداع الأخيرة معها، وكيف شهد بعينيه وهو مازال طفلًا صغيرًا آلامها المبرحة التي عانتها من جراء آلام الاحتراق، وقد حدث لها ذلك حين كان أهل البيت يطلون من النوافذ للفرجة على موكب الحفل الختامي للسيدة زينب، وكان الوقت شتاء، فإذا باللهب المشتعل والموقد يعلق بثياب أمه «ملك هانم»، فأصابتها بالحروق التي آلمتها كثيرًا، وامتدت إلى أجزاء كثيرة من جسدها.

يروى لنا حافظ نجيب بأسلوب مؤثر اللحظات الأخيرة في حياة أمه، وماذ طلبت منه في لحظاتها الأخيرة، فيقول: [١]

«طلبت أمي أن تراني، فأمر الباشا بحملي إليها، دخلت غرفة نوم أمي المحترقة، فوجدتها ملقاة فوق الخشبة وجسمها تغطيه الضمادات البيضاء فوق قطن كثيف، وأخذني الخوف من هذا المشهد، وكنت أعرف أنها أمي، وأنه محكوم عليَّ وعليها بعدم الاجتماع لسبب لا أعرفه، ويعجز عقلي عن إدراكه، وسمعت صوتًا صادرًا من هذا الجسم المطروح على الخشب! صوتًا رقيقًا جدًا له صوت موسيقى روحية جذبتني إلى صاحبته، فاستقويت على الخوف ودنوت منها، وحاولت الجلوس عند رأسها، فجذبتني إليها وقبلتني، لكنها أنت من التألم الناشئ عن الحركة!

طلبت مني أن أدنو من فمها فأطعت، فسمعتها تقول بصوت خافت: هل تعرف .. في الحديقة شجرة برتقال؟ قلت: نعم، قالت: أسرع وأحضر لي برتقالة لأن لساني جاف، فأسرعت إلى الحديقة وأحضرت لها برتقالة، وطلبت سكينًا، فأطعت وشققت البرتقالة، وطلبت أن أعصرها في فمها، ففعلت، فتململت وأنت، ثم قالت لي: هذه نارنجة يا حافظ! شجرة البرتقال أبعد قليلًا من هذه الشجرة! فنزلت مسرعًا وأحضرت البرتقالة وشققتها، وفتحت فمها فعصرت نصف البرتقالة فيه، وسقطت مع العصير قطرات دموعها، وفي هذه اللحظة جذبتني أمي إلى صدرها وضمتني إليه، ثم سكنت حركتها وأنا لاصق بذلك الصدر، وجاءت جارية ورأت المشهد، فانتزعتني من صدر أمي، وسمعتها تقول: ماتت المسكينة!

---

(١) اعترافات حافظ نجيب.

بذلك الأسلوب المؤثر استرجع حافظ نجيب من ذاكرته تلك الأحداث المأساوية التي شهدها في طفولته خاصة مأساة أمه ونهايتها الفاجعة محترقة حزينة مكلومة القلب والفؤاد!

بعد رحيل «ملك هانم» أصبح حافظ نجيب يتيم الأم، بعدها توفى الوجيه التركي كمدًا، ودفن إلى جوار ابنته ، هنا حدثت صحوة ضمير للهانم الكبيرة، فشعرت بفداحة جرمها في حق ابنتها الراحلة، فكانت تصحب حافظ نجيب لتزور قبر ابنتها ، وتظل تبكي أمامه ساعات طويلة طالبة منها الرحمة والغفران ، جزاء ما اقترفته يداها في حقها، وحاولت أن تكفر عن خطيئتها بالمزيد من التدليل للطفل حافظ ، ومنحه المزيد من الهدايا والملابس الفاخرة علّها ترضى روح ابنتها التي رحلت مكلومة القلب والفؤاد ، وحاولت أن تغمره بفيض من الحنان للتكفير عن ذنبها تجاه أمه الراحلة، ولكن تلك الفترة لم تستمر طويلًا، ففي عام ١٨٨٨ حين تجاوز حافظ نجيب السابعة من عمره عاد الأب محمد نجيب من السودان بعد ست سنوات من المنفى الإجباري ، فاسترد حضانة ابنه حافظ من جدته المتجبرة بحكم شرعي، فاستشاطت غضبًا على ذلك الأب الفلاح الذي جرؤ على انتزاع حفيدها منها بعد أن فرق بينها وبين ابنتها «ملك» حين أحبته حبًا غامرًا ، ولم تصغ لأوامرها بمقاطعته!

لكن الهانم الكبيرة لم تستطع أن تعيش في القصر الخاوي في فم الخليج ، والذي أصبح خرابًا بعد أن تسببت في مأساة ابنتها «ملك» ورحيلها ، ورحيل زوجها نفسه كمدًا وحزنًا على ابنته ، فشدت الرحال إلى الأستانة تاركة وراءها ذكريات دامية في قصر الخليج الكئيب بتسلطها وتجبرها وظلمها الفادح لأقرب الناس إليها ، حيث عاشت هناك مضطربة الأعصاب تطاردها أشباح ضحاياها وأصوات استغاثاتهم وتوسلات ابنتها لها كي ترحمها، فأصيبت بالجنون ، وما لبثت أن ودعت الحياة بقلب أضنته المآسي التي صنعتها بيديها!

اعترافات حافظ نجيب

تذكرنا اعترافات حافظ نجيب الغرامية باعترافات جياكوما كازانوفا (١٧٢٥ - ١٧٩٨) أشهر عاشق على المذهب الحسي في التاريخ، ذلك العاشق المغامر ابن مدينة البندقية الإيطالية الذي روى لنا بأسلوبه الساخر مغامراته الغرامية مع عشرات النساء من كل الأشكال والألوان والأعمار والمستويات والأجناس، وكيف عاش مغامرًا ومات مؤمنًا!


كازانوفا

عاش كازانوفا العديد من المغامرات المدهشة، وعندما بلغ سن الشيخوخة عكف على مدى سبع سنوات يكتب اعترافاته بكل ما فيها من جسارة وغرائب ومفاجآت وصراحة عارية!

سرد في مذكراته مغامراته ببساطة وبلا لف أو دوران، وكان كاتب السيرة الذاتية الوحيد الذي كشف لنا عنفوان رغباته الحسية، وكانت لديه الشجاعة النادرة لأن يصف لنا مغامراته الحسية حتى أن مؤرخه الأديب النمساوي «ستيفان زفايج» يعتبر أن مذكراته تفوق السير الذاتية التي كتبها بعض كبار الأدباء مثل جيته وروسو؛ لأنه قال الحقيقة كاملة، حيث كان أمينا كل الأمانة في مذكراته.

لقد روى لنا كيف كان يغوي النساء منذ بدأت علاقاته الغرامية في السادسة عشرة من عمره، فاتخذ لنفسه أربع صديقات مرة واحدة!

كما روى لنا كيف أوقع ثلاث نساء، سعد بالحياة معهن فترة طويلة، لكنه دخل السجن لأول مرة بسبب إحداهن، إذ نافسه في غرامها محام من البندقية يدعى «رازيتو» وانتهت المعركة بينهما إلى اعتقاله في قلعة «سانت أندريا» بالقرب من البندقية!

وعندما سجل كازانوفا اعترافاته في عدة مجلدات لم يكن يعتقد اعتقادًا جديًا بأنها ستنتشر في يوم ما نظرًا لجرأتها المدهشة وتعديها على الأعراف والتقاليد، وقد اعترف قبل أن ينهي

مذكراته بذلك الاعتقاد، فقال:

«على مدى سبع سنين لم أقم بأي عمل سوى كتابة ذكرياتي وشيئًا فشيئًا، صار حتمًا لزامًا في إحساسي أن أصل بهذا العمل إلى ختامه بأن أتمه، مع أنني أشعر بندم شديد وآسف على أنني شرعت في كتابة تلك الذكريات أصلًا.. ولكنني أكتب على أمل واحد: أن قصة حياتي لن ترى النور، وفضلا عن الواقع المحتوم الذي يجعل قيام الرقابة - وهي ذلك الجلاد الذي يوكل بإخماد كل جذوة للذهن أو الفكر - بعدم السماح بنشر هذه الذكريات الحقيقية، فأنا موطن العزم على استجماع شجاعتي وحصفاتي في مرضي الأخير حين تدنو ساعتي، فأعمل على إحراق المخطوطات كلها أمام ناظري، عملًا بنداء العقل».

ولحسن حظ أدب الاعترافات ظل كازانوفا حتى آخر لحظة في حياته أمينًا مع نفسه، ومع الحقيقة، فلم يحرق ما كتب بل كان يعتبر الكتابة هي نافذته الحقيقية لاستنشاق الهواء النقي، وإنقاذ نفسه من جنون الكآبة والسأم والقهر، وهو في جنيف في قلعة صديقه الكونت «فالدشتاين» في سنواته الأخيرة!

ولما كان حافظ نجيب كثير القراءات في الأدب الغربي، فلابد أنه قد قرأ اعترافات كازانوفا، مما شجعه على كتابة اعترافاته المثيرة، ومثلما كتب كازانوفا مذكراته في سنواته الأخيرة فعل حافظ نجيب ذلك، ولكنها لم تصدر إلا بعد وفاته عام ١٩٤٦ على يد سعدية الجبالي التي أفصحت ذلك للقارئ: (١)

«أرغمت الأستاذ حافظ نجيب على نشر اعترافاته في حياته بدلًا من نشرها بعد مماته، لأمكن الناس من تكذيب ما لا يصدقونه، ولأمكنه من الرد عليه فلا ينهشون لحمه وهو جثة كما نالوا منه بنشر الأكاذيب والخرافات وهو مطارد عاجز عن الدفاع عن نفسه، إن جلجلة صوت الحق تدمغ الباطل وتفزع الجبان».

أنهى حافظ نجيب اعترافاته بوعد على أن يحكي ما حدث له في ليلة الكونتنتال وما بعدها كان ذلك في ١٢ أبريل ١٩٤٦ لكنه غادر الحياة كلها بعد سبعة أشهر تقريبًا (في

(١) اعترافات حافظ نجيب، القاهرة ١٩٤٦.

٢١ نوفمبر ١٩٤٦) لم تكتمل حكاياته لكنه حكى بصدق نادر عن مغامراته حتى وصل إلى سن الخامسة والعشرين.

بعد قراءة الاعترافات يمكن أن نضع «حافظ نجيب» في مقام المقتحم الأول لهذه التجارب في الكتابة بالعربية .. التي تحتفي بالمتمردين الذين قلبوا المعادلات المطمئنة وانفلتوا خارج القوانين الاجتماعية والسياسية ونبهوا المسيطرين بأنهم على مقعد من قلق .. التمرد هنا زمني.. وفردي .. يقاس باللحظة التي يعيش فيها ويرتبط بالخروج على السلطة : سلطة الحكم وسلطة التقاليد الاجتماعية وسلطة الأفكار السائدة .. الخروج على وحش أسطوري يرتب الحياة ويعطي لتفاصيلها تعريفات جاهزة ويستسلم الجميع لزمنه ..!

هكذا تتحول سيرة المتمردين إلى قصص عشق تقلق الخيال المستقر . تفتح شرفة يدخل منها هواء رطب يلمس الأرواح الضيقة ، يكاد المتمرد أن يكون راهبًا ويقترب في قدراته من مكتشفي الأرض المجهولة والعارف بالجغرافيا السرية إنه القديس والعلامة التي تسرب النور في ليالي العتمة الطويلة ، الخارج عن السياق والقادر على الرفض الذي يحقق حلمًا نبيلاً بأن تذوب المسافة بين القول والفعل وبين الحياة والأفكار المجردة ! هكذا تمنح سيرة التمرد صاحبها مكانًا بين الأساطير [(١)].

كان حافظ نجيب يعيش في مواجهة وحش جبار هو الفقر ألحقه أبوه بالمدرسة الحربية .. بعد أن تنقل معه عبر محافظات مصر لم تجمعهما مودة .. بل كان بينهما دائمًا نوع من الغربة .. تشعر الابن بأنه ينتمي إلى عالم غير عالم «الفلاحين» وإلى وسط بعيد عن الجهل والقذارة التي يمعن في وصفها خلال صفحات طويلة عن إقامته في بيوت عائلة أبيه (يستثني بيت عمه القاضي في أسيوط) ..

في المدرسة الحربية عانى من الفقر ، لكنه كان يضع أمامه هدفًا واحدًا هو الاستمرار في المدرسة حتى يتخرج ضابطًا بالجيش المصري ، كان مصروفه الشهري جنيهًا واحدًا، لا يمكن أن يحلم بشيء أبعد من الاستمرار في المدرسة والتخرج فيها ضابطًا ، لكن هذا الحلم

(١) صحيفة صوت الأمة ، وائل عبد الفتاح ، حكاية اللص الشريف ٢/ ١/ ٢٠٠٢.

هو الآخر كان على وشك الضياع فالحرب انتهت في السودان .. ورأى الإنجليز خفض قوة الجيش المصري .. وعينوا للمدرسة قومندانا إنجليزيًا .. فصل في أول عهده ١٠٠ طالب من أصل ٢٠٠ طالب .. ثم قررت نظارة (وزارة)الحربية منع ترقي طلبة المدارس الحربية أربعة أعوام.

ويرى بعض الكتاب أن حافظ نجيب على كثرة وتنوع مغامراته إلا أنه لم يتعمد قط إيذاء أحد، إنما إيذاء نفسه فقط، صحيح أنه وقع في هوى راقصات وبرنسيسات وكان ضحية لهن أو كن ضحاياه وآخرهن البرنسيسة اليونانية «ألكسندرا إفرينو» التي سلمته مجموعة من الأوسمة والنياشين التي تلقتها من السلطان عبد الحميد، وغيره من ملوك أوروبا لتلميعها، فسرقتها عشيقته الراقصة حميدة، ووقع أيضًا ضحية لبعض المحتالين في أوساط الصحافة بينهم شاب شامي يدعى جورج طنوس الذي أثرى من ورائه، ثم كتب عنه في مجلة «الأقلام» تحقيقا بعنوان «فساد الأخلاق»، وتعرض حافظ نجيب كذلك لكثير من حوادث الاغتيال على يد بلطجية استأجرتهم عشيقاته السابقات!

كان دائمًا في حالة هروب من الموت ومن الشرطة والسجون والأحكام القضائية وذكرياته التعسة حتى انتهى به المطاف أخيرًا راهبًا في دير الأنبا إبرام بوادي النطرون، ثم انتقل إلى منصب كهنوتي أعلى في دير المحرق بأسيوط تحت اسم مستعار «أبونا فلتاءوس»، وبرع في علم اللاهوت رغم أنه مسلم الديانة! ثم غادر الدير عندما انكشف أمره وواصل حياته تحت اسم «غالي جرجس»!

ونعرف من ذكريات حافظ نجيب علاقات سياسية وفكرية كانت تربطه بالزعيم الشاب مصطفى كامل وخليفته محمد فريد والتنظيم السري للحزب الوطني.

أتم حافظ نجيب كتابة الجزء الأول من اعترافاته مطلع عام ١٩٤٥ أي وهو في الخامسة والستين من عمره، وقد سجل فيها سيرة حياته منذ ولادته عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩٠٨ حيث غطى فيها ما مر بحياته من أحداث ومواقف وتقلبات حتى بلغ الثامنة والعشرين من عمره.

ويذكر حافظ نجيب سبب كتابة اعترافاته في أخريات حياته بعد أن أخبر الحياة وذاق حلاوة الحب ومرارته، وتقلب بين ألوان الشقاء والنعيم، والحزن والفرح، والفقر والغنى، فقال:

«استعرضت الماضي كله ، فكان سلسلة من ألوان الشقاء وألوان العذاب ، وحددت في خيالي المجتمع فرأيته صورة لإنسان لا تربطه بالجماعة أي رابطة من نوع ما بين الناس وبعضهم ليس لي أهل ولا أقارب ولا أصدقاء ولا عمل منظم ولا حتى مركز أو هدف ولا استقرار ولا أمل ، فما قيمة الحياة في نظر هذا الإنسان؟! وما الضرورة التي ترغمه على البقاء وسط الجماعة معزولا عنها كل العزلة؟! جميع ما أحاط بي من الظروف وما صنعت من شتى المؤثرات العنيفة وكل ما عاشرت من الخلق وكل ما رأيت في مسرح الحياة أسباب قوية تبعث على النفور والاستياء من هذا المحيط كله وتبعث على الرغبة في التخلص من هذه الحياة الشقية ، فهل أنتحر ؟!».

إذن وجد حافظ نجيب في البوح بكل أسرار حياته وأسرار نفسه العلاج الناجع لعقدته النفسية ، حتى لا يصاب بالاكتئاب ويتفادى الانتحار، خاصة أنه شهد قمة النشوة والشهرة والامتلاء والاستمتاع في مطالع حياته، ثم عانى من الشيخوخة والوحدة وانصراف محبوباته عنه في سنوات عمره الأخيرة ، فلم يجد متنفسًا له أو نافذة يطل منها على مشاهد من حياته الصاخبة المنصرمة إلا في البوح بمكنون نفسه ، واستعادة ذكريات الأمس، وساعدته ذاكرته القوية التي كانت تسح وتهطل بفيض من الأحداث والصور والمشاهد، وساعد أسلوبه السلس الصريح الذي كان صورة لنفسه الجياشة بحب اللذة والحياة ، وكان وهو يكتب يدور بعينيه في جوانب نفسه ، لينبر ما فيها ، ويتأمل ما وراءها ، فكان في كتاباته يمزج بين الذات والموضوع، وبين الحقيقة والخيال ، فسار على خطى أستاذه العاشق المغامر الإيطالي «كازانوفا»!

وقد وعد حافظ نجيب أن ينشر الجزء الثاني من اعترافاته ليغطى الفترة التالية من حياته بعد أن توقف عند أحداث عام ١٩٠٩ ، عما حدث له يوم ١٨ يناير عام ١٩٠٩ في عمارة الكونتنتال في شارع قصر النيل بوسط القاهرة ، لكن القدر لم يمهله فقد رحل عن الحياة في ٢١ نوفمبر ١٩٤٦ ، وتولت نشر الاعترافات في نفس العام من سماها صديقته أو ابنته «سعدية الجبالي» التي ذكرت في نهاية الاعترافات المنشورة أنها هي التي ساعدته وألحت عليه حتى ينشر اعترافاته في حياته حتى لا يترك سيرة حياته الشائكة الشائقة للتأويلات وتنسج حولها الحكايات الخيالية والأساطير !

غراميات حافظ نجيب

روى لنا حافظ نجيب بأسلوبه المشوق الصريح حكايات عن غرامياته المتعددة مع النساء اللائي عرفهن سواء كن مصريات أم أجنبيات وإن كانت هذه الغراميات يغلب عليها طابع الحسية والمغامرة، فأخذ يتنقل من زهرة إلى زهرة، وحدثت له مشكلات بسبب بعض هذه المغامرات، فتخفى في أحد الأديرة المسيحية، وتنكر في زي راهب، مرة باسم غبريال إبراهيم، ومرة باسم أبونا «فلتاؤس».

روى لنا مغامراته الشائكة العاصفة مع البرنسيسات فيزنسكي والسكندرة أفرينو، وسيجريس كما روى لنا تجاربه الحسية مع الراقصتين شفيقة القبطية وحميدة، وكانت أكبر مغامراته العاطفية إثارة تجربته مع البرنسيسة فيزنسك التي أعطته كل شيء وتدلهت في هيامها به، فلما أدركت بعد ذلك أنه يخونها مع غيرها وأنه يتهرب منها، أوقعت به في عدة قضايا، دخل بسببها السجن.

إن غرامياته أشبه بسجل من المغامرات البوليسية تذكرنا بغراميات المغامر الإيطالي الجسور جياكوما كازانوفا أمير العشاق الصعاليك في كل زمان ومكان. في مطلع شبابه، وفي زهو انتصاراته الغرامية، وفي نفس الوقت في أخريات حياته بعد أن ألقى سلاحه، فإذا بالبطل المظفر في معارك الغرام قد غدا حذرًا مترددًا متواضعًا، فيتسلل الممثل الجهير من المسرح حيث سلطت عليه الأضواء طويلا ليعيش في الظلام ويخلع عنه ثيابه الفاخرة مسجلًا في مذكراته أنها لم تعد مناسبة لوضعه الجديد، ويخلع من إصبعه خاتمه الشهير، وقفل حذائه الماسي، ويطرح بذلك غطرسته وأبهته، ويلقى بفلسفته الحسية السطحية القديمة تحت المائدة، كما تلقى أوراق اللعب التي أبلاها الاستعمال.

هكذا تشابهت ظروف وأحوال حافظ نجيب في مطلع شبابه وأخريات عمره مع ظروف وأحوال العاشق المغامر الجسور كازانوفا في البدايات والنهايات.

وحتى لا يتوه الخيط ستعرض هنا بعض أشهر غراميات حافظ نجيب.

١ - البرنسيسة فيزنسكي

ظهرت البرنسيسة فيزنسكي في حياة حافظ أثناء دراسته بالمدرسة العسكرية بعد أن قررت نظارة «وزارة» الحربية منع ترقي طلبة المدرسة الحربية أربعة أعوام، ففقد الأمل في وظيفة عسكرية تعينه على الحياة وتغنيه عن مساعدة أي إنسان ، فظهرت البرنسيسة الروسية فيزنسكي، وكانت لذلك قصة مثيرة ، حين وقع عليه الاختيار لتمثيل المدرسة العسكرية في مباراة للرماية يتنافس فيها أمهر الرماة من الإنجليز والإيطاليين، وحين اجتاز بنجاح أشواط الرماية بالبندقية والمسدس في أوضاع وأبعاد متباينة، تقدم إلى منصة الحفل لاستلام الجائزة الأولى من سيدة أوروبية فائقة الجمال ، وعندئذ مالت برأسها على مستر «براين» كبير المعلمين بالمدرسة الحربية وقالت له : أرجو أن ترسل لي هذا الطالب غدًا إلى بيتي في الرابعة ظهرًا لأمنحه جائزة خاصة!

وذهب إليها وغمرته بالحفاوة والعطف وحنان غير مسبوق في حياته، وفي أجواء رائعة من الأرستقراطية والشاعرية التي خلبت لبه، ثم أنس إليها وتعلق بها ، وتكررت زيارته لبيتها شهورًا حتى عرف أنها روسية تدعى البرنسيسة «فيزنسكي» ، وأنها متزوجة من رجل فرنسي كبير الأهمية ، لكنه لم يلتق به قط!

المهم أن هذه السيدة راحت تشحن حافظ نجيب في لباقة ورقة صوب البحث عن طريق يوصله إلى المجد الذي يستحقه عن جدارة ، وعندما علمت أنه لا يرتاح إلى قضاء أجازته الصيفية في منزل والده قالت له عبارتين: الأولى «الخط المستقيم أقرب بعد بين نقطتين» ، والثانية: «جميع الطرق توصل إلى باريس» ، فلما انتهى العام الدراسي أسلمته البرنسيسة إلى وصيفتها : وتعلم على يديها أصول الإتيكيت والتقاليد المرعية، واصطحبته إلى أرقى المحلات لشراء ما يلزم شابا على وشك الانخراط في الأوساط الأرستقراطية، ثم لم يلبث بضعة أيام في طور التغير من حال إلى حال ، حتى وجد نفسه في صحبة البرنسيسة

فوق باخرة في طريقهما إلى الآستانة، ليعرف أن زوجها ملحق عسكري لسفارة فرنسا بتركيا، وأنها تملك قصرًا منيفًا وعربات فاخرة تجرها الخيول المطهمة في إستانبول وباريس، وأدرك مدى نفوذ البرنسيسة وعلاقاتها الواسعة بالمصادر العليا، فلم يمض أسبوعان حتى ألحقته بالجيش التركي، وبعدها توسطت لدى رؤسائه حتى يستكمل دراسته العسكرية في كلية «سان سير الحربية» بفرنسا، ثم نقلته بعد ثلاثة شهور إلى مدرسة «البولتكنيك» ونال الشهادة النهائية، وبعدها التحق بالفرقة الفرنسية الأجنبية لاستكمال المران لمدة عام، فكان لغرامه بالأدب والفنون نصيب من الوقت للاستماع إلى محاضرات حولها في جامعة باريس، وبناء على توجيهات البرنسيسة تعلم الرقص وآداب الطعام حتى قبلته على مائدتها، ثم في ليلة ليلاء اصطحبته إلى حفل صاخب، وراقصها وتبادل معها الأنخاب، ليجد نفسه في الصباح على فراشها!

لم تكن علاقة حافظ نجيب بالبرنسيسة فيزنسكي علاقة حب وغرام، بل كانت علاقة حس واشتهاء ومصلحة نفعية، تراوحت فيها درجة العلاقة بينهما بين الإقبال والإدبار، والوصال والبعاد، فعندما نجح حافظ نجيب من الهروب من ألمانيا بعد اكتشاف تجسسه أثناء علاقته بمدام «ولهملين» عاد إلى القاهرة عام ١٩٤٣، فقرأ خبرًا عن عودة البرنسيسة فيزنسكي عشيقته السابقة من الخارج، فسعى إليها، فأحسنت استقباله، وأغدقت عليه من ثروتها الكثير، فعاد كما كان حاله معها في الماضي بعد أن سبق وتهرب من علاقته بها، عاد أنيقا يرتدي أفخر الثياب، ويرتاد معها الحفلات والمجتمعات الراقية، وراحت تقدمه لأصدقائها بوصفه رجل أعمال وشريكًا لها في عملياتها التجارية الواسعة، فكان عند حسن ظنها أكبر مضارب في بورصة الأوراق المالية بالقاهرة، وصار له مكتب خاص وإدارة وموظفون وسيارة فارهة واصطبل لتربية خيول السباق، ورصيد ضخم في البنوك، فكانت أزرار قمصانه وبدله من الماس الخالص أو اللؤلؤ الحر، باختصار أصبح من نجوم المجتمع وأثريائه المعدودين، لكن لأن الأطباء نصحوا البرنسيسية فيزنسكي بالإقامة بعيدًا عن القاهرة، فاختارت الإسكندرية، من هنا تلقصت رعايتها له، وعاودته نزواته المنفلتة.

وقد اعترف حافظ نجيب بمساندة البرنسيسة فيزنسكي له، ومساعدتها له ماديًا، حتى أنه يقارب بين موقفها منه وموقف والده وقسوته عليه، فيقول:

«أسلمت أمري لهذه السيدة التي تظهر العطف عليَّ والاهتمام بمستقبلي، بينما أجد من والدي القسوة والنفور من وقوع نظره عليَّ، وهو الذي انتزعني من أحضان جدتي، وكان سبباً في تعذيب المرحومة والدتي وأهان جدتي وحملها على ترك مصر كلها، والرحيل إلى تركيا نهائيًا، ثم قسا عليَّ وقصرّ في تأدية واجب الوالد حتى أتمم الدراسة العالمية أولًا ثم الدراسة العسكرية» [1].

لكن بعد أن علمت البرنسيسة هجر حافظ نجيب لها وانغماسه مع الغانيات والراقصات بدأت تقلب له ظهر المجن، وتحاول أن تنتقم لكرامتها الجريحة، بعد أن منحته كل شيء وأغدقت عليه من مالها وسلطاتها الكثير لتصنع منه حبيبًا مثاليًا كما تمنته.

فاستغلت سرقة الراقصة حميدة لنيشان البرنسيسة ألسكندر من حافظ نجيب أثناء احتفاظه به لتلميعه عند الجواهرجي، فأوعزت لها أن ترفع عليه قضية نصب، فحكم عليه بالسجن ستة أشهر قضاها في سجن الحضرة بالإسكندرية، وتستبد به في سجن الحضرة الهوجس والمشاعر المضطربة اليائسة، فينعي حظه الذي حوله إلى سلعة رخيصة تباع وتشترى، ويرى أنه كان ضحية الهوى والغرام: [2]

إلى الله أشكو أم إلى الناس ما جرى	وقد باعني الهم المبرح واشترى
وأصبحتُ عبدًا لا أسامُ بدرهم	وأن جاءني المبتاع عاب وعيْرا
وأقضي طويل الليل للحظ ناعيا	فيغمض عيني السوط بالرغم لا الكرى
إذا ما مضى جيش الظلام تراجعت	لدى الصبح أحزاني وبتُّ مفكرا
فاطمُ سُما لا يميت وليته	يقصر أيامي فيسترني الثرى
ويسقونني بالكأس صبرًا وعلقما	ويا ليته صبر على الضيم صبرا
ويخرجني كالعير للحمل حارسي	ويكرونني للنذل بالقرش أشهرا
وأنكرني من كان من قبل صاحبي	وعيرني بالذل والفضل أنكرا

(١) اعترافات حافظ نجيب، ص ١٠٢، القاهرة ١٩٤٦.

(١) جورج طنوس – نابغة المحتالين – ص (١٩، ٢٠).

وضاع جميل، في الرجال غرستُه ... ولو كان في كلب لبان وأثرا

ولو كان في واد لأينع نبته ... ولو كان في قفر لما ظل مقفرا

ولو كان في وحش لأصبح آنسا ... وأعلن فضلي للوحوش وأشهرا

ولكنه الإنسان للفضل جاحد ... وهيهات للمعروف أن يتذكرا

وهل ينظر الشمس المنيرة ذو عمى ... لذلك فضل باب في الكون لا يرى

وقد ساءهم مني اقتدار وهمة ... وعزم يرى كيد الزمان وما انبرى

ولو قلتُ شعرا خاله الناس مُنّزلا ... وصلى عليه البعضُ والبعضُ كبرا

ولولا الهوى أصبحتُ للناس كوكبًا ... ولولا الهوى أمسيتُ في القوم عنترا

وكم عالِم قد ضاع في الحب علمه ... وكم عاشق في الرمس بات معفرا

ولولا الهوى ما بت في القيد مثقلا ... ولا بت في وادي الهموم كما ترى

ولا تعجبوا أن بات لي السجن منزلا ... فقد ينزل الإبريز في منجم الثرى

وقد يجهل الإنسان في الرمل قدره ... ولكنه لو بان للعين أبهرا

فإن جاءني الساقي بماء ولم تذق ... فهل تعرفن الماء إن كان كوثرا

كذلك أخفاني عن القوم جهلهم ... وعاقبني القاضي جزاء لما جرى

وبعد أن قضى حافظ نجيب مدة العقوبة، خرج من السجن ليجد قضيتين في انتظاره، من تلفيق الأميرة فيزنسكي، ومن ثم عاد حافظ إلى السجن مرة أخرى، وبعد قضائه مدة العقوبة الثانية، خرج مفلسًا معدمًا ، فكتب رواية تمثيلية مثلتها إحدى الجمعيات على مسرح إسكندر فرح، فكسب منها بعض المال ، ثم تعرف على فرنسين اليهودية التي ساعدته بالمال أيضًا، ثم تعرض إلى حادث اغتيال نجا منه بأعجوبة، وعلم أن القاتل مأجور من الأميرة فيزنسكي ، وبعد أيام تم القبض عليه بتهمة الاحتيال على أحد المحال التجارية، والنصب على إحدى الراقصات وسرقة سوارها الذهبي ، وجاء شاهد زور في المحكمة مدفوعًا من قبل فيزنسكي، وأدلى بشهادة كاذبة بأنه كان حاضرًا في الواقعتين، فتم سجن حافظ نجيب للمرة الثالثة ، ولكنه قرر الهرب من السجن.

ويرى بعض المؤرخين أن مغامرات حافظ نجيب الجامحة دفعته للدخول إلى شراك التخبط والضياع، فهل كان ذلك بسبب عقدته النفسية من تأثير طفولته المأساوية البائسة أم كان نتيجة للصدمة الحضارية بعد أن انتقل من مصر إلى أوروبا بكل تفتحها وحرياتها اللامحدودة؟

وعلى ما يبدو أن حافظ نجيب حين رمت به المقادير إلى شراك الاحتيال واللصوصية والولع بالتجريب والمغامرات وهواية التمويه والكر والفر، إنما كان في كل ذلك ضحية لصدمة حضارية وأخلاقية حين انتقل ولا يزال شابا غض الإهاب من بيئة اجتماعية متواضعة وأسرة يسودها الشقاء والشقاق، فإذا به فجأة وسط مجتمع أرستقراطي وبيئة أوروبية وحياة البهجة والحبور والصخب، وبينما تعلق بالمثل العليا في النبل وإنكار الذات مجسدة في البرنسيسة فيزنسكي، إذ به يكتشف أن لكل شيء ثمنا، وأن عليه أن يدفع الثمن من شبابه وغربته عن الوطن، وأن يتحول إلى ما يشبه الخاتم في أصبعها، تلبسه وتتباهى به أو تخلعه كيفما تشاء!

هكذا وجد نفسه تابعا لظلها في ترحالها من مصر إلى إستانبول إلى باريس ثم إلى مصر، وكان عليه في كل بلد أن يقبل العمل الذي تختاره، والمجتمع الذي ترتاده، وكلما ابتعد عنها لسبب أو لآخر يكتشف في نفسه ملكات ومواهب مخبوءة ومواقف مشهودة، وربما وقع بدون توجيهها ونفوذها في شر أعماله! (١).

وإذا كانت تجربته مع البرنسيسة فيزنسكي هي التجربة الكبرى في حياته، فقد كان تأثيرها عليه كبيرًا، وتراوحت مشاعره نحوها بين الحب والملل، والرغبة والسأم رغم ما أغدقت عليه من مال ورعاية واهتمام، ورغم دخوله السجن بسبب وشايتها انتقامًا من غدره بها. إلا أنه كان يعبر شعرًا عن مشاعره نحوها الذي امتزجت فيه مشاعر الحب والكره والشوق والملل، والفرح والحزن، فكان يمسك قلمه في ليالي السجن الطويلة الكئيبة وينظم شعرًا صارخًا: (٢).

طال البعاد على السجين المغرم ... فتندم الرجل الذي لم يندم

(١) يوسف الشريف، صعاليك الزمن الجميل، القاهرة ٢٠٠٥.

(٢) جورج طنوس – نابغة المحتالين – ص (٢٣، ٢٤).

مـا نـام في ليـل عـلى مهـد الأسـى ... إلا وقلبـه النـوى كالمجـنـم

تزكـو بـه نـار الغـرام مكرهـا ... ووقودهـا قلـب المحـب المكلـم

ويعـوده طيـفٌ يـزور مقنعـا ... وقناعـه ديجـور ليـل مظلـم

في الليـل يـأتي كالطبيـب لموجـع ... فـإذا دنـا ضـمد الجـراح بمـرهم

وإذا تلطـف بالسـلام أراحـه ... مثـل العليـل إذا أتـوه بيلسـم

وإذا صـحا عنـد الصـباح ولم يجـد ... طيـف الـدجى ذرف المـدامع كالـدم

كـم مـرة هـزأ الخيـال بمـن غـدا ... بعـد الـدلال قـرين لـص مجـرم

يـا صـاح قـد غـدر الزمـان ومـن هـوى ... أحـرى بـه سـم بكـأس مفعـم

خـير مـن السجن الطويـل وضـيقه ... فالسـم أطيـب مـن شراب العلقـم

ولقـد سـئمت مـن الحيـاة وذلهـا ... وغـدا الممات أحـب مـن لثم الفـم

إني تعبـت مـن الزمـان وصرفـه ... وتحكـم الـدهر الـذي لم يحكـم

مـن عـاش حـرًا بيـن آل بـلاده ... صـعب عليـه الـذل بعـد تكـرم

وأخيرًا قال حافظ نجيب:

بـالله قـل لي هـل أراني واهمًـا ... أم ذي الحقيقـة لا منـام النـوم

ضـل الرشـاد ولم يعـد لي فكـر ... وغـدا مقـالي مثـل شرح الأبكـم

وغـدا يراعـي لا يطـاوع أصـبعي ... إلا إذا كـان المـداد مـن الـدم

وغدا غـلاف الطـرس مـن كفـن الهوى ... ونـأى عـلى عجـل البخـار بـدرهم

فعسـى يـذكر مـن تكـبر وانتـضى ... سيف السكوت لكـي يقـل تكلمـي

ولعلـه يلقـى مكانـا في الصـدور ... فـلا يـضيق كـضيق قيـد المجـرم

٢- البرنسيسة ألكسندرا أفرينو

عاشت إلسكندرا نعمة الله الخوري (١٨٧٢ –١٩٢٧) في مدينة الإسكندرية بعد هجرتها من بيروت، وزواجها من الإيطالي «ملتيادي أفرينو» وحملت اسمه.

وفي عام ١٨٩٨ أصدرت مجلة «أنيس الجليس» التي نشر فيها بعض كبار أدباء العصر قصصهم وقصائدهم ودراساتهم الأدبية والتاريخية.

وظلت المجلة تصدر حتى احتجبت عام ١٩٠٧ لأسباب مادية رغمًا عنها، فحزنت لتوقفها، بعدها رحلت إلى لندن حيث توفت بها

وقد ناجاها الشاعر إسماعيل صبري (١٨٥٤م –١٩٢٣م) بقصيدة وصفها فيها بربة النهي والذكاء:

خبري القوم يا سمية إسكندر
يا ربة النهي والذكاء
هل لوجه الأنيس بعد احتجاب
من سفور في عالم الأدباء؟

وكان لها صالون أدبي في الإسكندرية يؤمه كبار رجال القلم والسياسة والاقتصاد والفن.

وحين انتقلت البرنسيسة فيزنسكي إلى الأسكندرية للإقامة بها، وكان حافظ نجيب يحضر إليها من القاهرة بين الحين والآخر، وفي إحدى المرات التقى بالبرنسيسة ألسكندرا أفرينو في قصر فيزنسكي عام ١٩٠٥، وتوطدت علاقته بها، وحاول أن يتقرب إليها، فعرضت أن يلمع لها نياشينها عند الجواهرجي، وسلمته صندوق نياشينها، وفي إحدى مغامراته مع الراقصة «حميدة» سرقت نيشان السلطان عبد الحميد، الذي سبق وأهداه إلى ألسكندرا وارتدته أمام الجمهور في صالة الرقص بإحدى كباريهات الإسكندرية تباهيًا وادعاء بأن النيشان قد أهداه السلطان عبد الحميد إعجابًا برقصها.

وفي هذه الفترة كان لحافظ نجيب نزوات متعددة مع الراقصات والغواني فوصلت أنباء علاقاته الغرامية إلى أسماع البرنسيسة فيزنسكي، فأزمعت الانتقام منه، فحرضت ألكسندرا أفرينو على الإبلاغ عنه للشرطة بتهمة تبديد نيشانها، وبالفعل ألقى القبض عليه وأودع «سجن الحضرة» بالإسكندرية، وفي السجن عانى مرارة الحرمان والوحدة والضياع، وأخذ يستعيد علاقته الغرامية مع البرنسيسة فيزنسكي التي تراوحت مشاعره نحوها بين الرغبة والنفور، بعد أن تحطمت علاقته بها، فانتهت آماله في الحب والحياة، فلا القرب منها أصبح يشجيه ولا البعد عنها، فأخذ يبكي حبه الضائع في ظلال قيده وهوانه[1].

تحطمت الآمال وانصرم الحب ... وما عاد يشجيني البعاد ولا القرب

وبات ضميري واهن الحول متعبا ... فما عاد يحييه الطبيب ولا الطب

فقولوا لمن بات العتاب حديثه ... يقلل من عتبي فلا ينفع العتب

فلست بذي سمع يصيح لمن أتى ... بلوم فلا عذل يفيد ولا صخب

كفاني الذي لاقيت من صدق ودهم ... ومن شاهد السكران مر له الشرب

ولا يحمل الثعبان من بعد لسعه ... رشيد ولا يعلو جوادا به يكبو

غرست جميلي في أرض عقيمة ... ومن يزرع الصحرا يليق به العطب

جدير بمثلي أن يرى الكون قائما ... عليه وأحرى يا زمان به الندب

فقد كنت أعمى أجهل الدهر طائشا ... يخادعني أهل الوشاية والصحب

***

وقد أدت هذه الحادثة إلى قطع علاقته بالبرنسيسة إلسكندرا أفرينو فضلا عن البرنسيسة فيزنسكي، فانطوت صفحة مهمة من صفحات مغامرات حافظ نجيب الغرامية العاصفة!

---

(١) جورج طنوس – نابغة المحتالين – ص (٩، ١٠).

٢- مدام ولهملين.. الجاسوسة الحسناء!

استطاعت البرنسيسة فيزنسكي أن تلحق حافظ نجيب بالجيش التركي بحكم أن زوجها كان ملحقا عسكريا لسفارة فرنسا في إستانبول، وبعدها توسطت لدى رؤسائه حتى يستكمل دراسته العسكرية في كلية «سان سير الحربية» بفرنسا، ثم توسطت لنقله بعد ثلاثة شهور إلى مدرسة المران لمدة عام.

ودفعته روح المغامرة والجسارة حتى يسجل لنفسه شهرة عالمية خارج الحدود تأثرًا بقراءاته للروايات البوليسية الشهيرة وبأستاذه كازانوفا العاشق المغامر الجسور!

كان ذلك عام ١٩٤٢ أثناء احتدام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، كانت خطوته الأولى أنه استطاع تزييف جواز سفره ليصبح مواطنًا فرنسيًا، وانضم عام ١٩٤٢ إلى الفرقة الأجنبية الفرنسية -في قسم أركان حرب- والترقي إلى رتبة نقيب، حيث تقرر نقله إلى الجزائر، فعمل في مناطق وهران وتغري وغات وعين صالح ودغاس، لكن ضميره رفض أن يشارك في قتل الشعب الجزائري، فاستطاع أن يكسب ود قائده الفرنسي وبمساعدة عشيقته البرنسيسة فيزنسكي صدر قرار بنقله إلى باريس، ثم رشحته عبر نفوذها الواسع في الدوائر الفرنسية للعمل في المكتب الثاني بوزارة الحرب التي تعد أعماله من أسرار الدولة العليا ونجح في الاختبار الذي استمر لعدة شهور لاختبار قدراته واتجاهاته وقوة تحمله، وعندما نجح، استطاع رجال المخابرات بأحدث الأساليب أن يسلبوا إرادته وعواطفه الإنسانية ليتحول إلى شخص مؤهل للطاعة العمياء لتنفيذ كل ما يطلب منه دون وعي أو إرادة أو مقاومة!

أو كما اعترف في اعترافاته:

«تحولت إلى آدمي جديد له صفات تخالف جميع صفات البشر وطبائعهم، إنما له ميزة واحدة أنه مجرد من العاطفة والشفقة محصنًا ضد جاذبية المرأة وشهوة المال، ذلك أنني صهرت في حرارة أعلى من أي حرارة قد تصادفني في الحياة، بعد ذلك فلا تقوي على التأثير

في عاطفتي!».

***

بعدها تم تدريبه على تمثل دور شاب أخرس لا يسمع ولا يتكلم للعمل خادما لدى مدام «ولهملين» وهي سيدة هولندية شابة ذات جمال صارخ، كانت متزوجة برجل أعمال ألماني يملك ضيعة زراعية واسعة في ضاحية «ولهافن» بألمانيا الغربية، وعمل في نفس الوقت لحساب إدارة التجسس الخارجي التابع للمكتب الثاني الفرنسي في وظيفة «صندوق»، وهو اصطلاح استخباري خاص يعني أنها مُكلفة بجمع الرسائل السرية للعملاء والجواسيس ونقلها إلى مقر القيادة في باريس!

في بيت مدام «ولهملين» رأى العجب العجاب، حيث كانت تبادل ضحاياها من الضباط الألمان الغرام للحصول على أدق الأسرار أمام عينيه، وكأنه تمثال صامت لا يسمع ولا يتكلم باعتباره أخرس، ويوما تسلم رسالة مهمة من أحد الجواسيس تحتوي على أسرار خاصة لمدفع ضخم كان الزعيم النازي «هتلر» قد أمر بتصنيعه بها شرح واف لأجزاء المدفع وتشكيل خاماته المعدنية ومرماه ووزن قذائفه.. إلخ، لكن يشاء حظه العاثر أن تهب الرياح في تلك اللحظة وتطير الرسالة من يده في الهواء، وإذا بكلب ضابط شاب وسيم كانت تعشقه «ولهملين» يخطف الرسالة من بين فكيه حيث بدأ يطارده في حديقة البيت، في الوقت الذي كان العشيق يتابع المشهد من شرفة غرفة النوم، حتى ظن أن الخادم الأخرس يضمر للكلب شرًا، ورفع مسدسه في الهواء، وقال بأعلى صوته: قف مكانك وإلا أطلقت عليك الرصاص، وعندئذ توقف حافظ نجيب عن مطاردة كلبه، وتسمر في مكانه، وانكشف المستور بعدما تبين أنه يسمع، وكادت الفضيحة أن تلقى به وبمدام «ولهملين» خلف قضبان السجن أو حبل المشنقة، لكن غرام الضابط الألماني الشاب بعشيقته الهولندية الجميلة كان أقوى من وطنيته حيث نقل حافظ نجيب بسيارته العسكرية إلى الحدود ومساعدته للهرب من ألمانيا، وتشاء أقدار الحياة أن يلتقي بالضابط الألماني وعشيقته في القاهرة بعد تسعة أعوام، وقد أصبحا زوجين سعيدين!

على أي حال نجح حافظ نجيب في الهرب من ألمانيا إلى فرنسا، وعندما قدم نفسه إلى

رؤسائه في المكتب الثاني الفرنسي لم يقبل أحد التعاون معه بعد أن كاد يورط الحكومة الفرنسية في موقف لا تحسد عليه حيث تقرر ترحيله إلى الإسكندرية ، وهكذا عاد إلى مصر كما رحل منها صعلوكًا ضائعًا مفلسًا، ولجأ إلى والده ، وكان يومئذ يعمل بوظيفة معاون البوليس بمدينة طوخ، لكنه أنكره وأساء معاملته ، فراح حافظ نجيب يقضي أوقاته في المقهى يقص مغامراته على زبائنها مقابل دفع المشروبات وهم بين مصدق ومكذب ، وتصادف أن وقعت في يديه صحيفة الأهرام، وقرأ خبرًا عن عودة البرنسيسة فيزنسكي عشيقته السابقة من الخارج، فاقترض من زوجة أبيه عشرين قرشا بدعوى السفر للبحث عن عمل بالقاهرة!

في القاهرة أحسنت البرنسيسة فيزنسكي استقباله وأغدقت عليه من ثروتها الكثير، وعاد كما كان حاله معها في الماضي أنيقا يرتدي أفخر الثياب ويرتاد معها الحفلات والمجتمعات الراقية.



حافظ نجيب في شيخوخته

٤- شفيقة القبطية



كانت شفيقة القبطية (١٨٢٨ - ١٩٢٧) أشهر راقصات عصرها هي إحدى مغامرات حافظ نجيب الغرامية الصارخة!

ولكن من هي شفيقة القبطية التي لعبت دورها الفنانة هند رستم في فيلم بهذا الاسم، عرض على شاشات السينما في القاهرة عام ١٩٦٣ من أخراج حسن الإمام؟

كانت «شوق» أول راقصة استطاعت أن تجعل لنفسها مكانة محترمة بين العائلات الكبيرة، وكانت الراقصة الوحيدة التي يسمح لها بأن ترقص في الحفلات التي يقيمها الخديوي، وعندما افتتحت قناة السويس رقصت شوق بين المدعوين في حفلة تكريم الإمبراطورة (أوجيني) زوجة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، ولهذا عدت شفيقة نفسها محظوظة حين أظهرت لها «شوق» هذا الإعجاب والتشجيع.

وكانت أسرة شفيقة من الأسر المتدينة، فكانت تحتم على فتاتها أن تؤدي الصلاة في الكنيسة، فكانت تخرج بحجة أنها ستؤدي الصلاة، ثم تذهب إلى بيت «شوق» بشارع محمد علي لتلقنها الدروس الأولى في الرقص الشرقي.

وفجأة اختفت شفيقة، فجن جنون الأسرة، وبحثت عنها في كل مكان حتى يئست من العثور عليها، وبعد حوالي ستة أشهر علمت الأسرة أن فتاتها تعمل راقصة في أحد الموالد الكبرى بالوجه البحري، فأرسلت إليها قسيسًا من أصدقاء الأسرة لينصح لها بالرجوع عن هذا المسلك الذي يزلزل مكانة عائلتها، ولكن القسيس فشل في إقناع الفتاة التي بدأت تضع قدميها على أولى درجات الشهرة والغنى!

***

ولم تعبأ الفتاة بهذا القرار، ولعلها أرادت أن تثبت لأسرتها أنها لم تنحرف عن استقامتها، فألصقت باسمها نوع ديانتها، فكانت تنادى باسم «شفيقة القبطية»، وعادت إلى القاهرة لتعمل مع معلمتها «شوق» لتعمل في الأفراح الكبرى.

وبعد ستة أشهر ماتت «شوق» فخلا الميدان لشفيقة، وفي فترة قصيرة تربعت على عرش فن الرقص الشرقي، ولمع اسمها، فأصبحت الأسر الكبيرة تباهي بأنها جاءت بـ«شفيقة القبطية» في فرحها.

وأرادت شفيقة أن تجرى تجديدًا يتناسب مع شهرتها، فابتدعت «رقصة الفنيار» فكانت تميل بجسمها إلى الخلف وتحمل على بطنها منضدة صغيرة تضع عليها أربع كوبات مملوءة بالشربات، وتضع على جبينها فينارًا «شمعدان» مضاءً بالشموع، ثم ترقص وفي يدها الساجات على هذه الحال، فلا تسقط الأكواب، ولا ينزلق الشمعدان لقدرتها العجيبة على حفظ توازنها لتصبح مبتدعة «رقصة الشمعدان».

وسرت شهرة هذه الراقصة، فسعى إلى شفيقة أصحاب الملاهي الكبرى يغرونها بالأجور لترقص في ملاهيهم، حتى استطاع ملهى «الالدورادو» أن يظفر بالتعاقد مع شفيقة، وبذلك بدأت حياة جديدة، وبدأت الثروة تتدفق عليها.

وبدأت في حياة شفيقة قصة تشبه قصص ألف ليلة وليلة، كانت يومئذ قد تم نضجها، واكتملت أنوثتها، وبدت فاتنة، فالتف حولها عشرات من المعجبين والأثرياء، وأحاط بها رهط من العظماء والكبار، وتوافد لمشاهدة رقصها كبار السواح والأجانب الذين نقلوا اسمها وشهرتها إلى الخارج عبر البحار، وأصبح الملهى الذي ترقص فيه خلية نحل يطوف

بهذه الزهرة طامعًا في قطرات من الرحيق.

ولكن الزهرة كانت تعرف كيف تعطي العطر دون الشهد نفسه، فكانت بذلك تزيد من لهب الحب في قلوب المعجبين.

وعندما تقف شفيقة على خشبة المسرح لترقص كانت الجنيهات الذهبية تتناثر تحت قدميها تحية لها من المعجبين والعشاق، ولكنها كانت لا تمد يدها إلى شيء منها، بل كانت تستخدم ثلاثة من الخدم يجمعون هذه الجنيهات ويقدمونها لها بعد انتهاء وصلة الرقص، وقبل أن واحدًا منهم كان يحتفظ لنفسه ببعض هذه الجنيهات، فاستطاع في مدى قصير أن يقتني ثروة اشترى بها عقارات في حي شبرا، بعدها قرر أن يعتزل الخدمة.

شمبانيا للخيل:

واشتهر من عشاق شفيقة اثنان من أغنى أغنياء مصر، أحدهما أنفق في سبيل رضاها مئات الألوف من الجنيهات حتى فقد ثروته عن آخرها دون أن يظفر من شفيقة بأكثر من لمس يديها.

والثاني ثري كبير كان دخله لا يقل عن ٣٠٠ جنيه ذهبي في اليوم، بلغ إعجابه بشفيقة إلى حد أنه كان يأمر بفتح زجاجات الشمبانيا للخيل التي تجر عربة «الست شفيقة القبطية»!

وانتقلت شفيقة للرقص في ملهى (ألف ليلة)، فكانت تظهر في ملابس موشاة بخيوط من الذهب، وتلبس حذاء غطت كعبه طبقة من الذهب وزينته قطع من الماس الحقيقي.

واتسعت شهرة الراقصة العجيبة، فبدأت إحدى الشركات الفرنسية التي تصنع أدوات ومواد الزينة تضع صورة شفيقة على منتجاتها، فظهرت زجاجات عطر ومراوح وعلب بودرة تحمل صورتها، فراجت في أنحاء العالم، وظهرت مناديل رأس عليها صورة شفيقة، فتهافت عليها حسان مصر.

وتلقت شفيقة كثيرًا من الهدايا التي بعث بها السائحين الذين شاهدوها في مصر.

تنافس الأمراء:

وعادت شفيقة إلى مصر لتستأنف استقبال المجد والثراء، وكانت عاصمة الأناقة

(باريس) قد صقلت ذوقها، فازدادت أناقتها، وأصبحت الملابس التي تلبسها، والحلي التي تتجمل بها هي (موضة) العصر عند سيدات الطبقة العليا.

وأحست شفيقة أنها ملكة الرقص فأرادت أن تستكمل أبهة الملك فاقتنت ثلاث عربات (حنطور) فاخرة، واقتنت عشرات من الخيل الأصيلة، فكانت إذا خرجت صباحاً ركبت عربة (كومبيل)، وإذا خرجت ظهرًا ركبت (تينو)، وإذا خرجت ليلًا في الصيف ركبت (الفيتون) المكشوف.

وكل عربة من هذه العربات يجرها أربعة من الخيول المطهمة، ويحيط بها اثنان من (القشمجية) ويتقدمها اثنان من السياس يصيحان: (وسع.. وسع).

وحدث أن كانت تتنزه مرة بموكبها هذا في الجزيرة، وكان الأمير حسين كامل يتنزه في نفس المنطقة، فلما رأى الموكب ظنه لأحد الأمراء، ولما عرف الحقيقة غضب وذهب إلى الخديوي وأخبره بأن هناك راقصة شهيرة تنافس الأمراء، بل تنافس الخديوي نفسه في الأبهة والعظمة!

وسرعان ما أصدر الخديوي (ديكريتو) يمنع أصحاب العربات من استخدام السياس والقشمجية، وقصر استخدامهم على الخديوي والأمراء.

ومن مظاهر الأبهة التي كانت تعيش فيها أميرة الرقص (شفيقة) أنها كانت تستخدم طائفة من الخدم الإيطاليين، وكانت لا تفصل لهم ملابسهم إلا عند أشهر خياطين في مصر وهما: (كلاكوت) و(ديفز براين) اللذين كان الوزراء يفصلون ملابسهم عندهما.

وكانت إذا انتقلت من مدينة إلى مدينة أخرى استأجرت صالونًا خاصًا في القطار تركبه مع حاشيتها وخدمها.

وفي حياة شفيقة القبطية جوانب إنسانية رفيعة، فقد كانت كريمة إلى حد الجنون أحيانًا.. رأت مرة مشاجرة بين رجلين، فسألت عن سببها، فقيل لها: إن أحد الرجلين استأجر من الآخر دكانًا، وعجز عن دفع إيجاره عدة أشهر، فقامت بينهما هذه المعركة، فتقدمت شفيقة ودفعت متأخر الإيجار كله، ومنحت مستأجر الدكان منحة سخية.

وسمعت مرة أن تاجر أقمشة كبيرًا ممن كانت تتعامل معهم، موشك على إعلان إفلاسه، فأسرعت إليه لتمده بمال يحول دون إفلاسه.

وإلى جانب هذا كانت لا تحجم عن إحياء أفراح بعض الفقراء دون أن تتقاضى أجرًا، بل وكثيرًا ما كانت تمنح العروسين مساعدة مالية تعينهما على قضاء شهر عسل سعيد.

وعلى الرغم من بذخ شفيقة في الإنفاق، وإسرافها وكرمها، فقد استطاعت أن تجمع ثروة ضخمة، فكانت تملك عدة دور في حي باب البحر، وأخرى في حي شبرا، وحارة السقايين وعدة قصور كانت تعيش فيها.

واستطاعت أن تحقق كل أمنية لها في الحياة إلا واحدة حال القدر البخيل دون تحقيقها...

كانت تتمنى أن تكون أمًا، ولكنها لم تنل هذه الأمنية فتبنت طفلاً سمته (ذكي)، وأغدقت عليه الحنان، ورفهته كل الترفيه، فنشأ مدللًا، وكان يرهقها بالمطالب، فلا تبخل عليه، وأفسده التدليل فتعاطى الخمر والمخدرات، وأرادت أن تفرح به فزوجته زواجًا مبكراً، وأقامت له الأفراح ستة أيام، واشترك في إحياء فرحه عدد كبير من المطربات والمغنين.

ولكن الشاب أمعن في إدمانه للكيوف، فمات بعد قليل من زواجه، وحزنت عليه شفيقة حزنًا هز كيانها.

الصحراء المجدبة:

وتقدمت بشفيقة السن، فبدأ طابور المعجبين يتناقص، وبدؤوا يتخلفون واحدًا في إثر واحد، وتلفتت وراءها فلم تجد منهم أحدًا، فعادت إليهم تناديهم، فلم يستجب أحد للنداء، وبدأت تدفع ثمن إعراضها عنهم وإمعانها في إذلالهم.

بسطت يدها بالمال للشباب المحروم، فكان ينعم بمالها ولا يعطيها من الحب غير القشور، وكانت كلما ضنوا عليها بالعاطفة سخت عليهم بالمال لتشتري جرعة من الحب تطفئ بها ظمأ نفسها، ولكن الصحراء كانت ساخنة مجدبة، وقيظها المحرق يحتاج في ريه إلى سيل لا ينقطع.

وبدأت الثروة تتبدد بعد أن بطل السحر وولى الشباب، ولم يبق لشفيقة من كل ذلك المجد غير ذكراه، ولم يبق لها من ثروتها غير بيت واحد في شبرا أرادت أن تعيش منه فأجرت بعض غرفه... ولكنها أحبت شابًا حملها على بيعه، فباعته وافتتحت محلًا لبيع الخمور في شبرا، ولكنها اضطرت لبيعه إرضاء لفتى جديد لم يلبث أن هجرها.. فاضطرت للرقص بعد أن شاخت في (بوظة) باب الخلق في مقابل ما يسد الرمق..

وأشاحت الوجوه عن شفيقة لتتجه إلى ثلاث حسان جديدات ظهرن في عالم الرقص هن (معتوقة) و(زهرة العربية) و(نفوسة غرام)، ومع أن هؤلاء لم يبلغن ما بلغته شفيقة من القدرة إلا أن جمالهن كان كفيلًا بتفوقهن عليها.

وكما يتوهج كل مصباح يفيض بالزيت لا بد له أن يخبو حين ينضب زيته.. وهكذا خبا ضوء شفيقة القبطية، فراحت تتسول في الطرقات وتطلب العون من قدامى العشاق.

وفي عام ١٩٢٦ احترقت آخر قطرة من زيت المصباح، وأغمضت (شفيقة القبطية) عينيها وودعت دنيا حفلت بأمجادها وصفقت لها أكثر من نصف قرن، بعد أن بلغت الخامسة والسبعين معدمة الحيوية والجمال والسحر.

***

شهدت حقبة من حياة حافظ نجيب انغماسه في حياة الكباريهات في القاهرة والإنفاق صرف ببذخ على الغانيات والراقصات في شارع محمد علي وشارع عماد الدين، وفي «وش البركة» في شارع كلوت بك الذي كان يعج آنذاك بألوان المجون حتى وقع في هوى شفيقة القبطية أشهر راقصات ذلك الزمان، وكما أثرت عبر ممارسة الهوى مع أثرياء وباشوات من قبل زادت من ثرائها أثناء تواصلها مع حافظ نجيب، وكان في ذلك الوقت على صلة بالأميرة فيزنسكي التي غمرته بكل ألوان الترف، فسال المال بين يديه أنهارا.

ولكنه اكتشف أن أخطر ألوان الهوى هو هوى الغانيات، وأن هدف الغانيات هو المال فقط ليس إلا، فإذا استنفدت المال من الضحية تنكرت له وأشاحت عنه بوجهها!

بعد اكتشاف حافظ نجيب طبيعة علاقته بشفيقة سأم منها، وهجرها واعترف بذلك قائلًا: «الحقيقة أنني لم أتأثر إطلاقًا بأنوثة هذه المرأة ولا بخلاعتها، وكنت أعرف يقينًا أنها

تمثل دور عاشقة في الظاهر ودور سلابة في الواقع ، وكنت أدفع ثمن التسلية في هذا الجو المضطرب لأن لكل شيء من الرغبات ثمنه ، فكذلك التسلية ، لم تدم طبعًا هذه الحال لأن النفس تسأم الاستمرار على وتيرة واحدة لا تبدل فيها ، ولا جديد عليها ، فتحول الملل إلى رغبة في التجديد وإلى دور جديد للغناء والرقص للبحث عن وجه جديد»[1].

وبعد أن أصيب بالسأم هجر شفيقة القبطية كما سبق وسأم من علاقته بالأميرة فيزنسكي، وأقام علاقة حسية جديدة مع الراقصة «حميدة» التي سرقت منه أحد نياشين البرنسيسة ألسكندره أفرينو ودفع ثمن ذلك ستة أشهر في سجن الحضرة بالإسكندرية!

(١) اعترافات حافظ نجيب ، ص ١٥٥.

حافظ نجيب المغامر

شهدت حياة حافظ نجيب في النصف الأول منها العديد من مغامراته في دنيا المال والنساء، أشبه بالمغامرات البوليسية التي تذكرنا بمغامرات اللص الشريف أرسين لوبين، ومن بين تلك الأحداث والمغامرات:

ساعدته اليهودية فرنسين في الهرب أثناء انتقاله من السجن إلى نيابة شبرا، واختفى في أحد البيوت بالظاهر، وتنكر في شخص رجل يهودي بدين، وقام بمغامرة مع رئيس البوليس السري الميسو كارتييه لتأمين مسكنه بالظاهر، وفي أحد الأيام قرأ حافظ في الصحف اتهامًا له بتهمة الاحتيال على رجل يهودي سرق ساعته، وأن التحقيق تم، وأحيلت القضية إلى قاضي الجنايات، فأصدر الحكم بسجن حافظ نجيب لمدة ثلاث سنوات غيابيًا، وبمرور الوقت تأكد حافظ بأن هذه التهمة لفقتها أيضًا الأميرة فيزنسكي، فقرر ترك اسم حافظ نجيب، والتنكر في أكثر من شخصية، هربًا من مطاردة البوليس وتنفيذ الأحكام، ولكي ينقذ البقية الباقية من سنوات عمره.

تنكر حافظ في شخصية عم دقدق بائع الفشار والحلوى ولعب الأطفال، فعرفه كارتييه رئيس البوليس السري وطارده في الشوارع والأزقة، حتى دخل حافظ في حمام بلدي للنساء، وهرب من بابه الخلفي، وعندما دخل كارتييه وجنوده، انهالت عليهم النساء ضربًا، ثم تنكر حافظ مرة أخرى في شخصية مبروك الخادم، وأخذ منه شهادة خطية بحُسن سيره وسلوكه، وفي عام ١٩١٣ سلم حافظ نجيب نفسه، وفي المحكمة وأمام اتهامات رئيس النيابة بسوء سلوكه، كشف المتهم حافظ نجيب عن شخصيته الأخرى، وهي مبروك الخادم، فأحرج رئيس النيابة أمام القاضي، خصوصًا عندما قدّم للقاضي شهادة حُسن سيره وسلوكه المكتوبة بخط يد رئيس النيابة، وتم الحكم بسجن حافظ، ولكنه كالعادة هرب من السجن.

بعد ذلك تنكر حافظ في شخصية المسيو بنفيه، وصناعته التجارة والوساطة بين مصانع

أوروبا ومكتب قومسيون مدام فرنسين اليهودية، ثم تنكر في شخصية البارون دي ماسون، الرجل الثري اليهودي هاوي الآثار، فتعرف على الأرملة الكونتس سيجريس، ورافقها في رحلتها السياحية فأعجب بها وحماها من نظرات الطامعين في جمالها، خصوصًا سرحان باشا، الذي دعاها بصحبة البارون أو حافظ نجيب إلى إحدى حفلاته، وفي هذه الحفلة تحدى البارون الباشا، وبعد عدة مغامرات مع التلاعب بالألفاظ والعبارات، حضر البوليس لأن البارون وعد الكونتس بأن حافظ نجيب سيحضر لمقابلتها في هذه الحفلة، وبالفعل يكتشف البارون عن نفسه، ويعترف أمام الجميع، بعد أن تخلص من تنكره بأن حافظ نجيب الهارب من عدة أحكام، ويسلم نفسه طواعيه للبوليس، بعد أن أعلن أمام الجميع بأنه سيقابل الكونتس سيجريس غدًا في جزيرة بالاس أوتيل لشرب الشاي.

وأمام هذا التحدي قام البوليس بوضع حافظ نجيب في زنزانة شديدة الحراسة، وفي صباح اليوم التالي لم يجدوه في الزنزانة، وعلى الفور ذهبوا إلى موعد الكونتس سيجريس، فوجدوها بصبحة نخبة من رجال المجتمع، ولم يحضر حافظ لمقابلتها كما وعد، ولكن الحقيقة أن حافظ نجيب هرب بالفعل وقابل سيجريس لأنه كان موجودًا ضمن ضيوفها باسم المسيو بنفيه، وبعد أن علمت سيجريس بقدرة حافظ في الهرب والتنكر، زاد إعجابها به، فطلب منها الزواج، ولكنها رفضت بحجة أن حافظ نجيب طريد العدالة، فأخذ منها وعدًا بأنه سينهي هذه الإشكالية بشرط أن تحافظ على وعدها له بالزواج، فوافقت.

غاب حافظ نجيب فترة من الزمن تنكر فيها في شخصية الشيخ صالح عبد الجواد، ثم قامت بمحاولة جنونية ساعده فيها صديقه خليل حداد، وتتلخص هذه المحاولة في شربه لدواء معين يُظهره بمظهر الميت، ومن ثم تم الإعلان عن موت الشيخ صالح، وفي الوقت نفسه قام خليل حداد بإبلاغ البوليس أن الشيخ صالح المتوفى هو حافظ نجيب، وعندما حضر البوليس وتأكد من موت حافظ، صرح بدفنه وأغلقت جميع القضايا المنسوبة إليه، وفي المساء، ثم دفن حافظ في قبره، وبعد عدة ساعات زال مفعول الدواء، فتنبه حافظ من نومه، وخرج من القبر وعاش بين القوم باسم بنفيه، وتم زواجه من الكونتس سيجريس، ولكن هذا الزواج لم يدم طويلًا.

أدمن حافظ الخمر فترة من الوقت، وعاش في ضياع ويأس، حتى قرر أن يتخفى في

صورة راهب، فشجعه البعض على هذا الأمر، وظهر حافظ نجيب عام ١٩٠٨ في شخصية الراهب غبريال إبراهيم في دير بشوي، ثم ظهر باسم الراهب غالي جرجس أو فيلوثاؤس في دير المحرق بأسيوط، وظل حافظ في الرهبنة لمدة عام، ومن ثم ترك الدير وتعرف في فندق ناسيونال عام ١٩٠٩ على بارون سويدي يُدعى ماير وكان مريضًا، وبعد أيام قليلة يموت البارون متأثرًا بمرضه، فينتحل حافظ شخصيته واسمه الحقيقي وهو شميدر، ونزل بهذا الاسم في فندق مينا هاوس، وبعد أيام قليلة لعبت الخمر برأس خليل حداد، فثرثر مع أحد الصحفيين، وكشف عن شخصية حافظ نجيب وأنه من نزلاء الفندق، فأبلغ الصحفي البوليس الذي حضر وحاصر المتهم حافظ، ولكن حافظ نجيب استطاع الهرب كعادته، وإلى هنا تنتهي الاعترافات.

هذه هي النقاط الرئيسية التي تدور حولها اعترافات حافظ نجيب.

وإذا انتقلنا إلى صورة أخرى من صور حافظ نجيب، كما جاءت في اعترافاته، سنجده رجلًا ذكيًا، ماهرًا في التنكر، وابتدع الحيل المختلفة، ومبتكر الأساليب المتنوعة في التخفي والهروب!! فاستحق الألقاب العديدة التي خلعت عليه، مثل: نابغة المحتالين.. أرسين لوبين المصري، الثعلب!! وهذه هي الصورة التي جعلت من اسم (حافظ نجيب) اسمًا مشهورًا كان حديث الناس في أوائل القرن العشرين!!

وحقيقة الأمر أن حافظ نجيب، قام بكم كبير من قضايا النصب والاحتيال، فتم الحكم عليه غيابيًا بالسجن لسنوات كثيرة، وهذا يفسر لنا العدد الكبير من الشخصيات التي انتحلها وتنكر فيها، هربًا من تنفيذ الأحكام!! وهي شخصيات جاءت في اعترافاته عام ١٩٤٦، ومن قبل جاءت في قصصه المؤلفة -والتي يعترف بأنه بطلها- والمنشورة في مجلتي (العالمين) و(الحاوي) منذ عام ١٩٢٣، ومن هذه الشخصيات: الجاسوس الأخرس، الرجل البدين، عم دؤدؤ أو الحاج فرغلي، الخادم مبروك أو حسن، المسيو بنفيه، البارون دي ماسون، الشيخ صالح عبد الجواد، الراهب غبريال إبراهيم، الراهب غالي جرجس أو فيلوثاؤس، البارون ماير أو شنيدر، المسيو توندور، الخواجا غالي، مسيو أنطوان دوريه، بنفيه خادم الملكة ناتالي، محمد صبحي، الشيخ بكر!! وقد أضاف الزركلي في أعلامه شخصيات أخرى تنكر فيها حافظ نجيب، وهي الأمير يوسف كمال، ابن أخي أفلاطون باشا،

المندوب السامي العثماني!!

ويبرر حافظ نجيب تنكره في هذه الشخصيات، بقوله: «في صدري غل من الهيئة الاجتماعية بسبب حملات الصحف عليّ اعتباطا لتلويث اسمي واعتقاد الناس صحة ما ينشر بدون وزنه، ولجوء الجميع إلى التندر بهذا الاسم مع الإسراف في تخيل حكايات ونوادر ينسبونها إليّ كما كانوا يفعلون بجحا، فدفعني هذا الغل إلى التنكر للرأي العام وللهيئة الاجتماعية، ثم استخففت بالقوانين والأخلاق والعادات والتقاليد وتعمدت أن أعيش في حرية مطلقة بدون تقيد بنظم الاجتماع».

فمن الثابت أن الصحف المصرية في أوائل القرن العشرين بدأت تكتب بعض الأخبار المتفرقة عن حافظ نجيب، وعن أعماله، ولكن هذه الكتابات لم تؤثر على القراءة، ولم تكتب شهرة حافظ نجيب، إلا بعد أن كتب الأديب السوري المقيم بالإسكندرية جورج طنوس (١٨٨٠-١٩٢٦م) أول كتاب كامل عن حافظ نجيب، وكان بعنوان (نابغة المحتالين أو حافظ نجيب)!! وتم نشر هذا الكتاب فيما بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٢، والكتاب عبارة عن مجموعة من أخبار وحوادث حافظ نجيب ومجموعة من قصائده، ورواية طويلة من تأليفه، استغرقت معظم صفحات الكتاب.

ويوضح جورج طنوس هدفه من الكتاب فيقول[1]: «لا عجب إذا تشوق الناس إلى سماع كل شيء عن حافظ نجيب المحتال الأشهر، لأنه أظهر بأعماله وفراره من أيدي رجال البوليس ثلاث مرات متواليات، أنه داهية نادر المثال بين معاشر النصابين والسارقين، ولأن الناس مولعون دائمًا بالوقوف على أخبار نوابغهم، سواء نبغوا في الشر أو الخير، لأنهم يعدون من مصف غير مصاف سائر العالمين، إذ برهنوا بأعمالهم واقتدارهم، على أن ليس في وسع غيرهم إتيان ما أتوه، من غريب الأعمال ومدهش الأفعال، فلهذا رأيت أن أذكر بعض ما يهم من أخبار حافظ نجيب، قبل الحكم عليه في حادث سرقته أوسمة حضرة الكاتبة الفاضلة السيدة الكسندرا أفيرينو، صاحبة مجلة أنيس الجليس تفكهة للقارئين.

وقد أدلى طنوس برأيه في حافظ نجيب، وتناقض تصرفاته قائلًا: «ومن غرائب أمره

(١) جورج طنوس: نابغة المحتالين، ص٥.

أيضًا، أنه عندما بدأ يحترف صناعة النصب، كانت أطواره غريبة تدعو إلى الدهش الكبير، فقد كان يظهر اليوم لناظريه والذهب يغطي أديم أصابعه ويزين صدره وجميع ملابسه، فلا تغرب شمس الغد إلا وقد باع كل ذلك، وأنفقه مع ما كان معه من المال وعلى من؟ على فتيات الهوى، لأنه كان مولعًا بإنفاق الذهب الرنان بالمئات في قهوات الرقص، وما ذاك إلا لاعتقاده أن هذه القهوات، تظهره للناس بمظهر الوارثين والأغنياء، بينما كنت تراه رث الثياب، خاوي الوفاض، وعلى وجهه ملامح الكآبة واليأس، تراه بعد أسبوع على الأكثر، وقد ظهر لك بمظهر عظماء الرجال، واقتنى العربات الفاخرة، والمطهم من الجياد».

كما أن ناشر كتاب (نابغة المحتالين) أو طابعه، ذكر أيضا رأيه في حافظ نجيب، بالإضافة إلى ذكر معلومات جديدة -تبعًا لمعرفته الشخصية به- قائلًا تحت عنوان (كلمة الطابع): «كان حافظ ولا ريب، في بدء حياته شابا نبيلا، كريم العواطف، شريف الأخلاق، ولا يبعد أن يكون حافظ، ربيب الكرم والرخاء، لأن دخوله إلى المدارس الكبرى، وحصوله على الشهادات العالية، يدلان على أن الذين كفلوه في صغره، قوم كرام النفوس، وعلى سعة من العيش، فإذا ثبت هذا كان دخول حافظ في زمرة المحتالين والنصابين، لا للغرض الذي يسعى إليه غيره، وهو حشد المال، لأن التحقيقات القضائية التي أجرتها النيابة العمومية، والحوادث العديدة التي رويت عنه، تدل على أنه كان ينفق بإسراف كل ما يحصل عليه من المال، حتى بلغ منه البذخ إلى أن ينفق في اليوم الواحد من خمسين إلى مائة جنيه أو يزيد، فهو على ما يظهر، وفق في أول أمره إلى سلب مبلغ من أحد الناس، فظن أن الاحتيال على عباد الله أمر ميسور، وأنه من السهل عليه، نظرا لما أوتيه من الذكاء والاقتدار، أن يجعل احتياله قانونيا، بعيدًا عن غائلة العقاب، فلا يدع فيه مجالا لدخول رجال البوليس، ولكن تهوره في الاحتيال، جره في آخر الأيام إلى السجون، وها هو لا يزال إلى اليوم شريدا ومن غريب أمره أنه يأنف الابتعاد عن بلاه، ولو ظل فيها هدفا لسهام البوليس، وكوارث السجن، يدلنا على هذا أنه بعد أن خرج من الأديرة القبطية، حاصلا على مبلغ كبير من المال، ناله من بعض رجالها، لم يشأ أن يهرب إلى بلد غير مصر، ويعيش تحت سمائه حرا خاليا من كل تعب، بعيدًا عن كل خطر، بل نزل في أعظم فنادق العاصمة، وأخذ ينفق المال بغير حساب، حتى اضطر في نهاية الأمر إلى الاحتيال على إحدى السيدات الفرنسويات احتيالا وقع من أجله

في أيدي البوليس، الذين كانوا يبحثون عنه ليل نهار، إن نابها كحافظ نجيب، لو استخدم ذكاءه في الخير، نفع أمته ونفسه، ولكن الظاهر أن كثيرين من الأذكياء كان ذكاؤهم اختصاصيًا بالشر، فلا يعرفون معنى الخير، ولا يميلون إليه، ولله في عباده شؤون[1].

ومن الغريب أن جورج طنوس لم يكتف بإصدار كتاب «نابغة المحتالين» عن حافظ نجيب، بل شرع في ذلك الوقت في طبع كتاب ثان تحت عنوان «نوادر نجيب»: بناء على رغبة الأكثر من أهل الفضل والأدباء، شرعت الآن في طبع كتاب غير هذا باسم «نوادر حافظ نجيب»، سيظهر بعد زمن قريب، مشتملا على كل ما أتاه حافظ من المدهشات والمستغربات، منذ خروجه من سجن الحضرة إلى الآن، ولاسيما ما أجراه من غريب الحيل في أديرة الرهبان، في العالم الذي قضاه معتزلا عن عباد الله، حتى خرج بعد ذلك العام يحمل ألفا وأربعمائة جنيه حصل عليها بطريقة مدهشة متى اطلع عليها القارئون في الكتاب القادم أدركوا أن حافظًا آية من آيات الزمان في الخداع والاحتيال.

ولشهرة حافظ نجيب في التنكر والتخفي عن البوليس الذي كان يطارده إلى مدى عدة سنوات حتى أصبح في نظر المجتمع أسطورة مثل العنقاء التي نسمع عنها ولا نراها:

عجبت من البوليس كيف يرومني — وإني كالعنقاء في نظر الرائي
جنون ووهم إن رأوا صورتي التي — أغيرها إن شئت تغيير أزيائي

وبعد تجاربه الشائكة في الهوى والغرام وتنقله من غادة إلى غادة وجد نفسه سجينًا في سجن الحضرة بالإسكندرية، فاعترف بأن من باعته وأدخلته السجن إحدى غرامياته والمقصود بها البرنسيسة فيزنسكي:

تجرد رأسي يا زمان من الفكر — وأصبحت محموما أبيت على الجمر
كذلك مات الحب في القلب يأسا — وزال به ما كان يحرق في الصدر
وأصرف وقتي بين هند وزينب — أعاقرها راحا إلى مطلع الفجر
وتسلب مالي ذات خد محمر — وأصبح محروق الفؤاد من الخمر

(١) جورج طنوس: نابغة المحتالين، ص ١٦، ١٧.

فيا ليت من يهوى يرى اليوم حالتي لينظر ما تأتي النساء من الغدر
فما باعني للسجن إلا مليحة علقت بها يا قوم من أول الأمر

وينعى على الناس نظرتهم السطحية للحياة الذين يرونها مجرد لهو ولذة وجاه، ولكن يكتشف أن غرور المظاهر لا تعني هناء العيش وسعادة الحياة:

يظنون أن الحب لهو ولذة وأن هناء العيش في رفعة الجاه
فيا قلب هل هذا صحيح نصه وإلا غرور الناس بالظاهر الواهي

***

لم يكن حافظ نجيب يملك من الوسامة ما يؤهله ليكون فارس أحلام النساء، لكنه كان يملك روح الجسارة والاقتحام والثقة بالنفس التي جعلته يخوض كل هذه الغراميات مع حسناوات وكونتسات وراقصات لا يصده شيء عن مغامرة حتى لو دخل بسببها السجن وها هو يتحدث عن حكم الحب وأطواره: [1]

ولما أفاق الدهر من بعد نومه تقطعت الآمال وانصرف الحب
تجافت قلوب لم تكن تعرف الجفا وفاضت عيون لم يكن دأبها السكب
ودسّ عزولي كل ما شاء حقده ومن يرهب العذال يرعبه الثوب
ولكنني دست العزول وحبَها وقطعت عهدًا لا يقطعه الغضب
فإن كنت في السجن الرهيب بكيدها فإن فؤاد مطلق ما به عطب

والحقيقة أن المرأة التي كان لها تأثير في حياته وعواطفه والتي قدمت له الكثير كانت البرنسيسة فيزنسكي التي تعلقت به بصورة جنونية، ولما اكتشفت ألاعيبه ومغامراته الحسية مع الراقصات وفتيات أخريات دبرت له عدة قضايا دخل بسببها السجن، الذي فجر داخله هذه الآهات الشعرية التي خرجت من قلب ضائع ونفس حائرة، وروح هائم لا يعرف أين المصير.

(١) جورج طنوس: نابغة المحتالين، ص ١٠، ١١.

أي أن حلم «الوظيفة العسكرية» التي تغنيه عن مساعدة أي إنسان كاد يتبخر .. لولا ظهور البرنسيس فيزنسكي !! .. وهي أميرة روسية .. متزوجة منفرنسي كان يعمل في السفارة الإنجليزية ببرلين .. تجاوزت الأربعين .. لكنها جميلة واضحة الحسن لها فتنة وجاذبية قوية . ولها صوت ناعم يصل إلى السمع كأنه صوت موسيقى ، شخصيتها تجذب إليها الأنظارو تفتن القلوب وتأسر الأفئدة .. يزيد عليها علم غزير وأدب عال وشاعرية .. هذه هي الصورة التي رسمها لها حافظ نجيب في اللقاءات الأولى .

وبدأت الأميرة تخطط لحياة الشاب الذي شعر بأنها تظهر له العطف والاهتمام بمستقبله .. بينما «أجد من والدي القسوة والنفور من وقوع نظره على .. وهو الذي انتزعني من أحضان جدتي ، وكان سببًا في تعذيب المرحومة والدتي .. » .

انتقل حافظ إلى منزل الأميرة .. وهناك كانت الخطوة الأولى في إعادة تكوينه على الصورة التي تريدها السيدة الخبيرة .. ويحكي : « تركتني لوصيفة لها لتدريبي على التقاليد في مثل هذه البيوت ولاحظت الوصيفة أنني لا أملك سوى ثوب واحد عسكري ، فنزلت معي إلى الأسواق واشترت جميع ما يحتاج إليه شاب سيعيش في وسط راق فعشت في هذا الجو أيامًا قليلة وأنا لا أصدق أنني في يقظة » .

سافر حافظ مع الأميرة إلى الأستانة .. هناك التحق بالجيش التركي .. الذي أرسله في بعثة لإتمام الدراسة في فرنسا .. وعندما أنهاها لم تشأ الأميرة أن يعود برتبة يوزباشي في الجيش التركي خوفا عليه من القلق السياسي في تركيا .. فتحرك نفوذها ليعمل في الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي.. وقضى حافظ ثلاثة أعوام في دراسة الهندسة العسكرية .. وفي وقت الفراغ كان يذهب إلى جامعة باريس ليسمع محاضرات في الأدب حسب رغبة الأميرة . حتى هذا الوقت كان حافظ ينظر لعلاقته بالأميرة على أنها : شفقة وعطف .. لكنه في ليلة صاخبة وبعد حفلة ساهرة .. تجاوز فيها في شرب الخمر حد احتمال العقل .. استيقظ في

الصباح ليجد نفسه في غرفة نوم البرنسيسة !!

* * *

في تلك الليلة تذكر حافظ الراقصة «ن» التي كان عندها بيان بأسماء الطلبة في المدرسة الحربية.. وتقف في عربة مكشوفة .. أثناء مرور طابور الصباح .. ثم تنتقل إلى الساحة الرياضية المخصصة للألعاب الرياضية .. فتخبل عقول الشبان .. وتنشط رغباتهم إلى حد التشوق والتمني.. ونجحت حيلة الراقصة وكانت في كل إجازة تصطاد شابًا قوي الجسم .. وتشطب اسمه من الجدول .. حتى أتت على جميع الطلاب (ما عدا حافظ والطلاب السودانيين) .

المهم تذكر حافظ الراقصة في تلك الليلة لأنه فكر في أنها اعتمدت على الأنوثة والخلاعة لامتلاك كتائب من الشبان .. وقارن بينها وبين الأميرة التي اعتمدت على العقل والصبر والمال والحيلة لتمتلك شابًا واحدًا رغبت في الحصول عليه .. وقال لنفسه : «هدف المرأتين واحد هو : الرغبة في الامتلاك والباعث واحد : هو الارتياح في الاشتهاء . إنما تنوعت الوسائل بسبب اختلاف العقليتين والمدنيتين والثروتين » .

البرنسيسة شعرت طوال الوقت بأن حافظ ملكها .. وهي التي صنعته .. وعندما عرفت أنه يخرج عن طوعها .. ويهرب من سجنها وشيخوختها .. قررت أن تنهيه .. أجرت قاتلاً محترفًا لقتله .. ثم دبرت له تهما ملفقة أدخلته السجن .. وكلما خرج كانت تجهز تهمًا جديدة .. وهذا هو سر قرار حافظ بالدخول في لعبة التنكر والأقنعة .. قال : .. إنهم سيطاردون حافظ نجيب ولكني سأترك لهم ذاك الاسم الذي يلوثونه والصورة التي خلقها الله وسأتحول إلى إنسان جديد يحمل اسمًا نكرة ووجها كاذبًا فاختفي عن العيون في ظلام التنكر .. ولكنني سأعيش بين سمع الناس وأبصارهم وأمتع نفسي بكل ما على ظهر الأرض من الملذات » قال هذا للسيدة فرنسيس اليهودية وهي في نفس الوقت فرنسية لعوب . لها جمال وجاذبية وكياسة وهي زوجة تاجر ساعات

مريض وهزيل .. هي التي عبرت به أزمته الأولى مع البرنسيسة !!

هكذا لم يكن حافظ نجيب ضد النساء .. بل كان ضد امتلاكه من قبل أي امرأة .. ورغم ذلك ارتبطت كل محطة في حياته بحكاية مع امرأة جميلة . أولى مهامه في الجيش الفرنسي كانت في الجزائر.. عاش هناك عاما كاملا لم يأنس فيه إلى فرنسي واحد .. بعدها عمل في المكتب الثاني أحد فروع المخابرات الفرنسية .. مهمته الأولى كانت في دور خادم أخرس في ألمانيا .. زميلته في المهمة امرأة هولندية فائقة الجمال . لكنها لم تلتفت إليه .. وهذا ما أغاظه إلى حد أفقده عقله وجعله يتصرف بلا حذر .. وعندما أمره الضابط الألماني بأن يرفع يديه .. وامتثل للأمر ونسى أنه من المفروض أنه أخرس .. والغريب أن إنقاذه من السجن كان على يد الفاتنة الهولندية وعشيقها الألماني.

مرة ثانية وصلت حدود مغامرته إلى الحد الأقصى مع كونتيسة : حسناء أطارت عقله . ترملت ولم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ، ولدت في إسبانيا وتزوجت من الكونت سيجريس من رجال السلك الفرنسي . ولم يجد لها طريقة إلا عبر مغامرة كبرى هي الإعلان عن شخصيته الحقيقية : حافظ نجيب الذي وزع البوليس نشرة بأوصافه : مسلم ، مصري الجنسية ، من رعايا الحكومة المحلية وصناعته مدرس وإقامته في عابدين وعمره ٣٣ سنة ، متوسط القامة والجسم قمحي اللون أسود الشعر . مستطيل الوجه . متوسط الجبهة عسلي العينين . سليمهما كبير الأنف واسع الفم خفيف الشارب حليق اللحية . وفي وجهه أثار الجدري. حافظ قرر أن يعلن عن شخصيته الحقيقية في حفل عمومي حتى يخطف قلب الكونتيسة التي تزوجها بعد ذلك بفترة قليلة .. ثم عندما شعر بمللها من العلاقة تركها .. بعد أن كان قد أعلن عن موته رسميًا ودفن فعلا في قبر حقيقي حتى تسقط عنه التهم المتراكمة عليه .

ظلت النساء حاضرة معه . لا يمكن أن يخلص لواحدة فقط وهذا ما فجر الكوارث من حوله تعرف على سيدة سورية اسمها «ألكسندر أفرينو» صاحبة مجلة «أنيس الجليس» أولى المجلات النسائية .. وقتها كان يعمل في البورصة

بأموال البرنسيسة .. ويفتح بيتا لراقصة اسمها حمدية .. (وذلك بعد علاقة طويلة مع الراقصة الشهيرة شفيقة القبطية كان فيها أقرب إلى نموذج محدث النعمة الذي يصرف الأموال بسفاهة لا مثيل لها) .. المهم كانت شخصية حافظ بالاتساع الذي يتيح له اللعب على عدة جبهات .. لكن الوشاة دخلوا على الخط.

حافظ نجيب الأديب المحتال:

كشف الباحث الأديب أحمد حسين الطماوي النقاب عن آثار حافظ نجيب الأدبية من شعر ومسرح وترجمة وقصة في مقال قيم فقال[1] ::

«في الأيام الأولى من عام ١٩١٢ تقدم رجل مسن نائبًا عن سيدة تدعى وسيلة محمد، إلى نجيب متري صاحب دار المعارف، وعرض عليه مخطوطة كتاب ترجمته السيدة المذكورة عن شارل وانير يحمل عنوان «روح الاعتدال»، وطلب منه النظر في نشره، ولم يمض وقت طويل حتى وقع صاحب دار المعارف مع وكيل السيدة وسيلة عقد نشر الكتاب لتعذر حضورها. وطبع الكتاب عام ١٩١٢ ولاقي نجاحا كبيرًا، وأقبل عليه طلاب المدارس، وعلقت عليه الصحف والمجلات، ومما قالته جريدة المحروسة في ٢٧/ ٣/ ١٩١٢ :

« بين الإفراط والتفريط درجة هي الاعتدال، والمثل يقول: خير الأمور الوسط .. فلا غرو أن الاعتدال فضيلة وحسنة .. ولذلك ترى المجتمع الإنساني يتذمر من حاله لأن هذه الحسنة قليلة بين أفراده، سواء في ذلك أهل الشرق والغرب. وقد رأى ذلك الكاتب الاجتماعي شارل وانير، فألف كتابا تحدث فيه عن روح الاعتدال، فأبدع وأجاد، وهدي وأفاد، فأرادت حضرة السيدة وسيلة محمد أن لا يحرم أبناء الشرق من جني ثمار الانتفاع من روض ذلك السفر النفيس. فألبسته من العربية ثوبا أنيقًا بسيطًا، وزاهرًا في وقت واحد .. ».

وقالت عنه مجلة «الملاجيء العباسية ومكارم الأخلاق الإسلامية» عدد جمادي الثانية ١٣٣٠ هـ (١٩١٢) كتاب روح الاعتدال يبحث «عن تأثير

---

(١) الهلال: أغسطس ١٩٨٤.

الاعتدال على الفكر والقول والمطالب، وعلى الحياة العائلية والتربية ، وأثبت أخيرًا أن لروح الاعتدال نفوذًا قويًا وسلطانًا فعالاً في تقويم الأخلاق، وتلطيف الأمزجة الحادة ، والطباع الغليظة ، وفي إيجاد السلام بين الأنام . والكتاب يقع في نحو ١٦٠ صفحة متين الأسلوب عالي التعبير مما يدلنا على مقدار غزارة المادة عند حضرة المعربة» .

وقد شجع هذا نجيب مترى على طبع الكتاب الثاني «غاية الإنسان» المنسوب إلى الفيلسوف جان فينوت وتعريب وسيلة محمد . وقد أمكنني الحصول على هذا الكتاب المصنف بدار الكتب تحت رقم ٤٦٦ ـ فلسفة . والكتاب يدخل إلى نادي الفلسفة بنفس البطاقة التي تدخل بها الكتب التي تتناول الفلسفة الخلقية إذ يتحدث عن الحق والواجب والحرية والأنانية والفضيلة والقيم من خلال «غاية الإنسان» من الحياة في هذه الدنيا وهي السعادة . ويقرر المؤلف أن السعادة موجودة في الحياة وأن عدم إدراكها لا يعني عدم وجودها ، يقول : «إن محو الرابطة بين الحال ومقتضاه محال ، قد يوجد الحال ولا يتم مقتضاه ، ولكن الرابطة بينهما موجودة بوجود الاقتضاء ، وقد توجد الرغبة في السعادة ومقتضاها فيتحقق وجود الرغبة وتتعذر السعادة فعدم نيلها مع وجود الرغبة فيها ليس دليلا على عدم وجودها وإنما على وجود السبب المانع من تحقيق الرغبة». وأدان الفلسفات التي تمعن في تشويه جمال الحياة وتخفض من قيمتها ، وينفي المقولات الذاهبة إلى أن إغفال الهناءة في الحياة الدنيوية يحقق السعادة في الدار الآخرة وفي هذا يقول : «ولست أدرى ما الذي يؤذى الإنسان إذا هو نال السعادة في الدارين ، ولا الذي يضير الأديان إذا اغتبط المخلوق على الأرض . وفي الدار الآخرة ما دام يحرص على مباديء الفضيلة والإيمان » . ويمضي في ترسيخ المباديء الخلقية والحد من الشطط الإنساني فيقول : «الأساس الثابت لنيل السعادة هو تسلط العقل على العواطف» . ويربط السعادة التي يتوق المرء إليه بمعرفة كل شخص لحدود حريته الشخصية وحقوقه من المنافع نحو نفسه ونحو الجماعة . وكل هذا وغيره يبين أن السعادة

التي يتحدث عنها المؤلف وينشدها الإنسان لا يجب أن تتحقق على حساب الدين والمجتمع .

هذان الكتابان اللذان نسب الأول منهما إلى شارل وانير والثاني إلى جان فينوت ، ونسبت ترجمتهما إلى وسيلة محمد كانا في الحقيقة لمؤلف اشتهر في ذلك الوقت بالنصب والاحتيال هو «حافظ نجيب» . وقد أخفي اسمه لأنه مطارد من الشرطة .

والسؤال المحير هو هل اتخذ نجيب مترى قرار طبع الكتابين بمفرده أو أنه أشرك معه مواطنيه من اللبنانيين مثل خليل مطران وأنطون الجميل وشبلي شميل وفرح أنطون وطانيوس عبده وغيرهم ممن يعرفون الآداب والفلسفات الفرنسية ؟ ثم إنه كيف تقرظ جريدة «المحروسة» كتاب «روح الاعتدال» وكان يتولاها حينئذ إلياس زيادة ومعه ابنته مي زيادة ؟ إنه حتى بعد تكشف الأمر لم يقل أحد أن أفكار الكتابين مسروقة أو مقتبسة ، فلقد استطاع حافظ نجيب أن يخدع الوسط الثقافي والصحافي كله .

ثم يستطرد الطهاوي[1] ::

كان حافظ نجيب قد قام منذ نهاية القرن التاسع عشر أو مستهل القرن العشرين بأعمال نصب واحتيال على أفراد وهيئات منها الفرنسسكان واستحوذ على أموال بطرائق غير مشروعة ، وحررت ضده المحاضر والبلاغات في أقسام الشرطة ، وقبض عليه مرارًا وسجن ، وفي كل مرة يعلن توبته ، وبعد خروجه من السجن يعود إلى الاحتيال ، وقد أوتى قدرات عجيبة في تمويه شخصيته، وإخفاء نفسه بوسائله الذكية ، وحيله البارعة ، ومن هذه الحيل إنه عمل خادما عند أحد وكلاء النيابة ، والشرطة جادة في البحث عنه ، وكانت وزارة الداخلية تذكر أوصافه في نشراتها الإدارية ليساعدها الجمهور في القبض عليه . تقول إحدى هذه النشرات عنه :

---

(١) المرجع السابق .

«مسلم ، مصرى الجنسية ، من رعايا الحكومة المحلية ، وصناعته مدرس ، وإقامته في عابدين ، وعمره ٣٣ سنة ، متوسط القامة والجسم ، قمحي اللون أسود الشعر ، مستطيل الوجه، متوسط الجبهة ، مفتوح الحاجبين ، عسلى العينين سليمهما ، كبير الأنف . واسع الفم . خفيف الشارب حليق اللحية ، وفي وجهه آثار الجدري ، وفي شفته العليا من الجهة اليمنى أثر النحام » . (المحروسة في ٩ ـ ٤ ـ ١٩١٦) . وما كان أيسر على حافظ نجيب من أن يغير من هذه الأوصاف ، على أن الصحف انتقدت هذه النشرة وقالت إن عمره أكثر من ذلك وأنه تغير في كل شيء .

وكان حافظ نجيب مادة صحفية خصبة ، إذ تسابقت الصحف في تتبع أخباره وتسجيل حوادثه، وإجراء التحقيقات الصحفية معه عند القبض عليه ، وعقد موازنات بينه وبين المحتالين العالميين مثل النصاب ألباريسي «المايرِ» (المحروسة في ١٤ ـ ٧ ـ ١٩٠٩) ، وهناك من طالب بتشديد عقوبة المادة (٢٩٣) من القانون لردع النصابين . وربما بالغ الصحفيون وهولوا ونسبوا إليه ما لم يفعله ، فما من حادثة نصب وقعت إلا وقرن بها اسم حافظ نجيب . ووصل الأمر إلى حد أن الصحفي اللبناني جورج طنوس وضع عنه كتابًا أطلق عليه «الراهب المسلم» صدر عام ١٩١٠ جمع فيه نوادره وأشارت إليه مجلة الهلال عدد يوليه ١٩١٠ ص ٦٠٧ .

وفي عام ١٩١٢ وهو عام نشر هذين الكتابين ، كان يسكن بمصر القديمة ، وكانت ترعاه سيدة اسمها «وسيلة محمد» أثناء مرضه ، وتطور الأمر فتزوج منها، وكان قد اشتهر في هذه الناحية بالتقى والورع واطلق لحيته وحمل اسم الشيخ عبد الله المنوفى وهذه السيدة هي التي حملت اسمي كتابيه المشار إليهما ، وكان هناك كتاب ثالث تحت الطبع عنوانه «الناشئة» لم يظهر إلى النور.

والسبب في ذلك أن أحد عارفيه وشي به عند الشرطة ، فجاء الضابط كارتيه وتحدث إليه وعندما تحقق منه ألقى القبض عليه ، وتمت مساءلته ومساءلة زوجته وتكشف أمر الكتب التي طبعت أو التي قيد الطبع ، وعرف الناس

الحقيقة . أما نجيب مترى فقد أدلى بحديث صحفي لمجلة «المفتاح» شرح فيه ظروف وملابسات طباعة الكتابين، وذكر أنه بذل عدة محاولات ليلتقي بوسيلة محمد فلم يستطع وعند تسليم حقوق المؤلف أو المعرب حضرت إليه وسيلة محمد نفسها مدعية إنها من طرفها[1] .

والذي يستخلص من سيرته واعترافاته إنه كان مفطور منذ الصغر على التمرد والمغامرة والمخاطرة ، وليس ميالا للاستقرار والهدوء ، وأن فترة وجوده في باريس مكنته من تلقى محاضرات في الآداب وقراءة كتب أجنبية ، كما أن عمله في إدارة التجسس كان تدريبا عمليا على الإخفاء والتمويه والتظاهر بغير ما تكنه الطوايا ، والوصول إلى الغرض بطرق ملتوية . يضاف إلى ذلك أسفاره إلى تركيا وفرنسا والجزائر ومخالطته لأناس متنوعين ، الأمر الذي جعله يعرف السلائق الإنسانية ويتمرس بالحياة ، هذا علاوة على ذكائه وفطنته . وكل هذه العناصر عملت على تكوين حافظ نجيب الفيلسوف المحتال .

وبالرغم من المغامرات المدهشة التي اعترف بها حافظ ، فإنه يقول في مستهل اعترافاته : «وقد خلوت إلى نفسي وذاكرتي مرات ، وعرضت على العقل والضمير حياتي الماضية وما مر بي من الأحداث ، فاقتنعت بأنني بددت الحياة في سفه ، وضيعت ما يجب أن يكون لها من الثمرات ، ومكنت الناس من هدر كرامتي ، ومن المغالاة في القول عليّ حتى بنشر الخرافات عني فخلقوا بالكذب شخصية خيالية ثبتت في أذهان الناس »[2] .

---

(١) اعترف حافظ نجيب نفسه بتأليف هذه الكتب في حديث صحفي بصحيفة المحروسة (عدد ٣ ديسمبر ١٩١٢) .

(٢) اعترافات حافظ نجيب ، القاهرة، ١٩٤٦ .

حافظ نجيب صحفيًا وأديبًا

ويواصل الباحث أحمد حسين الطماوي الكشف عن آثار حافظ نجيب الأدبية وعمله الصحفي وحكايته مع الأدب والاحتيال وتناول مواهبه الشعرية والقصصية والصحفية، فقال : [(١)]

بدأ حافظ نجيب حياته الأدبية بالكتابة للمسرح بعد فشله في التجسس لصالح فرنسا وعودته إلى مصر .

وفي نحو ١٩٠٥ اتهم بالاحتيال وألقى القبض عليه، وزج به في سجن الحضرة بالإسكندرية، ومن السجن أرسل بقصائد شعرية وبقصة طويلة إلى جورج طنوس، وقد نشر هذا الشعر أو قدر منه في مجلات وكتب وعلق خليل مطران في المجلة المصرية (فبراير ١٩٠٩) على قصيدة من قصائد حافظ، وجاء كلامه تحت عنوان: «مجرم شاعر» «تناقلت بعض الجرائد قصيدة لناظمها حافظ نجيب وهو اسم فني عرفه سكان القطر بغرائب حيله، ونوادر الوقائع التي سجن بسببها، قالها وهو معتقل في الحضرة منذ سنتين وهذه مختارات منها :

تجرد رأسي يا زمان من الفكر ... وأصبحت محمومًا أبيت على الجمر

كذلك مات الحب في القلب يائسًا ... وزال به ما كان يحرق في الصدر

ومنها :

وأصرف وقتي بين هند وزينب ... أعاقرها راحا إلى مطلع الفجر

وتسلب مالي ذات خد محمر ... وأصبح محروق الفؤاد من الخمر

ومنها :

فياليت من يهوى يرى اليوم حالتي ... لينظر ما تأتي النساء من الغدر

فما باعني للسجن إلا مليحة ... علقت بها يا قوم من أول الأمر

(١) الهلال، أسرار حافظ نجيب، بقلم أحمد حسين الطماوي، يوليو ٢٠٠٣ .

« ومن تصفح هذه الأبيات المرسلة على السليقة على ما فيها من ركاكة وضعف تركيب استشف خلالها فطرة لو عولجت وتدوركت لصلحت للشعر والأدب ، ولا يسوء بعض أدعيائنا ممن يتصدون بمقال لكل مقام أنه لو كان للمنشآت قانون عقوبات لدخلوا السجن تأديبًا ولم يجدوا بينهم حافظ نجيب».

وليس لي أن أعقب على كلام الخليل ، وهو من هو في الشعر والنثر والنقد ، ولكن أريد أن أوضح نقطة مهمة وهي أن شعر حافظ نجيب هذا وغيره يعد من شعر الشخصية ، وقد كان الأستاذ العقاد يعيب على شعر شوقي ، أو الغالبية العظمى منه ، خلوه من شعر الشخصية ، وكان يقول : «الشاعر الذي لا تعرفه من شعره لا يستحق أن يعرف .. وشعر الشخصية هو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن أحاسيسه ، ويستظهر فيه أعماقه .. ويستمده من حياته ، ومن هنا يكون مطبوعًا وليس متكلفًا ، وشعر حافظ كان ينقل فيه أحاسيسه ويضمنه معالم نفسه ، ويعبر فيه عن تجاربه وأعماقه ، ومنها قضاؤه الليل حتى الفجر مع راقصات في الأزبكية وغيرها مثل شفيقة القبطية وحميدة وغيرهما ويقابل هذا في شعره السالف قوله : «وأصرف وقتي بين هند وزينب .. ومنها تجربته الكبرى مع الأميرة الروسية فيزنسكي التي عشقته ، وأعدته لنفسها ، ودفعتها الغيرة عليه من الراقصات اللاتي ينادمهن حتى الفجر إلى التحريض عليه وسجنه ، فكرهها وقال في الأبيات السالفة : «مات الحب في القلب يائسًا » .. ثم قال :

«فما باعني للسجن إلا مليحة .. ويقول في قصيدة أخرى يربط فيها بين السجن والحب نشرتها مجلة «الأقلام» (ديسمبر ١٩٠٦) :

ولولا الهوى ما بت في القيد مثقلاً   ولا بت في وادي الهموم كما ترى

ولا تعجبوا إن بات لي السجن منزلاً   فقد ينزل الإبريز في منجم الثرى

ويعرب عن ضيق نفسه وتبرمه بالحياة في قصيدة أرسلها إلى جورج طنوس من سجن الحضرة ونشرت في كتاب «نابغة المحتالين» فيقول :

يا صاح قد غدر الزمان ومن هوى

أحـــرى بـــه ســـم بكـــأس مفعـــم

خـــير مـــن الـــسجن الطويـــل وضـــيقه

فالـــسم أطيـــب مـــن شراب العلقـــم

ولقـــد ســـئمت مـــن الحيـــاة وذلهـــا

وغـــدا الممـــات أحـــب مـــن لـــثم الفـــم

هكذا كان يعبر في شعره عن الحب والسجن ، ويعرب عن رغبته في فض علاقته بالحياة، وقد يكون في صياغة شعر حافظ قليل من الفن ، ولكن فيه كثير من الصدق ، ولعل هذا ما قصد إليه خليل مطران عندما ذهب إلى أن شعر حافظ فيه ركاكة وفطرة ، وقد كان العقاد يعرف الشعر بقوله :

« التعبير الجميل عن الشعور الصادق » وإذا كان شعر حافظ خلا من التعبير الجميل ، فقد تمثل فيه الشعور الصادق ، وعلى أية حال فإن مطران فضله على غيره وذلك عندما أخرج حافظ نجيب من بين الأدباء الذين يدعون الأدب.

فترة غامضة:

سجل حافظ نجيب ترجمته الذاتية منذ مولده حتى يناير ١٩٠٩ في كتاب «اعترافات حافظ نجيب» فأضاء تلك الفترة .. وكشف عن العناصر التي كونته، والأفكار التي غلبت عليه ، وكان في نيته أن يكمل ترجمته الذاتية ، ولكن المنية وافته عام ١٩٤٦ ، ومن هنا صارت الفترة من يناير ١٩٠٩ إلى تاريخ وفاته يكتنفها الغموض الشديد ، وبالرغم من البحث الدءوب فإن المعلومات عنها شحيحة ، والهوات فيها واسعة ، ومع ذلك نذكر ما وقفنا عليه ، فقد أصدر جورج طنوس عنه كتابين أولهما كان في صيف ١٩٠٩ وعنوانه «نابغة المحتالين أو حافظ نجيب» ويشتمل على نوادره في الاحتيال وعدد من القصائد وقصة واقعية ، وقد تناولته مجلة «المحيط» (أكتوبر ١٩٠٩) وقالت: إنه «كتاب جمع كثيرًا من الحوادث الواقعية التي أتاها هذا النابغة في النصب والاحتيال فجاء كرواية تلذ مطالعتها لأن وقائعها لا تقل في الغرابة عن وقائع الروايات الخيالية

.. أما الكتاب الثاني فهو الراهب المسلم صدر عام ١٩١٠ .

وفي سنة ١٩١٢ طبعت دار المعارف كتابين لوسيلة محمد الأول عنوانه «روح الاعتدال» مترجم عن شارل وانير ، والثاني «غاية الإنسان» مترجم عن جان فينوت ، ووسيلة محمد هي زوجة حافظ نجيب ولا صلة لها بالكتابين ، وقد قال حافظ مرة إنه ألفهما ، ومرة أخرى أنه ترجمها ، وفي آخر عام ١٩١٢ قبض عليه وقدم للمحاكمة عام ١٩١٣ وحكم عليه بالسجن ، وفي عام ١٩١٥ طبعت له دار المعارف كتاب «الناشئة» ويدخل في إطار العلوم الاجتماعية ، وفي عام ١٩١٦ تفيدنا جريدة المحروسة أن الشرطة كانت تبحث عنه وتصدر نشرات بأوصافه ليتسنى لها القبض عليه، وهذا يعني إنه ربما هرب من سجن طرة ، أو أنه أمضى فترة العقوبة ثم ارتكب جرائم جديدة ، ولم يتيسر لي أن أعرف شيئًا عن حياته في الفترة من ١٩١٦ إلى ١٩٢٠ .

والظاهر لي أنه قضاها أو قضى معظمها في السجن ، وأنهى جميع العقوبات وصار حرا ، ودليلنا أنه ظهر في المجتمع جهارًا بعد سنة ١٩٢٠ ، وأصدر المجلات ومثل المسرحيات وأهم من كل ذلك إصداره القصص والروايات المترجمة والمؤلفة [1] :.

القاص :

ومن رواياته المترجمة : أصبع الشيطان ١٩٢١ حذاء الميت ١٩٢١ زواج جونسون ١٩٢١ ، قاضي التحقيق ١٩٢١ عفريت بيكار ١٩٢١ ، قاتل الليدي بلتهام ١٩٢٢ ، القطار المفقود ؟ وفاء هيلين ؟

وجميعها من روايات جونسون وتقع في سبعة مجلدات وعددها ٢٢ جزءًا ، عدا ثماني روايات ملتون إضافة إلى الغرفة الصفراء ، الشبح المخيف ١٩٢٥ ، سر الجريمة (فهارس دار الكتب ومجلة الحاوي ١٩/ ١/ ١٩٢٦ ومما يجدر ذكره أن هذه الروايات كانت الغذاء الثقافي الأول لنجيب محفوظ الذي يقول : سنكلير

(١) المرجع السابق .

وميلتون توب وغيرها من الروايات التي كان يترجمها حافظ نجيب بتصرف .. هذه الروايات هي كل قراءاتي الأولى .. (كتاب نجيب محفوظ ـ صداقة جيلين لمحمد جبريل ص ١٥ ، ١٦) .

أما الروايات والقصص المؤلفة فنذكر منها : موت حافظ نجيب ١٩٢١ ، ثورة العواطف ١٩٢٦ ، الحب والحيلة ١٩٣٧ ويذكر حافظ نجيب في «الحاوي» أن له عشر روايات اسمها «روايات حافظ نجيب » ويبدو أنه أضاف إليها ، فإن صلاح عيسى يذكر أن في مكتبته واحدة منها بعنوان «كنوز السلطان عبد الحميد صدرت عام ١٩٣٧ [١] .

وقد سارت قصص حافظ نجيب في خطين :

الأول : هو الخط البوليسي الذي يساير حياته فعمله بالتجسس ثم مغامراته مع الشرطة ، وإجادة الإخفاء والتمويه والتنكر جعلته يميل إلى ترجمة وتأليف القصص ، البوليسية ، والثاني هو الخط الغرامي ، وهذا ليس بعيدًا عنه فقد عرف منذ الصبا الألفة والحب وفي اعترافاته مادة وفيرة في هذا الجانب ، هذا إلى جانب ثقافته في هذين المجالين فقد كان يهيم بقراءة الروايات ، وكان يرى أن الأحداث الخيالية تشغل باله عن الهموم ولأنه تنقل في بعض دول أوروبا فإن عددا من قصصه المبتدعة تجد فيها البيئتين المصرية والأوروبية .

وأول رواية كتبها تلك التي نشرها جورج طنوس في كتابه «نابغة المحتالين» وتقع في نحو مائة صفحة ، وبطلها عزيز تقسو الحياة عليه ، فيسخط عليها ، ويستخف بالقيم ، ويتملكه الحقد والحنق على الناس .

ويضمر الانتقام من الدنيا فيؤذي البشر وهي فكرة شريرة ، وكان عليه أن يستعلي على الحياة ويزهد فيها ، أو يتعامل مع معطياتها ويحاول توجيهها إلى صالحه ، ولكن آثر أن يحيا حياة بوهيمية شيطانية [٢] .

---

(١) صحيفة القاهرة ، عدد ١٢ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٢) المرجع السابق .

ولعل حافظ نجيب كان يعبر عن نفسه ، ويبرر سلوكه الشائن وهو نزيل سجن الحضرة عام ١٩٠٦.

وقصته «ثورة العواطف » ١٩٢٦ يعالج فيها غرام أديب أرمل في الأربعين بفتاة دون العشرين (ثريا) ابنة صديقه وجاره ، ولكن «ثريا» كانت تحب شابا يناسبها ، وترفض الزواج من الأديب ، وتقترن بالشاب الذي يسيء إليها ويبدد ثروتها فتندم على عدم الزواج من الأديب ، أما إبراهيم فيموت كمدا ، وتنتحر ثريا حزنا عليه .. وهذه القصة تذكرنا بعشق جوته وهو في السبعين من عمره لأولريكه وهي دون العشرين ورفضها الزواج منه ، وبعشق العقاد وهو فوق الخمسين لفتاة شابة ألهمته ديوان شعر «أعاصير مغرب» وبعد أن أمضت معه وقتا هجرته ونسيت اسم حكيم قال ما معناه : إن الشاب عند المرأة أفضل من جميع حكماء العالم . وهذا صحيح لأن الأنثى في الصبا لا تطلب السلام مع كهل ، ولا تنشد الهدوء مع شيخ وإنما تتيقظ نفسها مع شاب يميل إلى المغامرة والمجازفة ويثب بها وثبًا إلى حيث تكون سعادتها [(١)] :.

صور حافظ عاطفة الأديب الرقيقة ، وانفعالاته القوية ، وحنانه وحياءه عندما يحب، وعند المؤلف أن الأديب أكثر رقة من الموسيقى والمصور «المصور تغريه المناظر والأجسام والأوضاع ، أما الكاتب فتكفيه التخيلات . والأماني والأحلام .. والموسيقى لا يتنبه شعوره إلا بالنغمات والأوزان ..

والقصة رقيقة العبارة ، جميلة العرض ، مهذبة الألفاظ ، ومن تقنياتها أن المؤلف جعل المشاهد والحوادث مناسبة إلى حد كبير لشخصياتها .

حافظ نجيب صحفيًا:

لا ريب في أن حافظ نجيب حقق شهرة واسعة من كثرة ما كتب عنه في الجرائد ، ومما زاد في شهرته تلك الروايات الكثيرة التي ترجمها وألفها في عامي ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، وربما كان ذلك دافعا له للاشتغال بالصحافة ، فأصدر مجلة

(٢) يقصد غرام العقاد بهنومة الشهيرة باسم مديحة يسري في أربعينيات القرن العشرين.

«العالمين» أسبوعية أدبية علمية مصورة (١٩٢٢ – ١٩٢٤).

في العدد السابع من «العالمين» (١٢/ ١٠/ ١٩٢٢) أظهر صاحباها غرضهما من مجلتهما وهو تناول شخصية مصر وابراز دورها في الحياة العصرية من خلال عطائها، وعلاج عللها، وأظهر أن صحيفتهما ستكون معرض صور مصرية، ومرآة تتراءى فيها نفسية هذه الأمة، وتنعكس عنها أخلاقها وتطورها ونظرها إلى الحياة، وإسهامها في حركة التقدم الإنساني، وقد حفلت المجلة بمادة أدبية شعرية وزجلية، وقصصية، ونشرت محاضرة مهمة لطنطاوي جوهري أثبت فيها سبق المسلمين للأوروبيين في المخترعات العلمية مثل الجاذبية ورقاص الساعة، وغيرهما، وكان من كتابها يونس القاضي ومحمد السباعي وعباس حافظ وقد توقفت «العالمين» نتيجة دسيسة، فقد رأينا حافظ يكتب في أول عدد من مجلة «الحاوي» انقطعنا عن الكتابة مكرهين، ولم نشعر بغير الوحشة لانقطاعنا عن الاتصال بقرائنا .. أكرهنا بوسائل غير شريفة على وقف ظهور مجلة العالمين[1].

وأصدر حافظ نجيب في ١٤ من يوليه ١٩٢٥ مجلة «الحاوي» وهي أدبية علمية مصورة .. والحاوي هو الشخص الذي يخرج من جرابه أشياء كثيرة متنوعة، وكانت المجلة أو حافظ كذلك، ففي أول غلاف لها نجد رسما لرجل، هو الحاوي يخرج من جرابه أشياء مثل : أبحاث اجتماعية، فكاهات، ألعاب رياضية، ألعاب بيتية، فوائد منزلية، قصة الأسبوع، رواية مسلسلة، أسئلة وأجوبة، المسرح، النقد، اكتشافات حديثة، الأدب المختار، وهي أبواب الحاوي، وقد قدمت المجلة قصصًا مترجمة وقصصًا مؤلفة مثل «زهرة هانم» وانتقدت فن منيرة المهدية وعدة مسرحيات كانت تمثل، وقدمت نماذج مختارة من البلاغة العربية العالية، وكان من كتابها محمد عبد المجيد حلمي صاحب مجلة المسرح، وكامل كيلاني، وسيد إبراهيم (الخطاط) ومحمد أمين حسونة

---

(١) المرجع السابق، مجلة الهلال، أحمد حسين الطماوي.

وغيرهم وقد لاقت المجلة تشجيعًا وترحيبًا من القراء فقال أحدهم فيها:

أهـــلا وســـهلا بالحـــاوي ... يـــابو الجـــراب محـــشى فتـــاوى

تـــشرح وتمـــزح وتـــداوي ... يـــابو نجيـــب يحيـــا الحـــاوي

يـــا رفـــاعي مـــدد ... في كـــل عـــدد

وتهـــيص يـــا ولـــد ... وتعـــيش في رغـــد

ومن مواد هذه المجلة ما يكشف عن البون الشاسع بين حياة صاحبها وكتاباته .. فإذا كان قد اشتهر بالاحتيال فإنه في قصة «جنى على نفسه» هاجم فيها الدجالين ، والمحتالين وإذا كنا نعرف من اعترافاته أن من أسباب شقائه عشقه للنساء الأوروبيات السافرات مثل فيزنسكي ، فإنه في «الحاوي» ينتصر للحجاب .. وينتقد منيرة ثابت التي تحض على السفور ، يقول : «إذا كانت المرأة وهي محجبة على هذه الحال من الخلاعة ، فكيف تكون إذا هدمت الحجاب ، ومزقت النقاب وانفتح لها الباب .. وحافظ الذي كان يتنقل بين الراقصات ويستعرق في الملذات وينفق الأموال إرضاء لمزاجه ، يحارب في الحاوي ، الإسراف في المطالب ويقول «لو قارن كل فرد بمن هو دونه في الغنى والجاه ونظر إليه كيف يرضى ويسر بالضروريات إن حصل عليها لاستطاع أن يردع النفس عن غيها ، وقوى على كبح جماحها وأرضاها بما يرضى القنوع الراضي .

* * *

هكذا انتهت حياة هذا الأديب المحتال الظريف الذي جمع بين الأدب والفلسفة والشعر والقصة واستخدم مواهبه في الاحتيال وسجل سيرته واعترافاته في كتاب نادر فأصبحت حياته وسيرته ومواهبه أسطورة تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، حتى أطلقوا عليه لقب «فارس بلا جواد»!

محجوب ثابت

الثوري الظريف !





كان د. محجوب ثابت (١٨٨٤ ــ ١٩٤٥) أحد ظرفاء عصره الذي ملأ المنتديات الأدبية ومجالس السمر بفكاهاته ونوادره وحكاياته الطريفه ! وقد ظل محجوب ثابت أحد الشخصيات الظريفة التي تروي عنها الحكايات والنوادر المستملحة حتى رحل عن الحياة في مارس ١٩٤٥ وقد احتوت الشوقيات على بعض قصائد المداعبة التي تندر فيها أمير الشعراء أحمد شوقي ببعض مواقفه وطرائفه وحكاياته .

****

ولد محجوب ثابت سنة ١٨٨٤ في دنقلة بالسودان، حيث كان والده ضابطًا مصريًا كبيرًا في الجيش المصري بالسودان في ذلك الوقت.

وأنهى محجوب دراسته الابتدائية والثانوية بالقاهرة قبل أن يلتحق بمدرسة الطب بالقاهرة (كلية الطب الآن) ، وبعد أن تخرج أوفدته مدرسة الطب مع زميل له في أول بعثة تعليمية إلى باريس لدراسة الطب دراسة موسعة، حيث حصل حوالي سنة ١٩١٤ من جنيف وباريس على شهادة في العلوم الطبية ، وقد أجاد د. محجوب اللغة الفرنسية إجادة

تامة، وعلى الرغم من ذلك كان يحرص دائمًا على التحدث باللغة العربية الفصحى، وكان ينطق الكاف «قافًا» فأصبحت إحدى لوازمه الطريفة.

وبعد أن عاد من بعثته الدراسية أوكلت إليه مهمة تدريس الطب في مدرسة الطب إلى جانب لأساتذة الأجانب، ولكنه هجر كرسي الأستاذية، واشترك في ثورة مصر سنة ١٩١٩، فكان يسير بعربته «الحنطور» خلف المظاهرات ليحمل الجرحى فور سقوطهم ليتولى علاجهم بعيادته بشارع الكومي بالسيدة زينب، وفي سنة ١٩٠٧ انضم د. محجوب ثابت للحزب الوطني، وكان من أنصار الخديوي عباس حلمي الثاني جريا على موقف مصطفى كامل باشا ومدرسة الحزب الوطني، ثم انضم إلى حزب الوفد بعد ثورة سنة ١٩١٩ إلى أن فصل منه سنة ١٩٢٢ قبل أن ينتخب عضوًا بمجلس النواب سنة ١٩٢٦.

وقد تولى منصب كبير أطباء الطب الشرعي بالجامعة المصرية، كما اختير مشرفا عامًا على التدريب العسكري بالجامعة المصرية، وتحسب له دعوته إلى تنظيم الحركة العمالية في مصر حتى اعتبر بحق «صديق الطبقة العاملة في مصر»، وفي سنة ١٩٢٤ إثر انهيار الاتحاد العام لنقابات العمال الذي كان د. محجوب ثابت عضوًا فيه، واعتقال عبد الرحمن فهمي على ذمة التحقيق في قضية اغتيال السردار لي ستاك، آثر د. محجوب أن يغادر مصر إلى سوريا حيث نزل على صديقه محمد كرد على رئيس المجمع العلمي ووزير المعارف السورية، فقضي في سوريا عدة أشهر.

وقد اشتهر د. محجوب ثابت بلحيته الطويلة وخفة روحه وحلاوة حديثه، وبحصانه الشهير «مكسويني» الذي كان يستخدمه في أثناء مظاهرات ثورة ١٩١٩ في نقل الجرحى، ويعد د. ثابت من الظرفاء المشهورين الذين تروي عنهم الطرائف والفكاهات، وبسبب الصلة الوثيقة من الود بين شوقي ود. محجوب ثابت، فقد كانت بينهما مسامرات ومداعبات أوحت إلى شوقي بقصائد فكاهية منها قصيدته «بين مكسويني والأتومبيل» الذي استبدل به د. ثابت حصانه الشهير، وقد نشرت سنة ١٩٢٤ يقول شوقي فيها:

أدنيا الخيل يا مكسي	كدنيا الناس غداره
لقد بدّلك الدهر	من الإقبال إدباره

فصبرا يا فتى الخيل ... فنفسُ الحرِّ صَبَّاره
أحقٌّ أن «محجوبا» ... سلا عنك بفخَّاره؟
وباع الأبلق الحَرَّ ... «بأوفرلاند» نعَّاره؟

كما أن حافظ إبراهيم وصف «قافات» محجوب بقوله:

برغي ويزيد بالقافات تحسبها ... من خارج النار تصوير الشياطين
من كل «قاف» له في الشعر تحسبها ... قصف المدافع في في أفق البساتين
قد خصه الله بالقافات يملكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون

وقد ظل ثابت إحدى الشخصيات النادرة المحبوبة التي تروى عنها الحكايات الطريفة والنوادر المستملحة، وظل زينة المجالس وبهجتها حتى رحل عن الحياة في مارس سنة ١٩٤٥.

وقد تناول المجاهد الأديب الكبير فتحي رضوان بعض مواقف د. محجوب ثابت واعتبره بطلا وليس كما يصوره البعض مجرد مهرج : [(١)].

«في الفترة ما بين سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥، أي نحو ربع قرن من الزمان، كان محجوب ثابت معلما من معالم الحياة السياسية والاجتماعية في مصر، بعامة، وفي القاهرة بخاصة.

كانت الناس تقرأ له وتقرأ عنه في الصحف، وتتابع نوادره في المجلات، وتروى طرائفه وغرائبه في الأندية ودور الأحزاب، وكان يخطب في المحافل، وعلى قوارع الطرق، وعلى أبواب دور الصحف، ويستوقف أصحابه ليحدثهم، ويستوقفه أصحابه، ومن يعرفون اسمه، ومن يعرفن رسمه، فيسألونه ويجيب: يجيب عن أسئلة توجهوا بها إليه، وأسئلة لم يوجهوها، لم تخطر لهم على بال، وهو لا يجيب على الأسئلة المطروحة، والأسئلة التي يتبرع هو بإجابتها، والأسئلة المتفرعة عن هذه وتلك، بل يشقق الحديث، فينتقل من فكرة إلى فكرة، ثم يغضب فجأة، ويلوح بعصاه الضخمة التي لا تفارق يده، ويهدد

(١) المجلة، مارس ١٩٧٠، محجوب ثابت، بطل صنعوا منه مهرجا بقلم فتحي رضوان.

أعداء يذكرهم بالأسماء حينا ، ويذكرهم بالصفات حينًا آخر، ثم يهدأ ، وتطيب نفسه ، ويضحك ، ويسعل ، ثم يسير ..

هذا هو محجوب ثابت ، الطبيب ، الذي كان صديق السياسيين والصحفيين والأدباء والقراء، والعمال والشباب ، والذي كان يتفجر حيوية ، وبلاغة ، وأدبا ، وشعرا ، ونقدا وهجوا، ونصحا وإرشادا ، وتأييدا وتنديدًا ، والذي كان له في كل حزب أصدقاء ، وإن كان قد بدأ حياته شابًا من شباب الحزب الوطني ، وكافح في ظله ، وساهم في نشاطه السياسي والاجتماعي ، وتأثر بأسلوبه في العمل ، وبنظرته إلى الأمور العامة ..

كان مظهر محجوب ثابت ، يميزه ، كما ميزته خصائصه العصبية والنفسية .. فقد كانت له لحية تدور حول وجهه ، وشارب كثيف نوعًا يتصل بهذه الذقن ، فيبدو بهما كواحد من علماء فرنسا ، وكانت عصاه ، ثم غليونه الذي يدخن منه ، والذي يترك أثرا من صبغة التبغ على عثنونه أي لحيته تحت شفته السفلى ، ثم ضخامة جسمه ، وظهره المحدودب كل ذلك جعله شخصا لا تخطؤه العين ، ويختلف عن جميع الرجال الذين كانوا يظهرون على مسرح السياسة والأدب ، في تلك الفترة من حياة مصر .

ولم يكن ذلك كله هو ما يميز محجوب ثابت ، فقد كان له أصدقاء في العالم العربي، في مشرقه ومغربه ، وكان يسافر إلى سوريا ولبنان وفلسطين ، في وقت كان فيه أكثر الساسة المصريين لا يعرفون عن هذه البلاد إلا أقل القليل .

ومع كل هذه المزايا الطريفة ، فقد كان يستوقف نظر الناس وسمعهم ، بأسلوبه في الحياة ، وفي الكلام . أما أسلوبه في الحياة ، فكان أشبه شيء بأسلوب الفنانين الذين لا يكفون عن الحركة والتنقل ، والذين يضيقون بالمواعيد وبالتقليد ، وتقتلهم سأما الرتابة والنظام المعهود ..

كان طبيبًا له عيادة في حي السيدة زينب وكان عالما بفنه ، وقادرا على التفوق على أنداده وزملائه ، بذكائه المتقد ، وقدرته الفائقة على المطالعة والتحصيل ،

ولطفه الذي ينفذ به إلى قلوب مرضاه وذويهم ، وشهرته التي تفتح له أبواب البيوت ، وتكسبه ثقة الصغار والكبار .

ولكن العمل في العيادة ، والصيدلية التي تتبعها ، لم يكن ليقوى على رده عن اجتماع سياسي يشهده ، أو حفلة انتخابية يؤيد فيها صديقًا ، أو يهاجم فيها خصمًا ، أو ندوة في دار من دور الصحافة ، أو املاء مقال لجريدة أو الاسترسال في مكالمة تليفونية يشرح فيها ويعلق ، ويثور ويغضب ، ويسترضي ويتلطف .

أما أسلوبه في الكلام فكان خاصًا به وحده ، لا يشبهه فيه أحد من معاصريه ، فهو يتكلم بالعربية الفصحى ، ولو كان يتحدث إلى ماسح أحذية ، أو بائع صحف ، أو حوذي ، أو امرأة تعمل في داره ، وفصحاه ليست كفصحى غيره ، فهو يقلقل القافات في كلامه ويكثر منها ، فمن لوازمه «قلنا ، وقالوا ، وقلت ، وقدر وقمم ، وقرف ، وقامة ، وقيامه ، وقيافه » وهكذا .. ويختم هذا كله بعبارة لا تفارقه ، فهو لا يكف عن القول «يقينا يا ولدي ! يا ولدي » وكان له صديق هو النقراشي يناديه «سي نقرش» وإلى جانب لازمة القاف » وفصحاه الغريبة ، واستشهاده بالأبيات من الشعر ذي الرنين الضخم ، كانت لازمته الفكرية ، هي أبرز سماته الشخصية ، وأعني بها هيامه بالحديث عن السودان ووحدته مع مصر ، ووحدة مصر معه ، ووحدتهما معا المكونة لوادي النيل ،وهو كما قلنا ، يحب التنقل في كل شيء ، وفي الحديث أكثر من أي شيء آخر ، فهو يصل الفكرة بالفكرة والمعنى بالمعنى ، ولا يبعد أن يبدأ بالحديث عن الصحة أو الجو ، ليتحدث عن الفلك ، والطب والسياسة والاقتصاد والإحصاء ، وحقوق المرأة ، ونقابات العمال ، ولكن يمكنك أن تثق ، أنه مهما شرق أو غرب ، أطال أو أوجز، فإن وادي النيل البداية وخاتمة المطاف.

وقد كملت شخصية محجوب ثابت ، بجماعة من الأصدقاء ، أحبته أعظم الحب ، وأحبت صفاته وخصائصه ، وقافاته وصيحاته ، وتلويحه بالعصا ، وإرعاده وانبراقه ثم هدوءه وانبساطه ، ولكنها استغلت طيبته ، أسوأ استغلال ، فلم تكن تكف عن مداعبته ، والإسراف في الإثقال عليه ، والنيل منه ، حتى

بات فكاهة تروي، وقصصا تحكي، فأضاع ذلك عليه وعلى وطنه الكثير من الخير الذي كان يمكن أن يعود عليه، من عمله، ونشاطه، ومثابرته واطلاعاته، وتنوع خبراته، واتساع أفقه.

فإن الناس لم يستطيعوا - في أغلب الأحوال - أن يأخذوه مأخذ الجد، فما يكاد يهل عليهم في مجلس، أو يطلع على منبر، حتى ترتسم الابتسامات على شفاههم، وما يكاد يبدأ في الحديث، حتى يضجوا بالضحك، على ما يقوله ولو كان جدًا خالصًا.

وقد عظمت البلية لأن الذين اتخذوا هذه اللعبة القاسية، وسيلة للترفيه والتسرية، هم في قمة المجتمع فقد كان منهم أحمد شوقي أمير الشعراء وحافظ إبراهيم شاعر النيل ومحمود فهمي النقراشي الذي كان في آخر حياته رئيسًا للوزراء، ثم الشيخ عبد العزيز البشرى، الكاتب الأديب، وسليمان فوزي رئيس تحرير جريدة الكشكول، الجريدة السياسية النقدية، التي كانت من جرائد الأحرار الدستوريين.

وهكذا ضاع على مصر، جهد رجل صادق، مخلص، نافع، غنى بالكفايات، واسع العلم بحاجات بلاده، أسدى لها في شبابه ومطالع رجولته، أيادي جمة، وخاض في سبيلها معارك حامية، وارتاد من أجلها، مجاهل لم تطؤها قدم، كان من أوائل الذين عملوا في الميادين الاجتماعية مع الحزب الوطني، وقدم البحوث والتقارير والإحصائيات لمؤتمر هذا الحزب العظيم في بروكسل سنة ١٩١٠، في حين كان من أوائل المصريين الذين شغلوا وظائف التدريس في كلية الطب. ثم اشتغل بنقابات العمال، وتأسيسها، وتوسيع نطاقها، وتأصيل نشاطها، ثم تحدث في شؤون الجيش والطيران، وطالب بإلغاء البدلية وبجعل الخدمة العسكرية إجبارية، في أحاديث مستفيضة، أما السودان الذي اعتبر مداعبوه هيامه به، وحبه له، نقطة الضعف في شخصيته، فقد كان يوالي الصحف بكل ما هو خطير بصدد مشروعات الري البريطانية فيه منذرًا ومحذرًا وكاشفًا عن دسائس السياسة البريطانية.

ولا شك عندي في أن أعظم ما جنى على محجوب ثابت، فألقى به في الظل، أثناء حياته، في أخريات عمره، والذي أدى إلى جحود فضله، بعد مماته، هي طيبته، وسذاجته فلو كان محجوب أحد لسانا، أو أظم أذى، أو أحرص على المال، أو أقدر على التلطف وإرضاء ذوي المناصب والجاه، لاستطاع أن يصل إلى القمة.

وقد سجل لنا الأدب المصري، شعرا ونثرا صورة محجوب ثابت عند كبار معاصريه، فأصبحنا بفضلها قادرين أن نعرف بالضبط، كيف كانوا ينظرون إليه، نظرة هي خليط بين التقدير والسخرية الخفيفة المتسمة بالود والعطف، قال الشيخ عبد العزيز البشري في إحدى مراياه، أي صوره القلمية التي كان يرسمها لمعاصريه:

«لاشك في أن الدكتور محجوب ثابت، يعد بحق، في ميراثنا القومي، ولو ـ لا أذن الله ـ جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من (دكتور محجوب ثابت) بأي طريقة من الطرق، نعم هو في ميراثنا القومي لا يقل عن آثار سقارة، وجامع السلطان حسن، ومقابر الخلفاء، ولقد أصبح على الزمان جزء من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل، ووفاء النيل، وركبة الرؤية وشم النسيم»[1].

ثم تحدث عن تعدد همومه، وتنوع آثاره فقال:

«إذا كان الكلام في النيل، وما عسى أن يحتاز عن مصر خزان مكوار (خزان سنار) تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين وإذا كانت الثورة تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية، وكلما انتشرت في البلد مظاهرة، كان ناظورتها (أي سيد القوم المنظور إليه)، وكلما ساروا «بضحية حرية» كان الدكتور أول المشيعين، فإذا كان اجتماع في الأزهر كان الدكتور فارسه المعلم، وعذيقه المرحب، فإذا تعانق الهلال والصليب، استأثر الدكتور من عناق الأب سرجيوس بأكبر نصيب، فإذا وجه دهماء المصريين (رعاعهم) على الأرمن وهم بعضهم بإيقاع الأذى بهم طاف الدكتور بعربته (ومكسيونيه[2]) على دورهم

(١) عبد العزيز البشري «في المرآة».

(٢) حصان هذه العربة ..

فنقلهم وعيالهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم إلى مأمنهم .. وإذا كان جمع الأموال للوفد أغلق الدكتور عيادته «بالضبه» وهاجر إلى قنا فلبث الأشهر الطوال يجمع ما تحتاج إليه القضية من جليل الأموال » .

ثم قال : وفي الحق أن الدكتور يرى نفسه مسؤولاً عن كل ما في البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد ، وغاد ورائح ، وسانح وبارح ، ودراج على متن الغبراء ، وسابح في جوف الماء وطائر في جو السماء » .

ثم وصفه فقال :

«وفيه ذكاء حاد يديم القراءة والنظر في الكتب ، كأنه يحفظ بظهر الغيب كل ما يقرأ ، تعرف هذا من علمه الواسع الذي يكاد يستغرق كل ما في الدنيا وكل أسبابها إلا أن علمه مع الأسف يختلط بعضه ببعض حتى يخيل إليك أن رأسه «كتبخانة» ، «مدشوته» ولو أني ملكت أمره ، وكانت لي بسطة في المال والسلطان، لدعوت بمستشرق ألماني فني ، لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شكل مع شكله »[1] .

ثم ختم هذا كله بقوله :

«إذا وعدته ليتناول الغداء معك أقبل عليك الساعة الخامسة بعد الظهر حتما في غير ورع ولا اعتذار ، ولقد دعاه صديق لي وله لتناول الإفطار في رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما أيسنا منه ، أفطرنا ، وفي نحو الساعة الحادية عشرة مساء، أقبل الدكتور مشمرا للفطور ، وما كان أشد دهشته «يقينا» إذ علم أننا أفطرنا من أربع ساعات ، فانطلق يزمجر ويزوم ويعتب ويلوم » .

أما الصور الشعرية فقد كتبها صديقه أمير الشعر ، أحمد شوقي ، فوصف سيارة الدكتور محجوب ثابت التي استبدلها بعربة له وحصان ، ووصفه أصدقاؤه فقال أنه حيوان هزيل تعس تطل عروقه من خلف جلده . ولما كان مكسويني

---

(١) عبد العزيز البشري : في المرآة.

محافظ مدينة (كورك) الأرلندية أضرب عن الطعام ٧٦ يومًا حتى مات احتجاجا على فظائع الجيش البريطاني، فقد أطلقوا على حصان الدكتور محجوب ثابت اسم (مكسويني) لجامع الجوع والهزال بين المحافظ والحصان .

قال شوقي :

لكم في الحي سَّياره ... حديث الجار والجاره

(أوفرلاند) يُنبِّيك ... بها القنصل (طهاره[1] .)

إذا حركها مالت ... على الجنبين منهاره

وقد تحرنُ أحيانا ... وتمشي وحدها تاره

أدنيا الخيل يا مكسي[2] ... كدنيا الناس غداره

لقد بدلك الدهر ... من الإقبال إدباره

فصبرا يا فتى الخيل ... فنفسُ الحر صَبَّاره

ثم وصف شوقي براغيث الدكتور محجوب ثابت في قصيدة أخرى فقال:

براغيثُ محجوب لم أنسها ... ولم أنس ما طَعِمتْ من دمي

تشقّ خراطيُمها جوربي ... وتنفذَ في اللحم والأعظَم

ووصفه صديقه حافظ إبراهيم فقال :

يرغي ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع في أفق البساتين[3]

من كل قاف كأن الله صورها ... من مارج النار، تصوير الشياطين

---

(١) الشيخ حلمي طهاره كان صديق شوقي ومحجوب ثابت، وكان إماما بالمفوضية المصرية في واشنطن ..

(٢) اختصار مكسويني ..

(٣) بساتين بركات، هي إحدى ضياع فتح الله باشا بركات ابن أخت سعد زغلول، وكان الأخير يلتمس فيها خلال الصيف الراحة ..

قــد خــصه الله بالقافــات يعلكهــا واختص سبحانه بالكـاف والنـون

ويحدثنا العقاد في كتابه عن سعد زغلول، عن واحدة من هذه المداعبات، التي كان يشترك فيها أكبر رجال المجتمع وقتذاك، وفي هذه المرة، كان سعد زغلول زعيم الأمة هو أحد أفراد الجماعة المداعبة، قال العقاد:

«جاء يومًا الدكتور نجيب اسكندر من القاهرة ـ وكان بطريرك الأقباط قد توفى، قبل ذلك بأسابيع فالتف به الضيوف وقالوا له: اسمع يا دكتور إنك لم تحضر إلى مسجد وصيف حيث كان سعد معتكفًا في مرضه الذي سبق وفاته ـ للسؤال عن الباشا، ولكنك حضرت لدعوة الدكتور محجوب إلى مرافقة الوفد المسافر إلى الحبشة لاستفتاء أهلها في اختيار البطريرك الجديد.

ونزل سعد بعد ساعة فإذا بالدكتور نجيب اسكندر يمثل أحسن تمثيل.

قال: يا باشا أني قادم لاستشارة دولتكم في أمر يتعلق بالدكتور محجوب.

فاشرأب الدكتور محجوب وهمس متثاقلا: ما هو يا سيدي؟

فأجابه الدكتور نجيب: السفر إلى الحبشة.

قال الدكتور محجوب، وهل فرغنا يا سيدي من السودان حتى نشغل أنفسنا بالحبشة؟

قال الدكتور نجيب إنما نسافر لسؤال الأحباش عن رأيهم في اختيار البطريرك الجديد.

فرد عليه الدكتور محجوب متبرما: ولماذا لا تسافر أنت وأنت بهذه المهمة أولى؟

فخطر لخبيث أن يستفز الدكتور إلى الحرص على المهمة فقال:

ومع ذلك يا باشا لا أظن الدكتور (محجوب) يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

فالتفت إليه الدكتور غاضبا وقال: ماذا؟ ماذا تقول يا سيدي؟ لا أصلح

لهذه المهمة ؟ أتقول لا أصلح .. لماذا يا سيدي لماذا ؟

فقال الخبيث لأنك تتحدث عن السودان فتوقعنا في أزمة مع الحكومة الانجليزية .

فصاح به الدكتور : يا سيدي نمسك عن ذكر السودان ونتكلم عن المدارس والتعليم .

قال : إذن تكون الطامة أكبر . أليس العرف قد جرى بالتمهيد بالمدارس لفتح مناطق نفوذ السياسة .

فعاد الدكتور يقول : ونمسك يا ولدي عن المدارس والتعليم أيضًا ، ونتكلم عن الصحة .

قال سعد باشا : وهل يا دكتور ضروري أن تتكلم ؟ أنت ذاهب للاستفتاء في اختيار البطريرك على أني أراك قد قبلت ورضيت وكنت منذ لحظة تأبى وترفض » .

قال الدكتور : لأجل خاطرك يا باشا نفعل والله كل شيء . نقبل يا باشا نقبل ومن يصلح لها غيرنا لقد شربت القهوة في دير السلطان ، أيام الخلاف بين القبط والأحباش فأنا ابن بجدتها ! ولأجل خاطرك يا باشا نذهب إلى أقصى مكان ،

وقد تقبل أن يزجي زعيم كبير كسعد ، وقت فراغه أو استجمامه ، بمداعبة أو معابثة الدكتور محجوب وإن اتخذ موضوع المداعبة أمرًا من أمور الدولة .

ولكن قد تجد صعوبة كبيرة في أن تقبل أن يتخذ رئيس مجلس النواب سعد باشا زغلول ، من إحدى جلسات المجلس الرسمية والعلنية مجالا للدعابة والترفيه عن نفسه ونفس بطانته ، وأن يوزع على أعضاء المجلس أدوارا في اللعبة التي وضعها فيقوم كل منهم بدوره ، ويلقى كلاما يثبت في محضر المجلس ظاهره الجد ، وباطنه العبث . وتفصيل هذه الواقعة أن الدكتور (محجوب) أنتخب عضوا بمجلس النواب سنة ١٩٢٦ عن إحدى دوائر الاسكندرية ،

فتقدم طعن في صحة انتخابه ، فأوعز سعد إلى أعضاء لجنة الطعون أن يتباطأوا في تقديم تقرير الطعن إلى المجلس [1] لتظل نيابة الدكتور معلقة لأطول مدة ممكنة ، و «لتكون مسألة الطعن مادة دسمه للدعابة يستمدونها من إحراج مركز الدكتور » ويزيد في البلية «أنه كان معروفًا ومتداولا ـ بين جميع النواب ، أن الطعن المقدم لم يكن جديًا بل كان أمرا مدبرا من أصدقائه وأحبائه أنفسهم » ولما آن أوان الانتهاء من هذه الدعابة التي اتخذ المجلس وإحدى لجانه الهامة ميدانًا لها، تحددت جلسة ٦ من يولية سنة ١٩٢٧ لنظر الطعن واتفق سعد مع كبار الوفديين أمثال حمد الباسل باشا ومحمود فهمي النقراشي باشا وعلى أيوب بك ، أن يوزعوا على أنفسهم أدوار المؤيدين للطعن ، والمؤيدين لرفضه ، وطبب إليهم ألا ينظروا الطعن إلا في جلسة يرأسها هو ، وعلم سعد في الليلة المحددة المتفق عليها أن المجلس بدأ ينظر في الطعن فهرول من مكتبه بمجلس النواب إلى قاعة المجلس ليشهد هذه المسرحية الهزلية ، وليؤدي دوره فيها ، وراح المؤيدون يتكلمون ، والمعارضون يردون ، ومحجوب ثابت ، يعاني من الضيق والقلق ، ما احتاج معه سياسي كبير ، هو النقراشي ، أن يروح له بجريدة وقد جلس خلفه في المجلس ثم انتهى هذا المشهد كله ، برفض الطعن ، وحمل الدكتور على الأعناق إلى مقصف المجلس ، حيث احتفل بنجاحه .

وقد بقى الدكتور محجوب هكذا كالمهرج في بلاط الملك ، يقول وحده الحق، ويقوله كاملاً، حاسمًا ، ويقوله بلا تزويق ، ولا مداراة ، محتميًا في ثيوب المهرج ، وبالحصانة المسبغة على المهرجين طوال التاريخ .

بدأ محجوب ثابت حياته العامة ، وهو في مقتبل العمر ، مع الحزب الوطني الذي كان بدوره في شبابه فالتقى شبابهما معا ، فتبادلا ما لدى كل منهما من حرارة وآمال عريضة ، وميل عنيف للمقاتلة وتحدي الأوضاع القائمة ، ونرى اسم محجوب ثابت في أكثر من مجال من مجالات الحزب الوطني ، ولم يكن

---

(١) كتاب الأسرار العباسية لصالح على عيسى السوداني ، ص ١١٢ .

محجوب ثابت هو الطبيب الوحيد الذي انضم إلى الحزب الوطني وعمل معه، بل كان واحدًا من جماعة غير قليلة من شباب الأطباء.

ونشبت ثورة سنة ١٩١٩، وكان د. محجوب ثابت إذ ذاك صاحب عيادة في حي السيدة زينب، بشارع الكومي غير بعيد من المدرسة السنية للبنات، تعرفه الناس، بلحيته وعصاه، وسعيه بينهم. فكان زعيما بحق يقوي إيمان الناس بالثورة، ويثبت أقدامهم على الجهاد.

أما النشاط الثوري بكل صوره، من أعداد المنشورات وتوزيعها، وتنظيم الاجتماعات والدعوة إليها، والتصدي لدعايات خصوم الحركة، وتجميع الشبان، والخروج على رأس المظاهرات، فقد تولاه البطل العظيم عبد الرحمن فهمي، ومعه أركان حربه، الذين كان منهم أو في مقدمتهم محجوب ثابت، وأمين الرافعي، وكلاهما من أبناء الحزب الوطني [1].

وبقيت صلة محجوب بالعمال وإن أراد الوفد، أن يطويهم تحت جناحه، فأسند إلى عبد الرحمن فهمي، مهمة إنشاء اتحاد عام لنقابات العمال.

واختفى أيضًا محجوب ثابت، بل أنه كان أسوأ حظًا من عبد الرحمن فهمي، الذي رشحه الوفد لدائرة عابدين في انتخابات سنة ١٩٢٤ ونسى محجوب ثابت فلم يرشح ولم ينتخب.

ولكن محجوب ثابت بقى على صلة دائمة بالعمال ونقاباتهم، يحارب الأحزاب من أجلهم، ويريد أن يكون لنقاباتهم واتحاد هذه النقابات، بيان قائم بذاته عن الأحزاب التي كانت ـ بعد الثورة ـ قد دخلت في دور من المبارزة للشخصية، تستعمل في سبيل أهدافها الخاصة كل سلاح، وتضحى من أجلها بكل عزيز، ولو كان هذا العزيز مصلحة الوطن نفسه.

وقد وصفه صديقه محمد كرد على العالم السوري وعضو المجمع العلمي بدمشق، قال:

---

(١) فتحي رضوان / عصر ورجال.

«كان أديبًا بكل معاني الأديب من منازع شريفه . ما سمعته يطعن على أحد ، وقد أذىء غير قلائل أما هو فقد علمه نبل شيمته أن يصفح الصفح الجميل ويقيم من نفسه الأعذار لأرباب الشذوذ والنشور ، لا يبادر إلى تخطئة أحد إلا إذا نفد صبره ورآه قد عبث بمصلحة عامة ، كل ذلك من دون إقذاع وتحامل يقدر الجرم بقدره فهو طبيب شرعي حقًا وصدقًا .

«وكان إلى التفاؤل ، أميل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، ويصمد للحوادث في أحرج ساعاته ، لا يتأفف ولا يسخط مهما ألحت عليه الأوجع ، ويحمد الله على ما ابتلاه وأنفذه مما تجنه الطبيعة من آلام هي أشد عما وقع له » .

ولقد بقي محجوب ثابت حتى آخر لحظات حياته يتكلم ويناقش ويقترح فقد كان يراجع طبيبه المعالج الدكتور سليمان عزمي باشا ، وهو على فراش الموت ، يلفظ أنفاسه ، مما أحوج الطبيب الكبير أن يقول لمريضه :

«يا محجوب أنت الآن مريض ولست طبيبًا » .. لكن أني لمحجوب أن يسلم بالأمر الواقع ، وأن يقبله .

ولما فاضت روح محجوب ، وعلم بالنبأ صديقه محمود فهمي النقراشي ، وكان إذا ذاك وزيرا للداخلية أو للمعارف ـ أعلن الوزير الحداد في وزارته ـ ودعا جميع الموظفين إلى تشييع جثمان هذا البطل الذي خرج من الدنيا بلا ولد ولا زوجة ، ولا مال ، ولا منصب ، وقال : اليوم لا عمل.. اليوم يوم محجوب .. ، فكان ذلك كل ما ظفر به محجوب ثابت ، بعد طول العناء ..!! .

بعكوكة محجوب ثابت:

كان الدكتور محجوب ثابت من أظرف الشخصيات الوطنية والأدبية والاجتماعية في عصره ، وكانت ندوته تعقد في عيادته الخاصة ويطلق عليها اسم «بعكوكة محجوب» لأنها كانت تضم عناصر مختلفة من جميع الثقافات والمهن ، وإن غلب عليها طابع الأطباء ، فقد كان مهوي أفئدة زملائه في المهنة : الدكاتره على إبراهيم ، سليمان عزمي ، نجيب محفوظ ، عبد العزيز إسماعيل، وهم أطباء لهم عياداتهم الخاصة ولكنهم كانوا يختارون يوم الجمعة حيث تتوقف أعمالهم في عياداتهم ليلحقوا ببعكوكة الدكتور محجوب التي كانت تنعقد عادة في عيادته أو في بار اللواء أو في محل (صولت) الحلواني .

أما حين تعقد في بار اللواء فكان يحضرها داود بركات رئيس تحرير الأهرام.

وأما في محل صولت فعندما يحضرها أمير الشعراء أحمد شوقي .

وكانت أحاديثها في الأغلب تدور حول ذكريات الطب والأطباء .

أما الدكتور محجوب ثابت فقد تخرج عام ١٩٠٦ في مدرسة طب البلاد الحارة بجامعة باريس وكان أول الناجحين . وانتخب في أوائل عام ١٩٠٨ أستاذًا مساعدًا لعلم الأمراض والتكنولوجيا بمدرسة الطب ومستشفى القصر العيني . ثم انتخب عام ١٩١٤ أستاذًا لمادة الطب الشرعي وعلم النفس بالجامعة المصرية .

وقد ظل يعمل في ميدان الوظيفة مع سعد زغلول باشا وفي إنشاء النقابات العمالية وفي الدعوة إلى تحرير وادي النيل .

وأخيرًا كان أكبر عمله هو التدريب العسكري لطلبة الجامعة الذي أشرف عليه في السنوات العشر الأخيرة قبل وفاته (مايو ١٩٤٥) .

وكان أغلب أساتذة جامعة القاهرة من تلاميذه ، وفي إبان الحركة الوطنية جمع بمفرده ٨٠ ألف جنيه سلمها لزعماء الثورة كما أمضى حوالي سبعة أشهر في تضميد الجراح ومعالجة المصابين في أحداث الثورة المصرية بلا مقابل ، وسافر

قبل الحرب العالمية الأولى إلى أوروبا للدعاية للقضية المصرية في جنيف .

أما مسرح الندوة فقد كان كما وصفه أحد زواره حين قال :

« يعيش الدكتور محجوب في عيادته عيشة استقلالية ، بين كتبه وكراسيه ومنضدة العيادة .. والمائدة ، وكلها عنده سواء ، وكلها مفتوحة لكل طارق يعرفه أو لا يعرفه ، يعالج من يقصده من المرضى ولا يسأل أجرًا ، ويؤاكل كل من يحضر ساعة الطعام بغير كلفة ، ويطلب الشاي أو القهوة لكل من يقصده ، لا يتقيد بموعد ، ولا تكلفه حياة المجتمع أي عناء ،لحية مرسلة وشارب معفي، فلا حلاقة ولا تسريح . وزي واحد هو زي الليل وهو أيضًا زي النهار وكرافت واحد أسود ، لا يكلفه الاستعداد للخروج بعد يقظة الصباح غير دقائق معدودة، محبوب في ربوع الشام، يتوافد عليه أصدقاؤه ، ومحبود ، يدخن التوسكانال دائمًا بالإضافة إلى هذا مكتبة بها أكثر من ١٨ ألف مجلد .

الحصان مسكويني:

وتساءل أحد أعضاء الندوة عن أعز أحباب الدكتور محجوب : الحصان مسكويني ولماذا هو ضامر الجسم . فرد محجوب : لقد أطلق الدكتور عبد الحميد بدوي اسم مسكويني ، وأذاعه ابن حارتي الشيخ عبد العزيز البشرى ، وأبدع صديقنا شوقي ذكره بقصيدتين رائعتين . والحصان ما شاركني جوعا بل يمكن أن يقال أنه شاركني صبرًا بالوقوف الطويل أمام بيت الأمة ينتظر فراغي ، أو أمام منزل محمود باشا سليمان ، أو منتدى صولت بشارع فؤاد ، لقد شاركني صبرًا وجلدًا وانتظارًا لخروجنا من المجالس ، كما شاركني وغيري من الرفاق في جوب المدينة طولا وعرضًا وحضور مظاهرات واستقبال رصاصها ، وكم انتظر أمام الأزهر والمعابد والكنائس والبيع إبان الحركة الوطنية ، أما أن هذا الأبلق مخصف البطن ، فهذا من خلقته ، لا من جوع وهزال . أنني يا بنى مغرم بالخيل قديمًا فقد ولدت في السودان ، بين الجنود والبنود ، وسمعت صهيلها وأنا بعد وليد ، ولطالما وضعت على ظهورها وقبضت على رسن ألجمتها وأنا يافع بعد .

لقد كانت عربة «حنطور» الدكتور محجوب ، معروفة في كل أنحاء القاهرة ، ولقد أطلق اسم مسكويني على حصانها سخرية به ، فقد كان مسكويني بطلا من أرلندا مات جوعا . يكنون به عن هزال الحصان وجوعه .

وقد وصفه شوقي في قصيدة منها قوله :

فـلا والله مـا كلَّفـت «محجوبـا» ولا بـاره
فـلا البرسُـيم دريـه ولا تعـرف نـواره
وقـد تـروى عـلى «صُـولت» إذا نادمـتَ سُـمَّاره
وقـد تنكـرُ مـن جـوْدِ عـلى الإفريـز مِعْطـاره
وقـد تـشبعُ يـا ابـن الليـل مـن رنَـةِ قِيثـاره

وقد قيل في المداعبات أن الدكتور محجوب حين يدخل بعربته هذه التي يجرها الحصان إحدى الأزقة ، كان يصفق بيديه لينبه الناس إلى خطوات الحصان.

غير أن الدكتور محجوب لم يلبث أن استبدل العربة بعد أن تهالكت فاشترى سيارة أخرى ويظهر أنها كانت قديمة أيضًا ، فقال شوقي مداعبا :

لكـم في الخـط سـياره حـديث الجـار والجـاره
إذا حَرَّكهـا مالـت عـلى الجنبـين منهـاره
وقـد تحـرن أحيانـا وتمـشي وحـدها تـاره
تجـوع . فلـيس يـشبعها مـن البنـزين فـواره

ويقول داود بركات أن محجوبًا كان مرحًا بشوشا حلو البادرة له لحية جميلة تلقفتها الصحف سنوات وسنوات بالكاريكاتير والسخرية ، وأنه كان يتقبل سخريات أصدقائه ومقالبهم باسما وأحيانًا كان يضيق بها فينزوي في عيادته حتى يعود أصدقاؤه فيخرجوه منها ، وأنه كان طبيبًا بارعا تدر عليه عيادته في الليلة الواحدة ما يزيد على خمسين جنيها ، وكان إذا سهر في بار اللواء معهم ، دقت التلفونات مرارًا تدعوه مرة ومرة في مختلف أنحاء العاصمة لعيادة مرضاه في منازلهم.

« يقول داود بركات أنه كان يعود إلينا أثناء السهرة وجيوبه منتفخة بالنقود فعد كان زبائنه من الأغنياء وكان كل هذا المال الذي يجمعه ينفقه بسهولة وبساطة على فقراء المرضى والعمال».

وقد اشتهر بالمداعبات مع شوقي الذي نظم فيه الشعر أكثر من مرة ، وركبه بالسخرية فقال: أنه زاره مرة في العيادة فهاجمته كتيبة من (البراغيث) أدمت جسمه وامتصت دمه فرد عليه محجوب بأن هذه البراغيث إنما حملها في سيارته ونقلها في طيات ملابسه وألقى بها في العيادة .

وفي ذلك يقول شوقي :

براغيث محجوب لم أنسها ... ولم أنس ما شربت من دمي

تشق خراطيمها جوربي ... وتنفذ في اللحم والأعظم

ولله في خلقه شؤون فبينا كان الدكتور على إبراهيم مشغوفًا بالسجاجيد العجمية يذهب في سبيل البحث عنها إلى أقصى القرى في العراق وتركيا وسمرقند كان الدكتور محجوب ثابت يوزع ثروته وإيراده على الفقراء . وقد عاش حياته دون أن يتزوج وكان يقول : «أن للزواج تقاليد لا أستطيع أن أقوم بأدائها » .

وقد عرف الدكتور محجوب ثابت بالعبارات التي تحمل حرف (القاف) كقوله : يقينا يا ولدي.. وفي هذا يداعبه حافظ إبراهيم بقوله :

يُرغي ويُزبدُ بالقافات تحسُبها ... قصف المدافع في أفق البساتين

من كل قافٍ كأنّ الله صوّرها ... من مارج النار تصوير الشّياطين

لا يأمن السامع المسكين وثبته ... من «كردفان» إلى أعلى «فلسطين»

بينا تراه ينادي الناس في «حلب» ... إذا به يتحدى الناس في «الصين»

ولم يكن ذاك عن طيشٍ ولا خبلٍ ... لكنها عبقريات الأساطين

سليمان نجيب

الأستقراطي .. الصعلوك !

صاحب كتاب «مذكرات عربجي» !



اشتهر الفنان سليمان نجيب (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) بأداء الأدوار الفكاهية التي تعكس شخصيته المرحة المنبسطة التي تميل للفكاهة وخفة الظل ومن ينس دوره في شخصية الباشا في فيلم «غزل بنات» وهو يحاور الفنان الكبير نجيب الريحاني في قصره ! ورغم ارستقراطيته وعمله بالسلك الديبلوماس تقمص الفنان الكبير شخصية عربجي وكتب مذكراته ونظراته وتأملاته في الحياة والناس حتى ظن القراء أن كاتبه عربجي حقيقي هو الأسطى حنفي أبو محمود !

وقد اختلف بعض الأدباء والمؤرخين حول اسم المؤلف الحقيقي لكتاب «مذكرات عربجي» الذي نشر في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين بدون توقيع فذكر السفير شكري فؤاد في أحد أعداد الهلال لعام ٢٠٠٢ أنه من تأليف فكري أباظه كما أشار د. محمد رجب البيومي إلى طرافة هذا الكتاب لمؤلفه

العربجي اللماح الذي صار مؤرخا حين استعرض بعض مشاهداته وانتقاداته ولمحاته الساخرة العميقة في هذا الكتاب المجهول المؤلف !

و لحقيقة أن كتاب «مذكرات عربجي» الذي صدر بالقاهرة في مطالع الثلاثينيات من القرن العشرين وعلى غلافه أنه بقلم الأسطى حنفي «أبو محمود» وبمقدمة للكاتب الكبير فكري أباظة قد أثار ضجة كبرى عند صدوره سواء من حيث البحث عن مؤلفه الحقيقي أو الانتقادات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي تضمنها الكتاب والذي كان لونا جديدا وفريدا في أدب والخواطر الساخرة ومما أثار الحيرة والتساؤل في حينه ما ذكره الكاتب فكري أباظة في مقدمته الطريفة للكتاب الذي خاطب فيها الأسطى حنفي محمود مؤلف الكتاب المزعوم حين قال :

«إن لك علينا أفعالا لا ننساها ، لأنك لست حوذيًا فقط ، بل أنت «فيلسوف» والفلسفة مبجلة في حد ذاتها ، برفع النظر عن حيثية المتصفين بها ، دعني أهنئك من صميم فؤادي ، لو كان كرباجك كقلمك لفاخرنا بك أعظم الأسطوات في جميع القارات». ثم يمضي قلم فكرى أباظه الساخر المراوغ فيخاطب الأسطى «حنفي» قائلا :

«يمينًا يا أسطى : لست أحابيك ولا أداجيك ، إنما أقرر الواقع ، لقد لدغت بكر باحك العظيم ظهور المتهتكين والمتهتكات .

وقد زادت مقدمة فكري أباظة للكتاب حيرة الناس في حقيقة المؤلف المجهول لمذكرات عربجي خاصة حين أكد الكاتب على أن الأسطى حنفي أبو محمود الحوذي المثقف الخبير الواعي بقضايا أمته ومشكلاتها هو مؤلفه الحقيقي الذي سعى لأن يفلسف الأمور ، ويحلل الواقع ، ويرصد كل ما مر ويمر بها من أحداث وما نعاني منه من مشكلات وأزمات .

لكن من هو المؤلف الحقيقي للكتاب ؟

هل هو الأسطى حنفي أبو محمود الفيلسوف الساخر الذي حباه الله الموهبة

فأصدر هذا الكتاب الطريف؟

أم أن الأسطى حنفي كان مجرد شخصية وهمية تختفي وراءها المؤلف الحقيقي، وإذا كان الأمر كذلك فمن يا ترى هو ذلك الفيلسوف الساخر الذي ابتدع تلك المذكرات الطريفة التي صورت المجتمع والناس في ذلك العصر بأسلوب ساخر طريف !

لقد آثر المؤلف الحقيقي أن لا يكشف الحقيقة حتى ظن الكثيرون أن الكاتب الكبير فكري أباظه هو المؤلف الحقيقي ولكن بعد وفاة ذلك المؤلف المجهول كشف أحد أقرب أصدقائه السر المجهول !

المفاجأة المدهشة أن المؤلف الحقيقي «لمذكرات عربجي» هو الممثل الكبير الفنان سليمان نجيب (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) الذي نشر تلك المذكرات في البداية على صفحات مجلة «الكشكول» ثم أصدرها بعد ذلك في كتاب باسم «الأسطى حنفي أبو محمود» وكان من بين من كشفوا هذا السر أحد أقرب أصدقاء سليمان نجيب إليه وهو الشاعر الوجداني صالح جودت (١٩٠٨ ــ ١٩٧٦): على صفحات مجلة المصور عدد ٢٨ يناير ١٩٥٥ بعد وفاة سليمان نجيب بأيام قليلة حيث توفى في ١٨ يناير ١٩٥٥ قال صالح جودت تحت عنوان الجنتلمان الذي كتب «مذكرات عربجي» مؤرخا للجانب المجهول في شخصية سليمان نجيب.

«استهل سليمان نجيب حياته الأدبية بالكتابة في مجلة «الكشكول» التي كان يصدرها سليمان فوزي ، وكان لها شأن في الصحافة السياسية الضاحكة ، وكان يشترك في تحريرها نفر من أئمة الأساليب في ذلك الجيل ، منهم عبد العزيز البشرى ومحمد الههياوي ومحمد إبراهيم هلال وغيرهم ..

وكتب سليمان نجيب في ذلك العهد سلسلة طريفة بعنوان : «مذكرات عربجي» تناول فيها بالنقد والسخرية كثيرا من الشخصيات السياسية من وزراء وزعماء ، وشيوخ ونواب، ورجال ونساء ، فكان لها صدى كبير .

وسليمان نجيب لمن لا يعرف لم يكن مجرد فنان مسرحي وسينمائي فقط ، بل

بدأ حياته ديبلوماسيا ، فعمل قنصلًا لمصر في تركيا ، كما عمل وكيلا لدار الأوبرا، وكان من أسرة عريقة ، فقد كان والده الأديب مصطفى نجيب مديرا للأقلام العربية بسراي عابدين ثم مديرا للإدارة بالداخلية ، وكان صديقا للزعيم مصطفى كامل وهو مؤلف كتاب «حماة الإسلام» و «أحلام الأحلام» وصاحب عدة أغان شهيرة .

أما خاله فهو المرحوم أحمد زيور باشا ، وكان رئيس وزراء مصر ، ورئيسًا للديوان الملكي ، قد عاشر سليمان الوزراء ، وسامر الكبار ، ولكنه كان «ابن بلد» اقترب من نبض رجل الشارع رغم أنه كان يحمل لقب البكوية ، وخالط البسطاء ، ومن هنا تيسرت له مادة كتابة اللاذع وسليمان نجب كما يصفه طاهر الطناحي في كتابه «حديقة الأدباء» : مؤلف مسرحي وكاتب كبير وليس هاويا فقط للتمثيل ، فقد وضع للمسرح درّانفيسة وروايات شائقة ستبقى على مر الزمن شاهدة بنبوغه وتضحيته من أجل ترقية هذا الفن في بلاده ، ولعل أحب رواياته إليه وأقربها إلى نفسه في بيوت الناس ـ أخيرا تزوجت ـ الغيرة ـ عفريت مراتي ، ولم يترك فرصة للظهور على المسرح مع فرقة أنصار التمثيل منذ سنة ١٩١٥ حتى انتهزها ومثل معها عدة مسرحيات» ، وقد عاون الفرقة المصرية مرات عدة بالاشتراك معها في روايات ألفها أو اقتبسها من المسرح الأوربي ، وكان فيها البطل الأول نذكر دوره البديع في فيلم «غزل البنات» الذي ينم عن شخصيته المرحة الحقيقية فهكذا كان في واقع حياته ، إنسانا كريمًا مرحًا بسيطًا .

وحتى تقدم للقارئ نموذجًا من أسلوبه الساخر في الكتابة والحياة نورد هنا مقالا له كتبه بأسلوبه الساخر المميز في أواخر الأربعينيات بمجلة آخر ساعة عن الشاعر محمد إمام العبد تحت عنوان «صديقي أمير البؤساء» عكس فيه كيف كان يصادق البسطاء والبؤساء وأولاد البلد ما داموا يتمتعون بخفة الظل وروح الفكاهة والمرح :

«يا صديقي ما أقسى الذكريات .. إنها تتسلل كالأطياف إلى مشاعرنا تبحث

بين أطلال الماضي عن الأصدقاء الذين عاشوا معنا فلا نجدهم وتتلفت الأطياف والهة تسأل عنهم ، ويقول لها الواقع المستيقظ في عقولنا ذهبوا وتركونا هنا وحدنا» .

ولقد تذكرتك أمس يا صديقي ، وكنت أسير في طريق طالما عدته معك ومررت بمعالم طالما عشت فيها معك، ولكن كنت هذه المرة وحدي ، «كنت في شارع خيرت وأظنك ما زلت تذكر أيامه يوم كنا نمل الجلوس على قهوة «الجميل» فننتقل إلى قهوة موشيدي ولكن لا نغادر شارع خيرت فاذا غادرناه فإلى «سبلنديد بار» في ميدان الأوبرا .

أتذكر تلك الأيام يا صديقي .. يا أمير البؤساء أتذكر يوم قابلتك وأنت تهبط من الترام مسرعا أثناء أزمة سنة ١٩١٩ وصحت فيك وأنت تهرول ناحية ميدان الأوبرا إلى أين أنت ذاهب ؟

فقلت لي وأنت ما زلت تهرول :

ـ سمعت أن مع أحد أصدقائي جنيها ذهبيا فأسرعت كي أراه لم يستعبدك البؤس أبدا برغم شدته عليك في بعض الأحيان .

وأذكر أيام كنت تسهر في الأزبكية وتصرف كل ما معك ثم لا يبقى في جيبك إلا قروش قليلة لسائق العربة الحنطور التي تحملك في الفجر من الأزبكية إلى السيدة زينب ، وكنا نخرج والصقيع يهري الأجسام ساعة الفجر ، ولم يكن لديك معطف يقيك قرصته ، وكنت تصعد العربة ، وتطلب من السائق أن يمد لك الكرسي الصغير ، الكرسي الخلفي لمقعده العالي ، وأسألك لماذا تجلس على هذا الكرسي فتقول : لكي أحتمي بالسائق وبمقعده من البرد» .

وأذكر مرة خلت جيوبنا فيها حتى من أجرة سائق العربة وخرجنا نسير في ظلمة الليل البهيم نفكر : ما العمل ؟ ومر بنا سائق عربة حنطور ، وكان منسجما يغني ومر وصحت به : يا أسطى هل تأخذنا معك سميعه؟

ثم يختتم سليمان نجيب ذكرياته عن إمام العبد فيقول ما أكثر النساء في حياتك .. ولكن واحدة فقط هي التي بقيت إلى النهاية .

ورفضت أن تتزوج وعشت وحيدا في الحياة وسألك يوما خليل مطران شاعر القطرين لماذا لم تتزوج؟ فأمسكت ورقة وكتبت له :

يا خليلا وأنت خير خليل

لا تلم راهبا بغير دليل

أنا ليل وكل حسناء شمس

فاجتماعي بها من المستحيل

ثم كانت تلك الزنجية الحسناء التي ثبتت على حبك حتى النهاية .

هذا المقال يكشف كيف كان نعيش سليمان نجيب حياته مثل أي أديب متصعلك يسهر الليل مع أقطاب الظرف والفكاهة ، ومن هنا استمد مادة كتابه وقد ظل سليمان نجيب يعيش حياته كما يهوى .. يعشق السهر وسباق الخيل وفن التمثيل والصعلكة ، وكانت مائدته لا تخلو من الأصدقاء خاصة في رمضان وقد عاش حياته عزبا لم يتزوج حتى أطلقت عليه الصحافة لقب «أمير العزاب» وعندما رحل عن الحياة في ١٨ يناير ١٩٥٥ وجدوا أنه أوصى بعربته وشقته وكل ما يملك للطباخ والسائق والخادم ، وبكى أصحابه تلك الشخصية الفنية الإنسانية النادرة ، وكتبوا عنه: اليوم مات الجلنتمان الذي كتب «مذكرات عربجي».

وبعد ، فللأدب والتاريخ يجب أن يعاد النظر في كتاب «مذكرات عربجي» في ضوء الحقائق المستمدة من سيرة الفنان الأديب سليمان نجيب ، وشخصيته ونوادره وفلسفته في الحياة والناس والفن والمجتمع .

وعودة إلى كتاب «مذكرات عربجي» ، فقد شاء مؤلفه الفنان الأديب سليمان نجيب أن يخلع عليه صفة الواقعية وأن يقنع القراء أنه بالفعل من تأليف الأسطى حنفي أبو محمود فاستعان بصديقه الكاتب الكبير فكري أباظه في أن

يشارك في الكتاب الموهوم برسائل متبادلة بين الأسطى حنفي المزيف وبين الكاتب الكبير فبدأ الكتاب برسالة من الأسطى حنفي أبو محمود إلى الأستاذ فكرى بك أباظة فقال له:

إلى الأستاذ فكري بك أباظة [1] ...

سيدي الأستاذ النابغة .

محسوبك كاتب هذا ـ الأسطى حنفي أبو محمود ـ من كان له الشرف أن يقلك في عربته مرارًا إما منفردًا أو مع زمرة من أخوانك ومحبيك يرجوك ويتوسل إليك أن تكتب له كلمة صغيرة يضعها في مقدمة مذكراته التي ظن بعضهم أنها جديرة بالنشر .

وأنا لا أرجو ولا أتوسل إلا لأني من المعجبين بقلمك وأدبك وأنك باعتراف الكل الكاتب الذي تقرأ كتاباته كل الأفراد بلهف وشغف واستصرخ ديموقراطيتك أن تحن على حوذيك بكلمة تجعل لهذه المذكرات قيمة .

أنك كريم يا أستاذ طالما جدت على بضعف ما أستحقه في «التوصيلة» لأن نظرك البعيد يرى أن بجانب أكل البهايم أكل العيال . ومن كان من أخلاقه الكرم والبجبحة فلا أظن أن يضن على حوذيه القديم بما يطلبه . أبقاك الله وجعلك ظلا لأمثالي المساكين الغلابة وأنا يا سيدي العبد المطيع المخلص .

حنفي أبو محمود

١٨ رمضان سنة ١٣٤١

وحتى يتقن الموضوع ويوهم القارئ أن مؤلف الكتاب هو العربجي أبو حنفي أورد رسالة من الكاتب الكبير فكرى أباطه إلى الأسطى حنفي قال فيه :

من الأستاذ فكري بك أباظة

---

(١) مذكرات عربجي // بقلم الأسطى حنفي / (أبو محمود) .

عزيزي الأسطى حنفي

أشكرك كل الشكر على حسن ظنك بي .. وما كان الأمر يحتاج إلى «الطلب» يا أسطى . كان يكفي أن تأمر فنجيب . لأن لك علينا «أفضالا» لن ننساها . لأنك لست حوذيًا فقط بل أنت «فيلسوف» والفلسفة مبجلة في حد ذاتها ـ برفع النظر عن حيثية المتصفين بها :!

حقًا إني لأكتب بعواطفي لا أتكلف ولا أتصنع . فدعني أهنئك من صميم فؤادي . ولو كان كرباجك كمقامك لفاخرنا بك أعظم الاسطوات في جميع القارات !!

«تتبعت كلماتك كلها . وكلما قرأت واحدة استفزني الشغف بأسلوبها إلى انتظار الأخرى على أحر من الجمر . فرأيت «خفة الروح» تنساب بين السطور انسيابا . ورشاقة العبارات تتدفق تدفقًا . فلما أخذتني الغيرة من ذلك الابتكار والتفنين واسيت نفسي قائلا : «أن الأسطى حنفي لم يأت بشيء من عنده لأن هذه «نفثات» الأنفاس بلا جدال وهو مشغول «بالكر» نهارًا وليلا . «وبالشد» صباحا ومساء . ومن كانت هذه أدواته وحواشيه فمن يستطيع أن يماشيه .

«يمينًا» يا أسطى لست أحابيك ولا أداجيك . أنما أقرر الواقع لقد «لذعت» بكرباجك العظيم ظهور المتهكتين والمتهتكات . المتحذلقين والمتحذلقات . وقديمًا كان الكرباج أداة التهذيب والتأديب ولكن كرباج العهد الغابر كان يسيل الدم ولا يجرح النفس . أما كرباجك أنت فلا يسيل الدماء ولكن يجرح النفوس. ونحن إنما نريد معالجة الأرواح لا الأبدان فشكرًا لك يا طبيب النفوس .

لا تفكر كثيرًا في الأزمة يا أسطى ولا تطمع . وما دام علفك علف أولادك ومواشيك موجودًا فاحمد الله . وما دمت فليسوفا فليكن جيبك «فاضيًا» كقلبك . ألا تعلم أن من تصدى لتهذيب الجمهور وجب أن «يدوسه الجمهور» . انظر «يمينك وشمالك» بسكوت «وطبق» النظرية تجدها صحيحة . «فسر» في طريقك هادئًا ولا تجمد في «موقفك» واسمعنا «طرقعة كرباجك» فقد اختفى صوته من

زمن بعيد . ولكن حذار أن تندفع أو «تجمح» فتكون التوصيلة «للواحات» .

أي عزيزي «الأسطى : أن أمة حوذيتها مثلك لجديرة بأن «تركض» ركضًا و«تربع» إلى مطامعها لا تلوي على شيء في الطريق .

أني لفي غاية الشوق إلى كتابك فيها و «حضر» الملازم بسرعة لينتفع بها الجمهور . وأنا في انتظارك فلا تتأخر علي» فكري أباظة المحامي .

حاشية : طيه «اللي فيه القسمة» أرجو قبوله مساعدة في الطبع «فكري» .

«وصلني المبلغ . قدها وقدود ياسي فكري . مش جايب الكرم من بره والعرق دساس يا أستاذ محسوبك». حنفي .

ويقول الأسطى حنفي في مذكراته :

«نظفوا عرباتكم وأطعموا خيولكم «وكلوهم شعير مش كرابيج» أما الزبائن فصهينوا في الوقت اللازم . وتشددوا حينما تستعدي الحالة ذلك . لا تدعوا صغيرة أو كبيرة تمر دون أن تعرفوها فإن صنعتنا تطلب منا أكثر من ذلك» القاهرة حلة وأنتم مغرفتها» لا يجب أبدًا أن يكون جواب واحد منا لزبون «معرفش» نحن كتالوج البلد المتحرك العارف بأسماء شوارعها وحواريها . قهاويها ومطاعمها . مطابعها وإدارات صحفها وبيوت الوجهاء خصوصًا يا زملائي . أن الأجرة يمكن أخذها مضاعفة إذا أخذت الباشا مثلا أو سعادة البيه من النيوبار إلى منزله بدون أن يدلك هو على مقره . وقتئذ يصح (البلف) والأونطة وتخرج من المعركة فائزًا منتصرا .

إلى هنا يقف القلم ، فالجرح لا يزال جديدًا يضايقني .

سلام عليكم زبائني وزبوناتي الناهضات . من مخلص لكم ولصنعته يذكر أيامكم ولياليكم بكل طيب وخير . أنا في المعاش ولله الحمد مركزي معروف هو القهوة الموجودة بميدان الست الباتعة أمام القسم . من أراد منكم سعة في الحديث ومعلومات لا يصح ذكرها في مذكرات كهذه ستتداولها أيدي سيدات

وآنسات فليشر فني يشرب فنجان قهوة (بيشه) على حسابي وحينئذ يحلو الحديث أبقاكم الله متمتعين جميعًا . بالصحة والرفاهية (ورووقان بال) بل هو ما يتمتع به الآن محسوبكم ؟

حنفي أبو محمود

وقد أورد المؤلف في صدر الكتاب مذكرتين للأسطى حنفي ثم اختتم الكتاب بكلمات من الأسطى حنفي فقال : [1]

الحمد لله آلاف المرات على ما وصلت إليه . وصح المثل القائل «آخر خدمة الغز علقة» . والغز هنا يا سيدي القارئ هو الجمهور . ولله درك أيها الأستاذ فكري بك أباظه حيث قلت لي في مقدمتك «أن من يتعرض لخدمة الجمهور يجب أن يدوسه الجمهور» . قول جدير بالاعتبار والنظر فوشرفك لم يسأل على من زبائني الأخصاء الذين كانوا يستخدمونني وعربتي وخيلي في سبيل مآربهم وغاياتهم أحد .

***

ويلقى المؤرخ الفني حسن إمام عمر [2] الأضواء على بدايات اشتغال سليمان نجيب للتمثيل ، وكيف عارضت أسرته العريقة اشتغاله كمشخصاتي حيث كانت نظرة المجتمع لفن التمثيل في القرن العشرين نظرة غير كريمة، وكان من غير المعقول أن يشتغل به أبناء وبنات الأسر المصرية.

وبعد أعوام قلائل بدأ التمثيل يدخل ضمن أنشطة المدارس المختلفة وأقبل الكثيرون من الطلبة على الاشتراك في فرق التمثيل المدرسية، وكان في طليعة هؤلاء سليمان نجيب الذي استبدت به هواية التمثيل خلال سنوات الدراسة، وكان عضوًا بارزًا في فرقها، ولم تكن أسرته تمانع في ذلك طالما أن التمثيل في

(١) مذكرات عربجي / بقلم الأسطى حنفي أبو محمود .
(٢) الكواكب : ١٦/ ٧/ ٢٠٠٢.

إطار النشاط المدرسي، ولا يخرج عن حدود الهواية، وعندما أنهى دراسة الحقوق كان عبد الرحمن رشدي المحامي قد ألف فرقته التمثيلية عام ١٩١٧، ورأى سليمان نجيب أن ينضم إلى فرقة أستاذه مع مجموعة الشباب المثقف، ولكن والدته عارضت فكرة اشتغاله بالتمثيل الذي يسيء إلى مكانة الأسرة خاصة وأن خاله أحمد زيوار باشا أصبح رئيسًا لمجلس الوزراء، ولما وجدته أمه مصرًا على تنفيذ فكرته اعتبرته في عداد الأموات، وأقامت أمام منزل الأسرة بالزمالك سرادقًا للعزاء فيه، الأمر الذي جعل جميع الأقارب والأصدقاء يتدخلون لمنعه من الاشتغال بالتمثيل.

ولم يجد خاله رئيس الوزراء مفرًا من إبعاده خارج القاهرة، فأصدر قرارًا بتعيينه قنصلا لمصر في إسطنبول، وخضع سليمان لقرار وأمر خاله، وسافر إلى تركيا وانغمس في العمل الدبلوماسي، وبعد أشهر قلائل سقطت وزارة خاله زيوار باشا، وأعيد إلى القاهرة ليعمل مديرًا لمكتب وزير الحقانية، ولم يشأ بعد عودته أن يغضب والدته مرة أخرى، وانضم مع أصدقاء له إلى جمعية أنصار التمثيل التي كانت قد أنشئت ليمارس أعضاؤها التمثيل كهواية بجانب وظائفهم الرسمية.

وعامًا بعد عام بدأت نظرة المجتمع إلى التمثيل تتغير خاصة بعد أن كون يوسف وهبي ابن عبد الله باشا وهبي فرقة رمسيس وانضم إليهم مجموعة من الشباب المثقف مثل أحمد علام وحسين رياض وبشارة واكيم، كما أن الدولة بدأت ترعى فن التمثيل وتقيم مسابقات سنوية بين جموع الممثلين، وترسل البعثات إلى الخارج لدراسة فنون التمثيل، كما وافقت وزارة المعارف على إنشاء معهد التمثيل ثم على تكوين الفرقة القومية التابعة لوزارة المعارف.

وظل سليمان نجيب يتنقل في وظائفه الحكومية حتى تم اختياره عام ١٩٣٨ ليكون مديرًا لدار الأوبرا الملكية في الوقت الذي ظل يمارس فيه هوايته في جمعية أنصار التمثيل الذي أصبح رئيسًا له ومؤلفًا مقتسبًا لمعظم المسرحيات التي تقدمها، أما احترافه رسميًا التمثيل فكان سنة ١٩٣٢ عندما اختاره المخرج محمد

كريم ليشارك محمد عبد الوهاب في فيلمه الأول «الوردة البيضاء» ثم في فيلمه الثاني «دموع الحب» ثم توالت الأفلام التي شارك في تمثيلها ليبلغ عددها أكثر من ٤٥ فيلمًا[1].

***

كتب الكاتب المعروف الأستاذ أحمد الصاوي محمد عن سليمان وهداياه تحت عنوان «ما قل ودل» ، فقال: إنه قابل سليمان في باريس حوالي سنة ١٩٣٨ شاهده وهو يملأ حقيبته بأفخر أنواع الصابون والكرفتتات والروائح لعشرات الأصدقاء والزميلات.

وكان نصيبي من هذه الهدايا نصيب الأسد، رغم سفري وحضوري أغلب مشترواته، وكان رحمه الله لا يبخل عليَّ بهدية أو أكثر مهما كانت قيمتها، كما كنت أتحين الفرص لأحصل على ما لم يمنحني إياه كالأنواع المختلفة من كرفتات سولكا المشهورة، أو المناديل الفاخرة وارد «ميزون بلانش» أو الجوارب الأنيقة التي تحيل ساق الفيل إلى رجل غزال أو الصوف الإنجليزي الممتاز إلى غير ذلك من الهدايا الفاخرة النادرة التي كان يحظى بها أفراد الفرقة المصرية، وفي مقدمتهم زينب صدقي، وزوزو حمدي الحكيم، ونجمة إبراهيم ، أما زجاجات البرفان التي كان يحتفظ بها في دولاب خاص ويوزعها على زميلاته بالعدل والقسطاس، فكانت حقا من النوع الفاخر، كانت هدايا سليمان منتقاة وذات قيمة ، وكان يهمه أن تكون الهواية نافعة للشخص الذي يريد سليمان أن يهديه مثال ذلك كان يعلم أني أفضل الخروج بعد منتصف الليل ولو لفترة قصيرة ترويحًا للنفس بعد عناء العمل الطويل ، وكان يخشى على البرد في ليالي يناير وفبراير ، فكانت هديته لي عند حضوره من الخارج بالطو جبردين ، وسألني:

«هل أعجبك البالطو»؟

(١) الكواكب ١٦ / ٧/ ٢٠٠٢.

فقلت : جميل جدًا، وأنا في شديد الحاجة إليه ، ولكنه للأسف لا يصلح في برد ما بعد منتصف الليل ، لأنه من النوع الخفيف.

وفي اليوم التالي أرسل إليّ بالطو آخر من نوع صوف الجمل، وكتب إليّ كلمة رقيقة تتلخص في كلمتين:

«أنا عارف إن عينك فارغة.. إياك يعجبك.. احتفظ بهذا وذاك .. ويقصد البالطو الجبردين وبالبالطو صوف الجمل».

ولم ينس سليمان أحدًا من الذين يعملون معه، حتى بواب الباب الخلفي ، وعامل التليفون، والساعي والفراش، فلهذا قميص ، ولذاك بنطلون، وللآخر قطعة قماش، وهكذا حتى يشعر أنه أرضى الجميع.

غراميات سليمان نجيب:

أحب سليمان نجيب في شبابه مرة ولم يوفق في غرامه الأول، فآثر أن يقضي العمر أعزب، فلم يتزوج إلا أنه كباقي الرجال كان للمرأة شأن في حياته ، ووقع في حب أكثر من واحدة ودام غرامه مع بعضهن بعض الوقت.

وكان بحكم علاقتي به على علم بأغلب غزواته ونزواته ، بل وأكثر من ذلك أرادت إحداهن أن تجعل مني جاسوسًا عليه، فجعلت منها تسلية لي، فكنت أنقل إليها أخبارًا من نسج الخيال، مما أزعج سليمان إلى حد كبير ، وسبب له في بعض الأحايين مضايقات لا قبل له على احتمالها، فكان يعود من موعده وهو ثائر عليَّ ، وأنا أتصور ما كان يلقاه من صد وهجران في وقت كان يمني فيه نفسه فيه بالسعادة والهناء!!

كنت أقيم معه في شقة من غرفتين بلندن، وفي ذات يوم طلب مني أن أغادر غرفتي، لأنه سيستقبل شخصية عزيزة عليه، ويجب أن ينفرد بها ليأخذ معها الشاي في الخامسة، وأصر أن أترك الشقة قبل حضورها بنصف ساعة على الأقل خوفًا من لساني، ورضخت للأمر مكرهًا، وتركت الشقة في الميعاد، وكنت في شديد الحاجة إلى الراحة في جو يوليو الحار بلندن، وانتقيت مقعدًا قريبًا من

الباب العمومي للفندق، وجلست أرقب الداخلين بشغف عظيم، ووصلت السيدة في الساعة الخامسة، ودهشت إذ رأيت غرام سليمان يصاب بهذا الانهيار، وأن تكون الغادة المنتظرة امرأة على أبواب الستين، وزوجها «وهو معروف لي» يناهز الثمانين.

وتمتعت السيدة بشرب الشاي مع سليمان بك، وقضت وقتًا طيبًا، إلى أن غادرت الفندق، فصعدت لأجد سليمان وقد استلقى على سريره يقرأ كتابًا، وقد هدأت عاطفة حبه، وشاهدني وأنا أفتح الباب، فتبعني بهدوء من تحت نظارته، ليستطلع مدى معرفتي بالمقابلة، وأخذ يرقبني لحظة وأنا أسير نحو غرفتي، وكأن شيئًا لم يحدث، وبعد ثوان دخلت الحمام، ثم خرجت لأقول له: «سليمان بك» صاحبتك نسيت حاجة مهمة قوي في الحمام».

فقال باهتمام شديد: «نسيت إيه»؟

قلت وأنا أغالب الضحك: «طقم أسنانها»!

فقال : «اخرس يا خنزير» ! وضحك كما كان يضحك دائمًا، ثم عدنا إلى ما كنا عليه ، وكان كثير الاستلطاف والإعجاب ببعض زميلاته من الفنانات، وكثيرًا ما كان يظهر ضعفه أمام إحداهن ، فتراه يغدق عليها هداياه بمناسبة وبدون مناسبة ، أو تراه وهو يطيل الحديث والدردشة مع الأخرى ، أو يسأل عن الثالثة بالتليفون أكثر من مرة في اليوم الواحد، أو يمازح الرابعة ويداعب الخامسة، ويلعن السادسة.

ويكشف الكاتب الصحفي جليل البنداري سرًا مجهولًا في حياة سليمان نجيب عن السيدة المجهولة التي أحبها والتي انتهت نهاية عجيبة[1]:

كلنا نعلم أن سليمان نجيب مات وهو يحمل لقب «نقيب العزاب»! ولقد اعتاد سليمان نجيب أن يستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح، فيبدأ يومه بقراءة

(١) الكواكب ١٦ يوليو ١٩٦٣.

الصحف، ثم يضع التليفون على حجره، ويبدأ في إيقاظ أصدقائه الحميمين ليروي لهم أحدث النكت التي قيلت عنهم!

وعندما سألته ذات يوم عن سبب إحجامه عن الزواج ، أجاب بصراحة:

- إنني رجل أناني محب لنفسي، إنني أقرأ كثيرًا ، وأخلو لنفسي كثيرًا ، وفي هذا اعتداء على أقل واجبات الزوجية، فلماذا أضحي براحة غيري من أجل راحتي!

ثم قال سليمان نجيب عبارته المشهورة لي:

- إن الكتاب لا يغار من كتاب آخر وهو في المكتبة، ولكن الزوجة تغار حتى من المجلة!

أول وآخر حب:

وليس معنى هذا أن حياة سليمان نجيب كانت خالية من النساء ، فقد قال لي: إنه أحب مرة واحدة في حياته ، أحب فتاة كانت فقيرة مثله، أحبها في الوقت الذي بدأ فيه كفاحه في سبيل لقمة العيش، وبعد خمس عشرة سنة كان قد أعد نفسه للزواج منها ، وفي اليوم الذي قرر أن يطلب يدها فوجئ بجنازتها ، واشترك في تشييع الجنازة ، وظل وفيا لذكراها فلم يفكر في الزواج من امرأة أخرى طول حياته ، وعز عليه أن يكتب في مذكراته أنها ماتت ، وكان يتحدث عنها دائمًا وكأنها على قيد الحياة.

وكان سليمان نجيب يواظب على زيارة قبرها في صباح يوم الجمعة من كل أسبوع، ويضع على قبرها باقة من الزهور ويحدثها قائلًا:

- انهضي .. إنني أستطيع أن أحيا معك الآن حياة سعيدة.

ويبكي سليمان نجيب، ولا يفيق إلى نفسه إلا بعد أن يرتب حارس القبر على كتفه!

من هي السيدة المجهولة؟

ومرت الأسابيع والشهور – بعد وفاة سليمان نجيب – وذهب شقيقه الأصغر حسني نجيب وفتح باب الشقة وأخذ يجوب في أنحاء الغرف ، وقرر من اللحظة الأولى أن يهدي مكتبته إلى دار الأوبرا.

وجلس حسني نجيب إلى مكتبة شقيقه سليمان نجيب، وأخذ يقلب في أوراقه الخاصة ، فعثر على دفتر الشيكات الذي يحمل رصيد سليمان نجيب في البنك، وبدأ يقرأ مذكرات سليمان نجيب صفحة صفحة ، وفي كل صفحة كانت عيناه تلتقي باسم سيدة مجهولة لم تكن فنانة ولم تكن معروفة على الإطلاق، ولكن حسني نجيب لاحظ أن اسمها يتردد في كل صفحة من مذكرات شقيقه سليمان نجيب!

فأحس حسني نجيب بأن هذه السيدة يجب أن تكون الوريثة الشرعية لسليمان نجيب، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يقدم لها كل ثروة سليمان نجيب، وبهذا يكون قد حقق كل رغبات شقيقه الذي لم يوص بها أي إنسان قبل أن يموت! فقد كانت العلاقة بين سليمان نجيب وبين هذه السيدة المجهولة سرا لا يعرفه أقرب المقربين لسليمان نجيب.

وبحث سليمان نجيب في دفاتر الشيكات عن ثروة سليمان نجيب فوجد أن رصيده لا يزيد عن مبلغ ٢٦٥ جنيهًا.

وسحب حسني نجيب المبلغ من البنك ثم أضاف إليه مبلغ خمسة جنيهات من جيبه ، وطلب من شكري راغب – مدير مسرح الأوبرا – أن يتصل بهذه السيدة ، ويبلغها أن سليمان نجيب ترك لها هذا المبلغ!

البحث عن الوريثة:

وأمضى شكري راغب أسبوعًا في البحث عن هذه السيدة المجهولة ليبلغها رسالة حسني نجيب!

وقيل لشكري راغب : أنها ماتت ، فحمل هذا النبأ إلى حسني نجيب، ولم

يصدق حسني نجيب أن السيدة المجهولة قد توفيت، لأن سليمان نجيب كان يذكرها في مذكراته دائمًا كأنها على قيد الحياة، طلب من شكري راغب أن يستمر في البحث عنها ، وما دام شقيقه سليمان نجيب لم يشر إلى موتها ، فإنها لابد وأن تكون على قيد الحياة!

وظل شكري راغب يبحث عنها بملقاط حتى عثر عليها في أحد الأحياء الشعبية، وعرف أن التي شيع سليمان نجيب جنازتها كانت شقيقتها!

وما كادت السيدة المجهولة تفتح المظروف الذي بعث به حسني نجيب وفيه مبلغ الثلاثمائة حتى كادت أن تصاب بإغماء من شدة الفرح! واختلطت الدموع بالابتسامات ، ولم يحتمل شكري راغب الموقف، فاستأذن وانصرف.

إلى الإسكندرية:

كان الوقت صيفا والجو حارًا ، وقررت السيدة أن تمضي ما تبقى من الصيف في الإسكندية، وفي اليوم التالي استقلت القطار إلى الإسكندرية لتجد في انتظارها أكبر مفاجأة في حياتها!

وأترك السيدة المجهولة في القطار وإعود إلى سليمان نجيب العاشق الساحر الذي كان يضحك على الناس، وضحك عليه القدر وسخر منه وهو حي، فجعله يشيع جنازة غير جنازة معبودته ويتردد على قبرها بباقات الزهور في كل صباح يوم جمعة.

كانت حياة سليمان نجيب سلسلة من النكت والفكاهات والرحلات، وكان يمضي الشتاء في الاستديوهات وعلى المسرح ، كما كان يمضي الصيف في أوروبا ، وكان الذي يربحه في الشتاء يصرفه في الصيف ، فلم يستطع أن يكون لنفسه ثروة ، بل إنه لم يقتن سيارة إلا بعد أن أحيل إلى المعاش! فاشترى سيارة فيات صغيرة ، وكانت كل أمانيه أن يعيش مستورًا ويموت مستورًا ، وعاش طول حياته مستورًا ومات مستورًا.

ولقد عاش سليمان نجيب حائرًا بين التمثيل السياسي والتمثيل المسرحي،

كان يحترف التمثيل السياسي ويهوي التمثيل المسرحي ، كان يحترف التمثيل السياسي ، ويهوي التمثيل المسرحي، وفي سنة ١٩٢٥ عين قنصلًا لمصر في إستانبول التي كان يحكمها في ذلك الوقت أتاتورك!

***

وصل القطار بالسيدة المجهولة إلى الإسكندرية ، وأقامت في غرفة على البحر في فندق سيسل ، فقد أرادت أن تنتقل بضعة أيام من هامش الحياة إلى الحياة نفسها ، وبعد ثمان وأربعين ساعة كان حسني نجيب يتصفح إحدى الجرائد فقرأ نعيها!

لقد ماتت السيدة المجهولة بالسكتة وهي في غرفتها المطلة على البحر!

ونظرًا لمعايشة الفنان شكري راغب الحياة الفنية في مصر منذ عام ١٩٣٨ مشاركًا ومسؤولًا ، وباحثًا مدققًا ، اعتبر شاهدًا على العصر، وقد روى لنا بعض الأسرار في حياة سليمان نجيب منذ أن اشترك سليمان في مسرحيات كثيرة منها «عفريت مراتي» ، و«أخيرًا تزوجت» ، «٧٦٧ زتون» ، «الأمل» ، «ناظر المحطة» إلى غير ذلك من الأدوار التي مازالت باقية باسمه، كما اشترك سليمان نجيب مع الفرقة المصرية في تمثيل بعض مسرحياتها كضيف شرف فيها، وقام بدور نجيب الريحاني في مسرحية «الدلوعة» بعد وفاة نجيب، وتوقع الكثيرون فشل سليمان في دور أعطاه نجيب الريحاني لونًا خاصًا ، ولكن سليمان نجح في دوره نجاح نجيب الريحاني بعد أن أعطاه أيضًا لونا آخر يختلف عن لون نجيب الريحاني، لا يقل عنه جمالًا وإتقانًا.

ولكن سليمان شديد الاهتمام برأي الجمهور في كل ما يقوم به من أدوار، وكان يسأل والدتي رحمها الله كل صباح عن رأيها في دوره الذي مثله في الليلة السابقة، وكان يصر على حضورها ، فكانت تطريه حينا وتعنفه أحيانًا، وهو يقبل نقدها مقهقهًا.

سألها مرة عن دور قام به في مسرحية «أخيرًا تزوجت» ، وكان سليمان في

المسرحية يدخل غرفته بعد سهرة طويلة وهو في حالة سكر وعربدة، وأتقن سليمان تمثيل دوره اتقانًا أغضب والدتي، وعندما سألها في صباح اليوم التالي عن رأيها ، أجابته على الفور قائلة: «عيب يا سليمان بك تكون مدير أوبرا ، وتمثل دور سكران ، دي حاجة مش من قيمتك» ، فضحك ، وقال لها: «الكلام ده هو الكلام اللي كانت بتقولهولي أمي زمان».

ثم قهقه عاليا.

وأخذ يعيد هذا الحديث على كل أصحابه وزملائه ويقول:

- أمال لو كانت تشوفني وأنا بمثل دور شحات، كانت برضه تقول لي: «ده مش من قيمتك تبقى مدير أوبرا وشحات».

سليمان نجيب الصديق:

لم يكن سليمان نجيب مديرًا للأوبرا ورئيسًا لموظفيها فحسب، بل كان أخاهم، وكان يعتقد أن سمعة الدار هي سمعة المدير ومرؤوسيه ، فإذا حدث لموظف ما يخدش سمعته، فإن سليمان كان أول من يسارع إلى نجدته، لذلك كان دائم الاتصال بكل من اشتغل معه من وكيل الأوبرا إلى بوابها، يعرف عنهم وعن أسرهم وأحوالهم الكثير.

سليمان كريم:

وسليمان نجيب رجل كريم ، رجل يحب الأكل، ذواقة ممتاز، ليس له في الدنيا من نقطة ضعف سوى معدته وطباخه.

كان صديقًا حميمًا لطباخي السراي ، ونادى محمد علي ، وجروبي ، ونادى السيارات، كان يتحدث إليهم كل يوم حديث الصديق إلى الصديق ، يسألهم ولعابه يجري في فمه عن أحسن الأطباق.

كان يدعو أعضاء الفرق التي تفد للعمل على مسرح دار الأوبرا مهما بلغ عددها ليأكلوا في بيته وليتذوقوا ألوانًا من الطعام لا ينسونها.

كنت أعرف ضعفه ، وكنت أشترك في حفلاته ودعواته ، كنت أصوم رمضان خصيصًا حتى أفطر على مائدته، وقصة العزايم والأكل قصة ليس لها آخر ، فقد كان يطلب أنواعا من الفواكه لا تزرع إلا في فرنسا أو إنجلترا كالميلون مثلا، وهو نوع من السنطاوي ولكنه يختلف عنه في الرائحة والطعم، وكان يدفع في الواحدة ما يوازي ثمن عربة سنطاوي في مصر.

كان يطلب من كل صديق يسافر إلى لندن وباريس أو يعود إلى القاهرة أن يحضر معه بعض المأكولات أو الفواكه.

كان يعشق الجبنة البيضاء المصنوعة من لبن الماعز الفرنسي المسماة شيڤر ، وكان يتباهى أثناء تناول الطعام بتوزيعه قطعا صغيرة من الجبن الفرنسي لكل فرد من ضيوفه ليتذوقوها ولعابه يتحرك في فمه من رائحتها.

كنت أعلم ذلك ، وكثيرًا ما كنت أصف له أكلة شهية تمتعت بها عند صديق، فكان يصرخ ويقول:

سوف لا تصدقني إذا قلت لك أنه عشق امرأة لأنها تجيد عمل الكبيبة، ولم أصدق هذا الخبر حتى تأكدت بنفسي ، وكنت أستغل هذا الخبر حتى تأكدت بنفسي، وكنت أستغل هذا الظرف وأطالبه كلما تاقت نفسي إلى الكبيبة أن يرسل إليَّ صينية منها ، فكان يرسلها مرغمًا، خشية الفضيحة!

واستمر الحال سنوات وصواني الكبيبة ترد إليَّ بصفة مستمرة، ولو أن سليمان كان يفرض عليَّ وعلى شقيقتي ضريبة سنوية مضحكة، كان يطالبني بأن أكلف شقيقتي أن تخلل له الزيتون وتحتفظ به في أوعية خاصة ويطالبها في كل مناسبة أن ترسل إليه برطمانا منه ، وكان فخورًا بهذا الصنف من الزيتون المخلل، يقدمه لضيوفه قبل كل أكلة لفتح الشهية، ولم ينس في كل مرة من المرات أن يقول لضيوفه: هذا الصنف الممتاز من صنع أخت شكري ، حتى اشتهرت شقيقتي بتخليل المخلل في الأوساط الفنية العالمية.

وعملية تخليل الزيتون هذه لم تكن تكلفنا إلا الصناعة فقط، لأن الزيتون

كان يستحضره من صديق له في الفيوم من الصنف المعروف باسم التفاحي، أما الزيت والخل وغير ذلك مما يضاف إليه، فكان يرسل إليه من أصدقاء آخرين.

وكان طبق الجمبري بالقوطة يصله من جروبي تباعا، أما الياخني بالفراخ فكان يرد من نادي السيارات، وهكذا تشترك عدة بيوتات في تقديم ألوانها المفضلة من الطعام على مائدة سليمان في كل احتفال بمقدم فرقة أو وداع فرقة.

سليمان العصبي:

قلما تجد سليمان هادئًا فهو في عمله عصبي، وفي تمثيله عصبي، حتى في ضحكاته عصبي ، لدرجة أنه تخصص في أدوار العصبية في الشخط والنطر، في المسرح والسينما.

وحدث أن كان يمثل دورًا ناعمًا شاعريًا غراميًا، وبينما تعزف الموسيقى من خلف الستار لخلق الجو الذي يبعث على الحب والهدوء والسعادة، إذ سمع سليمان صوتًا صادرًا من الصالة لأحد النظارة ، وكان يتحدث إلى زميل له، شارحًا له بعض المواقف التمثيلية، فتوقف سليمان قليلا، ليشعر المتحدث أنه يعكر صفو السكون الجميل ، ولكن الحديث لم ينقطع، فقام سليمان كالمسعور ونادى بصوت عال:

«اقفل الستار»!

فذهلت وأنا واقف بجانب عامل الستار، ولكن سليمان صاح بعصبيته المعروفة :

«بقولك اقفل الستار»!

وأسدلت الستار والفصل لا يزال في منتصفه.

وخرج سليمان أمام الستار وتحدث إلى الجمهور حديثا طويلا، موجها كلامه إلى المتحدث الذي عكر على سليمان جو التمثيل، ورجا المتحدث أنه إذا كان من هواة الكلام، فعليه أن يتفضل هو بالتمثيل بدلا عنه، وعلى سليمان أن يجلس

مكانه، مشاهدًا أو مستمعًا ويتعهد له بأنه لن يفتح فمه خلال فترة التمثيل .

ورد المتحدث عليه من الصالة معتذرًا وآسفًا، ورجاه أن يستمر في التمثل، وأن ينسى ما حدث، فعاد سليمان إلى هدوءه، وأعاد المشهد من أوله، وسارت المسرحية في طريقها وكأن شيئًا لم يحدث!

الفكاهة جزء من حياة سليمان نجيب:

كان سليمان يميل إلى الفكاهة والدعابة، ويكره التزمت والمتزمتين، يحب حياة المرح والحرية، حتى في أشد أزماته، وحدث أثناء خروج سليمان نجيب من مكتب صديقه أحمد حسنين باشا أن أعرض عنه موظفو السراي وتجاهلوه، لأنه لم يكن في ذلك الوقت موضع عطف فاروق، وعزَّ على سليمان هذا التصرف من أصدقاء، فوقف في وسط فناء السراي المتسع، وصاح بأعلى صوته قائلًا:

«بكره الأيام ترجع تاني وأوريكم يا أولاد الأيه» إلى آخر ما كان سليمان نجيب يجيده ويبتكره من ألفاظ السباب المنتقاة، والتي كان يلقيها بطريقته الخاصة المحبوبة.

وكان الملك فاروق قس هذه اللحظة جالسًا في سيارته الصغيرة على بعد أمتار، فما أن وقع بصره على سليمان حتى اندفع بسيارته نحوه مسرعًا، وأدرك سليمان فورًا ما خطر لفاروق وما دار برأسه ، فقفز بكل ما يستطيع من قوة وبسرعة إلى الرصيف وبذلك نجا من مصادمة محققة ومحاولة قتل من جانب فاروق.

ونظر سليمان إلى داخل السيارة، فرأى فاروق، وقد أخذ يقهقه بصوته الجهوري وضحكاته المشهورة.

وحدّق سليمان في وجه فاروق لحظة، ثم انفجر يقول:

«ما هو كله علشانك.. وكمان عاوز تدوسني؟!».



هذا هو الفنان سليمان نجيب الدبلوماسي والأديب والفنان الأرستقراطي أحد ظرفاء ذلك الزمان الذي عايش البسطاء والصعاليك حتى أنه تقمص شخصية العربجي الأسطى حنفي أبو محمود وكتب مذكراته على لسانه ليؤكد لنا أنه فنان من الشعب رغم أرستقراطيته كان فنانا شعبيا ظريفا وحساسا.

أحمد الصافي النجفي

شاعر الشكوى والحرمان !



هو شاعر بائس محروم ... عاش حياة الصعلكة والفقر .. وكان إحساسه بفقره ودمامته إحساسا مرضيا حرمه من التمتع بأطايب الحسن وبدائع الجمال فتنقل بين بيروت ودمشق باحثًا عن الري والشبع فلم يجد إلا الظمأ والحرمان... فأطلق شواظ حرمانه وسخطه سهامًا شعرية حارقة تقضي على الأخضر واليابس.

ولد في يوم غاب عن بلده الحسن والجمال والصحة .

أنه طير لا كالطيور ، له منقار بومة وصدر ورقاء ، وجناح هدهد ، له في الشعر هديل الحمام ! وصفير البلبل ! أنه طير غريب فريد يحسن الطيران والغناء ولا يحسن شيئا غيرهما [1].

فهو وليد برج النحوس . فالدمامة أمه .. والسقم أبوه .. والبؤس أخوه !

(١) د. إبراهيم العاتي : النجفي غربة الروح ووهج الإبداع / بغداد .

بل أن له من السقم أخوانا يقيمون في عدد من أعضاء جسمه النحيل ، وقد قال واصفا نفسه :

أسير بجسم مشبها جسم ميت	كأني إذ أمشي به حاملا نعشي

وقال أيضا يصف نفسه:

وجهي دميم وقلبي	عدو كل دميم
أنفي جفاني وأني	آراه غير ملوم
لو كان وجهي يكفي	ألقيته في الجحيم

ونجد في اعترافاته إحساسه بالحرمان من المرأة والحب، فيقول:

«... وها أنا قد أشرفت على الأربعين من عمري ، وحتى الآن لم أحظ بحب امرأة ، ولم أقابل بنظرات الحب امرأة دميمة أو جميلة جاهلة أو متعلمة ، شاعرة أو جامدة إلا وقابلتني بالإعراض والازدراء حتى يئست من نجاحي بالحصول على عطف المرأة ...» .

ولكن على الرغم من ذلك فهو حي بعطائه الخالد . لم يكن شاعر ولائم ، ولا نظام مناسبات اجتماعية .. بل كان شاعرا ــ رقيق الشعور رحيم القلب ــ بري بؤس البائسين من خلال بؤسه .. عندما كان يأوي إلى غرفة متواضعة صغيرة منحته إياها وزارة الأوقاف السورية قرب الجامع الأموي بدمشق لكن قلبه الكبير المفعم بالكبرياء كان مهبا لرياح هموم المتعبين .

أن في الصافي بداوة محببة تسايره في مأكله وملبسه ومقامه . ويقصد بالبداوة تلك الطلاقة التي لا تعرف الكلفة والقيد، وتلك الحرية التي طلع عليها عوده النحيل ، فنشأ واستقام حتى صارت له ألزم من عماد ظهره . فلا يلبس جوربا يضغط أصابعه . ولا حذاء يعض عقبه . ولا سترة تخنق صدره وتثقل كتفيه . ولا قميصا إلا فضفاضا تسبح فيه أجزاء جسمه لحما وعظما . يتحرك عندما يزعجه السكون، ويسكن إذ تتعبه الحركة . يأكل كالأطفال باستمرار لقيمات صغيرة يخرجها من جيبه . وإذ ينام لا ينظر في فراشه .. ويمشي فلا يقيس

خطواته .. وما أحسب جسمه إلا خاضعا لإرادة روحه ، فهو الرجل الذي لا تناقض بين شعوره ولسانه ، يأبى التأنق والتظرف لأنهما من قيود الروح والجسد . كما يأبى التزويق في صناعة الشعر.

كان معلما وسط صحراء اجتماعية لا هبة ، تموج بالجهالة الخانقة ، والقلق المصيري المخيف ، رسولا للمثل العليا .. والعبارة المكثفة التي تتضمن الحكمة وخلاصة تجربته الإنسانية ، وتشرده المستمر في شوارع بغداد ودمشق .. وبيروت .. وطهران .

***

ولد الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي سنة ١٨٩٧ في مدينة النجف بالعراق ، لأب من أسرة حجازية الأصل وأم لبنانية من مدينة صور، فنشأ في جو حافل بالعلم والأدب في مدينة النجف التي اختلط فيها رواد الشعر والأدب بطلاب العلوم الدينية بالمناضلين في سبيل استقلال وطنهم العراق، وقد اجتمع كل هؤلاء لديه وحين انتهى من دراسته الدينية وحصولة على شهادة عالية في الشريعة ، آثر أن يثقف نفسه بنفسه، وأن يعيش على هواه، فما إن توفيت والدته وهو في السابعة عشرة من عمره حتى انخرط في الحياة السياسية التي يهواها، فاهتم بالقضايا السياسية الكبرى، فانضم إلى حلقات المناضل الشيخ عبد الكريم الجزائري، ومن تلك الحلقات انطلقت شرارة ثورة العراق سنة ١٩١٩ التي سرعان ما قمعها المستعمرون الإنجليز، مما اضطر شاعرنا أحمد الصافي النجفي إلى الالتجاء إلى إيران والإقامة بها، وما أن وصل إلى طهران عاصمة إيران واستقر فيها حتى راح يتعلم اللغة الفارسية، ويعلم اللغة العربية من يريد تعلمها، وقد عاش في طهران ثماني سنوات ترجم خلالها إلى اللغة العربية رباعيات الشاعر الفارسي الكبير عمر الخيام.

ثم عاد أحمد الصافي النجفي خلسة إلى العراق، وراح ينظم الشعر الوطني – يهاجم فيه الاستعمار والمستعمرين – حتى ألهب الحماس في قلوب العراقيين ، وما

أن اكتشف الإنجليز أمره حتى اعتقلوه وأرسلوه مخفورًا إلى المعتقل في بيروت ، حيث أمضى أربعين يومًا كان حصادها الأدبي مجموعته الشعرية التي أسماها «حصاد السجن» والتي أهداها إلى الشعب العراقي المكافح.

ومن معتقله في بيروت عاد إلى العراق ، ولكن لم يستقر به المقام حتى أصيب بمرض نصحه الأطباء على إثره أن يغادر العراق إلى مكان آخر أقل جفافًا، فبدأت رحلة تشرده الطويلة منذ سنة ١٩٣٥ بين سوريا ولبنان ، واستمرت حتى لحظة رحيله عن الحياة، تلك الرحلة التي تواصلت حوالي خمسة وأربعين عامًا عاش خلالها للنضال السياسي ، وللشعر والفن، وقضى أكثرها في لبنان حيث كان دائم التنقل وكتابة الشعر والاختلاط بالأصدقاء، وحيث أصدر حوالي سبعة عشر ديوانا من الشعر.

حتى كانت الحرب الأهلية في لبنان التي أفقدته توازنه بسبب غرابتها وبسبب عجزه عن فهم أسبابها تمامًا ، فاضطر في مطلع سنة ١٩٧٧ للعودة إلى العراق بعد إصابته برصاصة طائشة ، ولم تمض شهور قليلة على عودته إلى وطنه حتى رحل عن الحياة في السابع والعشرين من شهر يونية سنة ١٩٧٧ وهو في الثمانين من عمره، بعد أن ترك تراثًا شعريًا خصبًا، وترجمة دقيقة لرباعيات الخيام الخالدة، وقد صدرت بعد رحيله مجموعته الشعرية «قصائدي الأخيرة» التي تضم آخر ما كتب من قصائد.



جاء إلى دمشق عام ١٩٣٠ بثياب صحراوية ، وكوفية بدوية ، وعرفه رواد مقاهي دمشق ومطاعمها الرخيصة ، ونزلاء الفنادق البائسة ، شخصا غريب الأطوار ، جاء إليهم بشعر جاهلي ، وبلباس عربي . وبأفكار فلسفية تتناقض مع الأعراف المألوفة والقوانين السائدة في المجتمع . وكما تطرق في شعره إلى موضوعات كانت تخالف المدرسة الشعرية السائدة في بلاد الشام ـ مدرسة محمد البزم ، وخليل مردم بك ـ تلك المدرسة التي أنتجت شعرا احتفل بمتانة السبك

، وجزالة الألفاظ ، وضخامة الجرس .

هذه المخالفة الصريحة والجريئة ، جعلت الكثيرين من الناس يسخرون من شعره ، ويتهمونه بالسخف والركاكة والابتذال ! فهو في ديوان شعره المسمى «الأمواج» الذي صدر عام ١٩٣٢ قد تطرق إلى موضوعات تخالف وتغاير ذوق العصر ، ولعل قصيدته «الحنين إلى الطبيعة» هي خير دليل على ما ذكرته :

يا ليتني كنت كالحيوان عيشي من	حشائش الأرض كي أناي عن المدن
حيث الطبيعة حاكت لي أناملها	من شعر جسمي رداء لا من القطن
أنام حين سكون الليل يسكرني	وفي الصباح غناء الطير يوقظني
ترك المدينة يشفي الجسم من علل	قد أزمنت ويصفي النفس من درن
لا فكرة الفقر والأثراء تتعبني	أو خيفة الموت والأسقام تزعجني

كان يكتب أشعاره ـ كما يذكر صديقه الدكتور عبد السلام العجيلي ـ على أوراق الأكياس، وفوق علب لفائف التبغ ، وعلى مزق حواشي صفحة الجريدة التي تكون بين يديه ، وأحيانا على ورق «الكلينكس» الذي يحشو به جيوبه .

استطاع الشاعر أن يجذب الناس إليه ، بأدبه وثقافته وشعره وفلسفته ، وينفرهم منه بنزقه وغرابة أطواره ، وببعده في هندامه عن النظافة .

كان يرفض حفلات التكريم والدعوات الشخصية للاحتفاء به . لأنه يجدها مصطنعة غارقة في الزيف .. لذلك خمل ذكره .. وعاش غريبا بين الناس وكان الشاعر يعي هذه الحقيقة :

تعجب صاحبي لخمول ذكري	وفوز البعض بالذكر المجيد
فقلت ترفعا ، دعهم يعيشوا	فليس يضر عيشهم خلودي
لهم عمر سوى عمري ، قصير	وشعر ألحدوه في المهود
فدنياهم سوى دنياي ، قبر	ودنياي الوجود بلا حدود
وهم في الكتب عاشوا وهي تفنى	وعشت بعالم الروح المديد

لذا عاش على قارعة الرصيف . فهناك المهرجان اليومي له في دمشق وفي زاوية المقهى «البرازيل ـ الهافانا ـ الكمال» يستقبل الوافدين عليه بالأنس والبشر . بالسذاجة الطيبة والإقبال المحبب ...

كان أكبر من أن يمدح أحدا ، فهو كبير فوق العالمين ، وصغير دون العالمين، أنه إنسان متناقض مبهم .. يحمل في الداخل ضده .. فالمدح لديه فخر فحسب .. وليس عنده من هو أحق من نفسه فيمدحه . لقد فرض نفسه على الناس جميعا ، وفرض عليهم ذوقه ، فهو أكبر من الملوك ! وأكبر من الزعماء !!!

لا أرى أكبر مني
لا أرى مني أصغر
أن أجد أكبر مني
واحدا فالله أكبر

ويقول أيضا :

ولي في الشعر مدرسة وشرع	وآيات تلوح ومعجزات
أعلمكم بشعري الشعر ، لكن	تعلمكم حياتي ، ما الحياة

الصافي شاعر المعاني :

وهكذا حق للصافي في أن يكون شعره مرآة صادقة لهواجسه .. وخواطره .. ومواقفه وغرابة أطواره.

لا شك أن الصافي شخصة شمولية ، تصعب الإحاطة بها من كل جوانبها وسبر أغوارها التي تشبه الخلجان العميقة . وقلة هم الذين سيتذوقون شعره يقول في قصيدته «الحرية الخالدة»:

أقذفوني في الفلا من بعد موتي	حبذا عيشي وموتي في الفلاة
لا تزجوني بقبر ، أنني	أبغض السجن ولو بعد مماتي
وإذا أصبح جسمي مأكلا	لنسور أو سباع ضاريات

سأرى أجزاء جسمي سافرت   سائحات بي في كل الجهات
وإذا أجزاء جسمي اجتمعت   بعد أن طافت جميع الكائنات
فسيعطي كل جزء خبرا لي   عما قد أرى من حادثات

ويلاحظ في شعر الصافي، إغراقه في البساطة اللفظية وسهولة العبارة، ووضوح المعنى، حتى يكاد أي قارئ يفهمه دون أدنى عناء. لأن الصافي كان ضد الأدب القائم على التعقيد اللفظي، والتكهنات، والحدس، والتخمين. وشعره يدل على صدق الحدس، وقوة النظر، ووضوح الفكرة العميقة، تطفو عليها جميعا سذاجة في الأداء، يستهويك فيها دافعها العفوي سواء في الحب أو البغض، في الصفح أو الانتقام، في الغبطة أو الألم، في التواضع أو الكبرياء، في الترضي والندم، والتشهي، والتفاؤل والتشاؤم:

تأملت في كأس الطلا وهي في يدي   فأبصرت آلامي عليها تخطط
ولاح شبابي وهو شلو ممزق   ولكنه بالذكريات محنط
وأبصرت ندماني يضمهم الثرى   وأسعى بآمالي إليهم فأقنط
كأني في ليل تعامت نجومه   أسير، وفي واد من الشك أخبط
فغطت على سكر الطلا سكرة الأسى   وأسرعت الأنفاس تعلو وتهبط
فكادت هناك الكأس تسقط من يدي   وكادت يدي من جانب الكأس تسقط

هنا نجد أن الصافي يعد بحق شاعر المعاني. ففي كل بيت من شعره معنى، وفي كل عنوان من عناوينه فكر، وفي كل عبارة من تعابيره مقصود، وفي كل جملة من جمله صورة. فدواوين الصافي هي مجموعة معان، ومجمع أفكار وخزانة آراء.

❖❖❖

ولد أحمد الصافي النجفي في «النجف» عام ١٩٨٧ م من والد عراقي وأم من جبل عامل في لبنان:

تسائلني هند عن نسبتي   فقلت إلى المعدن الفاضل

أنا عربي وحسبي بذا جوابا يعظمها سائلي
فآبائي الصيد من هاشم وأخوالي الغر من عامل
أوحد «سورية» بـ«العراق» وأجمع «لبنان» في «بابل»

وتلقى الصافي تعليمه على الطريقة التقليدية في معاهد النجف ، وعلى أيدي بعض علمائها وأدبائها . ولقد ساعدته مكتبة والده العامرة بذخائر التراث العربي .. وكتب الفلسفة .. ودواوين الشعر العربي القديم على تنمية هواية المطالعة عنده ، فقد أتيح لوالده الشاعر أن يسافر إلى الهند . وكان معه نحو من ثمانين ألف روبية ، أنفق معظمها في شراء الكتب النادرة من بلاد الهند وغيرها . لذا كان في خزانته ألوف المخطوطات الجيدة المذهبة .

وقد كان للفلسفة في هذه الخزانة شأن كبير . فقد كان فيها أربعة وعشرون كتابا ، في الحكمة والفلسفة من مؤلفات أفلاطون ، وابن سينا ، والفارابي ، والرازي ، وغيرهم .. وهي مكتوبة في القرن السابع الهجري . في هذه البيئة عاش الصافي .. وإذا تجاوزنا طفولته إلى شبابه فإننا نجد أن الشاعر قد اشترك في ثورة العشرين في العراق ضد الاستعمار الإنكليزي .. فحكم عليه بالإعدام فاضطر للفرار إلى إيران وأقام بها ثماني سنوات ، حيث تفرغ إلى إتقان اللغة الفارسية والإطلاع على فنونها وآدابها . وهناك ترجم «رباعيات الخيام» إلى العربية .

وقد صدرت العديد من الدواوين الشعرية للنجفي هي :

- الأمواج (١٩٦١)
- حصاد السجن (١٩٨٢)
- أشعة ملونة (١٩٨٣)
- شرر (١٩٦٣)
- الأغوار (١٩٦٢)
- اللفحات (١٩٨٣)
- التيار (١٩٦٢)
- الشلال (١٩٦٢)
- ألحان اللهيب (١٩٦٢)
- قصائدي الأخيرة (...)

- هواجس (١٩٨٣).

- الأعمال الشعرية الكاملة المجهولة(بغداد – ١٩٧٧)

وله كتاب نثري واحد عنوانه «هزل وجد»

يلاحظ أن الصافي قد جمع في شعره بين الضدين ، فقد جمع بين الماء والنار ، إذ اشتق أسماء خمسة من دواوينه من النار وهي : «أشعة ملونة - ألحان اللهيب - اللفحات - شرر - ومضات» ، واشتق أسماء أربعة من دواوينه من الماء وهي : «الأمواج - الأغوار - التيار - الشلال» .

والجدير بالذكر أنه بعد وفاة الشاعر صدرت خمسة دواوين للصافي جمعت في مجلد واحد منها : - شباب السبعين - بلا اسم .

نزل الصافي مدينة دمشق سنة ١٩٣٠ ، فقيرا وبقي فيها زهاء أربعين عاما أي ما يقارب نصف عمره .. وغادرها فقيرا معدما إلى بيروت سنة ١٩٦٦ . وقد أثرت دمشق على شاعرية الصافي .. واكتمال فلسفته .. ونضج شخصيته :

أتيت جلق مجتازا على عجل ... فأعجبتني حتى اخترتها وطنا

لا يبرح الحسن يوما عن مرابعها ... كأنما الحسن من قدم بها افتتنا

عجبت ممن أتاها كيف يبرحها ... فهل يرى في سواها عن دمشق غني؟

ما جنة الخلد يالا للذي سكنا ... بها وما النار إلا للذي ظعنا

يكاد ينسي غريب الدار موطنه ... في ربعها ، ويعاف الأهل والسكنا

الصافي في بيروت :

خلال وجود الشاعر في بيروت اندلعت الحرب الأهلية ... وأثناء بحث الشاعر عن الخبز في منطقة (النبعة) أصابته رصاصة طائشة من قناص مزقت ساقه ، ولحقتها أخرى أصابته في ظهره ونفذت من صدره .. فسقط في الشارع ينزف دما ..

عاد الشاعر إلى بغداد بعد أن شعر أن نهايته قد اقتربت .. وصل إلى وطنه وقد انطفأت أنوار عينيه .. وهتف عند سماع أصوات مستقبليه في المطار :

يا عودة للدار ما أقساها   أسمع بغداد ولا أراها

وفي السابع والعشرين من يونيه« حزيران» ١٩٧٧ ، توقف قلب الشاعر عن الحركة وهو الأمير لأمة لم تخلق :

سألتني الشعراء أين أميرها   فأجبت «إيليّا» بقول مطلق
وأنت فقلت : ذاك أميركم   فانا الأمير لأمة لم تخلق

كان لتشرد الشاعر المستمر بين طهران ، ودمشق ، وبيروت ، وحرمانه من رؤية أهله وأقاربه في وطنه ، وغياب المرأة من حياته ، والمرض الذي لازمه وسكن جسده النحيل ، علاوة على أنه عاش يتيما ، وحرم من حدب أبيه في العاشرة ، وحنان والدته في السابعة عشرة .. كانت لهذه الأسباب مجتمعة تأثيرها على نفسية الشاعر وسلوكه ، فخلقت لديه شعور بالرفض واللامبالاة لما حوله . هذا الشعور السوداوي قاده إلى التشاؤم .. ومن ثم إلى رفض الموروثات السائدة في المجتمع .

يعد الصافي من أغرز الشعراء انتاجًا ، إذ يبلغ مجموع أبياته ما يزيد عن خمسين ألف بيت شعري .. ويحدد الصافي رأيه في الشعر فيقول:

« أصبح الشعر اليوم وسيلة لارضاء الغير ، ولتمثيل رغبات المجتمع الظاهرية . التي يعلنونها في أنديتهم وينشرونها في صحفهم . أما رغباتهم الحقيقية التي لا يجرؤ أحدهم على التصريح بها ، خوفا من مخالفة العرف السائد . ومعارضة المصطلح العام ، ومصادمة النفاق المتبادل بين الجميع .. تراهم يصورون لك صورا مزركشة ، مؤلفة من ألفاظ موسيقية وعواطف مبتذلة أو مصطنعة ، تشبه في تكلفها ألفاظ المجاملات الرسمية .. وهنا لا بأس أن ألقي نظرة على ما يسمونه بالأدب الرمزي ، أو بالأصح أدب الطلاسم . الذي يعتمد على ألفاظ موسيقية رناته ، وتعقيدات متصنعة ومعان سطحية واهنة وعواطف

مبتذلة .. أجل أننا نحارب الأدب الرمزي القائم على المعنى البسيط والتعقيد اللفظي . أما الأدب الرمزي القائم على التعبير الواضح والمعنى العميق البعيد التناول فأننا نرحب به ونقدسه» .

لقد كان الصافي ينظم بتلقائية ، ولا ينقح ولا يزوق ، ولا يسقط من قصائده أبياته ، ولا من دواوينه قصائد ، ويترك للعفوية أبعادها الكاملة فيما يفعل : الحرية ، التشرد ، الفوضى ، الطرافة ، العفوية ، السخرية ، الصدق ، من دعائم حياة الصافي وشعره .

الشاعر الغريب:

يحدد د. إبراهيم العاتي مراحل غربة أحمد الصافي النجفي فيرجع بنا إلى فترة ثورة العشرين في العراق وكانت مدينة النجف الأشرف أحد مراكز الثورة القيادية ، فحوصرت من قبل الإنجليز . لكن الصافي استطاع الهرب مع صديقه سعد صالح جريو ، الوزير إبان الحكم الملكي ، فاتجها شرقًا نحو الحدود الإيرانية ، لكن سعد صالح فارقه ليتجه إلى جنوب العراق ، بينما أكمل الصافي مسيرته إلى إيران ، وهناك سمع أن الإنجليز قد اقتحموا النجف ، وألقوا القبض على أخيه العلامة السيد محمد رضا الصافي ، الذي كان من قادة الثورة النشطين ، وبقى شاعرنا بطهران لثمان سنين ، ورجع بعدها إلى العراق .

أصيب الصافي بعد رجوعه إلى العراق بمرض شديد كاد يودي به إلى الهلاك، وصادف وجود طبيب سوري يشرف على علاجه ، فقال : إن جو العراق الحار الذي تتخلله عواصف ترابية غير ملائم لصحته ، ونصحه أن يغادر العراق إما إلى سوريا أو لبنان لاعتدال الجو وطيب الهواء ، وفكر الصافي مليا ، لأنه سبق وأن تغرب سنوات في إيران بعد الاحتلال الإنجليزي ، وأمام شبح الموت وإرادة الحياة قرر الصافي مغادرة العراق إلى سوريا عام ١٩٣٠

هذه الغربة القاسية تركت في نفس الصافي أثرًا شديدًا وأسلمته إلى لون من الغربة الروحية عن الناس وعن الواقع ، يقول :

لقــــد تغربــــت حتــــى ... نــــسيت كــــل قريــــبِ
فــــإن رجعــــت لأهــــلي ... رجعــــت مثــــلِ الغريــــبِ
فغربــــة الــــدار داري ... والأهــــل صــــحب الــــدروبِ

إذن لم تعد الغربة فراقًا للأهل والوطن ، بل هي غربة حتى بين الأهل والوطن ، مبعثها تفرد الشاعر وتمرده على كل ما يقيد الشاعر من قوانين وحتميات اجتماعية أو كونية ، وكذلك شدة اعتداده بنفسه ، فتأصلت الذاتية في شعره ، أليس هو القائل :

أنــا بــين الــورى غريــب ومــالي ... غــير نفسي مــن صــاحب في الحيــاة

فهو إذن يعيش غربة شاملة على أكثر من صعيد : الدار والأهل والزي والذوق والخلق والدين والشعر وغير ذلك ، ولكن أقسى هذه الألوان غربة الفكر ، فهي الاغتراب الفلسفي المحض الذي قد يفضي إلى أنواع أخرى من الاغتراب والاستلاب على الصعيد الاجتماعي والديني والنفسي والفني . يقول في (الغربة العظمى) :

وجربــت أنــواع التغــرب كلهــا ... فمــن غربة في الـدار والقـوم والفكـرِ
إلى غربة في الـزي في الـذوق والهوى ... إلى غربـة في الخَلـق والـدين والفكـر
وزدت عليهــا كلهــا غربــة الــشعرِ ... بمخطــوط ديــوانين ضــما إلى عــشرِ
فأبـصرت طعـم الكـل مـرًا وقاسـيًا ... ولم أر أقـسى قـط مـن غربـة الفكـرِ

وقد نجد لاغتراب الصافي جذورًا في طفولته المبكرة حيث كان يجلس وهو طفل بين أقرانه مستوحشًا مستغرقًا في عالم خاص ، بعيدًا عما يحيط به من أهله وصحبه ، كما يصرح بذلك :

تعــود بي الــذكرى لعهــد طفــولتي ... فأبــصر طفــلاً في التلاميــذ وادعــا
كــأني أراه الآن مــن خلــف (درجــه) ... هزيلاً حييًا خـافض الطـرف خاشـعا
بــه وحــشة مــستغرق في خيالــهِ ... تخــال إذا كلمتــه لــيس ســامعا

هذا اللون من الغربة والاغتراب انعكس على سلوكه وتصرفاته التي كانت

تبدو غريبة وغير مألوفة لمن لا يعرف الشاعر، بل وعلى من يعرفه في كثير من الأحيان!

هموم الجسد :

عولج الصافي في دمشق من أسقامه لكنه لم يشف منها نهائيا .

بل بقيت ملازمة له حتى تقدمه في السن ، ولذلك كان يحمل أدويته معه في جيوبه أينما حل ، ويكتب له بعض أصدقائه الأطباء وصفات طبية أو يزودونه ببعض الأدوية ، ومن أولئك الأطباء الدكتور عبد السلام العجيلي الروائي والقصاص السوري ، وهو من أصدقاء الصافي المقربين ، وقد تعرف عليه أثناء دراسته بكلية الطب في جامعة دمشق خلال أربعينيات القرن العشرين .

ولكثرة أمراض الصافي وتنوع علله وأسقامه مع طول مدتها جعلته كثير التردد على المستشفيات ، ونظرا لضيق ذات يده ، خاصة في الفترة الأولى من وصوله إلى سوريا ، أصبح نزيلا لأشد المستشفيات بؤسا بدمشق في ذلك الحين من قبيل مستشفى الغرباء أي الذين لا أهل لهم ولا معيل .

وكعادة الصافي حين يعالج بعض الموضوعات ساخرا على نحو مأساوي حزين ، يقول في هذا المستشفى :

ومستشفى متى يدخل إليه ... مريضٌ يسترح من ذي الحياة
كأنّ به لعزرائيل جندًا ... يميت الناس من قبل الوفاة

الصافي كان يرسم صورة مرعبة مليئة بالتناقض لحياة بابها مسدود وموت أبوابه مشرعة ، إنها صورة لحياته هو كما يصورها لنا من خلال ذلك المكان التعس الذي ألقته فيه الأقدار !

والحقيقة أن بين الصافي والمرض علائق وثيقة امتدت منذ مطلع شبابه وحتى شيخوخته ، وقد طبعت تلك العلائق أشعار الصافي بطابعها الخاص ، وفجرت في روحه كوامن الإبداع ، بدلاً من أن تسُلمه إلى الوهن والإحباط ، وهو يصرح بذلك في وضوح حين يقول :

إن مست الآلام روحي ولدت ... شعرًا تحس به لهيب النار
مرحى بآلام الحياة فإنها ... تمضي وتترك خالد الأشعار

ويقول أيضًا :

أجرُّ بهذا الجسم جرّي لهيكلٍ ... من العظمِ فعل المثقل المتواني
فلولا وجدتُ الروح منّي حيةً ... لكنت دفنت الجسم منذ زمانِ

آخر الصعاليك

الصعلكة لغة هي الفقر ، والصعلوك هو الفقير ، وقد نبغ في العصر الجاهلي مجوعة من الشعراء سموا بالصعاليك ، منهم الشنفري وعروة بن الورد وتأبط شرًا ، وكانت تجمعهم روابط معينة كالفقر ، والفروسية والشعر ، وعدم الاستقرار الذي يبلغ حد التشرد ، لأن أغلب قبائل العرب آنذاك ، إن لم يكن جميعها ، كانت تطاردهم ، ورغم اعتمادهم أساليب السلب والنهب والغارة على القبائل ـ مما كان شائعًا عند العرب في الجاهلية ـ للحصول على قوتهم ، فقد أشتهر عن عروة بن الورد أنه كان يوزع ما يحصل عليه من غنائم على أصحابه ، حتى عدّه البعض صاحب نزعة اشتراكية لقوله :

وإني امرؤ عافٍ إنائي شرْكةٌ ... وأنت امرؤ عافٍ إناؤك واحدُ
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوب الحق والحق واحد
أوزع جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قراح الماء والماء باردُ

وقد اتخذت الصعلكة فيما بعد معانٍ بعدت بها عن معناها الأصلي ، لكننا نأخذ منها هنا سمات الفقر والتشرد وعدم الاستقرار على حال ، مما يعتبر علامات فارقة طبعت حياة الصافي وشعره بالوحشة والتشاؤم ، يقول :

أستقبل السنين مستوحشًا ... لا أهل لا مال ولا ولد
لا مسكن آوي له ثابت ... لا سكن لا هند لا دعد
كأنني أسلك في ظلمة ... وما أرى نجما بها يبدو

كعاشـــق ماتـــت لديـــه المنـــى ... وقائـــــد أســـــلمه الجنـــــد

والذي يعرف الصافي عن قرب عرف صدق ما قاله في الأبيات السابقة ، إذ لم يكن للصافي بيت ثابت يأوي إليه أو يستقر فيه ، فتارة يقيم في نزل أو فندق ، وتارة أخرى في غرفة ضمن مدرسة للأوقاف ، أو في شقة مستأجرة وهكذا ، ولعل وصفه لتلك الغرفة البائسة يعطينا فكرة عن الأماكن التي كان يعيش فيها، يقول :

أصـــــارع الـــــبرد في سراجٍ ... يكــــاد مـــــن ضـــعفه يمـــوت

في غرفـــــة ملؤهـــــا ثقـــــوب ... أو شـــئت قـــل ملؤهـــا بيـــوت

يـــسكن فيهـــا بـــلا كـــراء ... فــــأر وبــــق وعنكبــــوت

هـــذي نـــداماي في الـــدياجي ... عــــاد بهـــم شـــملي الـــشتيت

أو يقول في وصف نزل مقفر خلا من أي مقيم ، وقد سكنه أيام ثورة ١٩٥٨ بمدينة صيدا في لبنان ، حيث أقفرت المدينة من سكانها :

ســـكنت نـــزلا مـــا بـــه نـــازل ... بي هـــــو لا بأهلـــــه ، آهـــــل

مـــــودع أنـــــا ومـــــستقبل ... والـــضيف والقـــادم والراحـــل

حارســـه والأهـــل فيـــه أنـــا ... والزائـــر الخـــارج والـــداخل

في النـــزل تلقـــاني وتلقـــاه بي ... حتـــى كـــأني النـــزل والنـــازل

لم يكن الصافي ليستقر في مكان حتى يفارقه إلى مكان آخر ، ولا تراه يقطن مدينة حتى يغادرها إلى أخرى ، ولا يكاد يعرفه الناس مترددًا على مقهى معين حتى يقرر تغييره إلى آخر ، بسبب أو دونما سبب .

وهكذا كنت تراه متنقلا بين مدن سوريا ولبنان ، وخصوصًا دمشق وحماه وبيروت وصيدا وطرابلس وزحله وجزين ، فضلاً عن الكثير من القرى والضياع والمصائف التي كانت لها ذكريات خاصة في شعره مثل مضايا وعين ميسه وبقين وعين القبي وكفر بطنا وسير والقلمون وجباع وغيرها في سوريا ولبنان.

وإلى جانب الفوضى التي طبعت حياته ، عانى الصافي من فقر شديد

تكشف عنه قصائده التي يغلفها دومًا بأثواب السخرية ، يقول على سبيل المثال :

صافحتني يد امرئ فرآني ساخن الكف من لظى الوسواسِ
قال هذي حرارة الإيمان قلت لا ، بل حرارة الإفلاس

لكنه رغم فقره الشديد كان أبي النفس عزيزها ، لم يتكسب بشعره ، أو يوظفه لسلطة أو حزب وما شابه ، ولعله النادر من شعراء جيله الذي لم يعرف المديح للأشخاص مهما علت منزلتهم ، ولذا خلا شعره من المديح الذي كان زاخرًا عند غيره من الشعراء قديمًا وحديثًا ، يقول :

إذا الأرض بي ضاقت سموتُ عن الأرض
وأرفض خفض العيش إذ يقتضي خفضي
وآكل من جسمي إذا افتقرتْ يدي
وهيهات يوم الجوع آكل من عرضي

المقهى بيته!

بعد أن افتقد الصافي السكن الثابت والمريح في دمشق صارت المقهى هي بيته الحقيقي، ففيها صالونه الذي يستقبل فيه ضيوفه ، ويتناول طعامه ، ويكتب أشعاره ، ويقرأ فيه الصحف ، بل ويأخذ فيه إغفاءة قصيرة ، خاصة في فترة الظهيرة حيث تخلو المقهى عادة من الزبائن ، وتهدأ قرقعة لاعبي الطاولة والدومينو التي يتضايق منها كثيرًا . يقطع الصافي المسافة من سوق الحميدية حيث تقع غرفته التي يقيم فيها إلى مقهى الهافانا أو الكمال أو الحجاز مشيًا على الأقدام ، مجتازًا طريقًا مزدحمًا بالباعة والمتسوقين ، وفي طريقه يشتري مجموعة من الصحف السورية واللبنانية ، وغالبًا ما يكون مبكرًا في مجيئه إلى المقهى ، حيث يتناول فطوره ، الذي يتكون في الغالب من الكعك المغموس بالشاي ، بعد ذلك يبدأ بقراءة الصحف ، ويجد متعة كبيرة في قراءتها ، لأنها تربطه بالعالم الخارجي وما يستجد فيه من أحداث ، كما أنه يعلق على بعض ما يرد فيها من أخبار.

وبالطبع فإن أكثر تعليقاته كانت لاذعة وساخرة، وقد جمع الصافي بين حبه لقراءة الصحف، وبين استمتاعه بشرب الشاي في أبيات يقول فيها:

أبكر نحو الصحف والشاي مسرعًا ... ففي الشاي لي خمر وفي الصحف لي خمر

تنازعَ ذوقي طيب تلك وهذه ... فمن ذاك لي قطر ومن تلك لي سطر

إذا انتعشت بالشاي نفسي فإنني ... إذا ما تلوت الصحف أنعشني الفكر

غير أن الصافي قد يستعمل الجرائد كمسودات لكتابة أشعاره عليها، لأن شعره وليد تجارب ذاتية ولحظات شعورية ينفعل بها ويدونها في الحال، فإذا كان في المقهى وجاءته تلك اللحظة، وعزّ عليه وجود ورق يكتب عليه لجأ إلى الصحف ليكتب على حواشيها، وإذا افتقد الصحف يومًا، فإنه يكتب على علب السجائر الفارغة أو ورق اللف البني السميك أو أي قطعة ورق يصدف أن تكون مرمية في المقهى، بل وعلى المناديل الورقية تنساب بعفوية ودونما تكلف في ثنايا شعره، يقوم مقام الزخاف البديعية، والصور البيانية، وجرس اللغة، وتلاعب الألفاظ، ورنين القوافي: إذ كل تلك في رأي شاعرنا قشور تحجب الفكر أن يظهر مكنوناته، والصافي يعي جيدًا أن أكثر الناس يميلون إلى عكس ما يرمي إليه، لطول اعتيادهم على اللغة الشعرية القديمة ورنين موسيقاها وفخامة ألفاظها، ولم يألفوا مثل هذا الأسلوب الذي جاء به الشاعر منذ العشرينيات، فيخاطبهم قائلاً في إشارة إلى ذلك المعنى وغيره من المعاني الأخلاقية والسلوكية التي تندرج تحته:

أعباد القشور لنا لباب ... يشق القشر شق دجي بنور

فما أشقي بكم روحي وشعري ... كلانا عائشان بلا قشور

فالشكل قشر، والوزن قيد، رغم دفاع الشاعر القوي عن الشعر الموزون المقفى، ورفضه لموجات التجديد في الشعر العربي التي ابتدأت منذ الأربعينيات فيما سمي بالشعر الحر أو شعر التفعلية، يقول:

صار شعري في النظم للوزن عبدًا ... كان شعري في النثر حرًا أبيًا

رب شـــعرٍ ســامٍ رأى قيــد وزنٍ ... فــر لمــا رأى القيــود ، قــصيّا
كــم ترامــت مــن روحــه قطعــاتٌ ... وأضــافوا روحــا لــه أجنبيّــا
أدخلــوه بــين القــوافي أســيرًا ... وهــو يبكــي ولا يــراهم بكيّــا
لـيس شـدو الهـزار في الـروض حـرًّا ... مثلـه في الأقفـاص ، نوحًـا شـجيّا

يهـتم الـصافي إذن بـالروح الـشعري ، ولا يهمـه في أي لفظـة جـاء ، ولـذا لا توجد عنده لغة شعرية وأخرى غير شرعيـة ، وموضـوعًا أو لفظـة فنيـة وأخـرى غير فنية ، ومن هنا زخر قاموسه الـشعري بـالكثير مـن الألفـاظ المتداولـة في لغـة الحيـاة اليوميـة مثـل : الـصادرات والـواردات ، والجملـة والمفـرق (المفـرد) ، والتقاعـد والراتـب ، والأربـاح والفوائـد والـسهاور ، والأوتومبيـل ، والموديـل ، والأسبرين ، والصيدلية ، .. إلخ غير أن تلك الألفاظ تأتي منسجمة مـع الـسياق العام للقصيدة أو البيت ولما يرمي إليه من معنـى ، ثـم إن الـصورة التـي يرسـمها بشكل ساخر ومحبب تجعلنـا نبتسم أو نـضحك أو نحزن أو نتـألم ، فنـذهل عـن صـدمات الألفـاظ التـي يعتبرهـا أكثـر الـشعراء نـشازًا في أي قـصيدة يكتبونهـا ، اسمعه حين يقول عن مسقط رأسه النجف :

إن الغـــــري بلـــــدة تليـــــق أن ... تقطنهـــــا الـــــشيوخ والعجـــــائز
فـــــصادرات بلـــــدتي مـــــشائخ ... وواردات بلـــــدتي جنـــــائز

فالصادرات والواردات من ألفاظ التجارة ، ولكنه حين أدخلهـا في قاموسـه الشعري لم يبد دخولها نشازًا ، لأننا شغلنا بـالمعنى الـذي أراده ، وهـو أن النجـف مركز علمي وديني مشهور ، كان يضم الآلاف من طلبة العلم الـذين يـأتون مـن أصقاع وبلدان مختلفـة لدراسـة علـوم الـشرع بفروعهـا المتعـددة ثـم يرجعـون إلى بلـدانهم لغـرض التبليـغ والإرشـاد الـديني ، كـذلك فـإن النجـف ينقـل إليهـا المسلمون الشيعة موتاهـم ، لتدفن في وادي السلام.

كذلك قوله وهو متبرم من الوسط الإجتماعي المحيط به[1] :

(١) د. إبراهيم الكيلاني : الشاعر أحمد النجفي – دمشق ١٩٨٠.

طغام فما يهجون إلا (بجملةٍ) كثيرٌ عليهم هجوهم (بالمفرق)

أو قوله عن الشعر والتقاعد :

أيا أدبا أفنيتُ فيه كهولتي وشرخ الصباهل لي لديك (تقاعدُ)؟

أجل سوف تعطينيه من جنس (راتبي) وما راتبي إلا الشقا والقصائدُ

وهل ظل شيء من شقائي حسمتُه تضاف له (أرباحه) و (الفوائدُ)

فما كنت أدري أن بؤسي ناقص وقد كان ظني أن بؤسي زائدُ

وهناك قصيدة ذاعت على كل شفة ولسان ـ وبخاصة في لبنان ـ حينما نظمها الصافي قبل عقود ، واصفًا حسناء فاتنة كانت تقود سيارتها في أحد شوارع بيروت وبيدها منديل ، أما تلك الحسناء فقد كانت هي الآنسة ليديا التي وصفت بأنها على درجة عالية في الجمال والثقافة ، تنظم الشعر بالفرنسية وتتذوق الشعر العربي ، لقد اهتز الشاعر لذلك المشهد الخلاب ونظم قصيدة رقيقة تعبر عن مشاعر فياضة وصريحة إلى حد المباشرة ، ولم يشأ أن يغلفها برداء من التقوى المصطنعة كما يفعل الكثيرون ، يقول :

غانية فاقت على جيلها وحق قرآني وإنجيلها

ساقت (أتومبيلا) رقيقا لها يجري رخاء وفق مأمولها

رقيق سير صوته كالغنا بأعذب النغمة مقبولها

كأنه الطيف إذا ما سرى في ساحر المقلة مكحولها

نشوان من نفحة أردانها يختال إذ خص بتفضيلها

أضحى مليكا بين أترابه متوجًا منه بإكليلها

أحببته فالروح حلت به يلمس كفيها ومنديلها

مرت كما مرت بنا نسمة من عاطر الأزهار مطلولها

تعلق القلب بها فاغتدى يحوم كالطير لتقبيلها

أهوى ركوبًا لي في جنبها أولا فدهسًا بأتومبيلها

إن تدفق الصور الجميلة ، وانسياب العواطف الرقيقة التي تخلو من أي

تكلف تصرف ذهن السامع عن إدخال الصافي لكلمات أجنبية مثل (موديل) و(أتومبيل) قد تهبط بالشعر إلى اللهجة العامية المباشرة، بل أضفى عليها الجو العام للقصيدة جماليات خاصة جعلتها متناسقة مع غيرها من الصور والأخيلة الأخرى في القصيدة.

وحول موضوعات الصافي الشعرية يرى د. إبراهيم العاتي:

إن ما يسري على الألفاظ والتعبيرات يسري أيضا على الموضوعات التي يتخذها الصافي محورًا لقصائده، فنحن نستطيع تبويب شعر الأقدمين والرواد المحدثين، بل والمعاصرين للصافي أمثال الجواهري وبدوي الجبل وعمر أبو ريشه وغيرهم طبقًا لأغراض الشعر المعروفة من وصف ورثاء ووجدانيات ووطنيات .. إلخ، لكن يصعب أن تفعل ذلك مع شعر الصافي، لأن موضوعاته الشعرية تكتنف الحياة بكل تفاصيلها الدقيقة والغريبة، ليس الحياة الإنسانية وحسب، وإنما حياة الحيوان والنبات، بل إن شعره يستوعب حتى الجماد ليبعث فيه حياة! [1]

ومن هنا فإن شعر الصافي لا يتمحور حول موضوعات محددة كالتي تندرج تحتها قصائد الشعراء، بل إن كل شيء يمكن أن يصبح موضوعا:

غرفته القديمة المتهالكة، رواد المقهى وكؤوس الشاي ولاعبي الطاولة، الشحاذون وصباغو الأحذية، خرير الجداول وتدفق الينابيع في مصايف سوريا ولبنان، القنبلة الذرية، الضفدعة المغنية، والبرغوث العاشق، ... إلخ.

يقول الصافي في تجربته مع الشحاذين ناعتًا نفسه بأمير المفلسين:

ومقهى قد جلستُ به وعقلي ... من الإفلاس قد بلغ الجنونا
أرجي الرزق من ربي ولكن ... أرى الشُحّاذ نحوي مقبلينا
أمد إلى الإله يدا وأخرى ... أرد بها جيوش السائلينا

(١) د. إبراهيم العاتي / النجفي: غربة الروح – دار العلم – بيروت ٢٠٠٧.

وكم من أحمقٍ فيها دعاني أميرًا فامتلي قلبي شجونا
دعاني بالأمير وكان أولى بأن أُدعي أمير المفلسينا

ويقول في صباغ الأحذية :

جاء يومًا إليّ صباغ نعل وبنعلي صبغٌ من الأيام
مر دهر عليه لم ير صبغا غير صبغ الغبار والأقدام

ويقول في الضفدعة :

مغنيتي في الليل ضفدعة جذلي تعبُّ الطلا ماء فتغدو به ثملي
من الماء في فيها اصطفت وترًا لها وتعزف لحنًا بالمياه قد ابتلا
تغني بماء وهي بالماء تنتشي فمن مثلها بالخمر غني لنا قبلا ؟

واشتهرت قصيدته عن الشاي ، لما فيها من صور وتعبيرات فنية جديدة.

لئن كان غيري بالمدامة مولعًا قد ولعت نفسي بشاي معطر
إذا صب في كأس الزجاج حسبته مذاب عقيق صب في كأس جوهر
كأن كؤوس الشاي بضع نواسك تحيط بمعبود من التبر أصفر

وعن تحولات المكان يقول د. العاتي أن المكان عند الصافي يتأثر بأهمية كبيرة في شعره رغم أنه لم يعرف المكان المستقر الثابت ، حيث يندر أن يكون قد أقام أو مر في بلد أو مدينة أو قرية أو طلل غابر أو شاطئ بحر أو نهر أو سفح جبل أو مهبط واد إلا واستلهم منه أو استنطقه وسجله في شعره ، ويصعب استقصاء جميع الشواهد على ذلك من شعره نظرًا لكثرتها ، ولكن حسبنا أن نشير إلى بعض الأمثلة ، لكن لا بد من التنويه منذ البداية إلى أن الصافي، وبسبب مزاجه المتقلب وحساسيته المفرطة ، سرعان ما ينقلب على بعض المدن التي مدحها ورفعها إلى عنان السماء ، فيهجوها هجاء مرًا ، أو يقف موقفًا ناقمًا على بعض المدن منذ البداية دونما سبب واضح ، يقول في العراق من ديوانه (هواجس) :

روحي بأرض العراق عالقةَ العقل سامٍ عن أمدن المدن

أحـار بـين التفتـيش عـن وطـنٍ ... يفهمنـي أو محبـة الـوطنِ

الرحالة الملول !

يقول عن مدينة صور في لبنان التي يفتخر أن أمه وأخواله منها لا تفسير لذلك إلا أن يكون قد تضايق من تعامل أو موقف، أو ربما لمجرد السأم والملل، فكان رد فعله بطريقته الساخرة:

وقائـل هـل تـزور (صـورًا) ... قلـتُ لـه هـل جنيـت ذنبـا

هـل في قريـضي نطقـتُ كفـرا ... أم في كلامـي سـبيت ربـا؟!

أو يقول في جباع وهي إحدى قرى جنوب لبنان المعروفة:

جبـاع يـا بلـدة بـالعز مترفـة ... شرطي لأسكنها إخراج من فيها

وقد فعل الشيء نفسه مع مدينة (جزين) التي مدحها ثم هجاها، ثم عاد ليهجو شعره لأنه أنكر على جزين محاسنها:

هجوت قريضي حين خالف وجدانا ... وأنكـر مـن جـزين حـسنًا لهـا بانـا

وأنكـر مـن الـوادي جمـالاً مجسمًا ... فشيطان شعري كان يخبط ودیانا !

ولعل موقف الشاعر المتشائم من الناس، وتضايقه من سلوكيات جيرانه، هو الذي يسبب نقمته على المكان، وهو ما تؤكده قصيدة (الدار والجار):

قـال قـوم الجـار قبـل الـدار ... ولـذا قـد ألفـت سـكني القفـار

طفت في الأرض ما ظفرت بجار ... فمـن اليـأس مـا أقمـت بـدار

لـست أرضي إلا جـوار مـلاك ... لا جـوارًا لكـل وحـش ضـار

كيـف أسـطيع حمـل غلظـة جـار ... هـو في الليـل مزعجـي والنهـار

وسـعت أرضـنا لكـي نتنـائى ... فلـماذا ازدحامنـا في الجـوار

تعبـت في الفـرار رجـلي ونفـسي ... لـيس تـرضى بمنـزل أو قـرار

مـا مقـامي إلا اسـتراحة يـوم ... ثـم يـدعو داعـي الفـرار، بـدار

مـا ديـاري إلا محطـات سـير ... ومكـوثي بهـا مكـوث القطـار

كل عمري محطة، أنا منها ... سائر نحو عالمٍ متوار

إن هذه القصيدة تعد مفتاحًا لفلسفة المكان عنده، فهو ممتد متحول متغير، وتنقله ومكوثه فيه أشبه بانتقال ومكوث القطار بين المحطات، وهذا القلق المكاني يعزوه الشاعر إلى تبرمه من الناس لأنه لم يجد في من جاورهم إلا المزعجات، وهو يعارض أصحاب الفلسفة الاجتماعية منذ أرسطو والفارابي وابن خلدون ولوك وغيرهم ممن ذهبوا إلى أن الإنسان اجتماعي بطبعه، كما أن ظروفه تفرض عليه الاجتماع والتآلف، فيرى ـ انطلاقًا من فرديته ـ أن الأرض قد وسعت لكي نتباعد فيها لا أن نتزاحم في الجوار!

ولذا تجده يفضل الأماكن الموحشة والبراري النائية والحقول وطيورها والشواطئ وأمواجها والجبال والوديان ومنعرجاتها، أو قد يقف على أطلال الأقدمين مستوحيًا ومستلهمًا، كما وقف في خشوع أمام قلعة بلعبك وأنشد قصيدة طويلة، بل ملحمة، من روائع شعره:

دار وحي أم قلعة أنا فيها ... كنبي يستنزل الإلهاما

صرت أرنو إلى الطلول وأرنو ... لعصور مضت ومجد أقاما

إيه أطلال بَعْلَبك أجيبي ... أين خلفت قومك الأعلاما

هل يبيد الحمام قومًا إذا ما ... نهضوا للحروب قادوا الحماما

هل يبيد الحمام قومًا وهذي ... غُرّ آثارهم خلدن عظاما

تلك أرواحهم خلدن بفن ... جل عن أن يخلد الأجساما

يضفي الشاعر على هذا المكان قدسية خاصة، فهو ليس أثرًا عاديًا أو طللاً كالذي يقف عليه شعراء الجاهلية، إنه ذكرى حضارة بادت ويحاول الشاعر استنطاقها بتبديد حجب السكون، وبعث الحياة في هذا المكان الموحش المقفر.

وكان جزء من حساسية الصافي بالمكان هو وصفه الساحر للدور والغرف الباردة التي ينتقل إليها من حين لآخر، كما يقول في قصيدة (دار باردة):

يا رب دارٍ بردها قارص ... كأن فيها «آب» آذارُ

كـأن أهـل الخلـد زوارهـا | علـيهم حُرّمـت النـار
مـن يـشتك الـبرد إلى أهلهـا | تُدفئـه أعـواد وأوتـار
لم يجلـس النـاس بهـا رغبـة | بـل جمـدوا فيهـا فـما سـاروا
كفّـر حـب النـار سـكانها | فمؤمنوهـا اليـوم كفـارُ
تـذكروا الـصيف لكـي يـدفأوا | لـو يـدفئ المـبراد تـذكار
مـن جاءهـا يحـسد مـن لم يجـئ | وتحـسد البـاب بهـا الـدارُ
فرحمـة الله عـلى فارهـا | إذ مـات مـن بـرد بهـا الفـارُ !

وقد يصل في تعامله مع المكان إلى أقصى درجات الغرابة ، فإذا ضرب المثل بالأفعى كرمز للشر بسبب مكرها وسمها القاتل فإن الشاعر المستوحش لا يجد غضاضة ولا خوفًا من أن يجاور أفعى كانت تسكن سقف غرفته لمدة سنتين دون أن تمسه بأذى أو تعضه بناب ، بينما لا يمر يوم دون أن تمس الشاعر لدغة من بني جنسه ! يقول :

جـاورتُ أفعـى في الـسقف سـاكنة | تطـرب لي بـالفحيح ، أسـماعي
وإن تلـوثُ القـريض تنـصت لي | كأنهـا أطربـت لأسـجاعي
قـالوا تحـذر فالـسم في فمهـا | فقلـت سـمي مـنكم وأوجـاعي
للمكـر تعزونهـا ولـستُ أرى | مـنكم سـوى مـاكر وخـداع

وهكذا ، فليست الأمكنة الجميلة هي مما يجذب شاعرنا ، وإنما الأمكنة الغريبة والخطرة بل والقبيحة هي مما يجذب انتباهه فيأتلف معها ، لأن لها جماليات خاصة ، يمكن تسميتها (جماليات القبح) ، وقد سماها الصافي في قصيدة له بعنوان (جمال البشاعة) . حيث توجد له قصيدة بهذا العنوان ، ويبقى هذا الموضوع أحد مباحث علم الجمال .

وأخيرًا لابد من الإشارة إلى أن تمسك الصافي بالسكن في غرفته القديمة في جامع ومدرسة الخياطين بدمشق القديمة رغم حالتها المزرية التي وصفها في شعره ، هو نوع من ألفته للأماكن الموحشة ، وقد ذكر لي الشاعر أن وزير

الأوقاف السوري قد استقبله ذات مرة وأخبره أن الوزارة راغبة في إعطائه بيتًا مريحًا في أحد أملاكها المنتشرة بدمشق، تقديرًا لمكانة الشاعر الأدبية، وإنقاذًا له من تلك الغرفة البائسة التي يقطنها والتي لا تليق بأمثاله، فأجابه: إني سكنت هذه الغرفة مدة أربعين عامًا، وكتبت فيها ثلاثة عشر ديوانًا، فهي (كغار حراء) بالنسبة لي، وليس من الوفاء بعد تلك العشرة الطويلة أن أفارقها أو أرحل عنها!! ... وهذا يثبت أن هناك إحساسًا قويًا فنيًا وحياتيًا بالمكان وتعلقًا به عند الصافي بوجه خاص

حياته في شعره:

وقد عكس أحمد الصافي كل أطوار حياته وفلسفته وأفكاره والمواقف التي واجهها في شعره وتجاربه في الحب والبؤس والوحدة والاغتراب والحرمان، وفي ذلك وصفه لجارة له:

لي جــــــارة متقاعــــــــدة	ليـــست لهـــا مـــن فائـــدة
فإخالهــــــا بعقودهـــــــا	للبيــــت شــــبه القاعـــدة
زادت عنــــاي فأصـــبحت	للجـــسم مثـــل الزائـــدة
هـــي مثــل ســاعتها، عقاربهـــا	دوامًـــــا جامــــــدة
علقـــت بمـــسمار كقائمـــة	برجــــــل واحـــــدة
بيـــت كمـــأوى العـــاجزين	بـــه المعيـــشة بـــاردة
نحيـــا كأصــــنام بــــه	أو كالميـــاه الراكـــدة
متقاعـــدة مـــع جـــارتي	مـــع ســـاعة متقاعـــدة
كالميــــت جـــاور ميتًـــا	منـــذ العـــصور البائـــدة

وفي قصيدة له «جارتي والمرآة» تبدو قسوته على جارته:

لي جـارة قـد حـرت في أمرهـا	ودلهـا المقـوت أو كبرهـا
أفـرح إذ ترقـد في تختهـا	كأنهـا ترقـد في قبرهـا

أقـــول إذ أســـمع أقــــدامها   قــد قامــت الحيــة مــن وكرهــا
تنــساب كــالأفعى عــلى مهلهــا   اعــوذ بــالرحمن مــن شرهــا
تــزعج عنــد الــصبح مرآتهــا   فترغـــب المـــرآة في كـــسرها
سأخُــصر القــول لــدى وصــفها   أن جــاء مــن يــسأل عــن سرّهــا
فـــصور إسرافيـــل في صـــوتها   وعمـــر عزرائيـــل مـــن عمرهـــا

وعندما يذهب إلى المصيف يحب جماله لكنه يضيق بمن فيه من الناس :

جميــل بعينــي هـــذا المـــصيف   وأجمــل مــا فيــه فقــدُ البــشر
فـــما فيـــه مـــن نـــاطق مقلـــق   يــشوش لي مــا أرى مــن صــور
ولا مـــــن مغـــــنٍّ بألحانـــــه   يــشوش لحــن حفيــف الــشجر
أنــام مــع الطــير عنــد المــساء   ويــوقظني الطــير عنــد الــسحر
مـــصيفي ذاومقفـــرًا خاليًّـــا   فــإن جــاءه النــاس ، منــه أفِــرْ
كــذا البــومُ إن أقبلــتْ للريــاض   تــصيح البلابــل هــل مــن مفــر
فكـــم عـــابر مـــنهم في الطريـــق   علينـــا الـــشقاء بـــه قـــد عـــبر
إذا مـــا تخاطـــب مـــع صـــحبه   يهـــون لـــديك خـــوار البقـــر
تنـــزههم كـــانفلات الحمـــير   نهيـــق ورفـــس وأشـــيا أخـــر !

وعنـدما تبتـسم الـدنيا لـه يتمنـى أن تـضمه «صـومعة الحـب» هـو ومحبوبتـه الشامية الحسناء حيث يقنعها بصومعة الحب بديلا عن صومعة الزهد والرهبنة :

قالـت سـأنأي عـن الـدنيا لـصومعة   قلـت اجعليهـا ، بحـق الله لاثنـين
فهـل تـضيق بـدنيا الحـب صـومعة   تحـوى مليكـين بـل تحـوي ملاكـين
ما نحـن لما اتحـدنا بالـصفات سوى   روحٍ ، وإن حُسبت في العـد روحين
روح مـن المـلأ الأعـلى قـد انقسمت   بـين العـراق وبـين الـشام نـصفين
فهـــل تُوِّحـــدنا دار تكـــون لنـــا   كالقـــشر يجمـــع في أحـــشاه لبـــيَّن
كلاهـــا لاجـــئ في قلـــب صـــاحبه   مـن عـالم النـاس أو مـن عـالم الـشين

وهـل تـضيق بـدين الله صـومعة — عـن ضم حـرَّين ، بـل لله عبـدين
لا غــرو إذ كلنــا لله منقطــع — أن ضـمنا الله منــه تحـت جنحـين
الله ثالثنــا في جــوف معبــدنا — ولا أقــول إلهــي ثالــث أثنــين

شاعر النوّر..

عرار... الصعلوك العاشق !



يمثل الشاعر الأردني مصطفى وهبي التل «عرار» (١٩٠٥ ــ ١٩٤٥) نموذجا للشاعر المتصعلك الفنان الذي هام على وجهه ليعيش مع الغجر «النوّر» ويحب الغجريات دون مبالاة بنظرة المجتمع المحافظ اللاذعة وقد عكس عرار في شعره كل مراحل حياته خاصة تجربته مع الغجر «النور» وقد عاش عاشقًا للحب والجمال فأحب كل فتاة جميلة من بلاده وقع نظره عليها ، ولكن حينما نمعن النظر نطرح تساؤلًا: أكان حقا يبحث عن غاية أصحاب المذهب الحسى من عشقهم ، كما يتبادر الذهن إذا ما استعرضنا السهرات الصاخبة التي كان يقضيها (عرار) في خرابيش مكحلات النور التي حامت على من يرتادها الظنون السيئة بنيل الملذات الحسية ، كما كان يشاع ، أو كما عرف عمن يرتاد هذه الخرابيش ، ويرتحل إليها ليلا من المكان الذي يقطن إلى (وادي اليابس) حيث تقع ، ولكن عرارًا ينفي ذلك كل النفي في شعره ورسائله التي كان يرسلها لولده (وصفى) فقد كان يرتاد مضارب النور إشباعا لحب استطلاع[1] عنده

(١) عرار الشاعراللامنتمي / تأليف أحمد أبو مطر / القاهرة ١٩٧٧ / ص١٧٤ .

لدراستهم ، ودراسة مجتمعهم المغلق متأثرا في ذلك بالأديب والبحاثة الفرنسي (بروسبير مريميه) الذي عاش حياته بين النور يتعلم لغتهم ويدرس أحوالهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وكذلك عرار فهو يقول : «..وهذا ما جعلني لا أرد مضارب النور كباحث منقب إلا لأصدر عنها كشاعر متشبب ، ففي موسيقاهم روعة باكية وعلى ألحانهم مسحة من كآبة ضاحكة ، وعلى عين نسائهم ومضة ساحرة» . وعرار نفسه هو القائل :

إن الخرابيش التي حامت على ... أو حول من يرتادهن ظنون
في نجعهن وربعهن ودمعهن ... إذا صدقن وإن بكين يقين

وعند استقراء شعره لا نجد إلا أبياتا قليلة للغاية يصف فيها محاسن المرأة ، ومفاتنها وصفا حسيا ، وهي لا تتعدى الأبيات التالية :

«بالسلط» غزلان كما قيل لي ... هضيمة الكشح حصان الخبا
ريانة الأرداف ألحاظها ... سهم من الإبداع قد صوبا

وفي قصيدة أخرى يقول :

متى رجراجة الكفلين يا وثابة النهد
متى أعدو على الوجنات ألثمها وأستعدى
عليها إن هي امتنعت حياء حمرة الخد
متى يا حلوة الخطرات يا مياسة القد
يحل محل هذا النأي والتشريد والبعد
لقاء ؟...

ومع ذلك فهي أبيات معتدلة إذا قيست بأشعار أصحاب المذهب الحسي في الغزل ، لكنه يعود فيلح على غايته المنشودة من تردده على النور ، فهو يؤكد في أشعاره بصورة صريحة على أنه «عذري» في حبه وعشقه ، يقول :

يا هشة الطلعة

مـــــا هـــــــذى الروعـــــــة
أن الهـــــــوى العـــــــــذري
بالنـــــــاس لا يـــــــزري
لأنـــــــه الرفعـــــــة
ياهـــــــشة الطلعـــــــة

وفي قصيدة أخرى يقول :

متـى يـا حلـوة النظـرات والبسمات والإيـماء والخطـر
متـــى أمـــلي عـــلى الآلام والحـــدثان والـــدهر
أحاديـــــث الهـــــوى العـــــذري ؟
متى ؟

وفي قصيدة ثالثة يقول :

سـلمى إن بخلكـم — عـلى علاتـه جـود
ألـيس النـاس أحـلاس — وأصـل الكـأس عنقـود ؟
وأني في الهـوى العـذري — طـراد ومطـرود

وهو القائل لمن لامه على حبه مكحلات النور :

فليتـق الله مـن ظـن الهيـام بهـم — غيـا فـما بـالهوى العـذرى مـن عـار

وهنا يبرز سؤال هام : كيف نوفق بين ما يذكره في رسائله عن مقصده الشريف في تردده على النور ، وما يكرره عن «حبه العذرى» ، وبين ما لاحظناه وما عرف عنه من هيامه ووجده بكثير من الجميلات والحسناوات في وادي اليابس ووادي السير ووادي الشتا وخرابيش النور ؟؟ .. أليس هذا التنقل من حب إلى حب هو ما كان يقصده أصحاب المذهب الحسي ، الذين ينتقلون من زهرة إلى زهرة «وكل مليحة بمذاق» وهل كان كما يقرر عن نفسه ـ لم يكن حسيا في حبه وعشقه ، وما تنقله بين الفتيات والجميلات اللاتي ترد أسماؤهن في أشعاره إلا نوع من التعلق بمفردات الوطن الذي أحب ، كما رأينا سابقًا ، كان

عرار يحب كل جميلة يراها ، ويهيم بها هياما عذريًا ، لأن الجمال عنصر أساسي في مذهبه الجمالي ، ولأن هذه الجميلة أو تلك تدب على ثرى الأردن وهي نفسها من تربته ، وهو بالأردن يهيم ، وفي كل ما يتعلق به يغني ... فحبه للعديد من الفتيات والحسناوات كان مظهرًا من مظاهر حب وطنه.

عرار المحب الولهان:

كان لعرار ـ كغيره من البشر ـ قلب يعشق الجمال ، ويتغنى به أينما وقعت عيناه ، وقد زاد هذا التغني والتعلق عنده نفسية تميل ميلا طبيعيًا إلى جمال المرأة والطبيعة خاصة إذا كانتا من (الأردن) ، فهو لا بد بهما هائم ومتعلق إلى درجة العشق ، كانت طبيعة نفسه تملي عليه أن يكون صاحب فكرة خاصة ترى الجمال ومتطلباته من هيام الحسان من «الأمور الجوهرية» والضرورية في الحياة ، يضاف إلا ذلك اللذة الناجمة عن الخمر ، فلقد كان في مذهبه الحياتي «أبيقوري» المذهب، يرى «أن الحياة هدفها اللذة فهو يرى أن اللذة تنشأ من الخير ، وأن الخير مصدره الجمال ، ولهذا يجب البحث دائما عن الجمال والاستمتاع بكل ما هو جميل في الحياة..

كان من بين أصدقاء عرار المقربين ، ولا سيما الذين تعرف عليهم في المناصب القضائية التي تقلدها ، جماعة من شيوخ الدين ، الذين كانوا يلومون الشاعر على انطلاقه سواء في شرب الخمر ، أو هيامه بالمرأة وانخراطه بين النور وسط خرابيشهم ، التي كان يرى فيها مدينته الفاضلة ، وسعادته الحقة . وكان أشد من يلومه صديقه الشيخ عبود ،وكان قد أكثر من إسداء النصح تلو النصح للشاعر ، على أمل هدايته سواء السبيل كما يتصور عبود نفسه ، بينما عرار على حاله لا يتغير ، يستهين بنصائحه ومتمسكًا بقناعاته الفلسفية والفنية والجمالية، مؤكدًا له فلسفته ، فيقول:

أن الحياة لها قواعد غير متن الخزرجية

فنبيذ قعوار اللذيذ وأنة الناي الشجية

وهيامنا بالغانيات من الأمور الجوهرية

فـ(عرار) يبين ما يراه جوهريًا من أمور الحياة ، فإذا هو عنده (الهيام بالغانيات) يكمله ويزيد بهجته (الخمر القعواري) ، وصوت الناي الحزين بين خرابيش النور ، أن قلبه المحب الولهان لا مثيل لوجده وهيامه ، فهو حب لا تؤثر فيه حقب الزمن ، وقلبه لا يعرف بديلا للحب وأن بلغ الشيخوخة واشتعل رأسه شيبا ، وهذا يفسر لنا اعتباره «الهيام بالغانيات من الأمور الجوهرية» ، لذا فهو يتمتع باستمرارية دائمة ، مهما تقدم به العمر ، يقول :

أو ما تراني والمشيب كما تراه بعارضيه
ما زلت خفاق الفؤاد ولم تزل نفسي طريه
والقلب ما تنفك تملأ ساحه خطرات ميه
دنف تطارده العجوز ، ولا تهادنه الصبيه

ولو كان تقرير هذا المبدأ عنده تقريرًا عارضًا ، لا عتبرنا حبه عاديًا ، ولكنه ينتهز كل فرصة لتقرير نفس الأمر ، مما يوحي لنا فعلا بأنه كان صاحب قلب يعشق المرأة ويفتنه جمالها ، ويهيم بها أينما رآها ، في شوارع مأدبا أو في أرباض عجلون ، وإن لم تكن ففي (خرابيش قوم سلمى) ، فها هو يخاطب صديقه الشيخ عبود مؤكدًا ومقررًا الأمر نفسه ، وهو اعتبار المرأة والهيام والتغني بها أمرًا ضروريًا ولازمًا للحياة الإنسانية :

يا شيخ تف على الحياة بلا هوى ... وجوانح تزهو به وضلوع

وفي مكان آخر يضرب على الوتر نفسه ، مستوحيا الشعر القديم ، ومناجيا حبيبته (هند) ، فيقول :

زموا القلوص فما للبين تفنيد ... ولا لجرح نكاه الضيم تضميد
زموا القلوص فما أدرى أوجهتهم ... عمان أم أنهم من دونها نودوا
يا معشر الصحب بي وجد أكادجوي ... أذوب ما أضرمته الأعين السود
فهاتها من صميم الدن مترعة ... كأنها في جبين الشرك توحيد

عسى لما بي من غصات حبهم ... فيما يجود به الخمار تبديد
يقول عبود أن الحشر يجمعنا ... يا هند مالي وما يرويه عبود
ما زال وصلك ما رفت ذرائبه ... على فؤادي وظل الحب ممدود
فأي قلب هجير الهجر يلفحه ... يغنيه فيء رواقاه المواعيد ؟

ويؤكد نفس الأمر في قوله :

أهوى ولات اليوم حين تصابي ... وجوي وقد غمز المشيب شبابي ؟
والأربعين بقضها وقضيضها ... جثمت مزبجرة قبالة بابي
يامي أشطان الخيال أرثها ... متح الوقائع من معين سرابي
فهواك لم يبرح يعطر نشره ... مس الجنون بحسنك الخلاب
وعيونك السوداء تنظر خلسة ... وتشع سحرا من وراء حجاب

من هذه النماذج يمكن الحكم على عرار أنه كان يرى في المرأة أمرًا ضروريًا ولازمًا ، لاستمرار حياته على وجهها المطلوب كما يراه هو ، كانت رؤيته الخاصة بالوطن التي شملت كل متعلقاته بما فيها المرأة .. وبما أن حب الوطن غريزة فطرية في الإنسان، وحب عرار للوطن شامل لكل ما يرتبط بهذا الوطن .. إذن فإن حبه للمرأة الأردنية ـ التي هي جزء من التراب الأردني ـ سيكتسب نفس الاستمرارية والديمومة ..

إذا داعبه الحب ... فماذا يفعل القلب
وهل حرج عليه وإن ... يكن قد شاخ أن يصبو
وأن يخفق للغزلان ... ما مر به السرب
إلا يا أيها الخفاق ... لي طرد الهوى دأب
وهب سني على الخمسين ... قد أربت ولم ترب
أأغضي أن مكحلة ... إليّ بها رمي الدرب

غزله في ظبيات وادي السير ووادي الشتا :

وادي السير قرية تقع على بعد سبعة كليو مترات غرب العاصمة عمان ، توثقت صلة عرار بها عندما عين حاكما إداريا لهذه المنطقة عام (١٩٢٣م) ، وإلى الغرب من القرية تقع البساتين الخضراء اليانعة التي تعرف باسم (وادي الشتا) . لم يزد تقلده لهذا المنصب عن أربعة أشهر ، ومع ذلك أثرت تأثيرًا واضحًا في شعره ، وفي كل مناسبة يردد ذكر (وادي السير) حيث عرف الشركسية ذات الشعر الأشقر أو ذات النظرة الحلوة ، وتيمته الظبية السمراء ، وهناك وادي اليابس وجاراته اللواتي أشعلن في صدر مصطفى جذوة الوجد وسقينه من كؤوس الهوى والوجد، هناك عرف جارات وادي السير اللواتي لوعن فؤاده بصدهن وهجرهن ، حتى أنه تمنى لو أنه ما عرفهن ، يقول :

يا جيرة البان ليت البان ما كانا	ولا عرفنا بوادي السير خلانا
أو ليتنا كلما طاف الحنين بنا	وسامنا من ضروب الوجد ألوانا
وعادت النفس تذكارات صحبتكم	نسطيع تعزية عنكم وسلوانا
يا جيرة البان هيهات الشباب فقد	حالت مسراته برحا وأشجانا
وبدلته الليالي من تمرده	على التقاليد تسليما وإذعانا
وأخلقت خيبة الآمال جدته	وشوهت سفره متنا وعنوانا

وفي وادي السير عرف الظبية السمراء التي ظل يتعلق ويهيم بحبها حتى بعد أن ترك وادي السير وأقام في عمان ، فكل سمراء جميلة تذكره بها ، فيسترجع ذكراها ويحن إليها ، يقول :

ظبيات وادي السير على نفرت	من سربكن الظبية السمرا
فهي التي خطت أناملها	في سفر حبي آية غرا
وتلت علىّ من الهوى سورا	رتلتها مترنما شعرا
ومضيت أسأل كل فاتنة	كرما وجودا ، نظرة شزرا

ولم تتيمه هذه الظبية السمراء فقط ، فكل ظبيات وادي السير يهيم بهن ألوانا ، حتى وإن رحل الشباب ومضى :

هبلتك أمك والحديث شجون	ظبيات وادي السير حور عين
وأنا بهن ــ وإن يكن فر الصبا	وشبابهن متيم مفتون

وهل يستطيع عرار أن ينسى الشركسيات اللواتي دغدغن قلبه ، وعزفن على أوتاره أجمل الألحان ، وكيف ينساهن وقد تميزت من بين جميلات بلاده بصفة قلما شاركتهن فيها فاتنة أخرى ، ومن يشترك معهن في (اللون الأشقر) ؟ هذا اللون الذهبي الذي كان يذكره كلما رأى أطياف الشركسيات ، وكلما تراءى له حباب الخمر في كئوسه فهو القائل :

فهلم نشربها فلون حبابها	ذهب كشعر الشركسية أشقر

وفيهن يقول أيضا :

خليلي ما انفك الفؤاد المعذب	لتطراق طيف الشكرسيات يطرب
وما انكفت النفس التي قد عرفتها	زمان الصبا ذيل الصبابات تسحب
وقلبي كما بالأمس ما انفك عاتيا	به الوجد يلهو والتباريح تلعب
فيوم بوادي السير تصبيه ظبية	ويوم بهذا الثغر يصبيه ربرب

وفي بساتين (وادي الشتا) يجد عرار الماء والخضرة ، والوجه الحسن الذي تيمه وهو يتفيأ الظلال الوارفة تحت أشجار الفواكه الشهية ، ولقد ارتبط في وجدانه روعة المنظر الخلاب مع جمال الصبية الحلوة التي كان يرى في عيونها خضرة أشجار الوادي ، وفي وجنتيها احمرار فواكهه ، لذا هام بهن وبواديهن ، وما انفك يردد ذكرهن في أشعاره :

هل تذكرين وأنت من غزلانه	وادي الشتا والعمر في ريعانه
والقلب مخضل الجوانب نشوة	رعناء قد أودت بثبت جنانه
فهنا هوى وهوى هناك وثالث	وقف عليك وأنت من أعيانه

وفي مكان آخر يقول :

وادي الـشتا هـذا وتلـك ملاعبـي   أيـام كنـت وكنـت مـن جيرانـه
فـادني شفاهك مـن فمي إن لم يكـن   يـامي قلبـك قُـدّ مـن صـوانه
وتوسـدي صـدري وحـسبك نعمـة   هـذا الـذي تـوحين مـن خفقانـه
مـالي ودنيـاهم فحبـك عـالم   سر الهـوى وقـف عـلى سـكانه

وأحيانـا كثيرة يسترجع الـشاعر ذكريـات حبـه في (وادي الـسير) و (وادي الشتا) لذا تراه يكثر من الجمع بين الواديين في أشعاره :

أناشـدكم وادي الـشتا وظبـاءه   وغزلان وادي السير والأعين الدعجا
وقلبـا شـجيا كلـما خطـرت لـه   خـواطر مـن ليـل بأشـواقه عجبـا
وحيـا قـضى في المهـد يـا هنـد نحبـه   فأرمـسته عمـرا بغـصاته أجـا

وفي موضع آخر يقول جامعا بين الواديين :

أناشـدكم وادي الـشتا وظبـاءه   وغـزلان وادي الـسير وهـو حبيـب
بغـير هـوى مـضن وكـأس مدامـة   ولحـن شـجى كيـف كيـف تطيـب
دعـاني وقـد ولى شـبابي شـبابها   دعاني وهـل يعـصى الـشباب مشيب
وإني ولـو جـزت الثمانـين حجـة   لـداعي صـبابات الهـوى لمجيـب

بل زيادة في التمتع بمشاهدتهن تمنى لو أن المسؤولين جعلوا من وادي السير ما يشبه النقطة السياحية ، ويجبر كل من يمر بها أن يتوقف فيها قليلا ليتغـذى نظره بـالتطلع لهؤلاء الفاتنـات ، حيث ستهتز أوتـار قلبه لـرؤيتهن ، فيقـف في المرات القادمة مجبرًا نفسه على الوقوف هل هناك أمنية أكثر من هذه الأمنية ، تدل على هيامه ووجده بفتنة الظبيات الساحرات ، يقول :

ليـت الوقـوف بـوادي الـسير إجبـاري
وليـت جـارك يـا وادي الـشتا جـاري
لعلنـي مـن رؤى وجـدي القـديم بـه
أرتـاد مـسا لجنيـات أشـعاري
وعلنـي قبـل أن تبـيض مـسربتي

ويقتضي عرف جدواهن انكاري
وتنتفي نبرات الوجد من نغمي
وتحتوي نغمات الشوق قيثاري
من الصبابات أقضى بعض ما برحت
وبه تشبث رغم الشيب أظفاري
فألمس الشوق قيثاري
من الصبابات أقضى بعض ما برحت
وبه تشبث رغم الشيب أظفاري
فألمس الشوق في أطلال ذاكرتي
وألمح الحب في أنقاض أوطاري

وهكذا ، كان هيامه بحسناوات (وادي السير) ومثيله الأخضر الرائع (وادي الشتا) هياما جارفا عميقا ، ككل حبه لغزلان الأردن أينما وقعت عيناه عليهن .

غزلان وادي اليابس:

شمال بلدة عجلون ، وعلى مسافة خمسة كيلو مترات منها يقع ما يعرف باسم (وادي اليابس) ، وتكثر فيه المناظر الطبيعية الخلابة ، متمثلة في الأشجار الوارفة الظلال ، وعيون المياه العذبة الرقراقة . ولقد كان عرار يمضي أجمل أوقاته في المرح واللهو في هذا الوادي ، وبين (خرابيش النور) الواقعة فيه ونظرًا لذكريات عرار الجميلة في هذا الوادي وإكراما لجميلاته وفاتنات النور القاطنات فيه أطلق اسمه على ديوان شعره (عشيات وادي اليابس) ، فكم عشية حلوة قضاها معهن، تارة يطربنه بالمواويل ، وأخرى بالرقص الذي ترتعش معه أعصاب السهاري ، يقول :

يا أخت واد قد دعوتك باسمه ولـه نسبت تبركا ديواني

وكون الشاعر ينسب ديوانه إلى (وادي اليابس) إنما يدل على أن لهذا الوادي مكانة خاصة في نفسه دون سائر الأمكنة الأردنية التي عرفها وهام بها ، والسبب

يرجع إلى (أخت الوادي) التي تعلق بها الشاعر أكثر من تعلقه بأية فاتنة أخرى . فمن المعروف أن جماعات النور كانت من آن لأخر تنصب خيامها في هذا الوادي ، حيث كان يتردد عليها عرار أغلب أوقاته ـ قاضيًا أجمل أيام عمره، وكان عندما يتذكر أوقاته الحلوة في هذا الوادي ، يتبادر لذهنه فورًا مصدر النشوة التي كان يلقاها فيه ، فإذا مصدرها فتيات (النور) وسحرهن الخلاب .

غزله في مكحلات النور :

أن نظرة عرار للحسان النوريات ، إنما هو امتداد لغزله السابق في جميلات بلاده ، من (وادي اليابس) و (وادي السير) و (وادي الشتا) ولكن نحس أن لغزله في (النوريات) سحرًا وعذوبة ورقة تفوق ما لغزله في غيرهن ونعزو ذلك إلى نظرة الإشفاق التي كان ينظرها إلى النوريات زيادة على نظرات الحب وعشق الجمال التي كان ينظرها إلى غيرهن ، ففي الوسط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه، كانت نظرة الناس إلى (الفتاة النورية) نظرة استهجان ، فلما وقع هو في حبهن ، اصطبغ حبه وغزله بصبغة إشفاق عليهن لما يصيبهن من المجتمع من لعنات وشتائم ، فلما تعمق في وسطهن الاجتماعي ، وهام بهن ، أصبحت نظرة الإشفاق لها وقع خاص في غزله مما في سائر غزله وكذلك كان يرى عرار تشابها بين محنتهن وبين اضطهاده بسبب مواقفه الوطنية ، يقول :

يا أخت سلمى في غناك عذوبة	تبكي ويغرق دمعها أحزاني
ما شمت ومض اليأس في نبراتها	إلا استبنت بشجوها ألحاني
ورأيت في مرآة بؤسك صورتي	وقرأت فوق إطارها عنواني
وعرفت فيما أنت فيه من الأذى	ومن الصغارة والهوان هواني
أهلوك قد جعلوا جمالك سلعة	تشرى وباع بنو أبي أوطاني
وذووك قد منعوك كل كرامة	وأنا كذلك حارسي سجاني

لكل أوجه التشابه هذه التي وجدها عرار بينه وبين (النور) جاء غزله في مكحلاتهم ذا وقع خاص ، ونغمة محسوسة ، دون سائر غزله ، إذ تضافرت عوامل اجتماعية ، أضيفت إلى جانب العشق والجمال ، لتجعل القضية ، قضيته

الأولى .

إن حبه للنور «وحسانهن الجميلات» جعل الأمر عنده مختلفا ، فالحسناء منهن ليست سارقة بمفهوم من يدعون عليها ، ولكنها عنده سارقة قلوب ، وأولها قلبه الذي جن بها ، فهو يخاطب «سارقة القلوب» قائلا :

يا بنت في إسبال جفنك محمل ... للاشتباه بأن طرفك جاني
وبأن هذا القلب قد عاث بأمنه ... عينان واقلباه سوداوان
لا مدعى عام اللواء أجارني ... من سحرهن ولا (طلال) حماني

إن الرقة في الحديث ، والاحتماء بـ«طلال» والاستغاثة بـ«مدعي عام» اللواء لا تجدها عند عرار بهذه الحدة والتطرف ، إلا عندما يتغزل بفاتنات النور ، فكما قلنا قد كان لسحرهن عنده وقع خاص . إن الناس في شرق الأردن يطلقون على النور (قوم سلمى) ، وعرار بحكم معيشته الدائمة معهن ، وهيامه بهن ، كان يخاطب كل حسناء ، نورية في شخص (سلمى) هذه التي نسب قومها لها ... يخاطبها برقة ، بعذوبة ، بقلب يذوب ، ويذوب معه الصخر شوقا :

سلمى ولو شزرا إلى تطلعي ... فلقد تنوب عن العيون عيون
سلمى ورب الراقصات[1] إلى منى ... بي للصبابة لوعة وحنين
وبعاثر الجد الذي خفقاته ... خفتت وران على جواه سكون
ما زال متسع لبرح جوى عفا ... فدعى هواك على جواي يرين

ومرة أخرى ، وعندما يشتد الشوق إلى سلمى ويتذكر وطنه الذي هو عنده أغلى من الجنة ... يختلط جمال سلمى بجمال الوطن كما يرى أحمرار أزاهيره في تضرج خدودها ، وتختلط عنده الطبيعة الجميلة بجمال سلمى ، ويأتلفان في تناسق عجيب يقول :

سلمى بما حص قد تألق موهنا ... برق وبل ثرى الفحيص هتون
فأذن ورب الراقصات إلى متى ... لا بد من أن يورق الدحنون

---

(١) الراقصات : تعني هنا : النوق .

ولسوف أبصر في تضرج خده　　خديك يمتقعان يا برفين[1]

ما الجديد عند (المكحلة النورية) الذي جعل لحبها عند عرار وقعا خاصا ؟

لقد كان عرار يتذكر عند التغزل بها ، ما كان يلازمها من أشياء يراها هو جوهرية للحياة ، كان يتذكر كؤوس الخمر التي تمدها له هذه الأنامل الرقيقة من خرابيش النور ، هذه الكؤوس التي كان لها في قلبه وقع السحر ، ومع ارتشاف الكؤوس كانت تشنف الآذان بصوت (جميلة) أو (هنية) الساحر ، وهو يصدح وسط الليل البهيم ، مخترقا عنان السماء بلحن موال عراقي تذوب مع آهاته القلوب شوقا ، والنفوس حزنا . إن كؤوس الخمر التي تروى الغليل ، والصوت الساحر الذي يلمس شغاف القلب ، لم يكن يجدهما الشاعر إلا عند فتاته المكحلة النورية، فسائر الفتيات اللواتي هام بهن كن فتيات محافظات ، ربما لم تتح له حتى فرصة الجلوس إليهن والتحدث معهن . بينما الحال مختلف بالنسبة للفتاة النورية، فعندما يصل عرار إلى (خربوش) إحداهن ، يمتلئ عليه الخربوش ، هذه تحوطه بذراعيها ، وأخرى تداعب شعره المتهدل» وثالثة ينطلق صوتها مرحبا بمقدم الحبيب الغالي . لذلك جاء غزله وتهيامه بهن أكثر عذوبة من غزله في غيرهن ، ففيه غنائية شفافة تعبر عن شدة ولعه ، وتعلقه بهن ، يقول :

يا هبر هات حديث قومك قد أضر بي السقام

أين الدفوف وأين طبلك أين فارعة القوام ؟

أين المكحلة التي للحاظهافتك السهام ؟

إن الربابة فوق صدرك يا أخي أبهى وسام

ويقدم لنا عرار لوحة فنية رائعة للحسناء النورية ، فيقول :

هذى خيام الهبر فأحبب بالمخيم والخيام

---

(١) برفين ، فتاة شركسية رائعة الحسن ، وقع الشاعر في حبها عندما رآها في عمان ، وقد تحدث الكثير عن حسنها حتى وصلت أطراف الحديث إلى قصر ملك الأردن عبد الله ، فدارت بينه وبين الشاعر مساجلات شعرية حولها .

«سمراء والعينان زرقاوان في قد الغلام»
ما شام طلعتها أخو شغف بها إلا وهام
غنت فذكرني تجاوب صوتها رجع الحمام
وتمايلت فأمال عقلي في تثنيه القوام

في كل جميلة في (وادي اليابس) ، وفي كل حسناء من (وادي الشتا) ، وفي كل ظبية من (وادي السير) ، وفي كل (مكحلة نورية) هام عرار بها ، ولكل واحدة منهن خفق قلبه واهتزت أوتاره ؛ وعاش أحلاما جميلة مع كل واحدة منهن ، وفي كل ذلك كان يجهر بمبدأ في الهوى لا يحيد عنه :

وللهو مني جانب لا أضيعه   وللهو مني والصبابة جانب !

وعلى الرغم من مرور الزمن ، نجده بعد أن يتعدى الأربعين بخطوات يشعر أن حبه باق ، يتحدى الزمان وكل الصعاب :

ولسوف تبقى للصبابة في ثرى رمسي بقية
وهواي سوف يظل يهزأ بالقبور وبالمنية

ومع تقادم الزمن على ذكرى حبيباته ومكحلاته ، وجفاء بعض الحسناوات ترى هذا الحب والوله أحيانا ـ برغم تحديه الزمن ـ تمر عليه ألوان شاحبة ، ويظهر أثرها واضحا في أشعاره الأخيرة ، فهو يقول:

سقيا لعهدك والشباب قشيبة   أثوابه وأنا بك المفتون
وذوائبي لم تشتعل شيبا ولم   تزحف عليّ وقد كبرت غضون
هل تذكرين تدلهي وتولهي   بك والحياة كما أريد تكون
فر الصبا أما الشباب فإنه   يبكي على لأنني مسكين
قد بعت في طرد الهوى ريعانه   وأشحت عنه كأني المغبون

ولما آلمه جفاء الشركسية الحسناء (برفين) اختلط جفاؤها وبعدها مع خطوات الزمن وآثاره ، فيصرخ في عذاله ولائميه على تهيامه بها بأبيات غنائية رقيقة ، نلمس فيها آثار اللون الأصفر الشاحبة ، مع نفس الحدة في الإصرار على

حبها والوجد بها واشتعال مشاعره :

مالي «وبرفين» يا عشاق برفينا	«أضحى التنائي بديلا عن تدانينا»
وبدّل الشيب أحلام الصبا ورعا	«وناب عن طيب لقيانا تجافينا»
فلا أوانس وادي السير تذكرني	ولا الكواعب في أرباض «عجلونا»
حال الشباب الذي أبليت جدته	فيما يمكنني منهن تمكينا
قد كنت أحسبني أبقى أخا طرب	ولو تجاوزت يا ابن الأخ تسمينا
«ما كل ما يتمنى المرء يدركه»	فارفق بقلبي فقد أصبحتُ مسكينا
وحي عني زكاة منك تدفعها	عن الشباب فتاة الطهر برفينا
وانشد على مسمع منها مقالتنا :	«أنا محيوك «يا برفين» حينا
على الهيام الذي كنت أعهده	أيام كانت ، تزور اليوم نادينا
فيلمس الشوق قلبي في جوانبه	وتأنس الوجد نفسي في نواحينا

إن حب عرار وهيامه باق وإن خط عليه الزمن آثاره ، فهو حب متعلق بأشياء الوطن الذي عبد وأحب ، ولكن الجفاء والبعاد من قبل الأحباب والمكحلات ، هو الذي جعله يتحدث عن حبه بالنغمة السابقة :

قد عقنا الحب حتى ما يهم بنا	وعافنا الحسن حتى ما يدانينا

فالحبيبات هن السبب ، أما حبه - كبمدأ - ولا يحيد عنه ، ولا يجد هو نفسه عنه فرارا .

خمرياته:

نظم (عرار) الكثير من الأشعار في الخمر ، وعرف عنه بين مواطنيه أنه من مدمنيها ، بل ممن كانوا يجدون فيها الدواء الناجع لكثير من الأمراض والعلل التي يعاني منها . وقد اقترن اسمه بالخمر لدى قرائه وعارفيه في الأردن ، اقترانا يشبه اقتران اسم أبي نواس بها . وتروى عن عرار في هذا المجال الكثير من الحكايات والنوادر ، فقد كان من الذين أدمنوها بفلسفة محددة ، وليس سكرًا وعربدة فقط، كان إدمانه الخمر إدمانا مبررًا أجبرته عليه الظروف القاسية المرة

تارة ، وطبيعة حياة الفنان تارة أخرى ، يقول :

هات اسقني فعوار ليس يهمني   قول الوشاة : عرار سكران
فالكأس لولا اليأس ما هشت له   كبد ولا حدبت عليه يدان
والخمر لولا الشعر ما أنست به   شفة الأديب وريشة الفنان

ولقد كانت ظروف حياته الاجتماعية القاسية المريرة ، والظلم الذي يصبه المعتمدون البريطانيون على مواطنيه أكثر مما تحمله نفس شاعرة كنفس عرار ، لذا نراه يعيد ويكرر أنه لولا اليأس والظلم لما أدمن الخمر .

شاعرية عرار:

وتناول الشاعر الكبير فاروق شوشة حياة عرار وملامح وشاعريته وأبعاد صعلكته فيشير إلى تناول د. محمود السمرة لحياة عرار وشعره حين قدم للطبعة الثانية من ديوانه ـ بعد أن صدرت طبعته لأولى عام ١٩٤٩ وهو عام رحيل الشاعر ـ إن الشاعر اختار لقبه الشعري المستعار من قول الشاعر عمرو بن شاس الأسدي في ابنه عرار [١]:

أردت عرارًا بالهوان ، ومن يرد   «عرارا» لعمري ، بالهوان فقد ظلم

وسمى شاعرنا ديوانه «عشيات وادي اليابس» نسبة إلى واد غزير المياه في شمال مدينة عجلون الأردنية كان يقطنه النور «الغجر» وهو يذكر في شعره أنه نسب ديوانه إلى ذلك الوادي تبركا به وبسكانه :

يا أخت واد قد دعوتك باسمه   وله نسبت تبركًا ديواني

ولد مصطفى وهبي التل «عرار» في مدينة إربد عام ١٨٩٧ ، وأتم تعليمه الابتدائي فيها ، ثم انتسب إلي مكتب «عنبر» في دمشق عام ١٩١٢ ، وعمل بعد قيام الدولة الأردنية الهاشمية في العديد من الوظائف الإدارية والعدلية ، وسرعان ما تجلت موهبته الشعرية المبكرة ، ومواقفه النضالية ضد الاستعمار

(١) الأهرام : ١٣ فبراير ٢٠٠٠ عرار شاعر الأردن

البريطاني ، التي أدت إلى نفيه خارج الأردن عدة مرات ، وتسريحه كثيرًا من عمله ، ولم يكن يشفع له خلال هذه الحياة العاصفة إلا صداقته وعلاقته الحميمة مع الأمير عبد الله الذي سيصبح الملك عبد الله عاهل الأردن ، وإن تخللت هذه العلاقة الفريدة انتقادات كثيرة من الشاعر للأمير ، ومقطوعات عديدة في الهجاء ، ذاعت شهرتها على ألسنة كثير من شباب الأردن ومثقفيه ، باعتبارها وثيقة سياسية واجتماعية تمثل حياة الشاعر وصراعاته ومواقفه خير تمثيل ، وتسجل اهتزازات وجدانه ، مقدما صورة صادقة لنفسه ومجتمعه وأحداث وطنه والأشخاص الذين خالطهم وعاشرهم ، وهي صورة كما يقول جامعو شعره وناشرو ديوانه ودارسوه ـ لا زيف فيها ولا افتعال .

ويضيف مؤرخو حياته وشعره أنه ـ في أخريات أيامه ـ انصرف إلى حياة بوهيمية حافلة بالسهر والشراب وعلاقاته الغريبة مع الغجر ، أبدع من خلالها عددًا من أجمل قصائده وأكثرها ذيوعا وانتشارا ، لمخالفتها المألوف والسائد ، وخروجها على المواضعات والتقاليد ، وتحديها السافر لسلطان الموروث ، بعد أن جرب وعانى صنوفا من النفي والسجن لم يعد بعدها يبقى على شيء أو يقيم حسابا لأحد .

يقول في واحدة من قصائد المنفى ، عندما كان منفيا في العقبة عام ١٩٣١ وجاءت ليلة العيد وهو بعيد عن زوجته وأولاده يقاسي لوعة الوحدة ومرارة الغربة والاغتراب :

أهكــــــــذا ! حتــــــــى ولا مرحبــــــا
لله أشــــــــكو قلبــــــك القلبــــــا
أهكــــــذا ! حتــــــــى ولا نظـــــــرة !
ألمــــح فيهــــا ومــــض شــــوق خبــــا
أهكــــــذا حتــــــــى ولا لفتــــــــة !
أنــــسم منهــــا عرفــــك الطيبــــا

ناشـــــــدتك الله وأيامنـــــا
ونــــشوة الحـــب بــــوادي الـــصبا
وغــــصة الــــذكرى وآلامهــــا
وحرمــــة المــــاضي ومـــا غيبـــا
لا تــــسأليني أي سر ، لقـــــد
أحـــال عمـــري خـــاطرًا مرعبـــا
فحـــسبك الآلام تزجينهـــــا
قلبـــا مـــن الآلام قـــد أتعبـــا

وبالرغم من مرارة المنفي والسجن ، والغربة والبعاد ، فإن خياله يتسع لغزلان بلاده ، وفاتناتها . ولا يتوقف هيامه بالحسن ولا النشوة العارمة التي تحركه إلى مواطن الجمال والجميلات ، وهو يقول :

كـــم رصـــعت أفقـــي نجـــوم المنـــي
ثـــم تهـــاوت كوكبـــا كوكبـــا
«بالـــسلط» غـــزلان كـــما قيـــل لي
هـــضيمة الكـــشح حـــصائد الخبـــا
المجـــــد والوجـــــد بقاماتهـــــا
عـــن غايـــة اللطـــف لقـــد أعربـــا
ريانـــــــة الأرداف ألحاظهـــــــا
ســـهم مـــن الإبـــداع قـــد صـــوبا
لكـــن ، هـــوى قلبـــي - وقـــد كـــان لي
قلـــب كبـــاقي النـــاس هـــذه الظبـــا !

يلفت النظر في شعر مصطفى وهبي التل «عرار» ... بالرغم من ارتباط حياته بالبادية ومجافاته للحياة المدنية وإيثاره القرب من قبائل الغجر والتعامل معهم ــ يلفت النظر في شعره سلاسته وتدفقه وانسياب تراكيبه ، واقترابه

الشديد من مواصفات الشعر الرومانسي الذي تدفق تياره واتسع مده في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته أو الشعر الوجداني ـ طبقا لتسمية الناقد الدكتور عبد القادر القط ـ وبهذا المعنى ابتعد شعر عرار عن جهامة الكلاسيكية التقليدية وصرامتها ، وامتلأ بتلك الروح الجديدة العارمة التي فجرها الرومانسيون بعواطفهم القوية المشبوبة وخيالاتهم الطليقة المحلقة .

وإذا كانت الثلاثينيات والأربعينيات قد شهدت توهج شاعرية عرار وإبداع أهم نماذجه وآثاره الشعرية ، فهي السنوات نفسها التي شهدت إبداعات بدوي الجبل وعمر أبو ريشة ونديم محمد وحامد حسن في سوريا والأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة وإلياس أبو شبكة وسعيد عقل في لبنان ، وإبراهيم ناجي وعلى محمود طه ومحمود حسن إسماعيل في مصر، وتوهج الشهاب الساطع الذي مثله أبو القاسم الشابي وانطفاءته المباغتة عام ١٩٣٤ ، فضلا عن الامتداد الشعري لشاعر القطرين خليل مطران بعد رحيل شوقي وحافظ والتأثير الطاغي للحركة المهجرية من خلال إبداع شعراء الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية ونجوم هذه الحركة الساطعين : جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وآل المعلوف وغيرهم ، بينما كانت الكلاسيكية الراسخة في العراق تتكئ إلى منجزات الزهاوي والرصافي والجواهري وتفسح الطريق أمام وجدانيات أحمد الصافي النجفي وأحزانه ، قبل أن يبزغ فجر النجوم الجديدة : السياب ونازك الملائكة والبياتي والحيدري ، في هذا الأفق الشعري المفعم بزخم التغيير ، وتخلخل القصيدة العمودية ، واكتمال القصيدة الرومانسية أو الوجدانية. ، كان مصطفى وهبي التل ـ الذي يؤكد شعره أنه كان على وعي بما يحدث في الساحة الشعرية من تحديث وتغيير وتدفق دماء جديدة في شرايين القصيدة العربية ـ يمثل حركة في الاتجاه الصحيح المواكب لإيقاع التمرد والتطور ، المتطلع إلى فضاء جديد للقصيدة .

يقول في قصيدة عنوانها «راهب الحانة» أبدعها وهو منفى إلى جدة سنة ١٩٢٣ عندما سجن في أحد أقبيتها وحيدا وقد ربط إلى فلق خشبة :

راهب الحانة دعني أنضوي تحت لوائك
وأرى الكرم بعيني مستجيبا لندائك
طوع إيحاء دعائك كلما أمعنت عصرا
جاءك العنقود خمرا واستفاض الكأس بشرا
والأسى الكرار فرا فانظر القلب الشجيا
كيف فرا وانظر الزفرة حرى
كيف حالت نغما عذبا شجيا
واستحالت غصة اليأس بسر الكأس
فهي في الناي غناء وعلى الأفواه شعر
وبصدر البث نجوى وبنفس الحر ضر

ثم يقول عرار «شاعر النور» :

سدت الأرض بوجهي باب إمكان الهناء
والسما أحسبها كالأرض يعنيها شقائي
فأنط بالكأس والصهباء أسباب رجائي
راهب الحانة واقتلني خلودا في فنائك
أنشر العمر وأطويه بطيات ولائك
علها ترفعني غمزة ألحاظ إمائك لسمائك

وهو شعر يذكرنا بانطلاقات الشابي ، وخمريات أبي شبكة ، وترانيم أحمد الصافي النجفي ، ويؤكد نبض التجليات الشعرية العربية ـ على امتداد الوطن العربي ـ من خلال تنويعات شتى للوتر الرومانسي الوجداني .

من أشهر قصائد «عرار» وأكثرها دورانا قصيدته «العبودية الكبرى» التي يهاجم فيها مدعي عام اللواء الذي أساء استقبال صديقه «الهبر» شيخ قبيلة الغجر أو النور ولم يعامله المعاملة اللائقة به باعتباره زعيما لقومه ، فقال يخاطب هذا المدعي العام :

يـا مـدعي عـام اللـواء ، وأنـت مـن فهـم القـضيه
الهـبر جـاءك للـسلام فكيـف تمنعـه التحيـه ؟
ألأن كـسوته ممزقـة وهيئتـه زريـه
قـد صـده جنـديك الفـظ الغلـيظ بـلا رويـه
وأبي عليـه أن يـراك فجـاء ممتعـضا إليـه
يـشكو الـذي لاقـاه مـن شـطط بـدار العادليـه
ويقـول إن زيـارة الحكـام ، لا كانـت ، بليـه !
أسرع وكفـر يـا هـداك الله ، عـن تلـك الخطيـه
أدخلـه حـالا للمقـام ، وفـز بطلعتـه البهيـه
ودع المراسـم والرسـوم لمـن عقولهمـو «شـويه» .
فـالهبر مـثلي ثـم مثلـك أردني التابعيـه !

هذه اللغة الشعرية العارية ، التي هي أقرب ما تكون لحديث الناس من دون صنعة أو تزويق ، هي اللغة التي كان عرار يحرص عليها في قصائد النقد الاجتماعي وهجائياته السياسية ، وفي رسمه لمثل هذه الصورة أو اللوحة القلمية لبعض الشخصيات الحاكمة والمتسلطة ومفاكهاته وتضميناته الشعبية من المفردات والتعابير والأمثال والأوصاف التي لم يكن جمهور ذلك الزمان يألفها ويعتادها في الشعر ، من هنا ، أصبح شعر عرار جزءا من النسيج الوجداني الشعبي في الأردن ، لا يقتصر على الصفوة أو المثقفين ، بل يخترق الحواجز ، ويردده الطلاب والعمال والموظفون والحرفيون ، ويرون فيه هويتهم الأردنية ونبض أحوالهم السياسية والاجتماعية ، لهذا السبب حجب بعض شعره اللاذع ، لأسباب سياسية وأخلاقية ، لكن هذا لم يمنع الناس البسطاء من حفظ هذا الشعر المحظور ، وكان صديقنا خالد الساكت ينشدنا بإلقائه العميق كثيرا مما يحفظه من شعر عرار الذي لا يضمه ديوانه ، فيملؤنا بنشوة صاخبة متمردة ، ويجعلنا على يقين من أن هذا الشاعر الذي رحل في الثانية والخمسين من العمر هو حقيقة شاعرية الأردن في النصف الأول من القرن العشرين ، وهي شاعرية

يثقل جوهرها في ميزان الشاعرية العربية منذ مطالع القرن العشرين ، وسيبقى ديوانه «عشيات وادي اليابس» في طبعتيه اللتين صدرتا في عامي ١٩٤٩ و١٩٧٢ دليلا على هذه الشاعرية الكبيرة ، التي اقترب من جوهرها «البدوي الملثم» يعقوب العودات في كتابه عرار شاعر الأردن ومحمود المطلق في تقديمه للطبعة الأولى من الديوان والدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه الكبير عن الشعر الحديث في فلسطين والأردن .

يبقى أن أشير إلى لحظة مأساوية تجدد فيها الحديث عن مصطفى وهبي التل عندما اغتيل ابنه وصفي التل - الذي كان رئيسا لوزراء الأردن ـ وكان مصرعه في القاهرة ، في السبعينات ، واحتجاجا على سياساته ومواقفه التي رأى قاتلوه أنها غير وطنية وغير قومية .

فهل كان شعر «عرار» ـ الوطني الثائر ـ يهيئ لمثل هذه النهاية الدرامية التي تعرض لها ابنه متهما في وطنيته وقوميته ؟

عبد العزيز البشري

شيخ الظرفاء



هو ابن الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر، ولد ونشأ بحي البغالة عام ١٨٦٦م ، وهو أديب مصري من الكتاب المترسلين بالقاهرة، ألحقه والده بالجامع الأزهر ليدرس نفس العلوم التي تعلمها هو ولينشأ مثله من رجال الدين، وليشغل في يوم ما نفس المنصب الذي يشغله، والتقى عبد العزيز في ساحة الدرس بالأزهر بزميله في الدراسة الدكتور طه حسين، وتعارفا وتصادقا، واستمرت صداقتهما حتى كبرا، وسلك كل منهما طريقه المقدر له في الحياة، ولكن عبد العزيز لم يقتنع بنوع العلوم التي يتلقاها في الأزهر، واتجه بكليته إلى دراسة الأدب العربي قديمه وحديثه، وإلى التعرف إلى الأدباء البارزين شرقيين وغربيين، ووجد في أثناء دراسته أن الكتب الغربية المترجمة إلى العربية سواء من الإنجليزية أو الفرنسية حتى ذلك الوقت قليلة لا تشبع نهمه إلى العلم، فقرر أن يتعلم اللغة الفرنسية ليتلقى الأدب الذي يعشقه من منابعه، ولكنه لم يفز من اللغة الفرنسية إلا بمبادئها الأولية، فاتجه إلى قراءة كتب الأدب العربي القديمة والحديثة قراءة واعية، واختلط في جل أوقاته بالمصريين أبناء البلد الخلّص،

واشترك معهم في أحاديثهم ونكاتهم ودعاباتهم، فاكتسب منهم ما تمتع به من خفة الظل والروح المرحة الطروب والعشرة الحلوة وشرف النفس، فانعكس كل ذلك على كتاباته ، مما جعل الناس يقبلون على قراءتها بحب وشغف، وتروى عن عبد العزيز البشري فكاهات ونوادر كثيرة اشتهر بها حتى صنف من ظرفاء العصر الحديث، ويرى نقاد الأدب الحديث أن البشري تأثر في كتاباته بما أفاد من قراءاته في الآداب الغربية من أفانين الفاكهة، فلم يكتب في تصويره الأشخاص بتعقب هناتهم وسقطاتهم، بل تعدى ذلك إلى الغوص في نفسياتهم ومداخل طباعهم، وقد وصف الشاعر أحمد عبد المجيد أسلوب البشري بأنه: «يجمع بين لغة الجاحظ الذي افتتن به وفضله على غيره، وبين البليغ من لغة معاصريه» ، وقال عنه صديق عمره طه حسين: «عبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفًا على حياتنا المصرية وعلى حياة القاهرة خاصة، وهو أشد كتابنا نفوذًا إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها، فآثاره أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية في عصر الانتقال، ويعد عبد العزيز البشرى من أبرز من كتبوا المقالة الساخرة في النصف الأول من القرن العشرين، فله أسلوب متميز في أدب المقالة الصحفية، يتميز بدعابة مصقولة ودقة في الوصف أشبه بأساليب المتقدمين من أعلام الكتاب في العصر العباسي.

وقد ولى البشري القضاء الشرعي ، كما ولى وظائف حكومية مختلفة كان آخرها مراقب إداري لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وظل يعمل في حقل الأدب الرفيع حتى وافاة الأجل المحتوم في يوم ٢٥ مارس ١٩٤٣م ، فنعته الصحف والمحافل الأدبية.

أشهر أعماله:

في المرآة (١٩٢٧) – المختار جزآن (١٩٣٥)، ويحتوي الكتابان على صور وصفية تحليلية ساخرة لشخصيات أدبية وسياسية شهيرة معاصرة – قطوف جزآن جمع ونشر بعد وفاته – التربية الوطنية.

وصدرت عنه دراسة موسعة للدكتور جمال الدين الرمادي، وقد وصف

أحد النقاد عبد العزيز البشري فقال: «استحدث في أساليب اللغة أسلوبًا فذا، أضفى عليه من روحه المرحة وعلمه الواسع، وذوقه السليم، فانفرد به بين الكتاب».

وقد اشتهر الشيخ عبد العزيز البشري بسخريته الراقية، ورويت عنه العديد من حكايات ظرفه وسخريته اللاذعة ، وقد بلغ تهكمه الذروة حينما قص علينا قصة أحد رواد القهوات وهو منتفخ الشدق، حاد الوجه، يتأبط أداته في الحياة وهي رزمة من الجرائد الجديدة والمجلات القديمة ، يدعى بحملها العلم والأدب والفلسفة والسياسة وكل شيء .

وهذا الرجل سلم على البشري ومجموعة أصحابه في تظرف مكروه وأدب مبتذل ثم جر كرسيًا وحشر نفسه في الزمرة حشرًا.

ومن باب ما يدعونه باللياقة صفق أحدهم فجاء الغلام فأومأ إلى (الأفندي) وسألوه عما يطلب (سادة ، أو بسكر شوية) ، وقد جرت العادة أن يعتذر ضيف القهوة أولًا.

فإذا ألح المزور فقهوة أو شاي مثلًا، فإذا كانت الألفة متمكنة (فكازوزة) أو ما يقرب من ثمن الكازوزة ، مما لا يعدو الثلاثة قروش أو الأربعة قروش على أكثر تقدير.

بعد هذا أتعرف ماذا طلب صاحبنا؟ الذي لا نعرفه؟

لقد طلب واحد DINNER عشاء.

ويروى البشري أنه اعترضه ذات يوم أثناء رجوعه من الديوان شاب أنيق الملبس لعله طالب في إحدى المدارس العالية، أو السنوات الأخيرة من التعليم الثانوي، وقال لي : يا عم كم الساعة الآن؟

فطالع البشري ساعته وقال له : الساعة ٢ وسبع دقائق.

فحسر الشاب كمه الأيسر فانكشفت عن ساعة يد ذهبية، ونظر فيها وقال:

لا.. لا.. ساعتك مؤخرة أربع دقائق.

ثم خلى بين البشري وبين الطريق وانطلق لتوه.

وبعد أن أجال البشري ظنه في شأنه، أدرك أنه ربما كان «مفتش عموم الساعات»..!

كما سخر البشري من مهندس غليظ الوجه منتفخ الأشداق، منكر الصوت ثقيل الظل، شديد الوطأة على النفس، كثير التهافت على المجالس لا يرى جماعة ممن ابتلاهم القدر بمعرفته إلا جاء بكرسي وزج بنفسه بينهم، لا يجلس بكل ثقله على الأرض، ولكن يجلس على أرواحهم، ثم يظل ثابتا في المجلس لا يبرح ولا يتحلحل ، ولا يقوم لحاجة ولا تصرفه ضرورة.

ومن نوادره وأطرفها أنه كان ضاغطًا (كابسًا) يومًا على بعض أولئك الصحاب المساكين، فجاء عامل البريد ، ودفع إلى أحدهم خطابا، وفيما كان الرجل يعالج شق الغلاف عنه، كان صاحبنا يسرع في إخراج نظارته فيمسحها بمنديله، ثم يضعها على عينه استعدادًا لقراءة الجواب.

كما وصف البشري جهاز العروسة وصفا بديعًا وصور عربات (الكارو) وهي تتهادى بهذا الجهاز ، فهذه تحمل حشية (مرتبة) وغطاء سرير، وهذه تحمل طنفسة وكرسي خيرزان ، وثالثة بسط عليها لحاف مزخرف وثلاث وسائد مدبجة الأطراف ، ورابعة عليها دولاب «يتوج بثلاثة أبواب من البلور، وخامسة تظهرها كنبة وفوتيان منجدة ثلاثتها بحرير أرجواني وسادسة تحمل سائر (الطقم) من كراسي وكنصول ومناضد.

وهكذا حتى يأذن الله ويجيء دور آنية النحاس من أباريق وطشوت غسل الثياب ، وطشوت الحمام، ومن قلل ومغارف وصواني إلخ.

كما يروي البشري أنه كان مع لفيف من أخوانه يقضون أيامًا في ضيعة وجيه من أفراد الأسرة الأباظية بمديرية الشرقية، فقام الشيخ يتوضأ وترك جبته

السوداء معلقة فلما عاد وجد بعض العابثين قد رسموا عليها بالطباشير وجه حمار نكاية فيه وشغفًا بالعبث به والسخرية منه.

فنظر إليهم الشيخ في ثبات دون أن يفقد أعصابه وقال والابتسام لا يفارق شفتيه:

- من فيكم اللي مسح وشه في الجبة ؟

وكان البشري يسير ذات يوم في الطريق العام، فاعترض سبيله أحد القرويين، وقدم إليه خطابًا ليقرأه، وقال له : أنه رجل أمي يجهل القراءة والكتابة، وقد جاءه هذا الخطاب من بلده، وهو يتحرق شوقًا لمعرفة مضمونه.

وكان خط الخطاب رديئًا إلى أبعد حد حتى يصعب تفسير عباراته وحل طلاسمه ورموزه.

فلم يستطع عبد العزيز البشري أن يقرأ سطرًا واحدًا من الخطاب ورده إلى القروي وهو يعتذر عن عدم استطاعته القراءة .

وهنا ثارت ثائرة القروي وقال في ضيق:

- أمال شيخ إيه؟ ولابس عمة ليه؟

فأسرع عبد العزيز البشري وخلع عمامته لتوه ووضعها في الحال فوق رأس القروي وقال له:

- اقرأ أنت يا سيدي أدي العمة على رأسك.

وروى البشري هذه الرواية عن نفسه قال:

كنت طالبًا في الجامع الأزهر، وقد ذهبت يومًا إلى بائع سلطة وطعمية لأشترى طعام غذائي ، ولم يكن معي غير خمسة مليمات وهي لا تكفي إلا لشراء رغيف من الخبز.

وعز على أن آكل الرغيف دون إدام ، فقصدت البائع وأعطيته المليمات

الخمسة وقلت له:

- اعطني رغيف خبز.

ومد الرجل يده بالرغيف ومددت يدي لأتناوله إلا إنني تعمدت أن أفلته من يدي فسقط الرغيف في وعاء مكشوف فيه سلطة طحينة.

وأراد البائع أن يبدله بغيره ولكنني قلت له:

- معلش.. معلش أكله كده..

وهكذا فزت بغموس بدون ثمن.

وكان البشري ذات عام يصطاف في الإسكندرية، وقد قصد ذات يوم إلى جهة الشاطئ ليتناول الغداء.

ولما أراد المرور كان الزحام شديدًا والسيارات تملأ الطريق ذاهبة وراجعة فوقف البشري بجوار نقطة الإسعاف ينتظر انتهاء سيل السيارات ليتمكن من المرور في أمان دون أن يعرض نفسه لأخطارها.

ومر الوقت دون أن ينقطع رتل السيارات، حتى مرت عشرون دقيقة وأخيرًا التفت إليه أحد رجال الإسعاف، وقال له:

- ما تفوت يا سيدنا الشيخ.

فأجابه البشري:

- بس مش عايز أتعبكم.

وذهب الشيخ عبد العزيز ذات يوم إلى حدائق الحيوانات وفي صحبته ابنه الصغير وما إن رأى الطفل الزرافة حتى صاح قائلًا:

- ماما قالت لي : إن اللي رجليه في الميه يأخذ زكام، أمال الزرافة رجليها في المية وما عندهاش زكام ليه؟

- أصل رقبتها طويلة قوي - وعلى بال الزكام ما يوصل لمناخيرها لازم يفوت شهر أو شهرين.

وينزع الشيخ البشري إلى شيء من التطير لا يبلغ في حدته طيرة ابن الرومي، اعتاد أن يجلس في بار الأنجلو حيث يجتمع الكثير من الوجهاء والأدباء ورجال السياسة، وكان بهذا البار خادم يدعى «غراب» له مع الأستاذ البشري نوادر ومفارقات لم تنته إلا بموت هذا الخادم ثم موت البشري من بعده.

وكان مثار الاحتكاك بينهما طيرة الأستاذ البشري من غراب، حتى كان لا يفتأ يتهمه بأنه يمثل النحس التام وفيه يقول:

- كنت أرسل غرابًا كي يدفع ثمن المياه مثلا فيرجع إلى قائلًا : إن شركة المياه قد غرقت فإذا أرسلته لدفع ثمن النور عاد يقول : إن الشركة قد احترقت.

وإن أمرته أن يحضر «تاكسي» يقول: إن سائقي التاكسي قد أضربوا عن العمل وهكذا.

وقد أعلن الأستاذ أنه مستعد لأن يدفع لغراب أتاوة شهرية نظير ألا يريه وجهه مدى الحياة.

وكان بديهيا أن يحاول غراب دفع التهمة عن نفسه، إلا أنه كان يخشى أن يصرح بدفاعه أمام الأستاذ البشري، فكان يقول لأخصاء الأستاذ:

- أتعلمون لماذا يتهمني البشري بك بالنحس؟

المسألة أن الأستاذ - وكان البشري يقطن حلوان إذ ذاك - كان يأمرني في آخر الليل بأن أأتيه بسيارة تاكسي توصله إلى محطة حلوان من باب الأنجلو ويشترط في ذلك شروطًا أولها أن يكون التاكسي من نوع الذي يسجل عداده أجرًا أقل من أجر غيره.

والثاني أن تكون مقدمة التاكسي مواجهة للطريق إلى محطة حلوان مباشرة حتى لا تطول المسافة بدوران التاكسي.

فلا أزال أبحث عن طلبه حتى أجد السيارة المنشودة في ميدان الأوبرا ، ويأبى السائق أن يأتي معي من ميدان الأوبرا إلى المقهى دون أن ينزل إشارة العداد، فكنت أحار في أمري وأرجع بخفي حنين فيتهمني الأستاذ بالنحس.

ومن نوادره الطريفة أنه كان لوزارة المعارف فيما مضى وكيل يدعى المغربي باشا، وكان الكثيرون يتهمونه بأنه إنجليزي أكثر من الإنجليز.

وكثيرًا ما كان موظفو المعارف يحملون عليه إذا ما تناول حديثهم شخصه إلا الأستاذ البشري فقد كان يدأب على الدفاع عن الرجل وخلقه وعمله إلى درجة تدهش زملاءه.

وظل البشري على إخلاصه للرجل ستة عشر عامًا إلا أنه حدث ذات مرة أن جلس البشري بين إخوانه ودار الحديث حول المغربي باشا، فذكر الأستاذ دون قصد أن المغربي باشا قد أساء إليه في بعض المسائل.

وانتهى الليل وأصبح الصباح، فإذا بالمغربي باشا يقابل الأستاذ البشري ويعاتبه على أنه تناوله بسوء ليلة أمس.

فدهش الرجل لنقل الخبر بهذه الصورة وقال:

- بقى في ظرف ست ساعات بس يروحوا يقولوا لك : إن البشري أساء إليك وفي الستاشر سنة اللي فاتوا دول ما فيش واحد قال لك: إن البشري كان دايمًا يدافع عنك.

ومما يروى عن الشيخ عبد العزيز أنه كان وهو قاض شرعي مجتمعًا في مجلس مع المرحوم الفريق إبراهيم فتحي وكان وزيرًا للحربية في تلك الآونة. فأراد الباشا الفريق أن يمزح مع الشيخ القاضي فقال له:

- هل في الحديث، قاض في الجنة وقاضيان في النار؟

فأجاب الشيخ عبد العزيز:

- نعم وفي القرآن الكريم.

«فريق في الجنة وفريق في السعير»

وحدث أن كتب الأديب الشاعر شوقي أمين المحرر بالمجمع اللغوي أبياتا من الشعر عندما أدركه الصلع وهو لا يزال في شرخ الشباب.

قال:

رضيت بالشيب تعروني مواضحه	**والسن لم تزل للهو أبانا**
ما بال شعري قد جفت منابته	**وارتد منجردًا ما كان فينانا**
أعددت للشيب صبغا حين باكرني	**يا ليت شعري ماذا أصنع الآنا؟**

فلما سمع الشيخ البشري هذه الأبيات قال ضاحكا للشيخ شوقي أمين:

- حاجة بسيطة قوي لمعها.

وحدث أن كان لطفي السيد يطلب من الشيخ البشري مرات عدة أن يلضم له سبحته عندما تقطع.

وكان الشيخ البشري يجري هذه العملية في إتقان تام.

وفي أحد الأيام طلب لطفي السيد الشيخ عبد العزيز البشري لأمر ضروري عاجل بيد أنه لم يجبه فاستشاط غضبًا.

وعندما حضر البشري بادره لطفي السيد قائلًا:

أنت كنت فين يا شيخ عبد العزيز أنت مش عارف أننا عايزينك؟

أنت عارف أنت بتشغل إيه؟

فضحك البشري وقال في بساطة:

طبعا عارف – لضام سبح يعني ح أكون أيه؟

هذه جوانب من مفارقات البشري ونكاته وهي تدل على مقدار ما اتسم به من روح فكهة، ونفس مرحة، وإحساس فكاهي رفيع.

ولم تكن سخرياته تجرح الأعناق، أو تقطع الرقاب ، إنما كان يمزجها بروح

المرح والدعابة مما يخف من حدتها ويهون من شدتها، ويجعلها أكثر أثرًا في النفوس وأعمق فعلًا في القلوب.

كما كانت نكاته مزيجًا من البلاغة والتفنن والذكاء اللمَّاح، والقدرة على التلاعب بالألفاظ والمعاني.

وهي لا تنحدر إلى هوة عميقة من الإسفاف، أو إلى غور عميق من السخف، إنما تشيع الطرافة في أجزائها، ويتجلى الظرف في سردها، وتتلاءم نتائجها مع مقدماتها.

ويحلل الأديب خيري شلبي شخصية عبد العزيز البشري وروحه المرحة الساخرة، فيقول:

«العجيب حقا أن صاحب هذه الروح الفكهة المرحة الساخرة كان في أعماقه – في الواقع – يشعر بالسأم والملامة والكآبة، وصحيح أن نوعا من الاكتئاب الفلسفي يمكن أن يعترى الكثيرين من أصحاب الثقافات العميقة والمواهب الفذة، ولكن رجلا يمتلئ بمثل هذه الطاقة من المرح ومن الصفاء الإنساني، وعمق الإيمان، والشعور بالتحقق على مستوى جماهيري عريض، يصعب وقوعه فريسة للملل والشعور باللا جدوى.

ها هو ذا يكتب في مذكراته الشخصية الخاصة في سنة ثلاثة وعشرين وتسعماية بعد الألف تحت عنوان: إلى أين؟ إلى أين؟ ألا من قرار؟! فيقول: «لست أدري لعمري فيم أنا الآن! تالله ما أراني في شيء أبدًا لأنني لا أشعر بأنني مجتمع الشمل بهذا (الآن)! ولا أراني شعرت بهذا قط في طول الحياة! ما اطلعت على ساعة من ساع الزمن إلا رأيتني مشغولا عنها بالانحدار إلى التي تليها ولا صرت إلى يوم من الأيام إلا أحسست أن همي إلى ما وراءه ، ولا أفضيت إلى سنة من السنين إلا كان بالي إلى ما بعدها وشغلي كان به، فأنا من يوم طالعت هذه الدنيا لا أجدني إلا على سفر دائم لا لبثة فيه ولا هوادة، ولا مناخ لراحة ولا لزاد: سير في النهار مغذ ، وسري في الليل حثيث!

اللهم إني لأبتغى القرار في هذه الدنيا ولو ساعة واحدة أستريح فيها إلى

نفسي وأشعر بالسكون معها والاطمئنان!

اللهم إني لأبغي أن أجدني في مساحة من الزمن، ولو ضاق ما بين حديها فأستشعر السكون، وأفرق بين ما كان وبين ما يكون، وأستطيع في كل أثناء هذا الزمان، أن أعرف فيم أنا الآن!

ولكن كيف لي بهذا ومن ورائي ذلك السائق الخفي المرير ما يلوح لي مجثم إلا بعثني منه، ولا يتراءى لي مثوى إلا أزعجني بسوطه عنه، فأنا بين يديه دائم الجري لا أحط رحلا من سفار ولا أطمئن على طول المدى إلى قرار.

وإني لأرى أنني أنا الذي يمر بالأيام وليست الأيام هي التي تمر بي، وأنني أنا الذي يطوي السنين وليست السنون هي التي تطويني، وإني لأجد أن شأني مع الزمن لكشأن المسافر في القطار، يخيل إليه أنه ثابت في موضعه وأن ما يجوز به من الأعلام والشخوص، إنما هو الذي يجري على خلاف وعلى هذا لو أذن لي في الوقوف ولو لحظة واحدة لاستشعرت بالقرار في الدنيا وأحسست هذا الذي يدعونه (الآن) ، ولكني برغمي السائر المغذ لا ينيخ راحلة ولا يحط رحلا، فإذا لم أنعم بالاطمئنان إلى الزمان فلا ملامة على الزمان!

ترى ما حاجتي أو ما حاجة هذا السائق الخفي الذي لا يني عن دفعي دائمًا إلى الأمام ترى ما حاجته إلى أن أحسو العمر حسوا، فما كنت في ساعة من الدهر إلا استشرفت لما بعدها، ولا طلع عليّ يوم من أيام العمر إلا تشوقت إلى غده، ولا دخلت على سنة إلا تعجلت السنة التي من ورائها، حتى لو تهيأ لي أن تجمع أيام عمري في سجل واحد لأسرعت إلى تقليب صفحاته حتى آتى من فوري على آخرها، وفي آخرها لو علمت آخر العهد بالحياة.

ترى ما خيري أو ما خير هذا السائق المرير في ألا يدعني أطمئن في هذه الدنيا لشيء أو أستريح فيها إلى حال: وما إن اشتقت إلى شيء فطالعتني منه البداية، إلا شغلني عنها الاستشراف إلى النهاية، وما إن هفت نفسي إلى أمر فهممت بالإصابة من بواكيره، إلا صرفني عنها التشوق إلى غاياته وما خيره وما حصل في يدي شيء مما تقدمت به المنى وجد في طلبه المسعى إلا أسرع إلى نفسي

الزهد فيه والتطاول بالمنى إلى سواه! فأنا من الدنيا ومن ساعاتها كالكرة بين وهز اللعباء، تظل تتقاذفها الأيدي ولا تستقر في موضع أبدًا!!

أتراني أطلب طي الحياة وأنا كسائر الناس حريص على هذه الحياة؟ والله إن هذا محال في القياس بديع.

إذن فما هذه الشهوة الملحة إلى فناء الأيام، وهذه الشهوة الملحة إلى بقاء الأيام؟ إلخ.

هذا هو القلق بعينه.

***

لقد ولى الكثير من المناصب العلمية والعملية لكن عمله في القضاء الشرعي كان أطولها عمرا وأشهرها، إلا أن جميع قراء الأدب العربي من أوائل قائمة القرن العشرين لا يعرفون إلا عبد العزيز البشري صاحب القلم الرفيع، الذي ربما كان من أرفع الأقلام في تاريخ الأدب العربي الحديث كان مدرسة قائمة بذاتها لم ولن تتكرر بهذه القوة والنصاعة، حيث كان دوره بالنسبة للنثر العربي قرينا لدور إسماعيل صبري بالنسبة للشعر العربي، فإذا كان هذا الأخير قام بإحياء الكلاسكية الشعرية العربية وأحيا القصيد العربي ومنحه القوة والشباب والحيوية وصنع الأرض التي وقف عليها أبناؤه الشعراء من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، فإن عبد العزيز البشري قد حرر اللغة العربية في نثرها من العجمة العثمانية السائدة، ومن الركاكة التي سادت في الأسلوبية العربية بغياب المعاني الرفيعة والغايات النبيلة للأدب ليحل محلها التشدق بالمترادفات وسجع الكهان وتنضيد العبارات الفجة الممجوجة التي تثبت جودة وخبرة بالمفردات لكنها تثبت في نفس الوقت فراغ العقول من المضامين والمعاني الجديرة بأن تحملها هذه المفردات الكثيرة وجاء أسلوب البشري كسلاسل الذهب تحتوي مفرداته على فكر وفن وخبرة بالحياة، وبكل معطيات العصر الحديث، ومن هنا كانت جميع الصحف المصرية تخطب وده ليشرفها بالكتابة لها، وربما كان بابه الصحفي (في المرآة) أشهر وأخلد باب في الصحافة العربية حيث كان يقدم فيه

وجوهـا مـن عليـة القـوم يـبرع في وصـفها وتشخيـصها ورسـم معالمهـا النفـسية والخلقية والشكلية بقدرة أدبية فذة ، ولأن البشري صاحب نفس صافية موهوبة في فن السخرية العميقة بما يضعه على قائمة الظرفاء، فقد كان كل مـن يقـع تحت طائلة سخريته لا يشعر بالغضب قدر ما يشعر بكثير من الزهو والفخر لأن قلـم البشري قد تناوله حتى ولو بالسخرية.

استطاع أن يـلاءم بين ثـلاث خـصال أحسن ملاءمـة، وكـوَّن منهـا مزاجًـا معتدلًا رائع الاعتدال ، فهو مصري قاهري كأشـد مـا يمكـن أن يكـون الإنـسان مصريًا قاهريًا، يحس كما يحس أبناء الأحياء الوطنية، ويشعر كما يشعرون، ويحكم كما يحكمون، لولا أن ثقافته ترتفع به إلى هذه الطبقـة الممتـازة التـي تحـسن الحكـم على الأشياء وهو على كل حال قاهري الحس، قاهري الـشعور، قـاهري الـذوق، وما أراه يجد مشقة يـسيرة في أن يتحـدث إلى أشـد الطبقـات في الأحيـاء الوطنيـة تواضعًا ، وما أراه يحتاج إلى أن يبذل جهدًا ضئيلًا في أن يبلغ من الحديث إلى هذه الطبقات رضي نفسه ورضي محدثيه، فهـذه خـصلة والخـصلة الثانيـة أنـه بغـدادي الأدب كأشد ما يكون الأدب بغداديا ، قد عاشر أبا الفرج الأصبهاني وأصحابه، فأطـال عـشرتهم وتـأثر بهـم، وانطبعـت نفسه وعقلـه ولـسانه بطـابعهم، فهـو إذا تحدث إلى المثقفين ، تحدث بلغة الأغاني، لا يكاد يصرفه عن اللغة صارف، إلا أن يأتي من قرارة نفسه المصرية القاهرية، فإذا هو يلقى النكتـة المـصرية بارعـة رائعـة لاذعة، ولكن لذعا يؤلم ولا يؤذي، إن أمكن مثل هذا التعبير، فهذه خصلة ثانية.

والخصلة الثالثـة أنـه قـد ألم بحـظ مـن حيـاة المترفـين الـذين عرفـوا الحـضارة الغربية وذاقوها وتمثلوها ، واستمع لأحـاديثهم وشـاركهم في هـذه الأحاديـث، فأخذ من هذه الحضارة الأوروبية شيئًا يسيرًا خفيف الظل قوي التأثير في الوقت نفسه يستطيع أن يلائم مصريته الموروثة وبغداديته المكتسبة، فتكون لـه مـن هـذه الخصال الثلاث مزاج غريب اشتركت في إنشائه بغداد والقاهرة وباريس.

اشتركت في تكوين هذا المزاج ووفقـت في هـذا التكـوين إلى أبعـد مـدى، إلى مدى لم توفق إلى مثله في تكـوين كاتـب مـن كتابنـا المعـاصرين فأنـت واحـد عنـد كتابنا المعاصرين المعاصرين ، فأنت واجد عند كتابنـا المعـاصرين الظـاهرين هـذه

العناصر الثلاثة كلها ، ولكنك ترى العربية تغلب على هذا، والمصرية تغلب على ذاك، والإنجليزية أو الفرنسية تغلب على ثالث، فأما أن تتوازن هذه العناصر وتأتلف ويحب بعضها بعضا، ويطمئن بعضها إلى بعض، ويجتهد كل منها في أن يعين، فذاك شيء لا تظفر به إلا عند عبد العزيز.

ويذكر الأديب خير شلبي أن أدب البشري الساخر كان مُرضيا مُعجبا لطبقات المثقفين جميعا إذا قرأه الأزهريون أعجبوا به لأن فيه شيئا من الأزهر، وإذا قرأه أبناء المدارس المدنية أعجبوا به لأن فيه روحًا من أوروبا ، وإذا قرأه أوساط الناس الذين ليسوا من أولئك ولا من هؤلاء أعجبوا به لأن فيه روحا من مصر ، وإذا قرأه أهل الشام والعراق أعجبوا به لأن فيه الروح العربي الخالص القوي والغريب أن التآم هذه العناصر قد أتاح لعبد العزيز ما لم يتح لكاتب آخر من المعاصرين ، فهو من أكثر الكتاب المحدثين اصطناعًا للنكتة البلدية، يصطنعها بلهجتها العامية في غير تكلف ولا تحفظ ولا احتياط: يأخذها من حي السيدة أو من حي باب الشعرية ، فيضعها في وسط الكلام الرائع الرصين الذي يمكن أن يقاس إلى أروع ما كتب أهل القرن الرابع والثالث للهجرة، فإذا نكتته البلدية العامية مستقرة في مكانها، مطمئنة في موضعها، لا تحس قلقلا ولا نبوا، ولا يحس قائلها قلقا ولا نبوًا ، ولكنها تفجؤة فتعجبه وتملأ نفسه رضا، ثم هو يحس أن الكلام ما كان ليستقيم لولا أن هذه النكتة قد جاءت في هذا الموضع واستقرت في هذا المكان .

وهذا الذي يضعه بالنكتة البلدية في يسر ولباقة لا يعرف سرهما أحد غيره، ولعله هو لا يعرف سرهما، ولعله لا يتعمد ذلك ولا يصطنعه، وإنما هو وحي الطبع وإملاء الفطرة، هذا الذي يصنعه بالنكتة البلدية في يسر ولباقة يصنعه بالكلمة الأوروبية أو الجملة الأوروبية فأنت تقرأ الفصل من فصوله فما تشك في أنك تقرأ لبديع الزمان، وإنك لفي ذلك وإذا كلمة فرنسية تفجؤك فلا تزيد على أن تذكرك بأنك تقرأ لعبد العزيز البشري ليس غير.

وأغرب من هذا أنه يجمع بين الكلمتين الأوروبية والبلدية في جملة واحدة من سياق عربي رصين، فإن هذا كله يأتلف وينسجم كأحسن ما يكون الائتلاف

والانسجام، ألم يجمع في جملة واحدة هذه الكلمة الفرنسية «موريه» وهذه الكلمة البلدية «الآلاج» فاقرأ الجملة العربية الرصينة التي اجتمعت فيها هاتان الكلمتان، فلن ترى فيها نبوًّا ولا قلقا ولا اضطرابًا ، هذا على أن أحدنا قد يحتاج إلى أن يُورد الكلمة البلدية أو الأوربية في سياق الكلام الهين الذي لا يتكلف فيه رصانة ولا جزالة ، فيدور حول هذه الكلمة ويدور، ولا يأمن مع ذلك أن يتورط في الثقل والاستكراه!

وأخرى تعيننا على تعرف المصدر لما يمتاز به فن عبد العزيز، وهي أنه قوي الحس إلى درجة نادرة حقًا، لا يكاد يمر به شيء إلا التقطه التقاطًا، ورسمه في نفسه رسمًا، يخالطها مخالطة حتى يصبح كأنه جزء منها، ثم هو لا يكتفي بالتأثر والنقاء ما يعرض لنفسه من الأشياء والخواطر، ولكنه سريع التأثر سريع التأثير، فهو إذ أحس لا يكن ما يُحسه، ولكنه يعلنه ويظهره، فهو يتلقى الأشياء مسرعًا، ويعكسها مسرعًا، وتعمل نفسه الخفية أو ضميره المكنون فيما بين ذلك عملها الغريب الذي يظهر خواطره وأحكامه وتصويره للأشياء كأروع ما تكون الخواطر والأحكام والتطوير!

تلك كانت مقتطفات من رأي طه حسين في عبد العزيز البشري، تحليل دقيق مستنير على درجة عالية من الصفاء لم يترك فيه زيادة لمستزيد(١) .

***

عبد العزيز البشري أحد ظرفاء الأدب العربي في مصر، جمع في كتاباته بين الجزالة الأدبية العربية، وروح مصر الشعبية، والثقافة الفرنسية وكان هذا المزاج الأدبي النادر!

---

(١) خيري شلبي ، مجلة الإذاعة.



المازني... الحزين الساخر!

ولد إبراهيم عبد القادر المازني في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٠ لأب كان يعمل محاميًا شرعيًا، ويرجع أصله إلى بلدة «مازن» بمحافظة المنوفية ، فلما مات أبوه وهو صبي صغير صادف في حياته مصاعب ومتاعب كثيرة.

التحق بالمدرسة الناصرية الابتدائية ، ثم بالمدرسة الخديوية الثانوية، ثم بكلية الطب ، ولكنه عندما دخل غرفة التشريح لأول مرة أغمى عليه من الرعب، فانصرف عن الطب إلى الحقوق، لما وجد مصروفاتها باهظة اتجه إلى مدرسة المعلمين حيث تخرج فيها سنة ١٩٠٩ واشتغل بالتدريس، واستمر فيه ثماني عشرة سنة ظهر أثنائها تمكنه من اللغة العربية ، وتفوقه في الترجمة.

وقد شغل المازني أكثر وقته خلال فترة التدريس في الترجمة عن الإنجليزية وإليها، وهذا ما أكسبه مرانا وحنكة قلما تتوافر لغيره.

وقد قال عنه العقاد: «لست أغلو إذا قلت: إني لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والسفر أديبا واحدًا يفوق المازني في الترجمة من لغة إلى لغة، ويملك هذه القدرة شعرًا كما يملكها نثرًا ، ويجد فيها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة».

وأفاد المازني من قدرته الفائقة على الترجمة إلى العربية، فاستطاع أن ينقل بعض المقطوعات من الشعر الإنجليزي الغنائي وأن يصبها في قالب الشعر

العربي بأوزانه وقوافيه، واستطاع كذلك أن يجعل القصيدة الواحدة أو المقطوعة الواحدة تقليدًا لشاعرين مختلفين أحدهما عربي قديم والآخر أوروبي حديث.

ثم اشتغل بالصحافة ، وظل يعمل فيها أكثر من ثلاثين عامًا، وأقبل في مطلع حياته الأدبية على نظم الشعر، فأصدر ديوانه في جزأين بين عامي ١٩١٤، ١٩١٧ ، ولم يصرفه اهتمامه بالآداب العربية عن الأدب العربي، فكتب عن أعلامه ابن الرومي وبشار بن برد والمتنبي وغيرهم.

والمازني كاتب موهوب ، صاحب عبارة سهلة بليغة تمتاز بخفة الروح وعذوبة اللفظ.

والملاحظ أنه يستوحي أحداث قصصه من مشاهداته في حياته اليومية، فكانت قصصه اعترافات شخصية ، نجد ذلك في إبراهيم الكاتب وإبراهيم الثاني، فقد صور فيهما حياته وما مر فيها من حوادث وذكريات، ومن تخيلات نفسية وتأملات عقلية.

وقد اختير المازني عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومن مؤلفاته : «حصاد الهشيم» ، و«إبراهيم الكاتب» ، و«إبراهيم الثاني» ، و«عود على بلده»، و«ثلاثة رجال وامرأة» و«ع الماشي» و«الشعر في غاياته ووسائله» ، و«بشار بن برد» ، و«مختارات من القصص الإنجليزي».

وقد توفى المازني في ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٩ أي في نفس شهر مولده بعد حياة حافلة بالعطاء الأدبي الفياض.

وقد عده النقاد من أبرز الأدباء الساخرين ، وعدوه في الأدب الحديث كالجاحظ في الأدب القديم لسخريته من كل شيء حتى من نفسه، وإن كانت سخريته أقرب إلى الفكاهة منها إلى السخرية كمذهب ، وكانت سخريته عذبة مصرية، تعتمد على الملاحظة المنتخبة والابتسام الواعي ومعرفة الطبيعة الإنسانية بمزاياها وعيوبها والعطف عليها.

عاشق الوهم!

مر الأديب عبد القادر المازني بتجربة طريفة، حيث تعرض لخدعة أدبية مثيرة، هدفها كما يقول بطل هذه المغامرة إثراء الأدب العربي بأدب المازني العاطفي! فهل نجح بطل هذه المغامرة في تحقيق هذا الهدف.

بدأت هذه القصة ، بخطاب، حمله عبد الحميد رضا إلى المازني في سنة ١٩٣٢ ، في أعقاب، تأليف المازني مسرحية «غريزة المرأة» ، ونص هذا الخطاب:

«سيدي الكريم

«أحييك تحية القلوب الرفيعة يسودها الحياء والوفاء ، وأبعث إليك من أعماق نفسي بآيات الإعجاب بأدبك العالي وثقافتك السامية، وبعد فلقد قرأت رواية غزيرة المرأة، وأن أعجب لشيء فعجبي من أن أحكم لها بالجمال، وهي ناطقة به.

« ومن الغريب أني أنا أيضا ، كتبت رواية في هذا المعنى للمرأة لم أنشرها على الناس، وقد نتفق مع روايتك من جهة المحاكم الشرعية، ولعلك تأذن بنسخة من روايتك وبعض نسخ من كتبك آنس بها في تربية ملكة الأدب الذي أتعشقه، فهل تأذن؟

« أرجو أن تبعث لي من آثارك مع نابعي – وقد يكون كتابي هذا ركيكا ، وغير معبر تماما عن الإعجاب الذي ملك على نفسي، وأخذ بتلابيب قلبي، وقد يكون لي خيرا ، يوم أن نتعرف أجسادًا.

«أرجو أن أوفق إلى ما يتناسب وقدرك السامي «فاخرة» وقد تسلم المازني هذه الرسالة، وهو في بيته، الذي كان قائمًا على أطراف مدينة القاهرة، عند صحراء الإمام الشافعي حيث المقابر ، وكان مريضًا ، فرد على هذه الرسالة،

بخطاب كتبه بالقلم الرصاص وقال في هذا الخطاب:

«سيدتي الفاضلة:

«تحياتي إليك وشكري على رسالتك الرقيقة الكريمة، واعتذاري عن الكتابة إليك بالقلم الرصاص، فأني أولا مريض، وثانيا: ليس في بيتي حبر.

«وثقي يا سيدتي أني أقدر نبل الإحساس الذي دفعك إلى كتابة هذه الرسالة، ولولا أني مريض متعب، ويدي ترتعش قليلا من الضعف لحاولت أن أوفيها حقها من الشكر».

ثم قال:

«ولقد شوقتني إلى روايتك، ولكني لا أجرؤ أن أطمع في الاطلاع عليها قبل نشرها ، إلا إذا شئت أن تغمريني بفضلك،».

كلا.. ليس في رسالتك ركاكة، بل هي سليمة جدًا، ومن أرقى ما عرفت من أساليب الرسائل السوية، أنها أرقى من رسالتي هذه مثلا.

«وسلامي إليك وتحياتي، وشكري الجزيل، وأسفي الشديد».

ولعل المازني ، قد تصور ، بعد أن قرأ هذه الرسالة، أن أسبابه ستتصل بأسباب هذه الكاتبة الجميلة، التي تخطت الحدود التي كانت مفروضة ومرسومة بين عالمي المرأة والرجل في تلك الأيام، والتي لم تكن تأذن بأن تخاطب الآنسة أو المرأة المصرية رجلا أيا كان مقامه ، ودع عنك أن تبدأ هي بخطب وده، والتعبير عن إعجابها به، ولذلك انتظر أن تأتي الأيام بما يحقق هذا الأمل سريعًا، وأن ينعم بسعادة لم يسع لها ، ولم يحلم بها، وقد كانت هذه نقطة الضعف التي استطاع (فاتح الأقفال) أن يستغلها ، وأن يجر بفضلها المازني وراءه زمنا، وجاء تابع فاخرة هانم إلى المازني، فأعطاه المازني نسخًا من مؤلفاته التي طلبتها سيدته والتي لم تكن في بيته، ثم جاء التابع، بعد أيام بخطاب جديد منها ، تشكره على هديته، وتعبر عن أملها في أن تراه ، واشتعلت عاطفة المازني وخياله معا، فأرسل إليها مع تابعها خطابا آخر يقول فيه:

«لا أدري كيف أشكر لك هذا العطف الجميل، والإحساس النبيل الذي طوقت بهما عنقي ، ولكن الذي أدريه أن القلب الذي يخفق بكل هذا العطف، لابد أن يكون صاحبه كريما، واسع الصدر عظيم المغفرة، هذا ما أعول عليه، وأعتمد، وإلا فقد ضعت والله، ومن أين أجيء باللسان القادر إذا كان لدي القلب الشاكر.

على أني أرجو أن يتيح لي حسن الحظ فرصة أشكرك فيها بلساني، وأرجو أن أكون يومئذ موفقا، وقد فكرت الآن أن أعد كلاما، ولكني أعلم أن مثل هذا الكلام المحضر يطير ولا يبقى منه حرف واحد وخير الكلام ما خرج من القلب إلى القلب.

وصدق المازني أن السيدة التي تراسله ، هي كاتبة ، وأنها وضعت مسرحية، فقال لها:

«ولكني أرجو حقيقة أن تسمحي لي بالإطلاع على روايتك وعسى أن يكون ذلك قريبًا ، وقد شرعت في رواية أخرى سأسميها «لولو» ، ولكني لا أزال في فاتحتها ، فلعلك يا سيدتي لا تنسي أن تدعي الله أن يوفقني، فقد يسمع منك إذا لم يسمع مني، فما أظنك إلا أقرب إليه جدًا من كاتب هذه السطور».

ولما كان المازني قد أرسل إلى «فاخرة» مسرحية «غريزة امرأة» ، فقد وجب عليها أن تكتب له لتبدي رأيها فيه، وقد أرسلت إليه بالفعل رسالة موجزة قالت له فيها:

«أشكرك جم الشكر باعتباري فتاة على هذا البحث السيكولوجي الفذ الذي كتبته في روايتك (غريزة المرأة)، وهي كما أراها قطعة من الحياة المصرية الحقة، وقد أذكرتني بشكسبير، ورواياته البديعة ، وطبعه الهادئ، الحكيم في معالجة الحياة الإنسانية، لا يثور، وإن كانت الثورة في الفكرة».

«معذرة ، وأكرر شكري مرة أخرى، وأسفي لإزعاجك».

والحق أن المازني لمعذور ، إن هو فرح بهذه الخطابات، التي تملقت كبرياءه

تملقا كاد يسكره، ففي تلك الأيام كان سطر من امرأة جديرًا بأن يلهب خيال أي رجل، فإذا كان هذا الرجل كاتبا، كان أثر ذلك أعمق، لأن رجال الأدب والفكر في بلادنا، لا يجدون ما يجده زملاؤهم في أوروبا وأمريكا من ضروب التشجيع والحفاوة من الرجال والنساء ، فقل أن تصل إلى كاتب عندنا ، رسالة من قارئ أو قارئة ، تتضمن تمجيدًا لمقال كتبه، أو لكتاب أصدره ، بينما يتلقى صغار الكتاب، فضلا عن الكبار في أوروبا عشرات من الرسائل، تحث وتشجع، وتسأل وتستفسر، وأحيانا تنقد وتوبخ.

وقد بدأ الشك يتسرب إلى نفس المازني ، لأن عبارة الرسالة السابقة ، أعلى من مستوى فتياتنا، لذلك أخذ يستفسر من عبد الحميد عن ثقافتها وصلاتها ، ومن يترددون أو يترددن على بيتها، وقد كانت كل الظروف ترجح أن هذه الرسائل، من قلم شاب لا شابة، ولكن إذا سلم المازني بهذه الفكرة فقد أضاع على نفسه خيالا جميلا، لذلك نفى هذه الفكرة بشدة، واكتفى بمجرد تسجيل شكه حتى لا يتهم إذا ما اتضح في المستقبل أن الأمر كله خديعة ومعابثة واستغفال ، فقال في الخطاب التالي الذي سلمه لعبد الحميد رضا:

«أظن أنك حيرتني إلى حد – لا تضحكي من فضلك – إلى حد أني بدأت أظن أن الذي يراسلني ليست آنسة ذكية القلب، نافذة البصيرة بل هو شاب داهية، يكاتبني باسم آنسة ليتفكه بي ويسخر مني.

«فما رأيك في هذا الخاطر؟ اعترف لله أنه خاطر جرى ببالي من أول يوم ، وهذا هو السبب في التحرر الشديد الذي بدا مني في رسائلي الأولى – على الأقل في رسالتي الأولى – ولكني تساهلت مع نفسي – وأرسلتها على سجيتها إلى حد محدود ، فهل تدرين السبب في نشوء خاطر كهذا في رأسي»؟

«السبب أني كنت – وما أزل أعتقد – أنه ليس في هذه الدنيا امرأة يمكن في أية حال من الأحوال أن يعجبها إبراهيم المازني، ولست أقول ذلك تواضعًا أو على سبيل المزاح، ولكني أقوله لأنه عقيدة راسخة مخامرة لنفسي مع الأسف، وقد كانت النتيجة أني تحاشيت أن أحاول التحبب إلى أية امرأة، ولو كانت

روحي ستزهق من فرط حبي لها، وذلك أني أخشى أن أتلقى صدمة فتكون النتيجة أن تجرح نفسي، فأتعذب، وقد أعذبها معي.

لا أدري كيف يكون رأيك في رجل هذه حالته النفسية بلا مبالغة، وإني أقسم لك بكل ما يحلف به الأبرار أني لست كاذبا ولا متخيلا، إنها حالة شاذة، ولكن ما حيلتي وأنا أخسر بسببها كثيرًا مما يفوز به الرجال.

واسترسل المازني في التنفيس عن هذا الشعور الذي يعذبه (شعوره بالضعف والنقص أمام النساء)، ولا شك أنه كان يجد الراحة في التعبير عن هذا الشعور، لأنه كان يتوقع أن يكون صدى مثل هذا الاعتراف، استنكار هذا الرأي، والثناء على المازني، واستحقاقه للإعجاب والحب، فضلًا عن أن الذين يكون مزاجهم كمزاج المازني، يشعرون بالسرور واللذة، حين يبالغون في الحط من شأن نفوسهم لأنهم في حقيقة الأمر وفي أعماق نفوسهم، واثقون أنهم على شيء من القدرة والقيمة، لأنهم يجدون في الحط من أقدارهم، وسيلة من وسائل الانتقام من الناس ومن المجتمع الذي لم يمكنهم من الوصول إلى كل ما كانوا يطمعون فيه.

وقد كرر المازني المعني ذاته في القسم الثاني من خطابه فقال:

«لقد قلت مرة لصاحبة اجتمعت بها على ظهر السفينة.

- يا سيدتي أنك جميلة، وحرام أن تلقى بجمالك بين يدي حمار مثلي، لا يعجبه إلا البرسيم، هي مرارة نفسي تطفح أحيانا، وتقطر من اللسان، أو من الفلم، ولكني ربما كنت معذورًا، ولعلي أسعد في حياتي لو عشت في كهف بعيدًا عن الناس.

«أي... نعم، ولقد حاولت هذا مرة فقضيت بضعة أسابيع في جبل المقطم، على أثر صدمة قوية تلقيتها من يد القدر، وكنت أشرب الماء من حفنتي من كفي، وآكل من شبه ماجور من الطين، فهل تصدقين، ولكن هذا الزاهد في الحياة، الذي لم يتحبب قط إلى امرأة، ينهي خطابه بقوله:

«فهل صح عزمك على أن تتفرجي على هذا الجاهل الغبي، وتريه بعينيك؟ أم عدلت يا ترى؟ أرجو أن يكون عزمك مستمرًا».

فالمازني أخذ يلح في أي يرى محبوبته، وهو الذ٠ي يقول أنه الذي لم يتحبب لامرأة قط، وأنه سيء الظن في حبيبته، مع أن صلت٠ه بهذه الفتاة أو السيدة ، لم يكن قد انقضى عليها إلا أيام ، ولم يكن قد ستلم منه٠ا سوى رسالة أو رسالتين، وكان الأليق به، أن يؤجل ما استطاع رؤيتها، وأن ي٠كون لقاؤهما كالقدر الذي يفر منه الإنسان لا الذي يستعجله ، ما دامت ثقته بن٠فسه أمام النساء إلى هذا الحد الذي يزعمه ويؤرق حياته ، وقد أدرك عبد الحم٠يد رضا، أنه قادر على أن يذهب بالمازني إلى أي مكان، وهو لم يضيع هذه الفرص٠ة التي كسب منها الأدب كثيرًا فقد بدأ يخايله بهذا اللقاء وبدأ بأن طلب من٠ه صورة من صوره لسيدته ، فأرسلها في الحال، وهو يقول لها: إنها صور٠ة قديمة، ولذلك تعد مزورة، ولما سألته أيقبل أن تكون ملهمته، فانطلق في س٠ذاجة يقول:

«وأنت تسأليني: هل أحب أن تكوني لي وحيا ، س٠لي النحل، هل يجب أن يشتار عمله من أكمام الزهر، وسلي الورود هل تحن إلى ٠ساري الطل يهبط عليها الفجر، ويردها ندية رفافة.٠

ولما قالت له – كما كان٠ لابد أن يحدث – أن صورته جميلة قال:

«صورته جميلة .. يا الله، افهم بالطبع أن المقصود أنك ترين في الوجه معنى يروق لك، معنى مؤلفا من فكرة مكونة في رأسك البديع الإنتاج، مما قرأته لي ، ومما استخلصته وأضفته من روحك الفياضة، ولكنه معنى ولا شك، فقد زال الآن ولم يبق منه أثر في وجهي الحاضر ، فقد نضب معين روحي، وجفت نفسي ، ولم يبق في وجهي إلا اصفرار الذبول».

ثم عاد يلح عليها في أن تراه:

«الحمد لله الذي أرضاك عني، كانت لي أمنية أن أراك اليوم، ولكنك شئت غير ذلك، والأمر لك بالطبع ، ولابد أن يجيء يوم تضيفين فيه فضلا إلى أفضالك ، فلأنتظر فيض جودك وإحسانك ، فإني أعلم أنه غمر كالبحر فإن هذا المعنى يعجبني ... ألا يعجبك؟

«حقيقة رسالتك خير ما قرأت في اللغتين العربية والإنجليزية ، منذ شهور،

ولست أجامل ولكنني صادق غير مراء».

ولكن عاطفته كانت قد فاضت، فختم رسالته بقوله:

«إجلالي وحبي وأشواقي لك يا فاخرة، ووضع إلى جانب اسمها «فاخرة» أربع علامات × × ، باعتبار أن كل علامة من هذه تساوي قبلة ، وهو أمر يفعله صغار الشبان، في مطالع سني المراهقة.

وأحس عبد الحميد، بأن المازني فريسة لا حول لها، فذهب يعبث به عبثا لا رحمة فيه، فانتهز فرصة، خلو مكتب المازني في جريدة السياسة الأسبوعية منه، فأسرع ومعه صورة لامرأة جميلة، مما يباع في المكتبات الأجنبية لممثلات أو لغيرهن من النساء الجميلات، ووضع هذه الصورة في مظروف مع خطاب، تقول فيه «فاخرة» أنها جاءت لتراه، منتهزة فرصة سمحت بها الظروف ، فلم تجده، فأين ذهب؟ أذهب ليسكر؟

وجن جنون المازني ، فقد رأى أن حبيبته ، امرأة على قدر باهر من الجمال، فوق ما تصوره وما ذهب إليه خياله، ثم رأى فوق ذلك أنها سعت إليه، وأنها كانت في متناول يده، فانطلق يقول في خطاب كتبه وسلمه لعبد الحميد:

«يا فاخرة ، يا فاخرة ، إنك مسؤولة عني ، مسؤولة أمام الله وأمام ضميرك، وأمامي عن مصيري ، وعن جنوني، وعن التياعي وخبلى».

«لا عذر لك بعد أن أوقدت في صدري هذه النار، وأشعلتها حامية مزغردة، وأصعدت لهيبها إلى يا فوخي.. إلى شعر رأسي».

« لا عذر لك إذا أنت جنحت إلى الصد، وملت إلى إهمالي واطراحي ، نعم فقد صرت أحس بأن قلبي مزدحم بحبك، كما ازدحم رأسك بهذا الشعر الذهبي الساحر، فماذا تنوين أن تصنعي بي؟

«لست أسألك شيئًا إلا الرحمة .. إلا الترفق بفؤاد مصدوع ومهجة مكلومة، وكبد جريحة.

«لا أطلب منك إلا أن تظلي توليني هذا العطف، وتشعريني أن لي في هذه

الدنيا قلبا يدرك الإشفاق عليّ والحنان أن لي حين تحف بي متاعب الحياة، وتثقل عليّ كاهل وطأة الأيام، وترعبني وحشتها ، إن لي فؤادًا يدق بالمرثية لهذا المسكين الذي يرفع عينيه إلى القمر الساري والقمر لا يشعر به، ولا يعبأ ولا يكترث له».

ثم أضاف المازني في رسالته إلى الحبيبة المجهولة:

«إن إلى جانبي عبد الحميد أفندي وأنا أكتب ، وقد كان ينظر لي وأنا أتأمل صورتك ولكنه لم ير شيئًا، لأن مصيبتي أن أعمق إحساس لا يبدو على وجهي ، ولأني مضطر أن أكتم ما في نفسي وأخفيه إلا عنك أنت».

ثم راح يندب حظه لأنها جاءت إلى مكتبه ولم تجده ، ثم قال كلاما يصور حالته لهفته وهيامه أثناء شعوره بألم حرمانه من رؤيتها:

«ومن قسوة الحياة على أني وأنا أكتب إليك حضر إلى مكتبي د. محمد حسين هيكل بك».

وجلس يشرب الويسكي، ولابد أن أضحك وأمزح، وأتكلم كلاما فارغا ، وأمازح هذا وألاطف ذاك، وأنكت على السجن والنيابة التي ستحقق معي ومع دولة محمد محمود باشا ، غدا بعد الظهر، كل هذا وأنا أكتب إليك، فبالله كيف أكتب، ألست مسكينًا يا فاخرة، اعترفي أني مسكين، وأني محتاج إليك، وأني معذور إذا جننت، ولكني سأحتفظ ببقية عقلي من أجلك.

فاخرة .. لقد اعترفت لك وكشفت عن قلبي ، فهل تغفرين لي هذه الجرأة ؟ سامحيني فإن عقلي ليس معي، عقلي مع الصورة التي أعيدها إليك، وقلبي يتمزق ، أعيدها ولا أجرؤ حتى أن أتزود منها بنظرة».

وكانت قد اشترطت أو اشترط تابعها عبد الحميد رضا في الخطاب الذي أرسلت معه الصورة أن يعيدها إليها بعد أن يلقى عليها نظرة، ولذلك فقد ختم خطابه بقوله:

«ولى رجاء «صغير» أعيدي إلى الصورة مع كل رسالة منك لأنظر فيها وأتزود منها ثم أعيدها، إذا كنت لا تريدين أن تبقيها عندي، دعي عبد الحميد

أفندي يجيء بها لأراها ثم أرجعها إليك فإني محتاج إلى النظر إليها، إلى التملي فيها.

«آه.. لو كانت غرفتي خالية، إذن لقبلت الصورة، ولكنني أخشى أن أفسدها وأفسد ألوانها ، فلابد من الحرمان، ولا مفر من الصبر».

ظهر عبد الحميد، بعد فترة، لأنه صعب عليه الانقطاع عن تعذيب هذه الفريسة السهلة، ساق سببا سخيفا وهو أن «فاخرة» كفت عن الكتابة إليه تقديرا منها لكثرة شواغله، وكأن المازني لم يصبح صحفيا إلا بعد خطابه الأخير إليها ، ولكن المازني الذي أفزعه أن تنقطع رسائل فاخرة عنه تشبث بهذا القدر وفرح وقال:

«أنا محتج ، محتج جدًا ، وأني لم أعلم أن الباعث لك على عدم الكتابة، ألا يوم الأحد، هو الإشفاق على، وعدم رغبتك فيما تعتقدين إنه أتعاب لي ، ولكن عليك أن تبيني لي ماذا أصنع بنفسي كل هذا الزمن حتى يوم الأحد (الذي وعدت بأن تكتبي لي فيه).

«أرجو أن تعدلي عن قرارك ، فإن فيه من القسوة مالا أظنك تعينه، إلا إذا كنت تريدين أن تمتحني صبري، واعترف بأن لا صبر لي على هذا ، فاصنعي معروفا لخادمك المطيع ، واعدلي عن القرار».

واستمر عبد الحميد في استغلال ضعف المازني، فدعاه إلى السفر إلى الريف، لزيارة «فاخرة» في قصر لها بناحية ميت غمر، وصدق المازني، وسافر ، وأشار عبد الحميد وهما في القطار إلى قصر تحيط به الحقول، وزعم أن هذا القصر الفاخر هو قصر «فاخرة» ، ولم يصعب عليه – كالعادة – انتحال عذر لكيلا تتم المقابلة الموعود بها، وتألم المازني – كالعادة أيضا – ولكنه لم يشك في هذا العبث ولم يشك منه ، ولم يحاول أن يضع له حدا إلا حينما قفزت «فاخرة» من مواعيد المقابلة التي لا تتم إلى اقتراح الزواج من المازني هكذا مباشرة، بدعوى أن والدتها لاحظت أن عبد الحميد يروح بينها وبين المازني ويغدو، بخطابات يتبادلها الطرفان، ولما كانت والدة فاخرة تركية، وحفيدة مدحت باشا بطل الدستور

العثماني في تركيا، فهي لا تفهم خاتمة لعلاقة تقوم بين رجل وامرأة – خصوصًا إذا كانت المرأة ابنتها – إلا بالزواج، لذلك لم تر فاخرة بدا من اقتراح الزواج على أن يطلق زوجته أم أولاده، وانزعج المازني على طيبته لهذا الاقتراح، وكان جديرًا بأن يفرحه ما دام حبه قد برح به على هذه الصورة فقال:

«وأقسم لك أن هذا الحديث قد آثر في قلبي فأضعفه، وسبب لي اضطرابًا، أرجو أن تكون عاقبته سليمة، مجرد اقتراح التطليق، كان وحده كافيا لذلك، وأولادي من يشرف على تربيتهم، وقد قال تابعك : ألا يمكن أن توكل ذلك لأخيك فثرت».

«أولادي ألقي بهم إلى أخي يربيهم وأنا على قيد الحياة أنعم بالحب والسعادة، أولادي (ألحقهم) على الناس، ولا أبالي كيف ينشؤون ولا كيف يبيتون، ولا ماذا يطعمون، ولا كيف يعاملون ؟ أيكون رجلا جديرا بأي منزلة من منازل الاحترام والكرامة من يطلب منه مثل هذا ؟ ولو كان هذا الكلام لغير أبيهم لما كان فيه شيء، ولكنه كلام قيل لوالد، والوالد يعيش بأعصابه وإحساسه وضميره، والرجل لو كان يعرف كيف يمد يده لكان اليوم غنيًا، موسرًا، لا يخشر على أبنائه الفاقة، ولا يحمل همهم بعد موته».

«وأعترف لك أن هذه الأحاديث (أحاديث الزوجة والأولاد) أزعجتني جدًا، ومزقت أعصابي وأتلفت قلبي، ونبهتني إلى مستقبل أولادي، والحقيقة أني قصرت إلى الآن في حقهم، ولكن لن أقصر بعد اليوم، سآكل عيشًا وملحًا، وأحمد الله عليهما، وأدخر لهؤلاء الأطفال المساكين الذين ليس لهم بعد الله سواي، وكم يعيش قلبي في هذه الدنيا؟ لا يطول عمر أمثالي ؛ لأني كالزوبعة، والزوابع قصيرة العمر، لقد صرت بعد هذا الحديث، إذا داعبت أطفالي أو نظرت إليهم، وهم يلعبون، أحس باختناق في حلقي، وبالدمع يكاد ينحدر من عيني فأرده بجهد».

«ثم إنك شابة في العشرين من عمرك، وأنا كهل في الحادية والأربعين، وبضع أشهر أيضا، أي أن عمري ضعف عمرك، أفليس من واجبي حين

أحدث نفسي أن أتساءل عن مبلغ استحقاقي لحبك، وعن التبعات التي أحملها بإزاء نفسي وبإزائك يا فاخرة، وبإزاء أولادي وزوجتي».

«فكري معي في هذا، ولا تسأليني عما أعني، فإن ما أعنيه واضح، وأنا يا فاخرة لست حيوانًا، معذرة، أنا إنسان يحس ويدرك، ويتألم، يستعذب الألم ما دام أنه يسعد غيره، نفسي لا تهمني، إنما يهمني أن لا أكون حيوانا، ولا مخادعا، لهذا رجوت ورجوت أن تقابليني، وأنت نفسك كيف لا تريدين لهذا رجوت ورجوت أن تقابليني، وأنت نفسك كيف لا تريدين هذا لنتكلم بطريقة جدية ولنتفاهم، ولكن هكذا الدنيا، المثقل بالهموم يحط عليه الدهر كل ما يستطيع أن يحط عليه، لا بأس فقد تعودت أن تحط الأيام على كاهلي ما شاءت، لقد خلقني الله منحوسًا سيئ الحظ، فلأبق منحوسًا سيئ الحظ».

وهكذا تحولت هذه المعابثة إلى مأساة، بكل ما في المأساة من ألم وعبوس فرجل في الأربعين يرى نفسه أمام شابة في العشرين، جميلة، وغنية، وهي التي تسعى إليه، وتعرض نفسها عليه، وتدعوه إلى الزواج منها، ورأى نفسه أمام هذا الإغراء الشديد، مدفوعًا إلى خيانة زوجته وأولاده، فينسى الحب والزواج، ويتكلم كرب أسرة، وكأنما يترافع عن نفسه أمام محكمة، وأكثر ما يستعطف به القاضي زوجته وأولاده.. إلى من أتركهم؟ ما ذنبهم؟ ويتذكر في هذا الموقف المحض فقره وفقرهم، ورغبته في أن يسعدهم، وعجزه عن أن يحقق هذه الغاية، ويبدو المازني في هذا كله كأنبل وأطيب ما يكون الإنسان فقد كان في وحشة مطبقة، وقد تشبث بأذيال هذا الحب الموهوم، لا عن رغبة جسدية، ولا عن غفلة، ولا حتى عن ضعف عاطفي، وإنما عن حاجة نفسية ووجدانيه، مبعثها ثقافة وجدب الوسط الذي يعيش فيه الكاتب في بلادنا، وسط خال من أية نبضة من نبضات العطف والفهم والمشاركة، فالكاتب كان يكتب في بلادنا، لا يرى وجه امرأة، ولا يسمع صوت امرأة، ولا يصل إليه خطاب واحد من معجب – دع عنك معجبة – أو حتى من ناقد.. صحراء قاحلة، يسودها الصمت، ويرين عليها الجمود.

كان المازني في حاجة إلى من يؤنسه، فوجد كل ما كان لا يخطر على باله في

خطابات هذه الفتاة الجميلة ، ورآها تكتب، وتتحدث في الأدب وتحاول أن تنشئ رواية ، ثم هي تعجب به، وتحبه، وترسل إليه صورتها، فأنساه ذلك كل ما يتصل بهذه الخطابات من أمور، تتجاوز المعقول، وتدعو إلى التريث، ولكنه حينما رأى نفسه مدفوعًا إلى ما يحرج ضميره ، ضحى بهذا كله ، وذكر زوجته وأولاده ، وهو في معرض مطارحة الهوى ، ومغازلة الحبيب.

ويروى المجاهد الأديب فتحي رضوان أطرافًا من هذه المغامرة التي حدثت للمازني من خلال معرفته الشخصية بالمازني، فيقول:

«على أن المقادير جعلتني أكثر اتصالا بالمازني بسسبب أمر حميم يتعلق بنفسه وعاطفته، فقد أصدرت مجلة «الصرخة» الأسبوعية، التي بدأنا بها نشاطنا السياسي والصحفي.

ورحت أتردد على كبار الكتاب أطلب منهم أن يعينونا على إصدار هذه المجلة ، وكان من بين من قصدتهم لهذا الغرض الأستاذ المازني، فأعطاني للعدد الأول من مجلة «الصرخة» مقالا بعنوان «فاتح الأقفال» فرحت به، لا لأنه أعجبني، ولا لأن عنوانه استوقفني ، بل لأنني ظفرت بمقال لكاتب كبير كالمازني، وبلا مقابل ، ولم أكن أظن لهذا المقال سرًا أعمق مما يوحي به عنوان وموضوعه ولو قرأت المقال وكنت على علم ولو قليلا بالظروف التي أوحت به، لاستمتعت به كثيرًا ، ولأدركت أنه وثيقة ذات أهمية كبيرة في تاريخ حياة المازني، وفي تاريخ حياة الأدب المصري كله.

ولكن هذا السر لم يلبث أن انكشف لي ، وعلى وجه جعلني طرفا – على صورة من الصور – بالقصة التي حكاها هذا المقال، وبالواقعة التي صورها فيه، وبطلها – جاء في هذا المقال:

«وأعني أقفال النفوس لا أقفال الحديد، وعلى كل نفس قفلها ، كما يعرف القراء، وفي كل نفس زاوية محجوبة عن العيون، وقد خلق هذا الرجل فاتح الأقفال، شغوفا باستطلاع الخفايا وكشف المحجوب وكلنا ذلك الرجل، ولكن كل له أسلوبه الخاص ، وطريقته التي ينفرد بها دون خلق الله جميعًا فيما أعلم».

«وطريقته التي لا يكاد يلحقها التغيير، أنه يجيئك برسالة من سيدة لا وجود لها إلا في خياله، ولا حياة لها ولا تاريخ إلا ما يخترع هو، فترد عليه شاكرًا، أو معتذرًا ، أو غير ذلك وأنت في الحالين معجب بأسلوب الرسالة وما يدل عليه ويشي به، ثم ما أسرع ما تجد نفسك متورطا في رسائل متبادلة بينك وبين هذه السيدة أو الفتاة الخيالية.

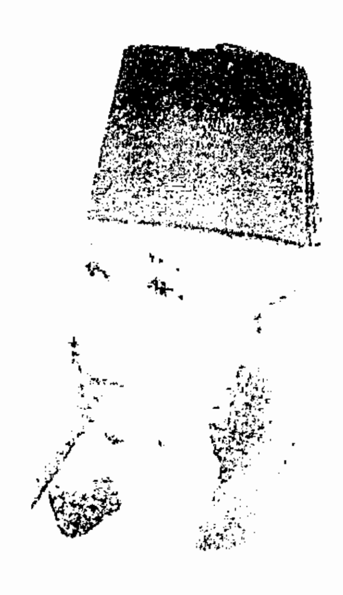
«وقد فعل معي ذلك ، ومن آياته أن له خطين متميزين، خطا يكتب به رسائل هذه الفتاة الخيالية، وليس بين الخطين شبها في الظاهر، وإن كانت المشابهة لا تخفي عن النظر الفاحص.

« وهو يحسن الكتابة باللغة العامية، ويجيء فيها بأبدع ما قرأت، ويعزو ذلك كله إلى مخلوقه خياليه، ولا يدعى لنفسه إلا أنه خادمها الأمين، وغرس نعمتها المشكورة».

وظاهر من هذا المقال إن المازني يتحدث عن شخص، نجح في إيهامه بأنه تابع سيدة جميلة، وأنه حمل له من هذه السيدة التي لا وجود لها إلا في خيال هذا الشخص، رسائل ألهمت المازني وأهاجت عواطفه، فتدفق إنتاجه، بفضل هذا الحب الذي صنع جوه، وهيأ بواعثه هذا الإنسان الذكي الماكر، ولم يكد المازني ينشر هذا المقال في جريدة «الصرخة» ، حتى زارني شخص بمقر الجريدة يوحي مظهره بأنه قادم من الريف، وأنه قليل الحظ من التعليم والثقافة معا، حتى ليظن رائيه ومحدثه، أنه لا يحسن من الكتابة سوى خط اسمه، وقال لي: أنه بطل الواقعة التي أشار إليها المازني في مقاله المعنون «فاتح الأقفال» ، واضطررت إلى إعادة قراءة ذلك المقال ، وفهمت ما فيه ، تفصيلا بعد أن كنت قد أحطت بمجمل معناه، ولم يكتف هذا الزائر بما قال، إذ عززه في التو بمجموعة من الخطابات، كلها بخط المازني الذي أعرفه ، مرسلة منه إلى سيدة اسمها فاخرة هانم.

وتناولت هذه الرسائل باهتمام عظيم، وقرأتها بشغف أعظم، ورأيت كيف فرح المازني بهذه المحبة العاشقة، فراح يبثها لواعج حبه، ويطلعها على هواجس قلبه بأسلوب ، وعلى صورة ، أثارت إشفاقي للمازني، وغيظي في الوقت نفسه

من عبد الحميد رضا ، الذي خدع الكاتب الكبير هذه الخديعة المتقنة والنافعة معاً[1] .



(١) فتحي رضوان ، عصر ورجال.

محمد الأسمر.. الشاعر الساخر!



في السادس من نوفمبر سنة ١٩٠٠ ولد الشاعر محمد الأسمر بمدينة دمياط الساحلية على شاطئ البحر المتوسط، حيث الطبيعة الساحرة والجو المعتدل، فاستمد من جمال بلده وخصوبته دماثة الخلق ووداعة النفس وخفة الروح، وكان والد محمد الأسمر تاجرًا ثريًا من أعيان دمياط، ووالدته سيدة طيبة، والتحق محمد بالكتّاب وهو طفل صغير ، فحفظ القرآن الكريم، ولما بلغ الثامنة من عمره لحق بمدرسة الجزاوي الأهلية، وظل بها ست سنوات من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٤ حيث درس علوم القرآن والحساب والنحو وبعض المحفوظات الأدبية، وكان يرجو أن يعمل محاسبا بأحد المحلات التجارية برأس البر، ولكنه لم يستمر في العمل به أكثر من ثلاثة أشهر إذ غلب عليه حب الأدب لاسيما حب الشعر، فلحق سنة ١٩١٥ بمعهد دمياط الديني وغادره سنة ١٩٢٠ ليلحق بمدرسة القضاء الشرعي، وظل بها ثلاث سنوات حيث ألغت الدولة مدرسة القضاء الشرعي في دمياط فلحق طالبا بالأزهر، وفي نفس الوقت عمل في المساء مصححا في جريدة السياسة بالقاهرة.

وفي سنة ١٩٣٠ تخرج في الأزهر حيث حصل على الشهادة العالمية النظامية، فلم يلبث أن عين كاتبًا بالأزهر، ثم معاونًا بمكتبة الأزهر، ثم أمينًا لمكتبة المعهد الديني بالإسكندرية، ثم أمينا لمكتبة الأزهر بالقاهرة. ثم وقع عليه الاختيار

عضوا في لجنة النصوص بالإذاعة المصرية ، هذا وقد ظهرت موهبته في نظم الشعر في وقت مبكر منذ كان صبيا في دمياط ، ثم صقل موهبته بدراسته في الأزهر، وعندما استقر في القاهرة راح ينشر أشعاره في جرائدها ومجلاتها، وعندما أسند إليه الإشراف على الصفحة الأدبية بجريدة الزمان التي كان يصدرها الصحفي المعروف «إدجار جلاد» ، أنشأ فيها محمد الأسمر ركن الأدب لتشجيع الشعراء الناشئين.

وقد تزوج شاعرنا سيدة مطلقة ذات أولاد، فرعى أولادها رعاية كريمة لأنه لم ينجب أولادًا ، وقد صور هذا في قصيدته «دنياي».

عاتبتها حتى مللت عتابي ... دنيا برمت بها وبالأصحاب
والآن بعد أن انتهى عهد مضى ... دنياي بيتي والصديق كتابي
وهواي أطفال أبوهم غائب ... فمتى ينوب لهم مع الأياب
ما دق بابي زائر إلا جروا ... يتصايحون هناك عند الباب
«بابا» أتى.. «بابا» أتى.. وأبوهمو ... في السجن معتقل مع الغياب

ولكن عدم إنجابه أثر على نفسيته وطبع شعره بطابع حزين فيقول:

فيم اهتمامي بالدنيا وغايتها ... قبر يسوي فلا مال ولا ولد

وكان في مطلع حياته كثير الشكوى من الحرمان والبؤس حتى قال:

حملت لواء البؤس في مصر وانضوى ... مطيعا الأمري تحته كل بائس
ظفرت بتاج البائسين وعرشهم ... وأصبحت فيهم مثل كسرى بفارس

ومن عجائب القدر أن يرحل الشاعر في عيد ميلاده (٦ نوفمبر ١٩٥٦) بعد أن ترك تراثًا شعريًا عظيم القيمة تمثل في دواوينه (١) تغريدات الصباح (١٩٤٦) ، (٢) ديوان الأسمر (١٩٥٠) ، (٣) بين الأعاصير (١٩٥٧) ، طبع بعد وفاة الشاعر.

محمود غنيم.. المعلم الساخر



ولد محمود محمد غنيم بقرية «مليج» بمديرية المنوفية في الثلاثين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٢ وحفظ القرآن الكريم ومبادئ القراء بكتاب القرية.

وألحقه والده بمعهد طنطا الأزهري آملا أن يستكمل ولده دراسته بالأزهر، وقضى محمود غنيم أربع سنوات بالمعهد، ثم توفى والده، فترك محمود المعهد الأحمدي إلى مدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٢٠، حيث كانت تلك رغبته.

ولكنه لم يستكمل دراسته بمدرسة القضاء الشرعي نظرًا لإلغائها، فلحق بالثانوية الأزهرية وحصل على شهادتها سنة ١٩٢٤، ثم لحق بمدرسة دار العلوم، وتخرج فيها سنة ١٩٢٩، وعين بعد تخرجه بالتدريس بقرية كوم حمادة بمديرية البحيرة، حيث ظل بها لمدة تسع سنوات دراسية، وكانت أمنيته أن ينقل إلى القاهرة حيث إنها مركز الثقافة والأضواء، وبعث بعدة قصائد لأولي الأمر بهذا الشأن منها:

أيذوى شبابي بين جدران قرية ... رباب كأن الصمت فيها مخيم
أكاد من الصمت الذي هو شاملي ... إذا حسب الأحياء لم أك منهم

ونقل إلى القاهرة سنة ١٩٣٨ وساعده في ذلك «أنطون الجميل» رئيس

تحرير جريدة الأهرام، وبذلك تمكن من الاتصال بالصحافة وبالمجالس الأدبية، واشتهر اسمه، ورغم ترقيته في وظائف وزارة التربية والتعليم إلى وظيفة التفتيش، ولكنه وجد التفتيش وظيفة لا تسمن ولا تغني من جوع، وفي هذا قال:

وما سرني التفتيش حين وليته ... ولا أنا إن وليّ عليه بآسف

لقد خلته يغنى عيالى عن الطوى ... فكان كمضروب من النقد زائف

وظل يتدرج في الوظائف إلى أن وصل إلى عميد اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم، وتزوج شاعرنا في أول عهده بالوظيفة وأنجب سبعة من البنين وبنتا واحدة.

ورغم أن محمود غنيم أصبح من كبار شعراء العالم العربي وكانت قصائده تهز المحافل الأدبية، إلا أنه كان يشعر بالمرارة لعدم التقدير المادي والأدبي لشعره، رغم التهليل لأنصاف المثقفين وأرباب التفاهة، فقال ناعيًا حظه في سنواته الأخيرة:

إلى من أشتكي يا رب ضيمي ... أرى نفسي غريبا بين قومي

فقد هتفوا «لمحمود شكوكو» ... وما شعروا «بمحمود غنيم»

وقد نظم محمود غنيم في مجالات الشعر السياسي والاجتماعي والقومي والفكاهي، ورحل عن الحياة في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٢.

ومن دواوينه: صرخة في واد – في ظلال الثورة – رجع الصدى.

وقد بادر أبناؤه بإصدار أعماله الشعرية الكاملة في طبعة أنيقة سنة ١٩٩٣ إحياء لذكراه، وتذكيرًا بدوره في مجال الشعر العربي المعاصر.



محمد رضوان

* ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية ـ محافظة الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٨ .

* حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ وعمل كاتبًا صحفيًا بمجلة الهلال (١٩٧٣) .

* عضو نقابة الصحفيين ـــ عضو اتحاد كتاب مصر (جوال : ٠١٠٠٦٧٥٩٢٢٤ (مصر ٠٢٠٢).

* من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت ـ أنيس منصور ـ أحمد عبد المجيد ـ عبد العليم القباني ـ د. مقداد ياجن ـ سعد حامد ـ د. ماهر شفيق فريد ـ كمال نشأت ـ فاروق شوشة ـ محمد إبراهيم أبو سنة ـ د. حسن فتح الباب - د.يوسف نوفل) .

* له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسية ، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسًا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦ ـ ١٩٧٧) ، (١٩٩٢ ـ ١٩٩٤) ، ومديرا لتحرير مجلة (النهضة) السياسية (١٩٨٢ ـ ١٩٩٣) .

* ابتدع لنفسه منهجًا أدبيًا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية ، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي ، ولعل بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج ، فوصفه السفير

الشاعر أحمد عبد المجيد (حين يتولى محمد رضوان كتابة سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه ويتسرب إلى حياته وما اضطرب فيه من حال إلى حال ، ويتشح برداء عصره الذي عاشه ، ويتنسم ما كان يستنشقه ، فتجئ ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدى) .

* له أكثر من عشرين كتابًا في أدب السير منها : صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك ـ مأساة شاعر البؤس : عبد الحميد الديب ـ اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي ـ شاعر الأطلال ناجي ـ شاعر الجندول علي محمود طه ـ شاعر النيل والنخيل : صالح جودت ـ رحلتي مع القلم ـ عندما يحب الشعراء ـ شعراء الحب ـ شاعر الروابي الخضر : أحمد خميس ـ شاعر الهمسات أحمد عبد المجيد ـ لكل عاشق حكاية.

قام بجميع وتحقيق ودراسة :

ـ ديوان شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (المجلس الأعلى للثقافة) ـ القاهرة ٢٠٠٠ .

ـ ديوان شاعر الجندول ، على محمود طه (هيئة قصور الثقافة) ـ القاهرة ٢٠١٠ .

– ديوان شاعر الثورة والحب والحرية ، أبو القاسم الشابي – دار الكتاب العربي (دمشق ، القاهرة) ٢٠١١.

ـ ديوان شاعر الكرنك ، أحمد فتحي (منشورات مكتبة جزيرة الورد) ـ القاهرة ٢٠١٢ .

– ديوان شاعر الحب والحرية: صالح جودت (مكتبة جزيرة الورد – القاهرة – ٢٠١٢).

الفهرس